کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی
مؤسسهٔ ۱۳۰۲
ج ۱ و ۲
اسم کتاب المرأة العربية في جاهليتها وصدر
مؤلف عبدالله عفيفي
موضوع تالیف
۱۱/۳۵۵
شمارهٔ دفتر ۳۹۹۶ و ۳۹۹۳

کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی
مؤسسهٔ ۱۳۰۲
۱۱/۳۵۵
شمارهٔ دفتر ۳۹۹۶ و ۳۹۹۳

اسم کتاب المرأة العربية في جاهليتها و اسلامها ج ۱ و ۲

مؤلف عبد الله عفيفي

موضوع تالیف

۷
۳۸۵

كتابخانه مجلس شورای ملی
۱۳۳۲

المرأة العربية

في جاهليتها وأسلامها

« ألفه »

عبد الله عفيفي

المدرس بالمدرسة الثانوية السلطانية

الجزء الأول

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

الطبعة الاولى

سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١ م

طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر

أصحابها

عيسى البابي الحلبي وشركاه

تقديم الكتاب

إلى حضرة صاحبة العظمة السلطانة نازلي

مولاتي

زادك الله جلالاً وأفضالاً تلك صفحة من الحياة الخالدة ذهبت المرأة الغربية بوحي أبيها ونهج سُنتها فتجلت على الدهر نوراً راقعاً وجمالاً وضاحاً

تلك هي المرأة التي أحرزت عن غيوث الأرض وليوث الحمى وتكشفت عن حُر الخصال وغُر الخلال وتعالت عن مزاري الوهن ونوازع الفتن وضربت الحجة البالغة على أن المرأة إذا اعتزمت لا تقصر عن مدى الرجل في مضاء الرأي وذكاء القلب وسناء العمل وابتناء العظائم

ذلك يا ذات العظمة حديث الكمال المطلق والخبر الصريح أنشره بين يدي عصرك الأغر وأرفعه إلى سدتك الزهراء في وقت بدأت المرأة المصرية تكسر أغلال الرق وتخلع أسمال الخمول وتنزع أشراك العوائق وتجاذب الرجال حبال الآمال ولها من نفسك الزكية ورُوحك العلية وحي وإلهام وقدوة وإمام

فإليك يا ربيبة المجد الكريم وسرية البيت العظيم أستشرف بذلك الكتاب الذي أتوجه باسمك وأجعله بشرف النسبة إليك ولي الفخر الأتم أن ينال شرف المثول وفضل القبول

أجمل الله رعايتك وأتم نعمته عليك وأقر بالفاروق عينيك وأمد لي في ظل صاحب مصر أيد الله دولته وأعلى كلمته وأعز بسعبه رعيته آمين

عبدك الخاضع
عبد الله عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّهُمَّ باسمك نَعتزِم وبِرُكْنِك نَعْتصِم وبِحَوْلك
نَستدفع الوَهَن ونَسْتعدِي على الزمن سبحانك لا نحصي
ثناءً عليك ، لك الحمد في الأُولى والآخرة ، انك أنت
مُلْهِمُ القول ووَلِيُّ التوفيق

مقدمة

في سبيل المرأة

— ١ —

ماضينا وحاضرنا

نحن ننزِع الى الكمال لأن لنا فيه نسباً عريقا ، وطريقاً عميقا[1] اذا انثنى عِطف[2] الزمان ، فنحن مطلَع فجره ، ومبعَث فخره أوالتبست عُقَد العظائم ، فنحن حُماة ثِرْعتها[3] ، وكُماة حَوْمتها[4] بنا استحصفت مِرَّةُ المجد[5] واستشرفت ذروته[6] . ولنا عُقد لواؤه ، وتأثّل بناؤه[7] فاذا ابتغينا الحياة سنيّةً ، وابتعَثْنا الأمل جَنِيًّا ، فلسنا بُغاة نَصَفَة[8] ، ولا عُفاة معدِلَة[9] ، وانما هو ميراث سُلِبناه في غَفْوة الليل[10] ، وغَلَس الظلام[11] ، فنحن ننزِع عنه شَرَك العوائق ، ونرد دونه كيد الخطوب

---

١ طريق عميق بعيد المدى ٢ عطف الرجل جانبه وثنى عطفه أعرض أو اختال
٣ الشرعة السبيل ٤ الكمي البطل المدجج بالسلاح وحومة القتال أشد مواطنه
٥ استحصف اشتد والمرة القوة ٦ استشرف رفع رأسه وبصره وذروة الشيء أعلاه
٧ تأثل البناء تأصل ٨ النصفة الانصاف ٩ العفاة — جمع عاف — طلاب المعروف والمعدلة العدل ١٠ الغفوة النومة الخفيفة ١١ الغلس ظلام آخر الليل

تلك صفحة من صفحات تاريخنا الذي نعتزّ به ، ونطرب له ، ونستنشي الرجاء منه[1] ، ولعلها أحفل الصفحات بالعِظات ، وأجمعها للعظائم ، وآهَلُها بنُبل الخُلُق ، وسناء الحياة

تلك هي حياة المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ، حياةُ العظمة الوادعة الرائعة ، والنفس الأبية النقية

تلك هى المرأة التي يحدّث عنها المؤرخ المُنقِّر[2] الانجليزي العظيم (كلاي Clay) — مما استَشَفّه من أطلال بابل — أنها كانت منذ أربعة وأربعين قرنا تجاذب الرجل سياسة الأمة ، وولاية الأمر ، وجِدَّ العمل ، وشئُون الحياة

تلك هى المرأة التي وثب بها الإسلام ووثبت به ، وكان أثرها في تكوين رجاله ، وتصريف حوادثه ، أشبهَ ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفياض في زَهْر الرياض .

يريد نساؤنا أن ينهضْنَ ، فهن يبتغين الوسائل ويَتَلَمَّسْنَ الخطى . وما لهن لا ينهضن ؟ ومنذا يذودهن عما شرع الله لهن ؟ وهل هن إلا منابت حُماتِنا ، وأُساةُ جراحنا ، وبُناةُ دولتنا ، ومَنار دعوتنا ، ومَثار قوتنا ؟ وهل نحن وإيّاهن الا كجناحي النَّسر الصاعد اذا هيض أحدهما خُفِض الآخر فيصبح لا يجد في الارض مَقعَدا ولا في السماء مَصعَدا ؟

لينهض النساء ما شئن أن ينهضن ، ففي نهوضهن نهوضنا ، وبلوغ غايتنا ، ولكن ليحذر الآخذون بيدها والداعون الى نهوضها التواء القصد ، والتباس[3]

---

١ استنشى الريح شمه ٢ المنقر الباحث المنقب ٣ التبس الطريق اختلط بعضه ببعض

الطريق فينالها الزلل وتَلِجَ بها العثرات حتى يقول قوم لقد كان ما كانت فيه خيراً وأبقى

ألا وان من التِواء القصد، وضلال الطريق، أن نَدَع نساءنا يتخذن من المرأة الأوربية مثالاً يحتذينه، ويُمْعِنَّ في التشبّه به

نحن قوم تحتكم بنا أمزجتنا، وأسلوب حياتنا، وجِوَاء بلادنا[1]، وتكوين طبائعنا، ونُظُم شرائعنا، فمن الظلم أن نقول لنسائنا خُضْن ثَبَجَ البحر[2] واقتحمن شِعَاف الجبل[3] وكُنَّ نساء أوربيات تَرَيْن مايرين، وتَدَعْن مايدعن. ذلك تكليف لا قدرة عليه ولا خير فيه

نعوذ بالله أن ننكر على المرأة الأوربية وفر فضلها، وسماحة عقلها، فذلك ما لا نجد السبيل الى جحده والانكار له. ولكننا ننكر عليها أعراضاً قد لا تبتئس بها[4]، ولا يأبه لها مَن حَوْلَها[5]، على أنها مما يحز المفاصل، ويستثير الغوائل[6] وهى اذا نقلت الينا كانت أشد وأفتك. ونخشى اذا حملنا نساءنا على الأسوة بنسائهم أن تكون تلك الأعراض هى الأولى والآخرة[7]

لا أَكْذِبُ المرأة الأوربية فليست بالمثل الأعلى للمرأة العظيمة. فان قيل هى كاتبة حاسبة، وصانعة بارعة، قلنا لم تزد ان دَعَمت حياة المادة وزادتها نوطا جديدا[8] ولو كان لها أثر نافذ في الحياة لنُسِخت عبادة القوة[9]، ودال سلطان الأَثَرَة

---

١ الجواء جمع جو ٢ ثبج البحر وسطه ٣ الشعاف جمع شعفة وشعفة الجبل رأسه
٤ ابتأس بالشيء كرهه ٥ أبه بالامر أو للامر فطن له ٦ الغوائل جمع غائلة الدواهى
٧ وسنبسط للقراء بيان ذلك وتعليله في الجزء الرابع من كتابنا ان شاء الله
٨ النوط الحمل فوق الحملين ٩ نسخت محيت

ولأبصرت القوم يبادرون الى عون الضعيف، وغوث اللهيف، ولما استمعت أنّةَ المظلوم تكاد تتفطر لها السموات وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هَدّا

أجِلْ بصرك بين أعطاف هذا العالم وأطرافه ثم انظر هل ترى الا رجلاً مَغْشِيًّا بالغِلّ أو مَخْنِيًّا على الضغينة؟ وهل تجد الا امرأة مَطْوِيّةً على كبد حَرَّى أو مهجة حَسْرَى؟ وهل تبصر الا واتراً وموتورا[1]، وقاهراً ومقهورا؟ وهل تُحِسُّ بين الألفاء والقُرَناء باخاء صاف، ووُدّ غير مدخول؟ وهل تعلم في القوم الا الخُلُق المضطرب، والخَلة المُمَوَّهة، ويداً تمسح شعَث الكاب[2]، وتدمي قلوب الشعوب، وفما يَنْهَل من الدم ويشكو الاوام[3]؟ فأين يد المرأة وأين أثرها؟ وهل لشيء غير تهذيب النفوس وتطهير القلوب خُلقت المرأة؟

لكل ذلك أناشد نساءنا أن يَسْدِلن الحُجُب بينهن وبين نساء أوربا ففي أُمَّهاتنا الأوليات فضل وغَناء. أولئك اللواتي نَسْتَنُّ عن طيب أعراقهن وكرم أخلاقهن، وتلك دماؤهن تترقرق بين جوانحنا وأعطاف قلوبنا. فأما ما نحن فيه من مظاهر النَّوْء بالواجب[4] والنُّكول عن الجِدّ[5] فانما هو صدأ عارض وغِشَاء مستحدث ألقاه علينا تطاول الزمن وتتابع الحادثات وما أصابنا في سبيل ذلك من فَدَاحة الظلم وذل الإسار

ففي سبيل الكمال المُطْلَق، والحياة الخالدة، أسوق حديث المرأة العربية لا الى النساء فحسب، بل اليهن والى الرجال معهن فان صلاح كل من الفريقين لا يقوم الا على صلاح صاحبه، والتجاوز له عن حقه الذي شُرِع له، وسيعلم

---

١ الموتور من قتل له قتيل ولم يؤخذ بدمه والقاتل هو الواتر ٢ الشعث غبرة الرأس
٣ الاوام الظمأ ٤ ناء بالحمل نهض مثقلا ٥ النكول — مصدر نكل — التكوص والجبن

الناس مبلغ تلك المرأة في عهد جاهليتها من قوة النفس ، وحُرْمة الرأي ، وعزة الجانب ، ونُبْل الخَلِيقة ، وكيف انتهى بها الاسلام الى أبعد مدى من الحياة ونَهَج لها أوضح سُنَّة من الفضائل وألبسها أحسن لَبُوس من جلال الكمال وجمال الخلال

لذلك أنشأت كتابي مستعيناً بعناية الله ، مستهدياً بهداه ، فهو وحده وليّ النُّجْح ، وهادي السبيل

وقد فصلته على أربعة أجزاء :—

الجزء الأول	المرأة العربية في عهد جاهليتها
الجزء الثاني	المرأة العربية المسلمة في عصورها الزاهية
الجزء الثالث	الدور الثاني من أدوار المرأة العربية المسلمة عصر الهبوط
الجزء الرابع	المرأة العربية الحديثة ، وفيه وصف المرأة في أرجاء جزيرة العرب مما قاله أهلها وما كتبه المستشرقون الذين نزلوا بها ، ووصفها في كل قطر من الاقطار المتعربة

٢

المرأة في الحياة

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

ما كان الله لِيَدَع الرجل تحت أوقار الدهر[١] ، وأثقال الحياة ، حتى يخْلُق له من نظام نفسه ، من يذود عنه هموم نفسه ، ويحتمل دونه الكثير من شؤونه ، ويضيء له ما بين يديه من شعاب العيش[٢] ، وظُلَم الخطوب

تلك هي المرأة قَسِيمة حياته[٣] ، ومَبَاءة شَكَاته[٤] ، وعِماد أمره ، وعَتَاد بيته[٥] ، ومهبط نجواه ، وتلك هي آية الله ومِنَّته ورحمته لقوم يتفكرون .

ينهض الرجل الى الحياة بعزم وقوة يستمِدّان عقله ورأيه ، وتستقبل المرأةُ الوجودَ بعواطفَ فيّاضةٍ يتجلى بها قلبها الخفاق فتأسو بها ما جرحته القوة من قلب الفضيلة

فان ظهر الرجل بمضائه وذكائه فانّ للمرأة غايَتَها من صفاء القلب ، ونَقَاء السريرة ، وما ينبعث عنهما من وفاء ووَلاء ، وحَنان واحسان ، وتسلية وتأسية ، وغِيَاث مكروب ، ونجدة منكوب ، وما الى ذلك مما يُقيم مائل الأرض ، ويَلُمّ صَدَعات الحوادث

---

١ أوقار — جمع وقر — الاحمال الثقال ٢ الشعاب الطرق بين الجبال
٣ القسيم المقاسم ٤ موطن شكواه ٥ العتاد العدة

من أجل ذلك كان قول المرأة أنفذَ في قلب الرجل وأملك لنفسه من كل قول سواه . ولقد رِيع النبي صلى الله عليه وسلم لرؤية الروح الأمين أولَ عهده به ومَلَكه الفزع منه فلم يَجِد — وهو صفيُّ الله وصفوته من خلقه — من يُسَرِّي رَوْعه ويَشُدُّ قلبه الا زوجَه خديجةَ اذ تقول له : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً انك تحمل الكَلَّ[1]، وتَكْسِب المعدوم ، وتُعين على نوائب الدهر »

ذلك قول المرأة التى آزرت نبيّ الله ، وواسته بمالها وقلبها ، وفَرَّجَت عنه مواطن محدقةً مُطْبِقَة[2]، واحتملت دونه خطوباً جَمَّة فوادح ، وكان قولُها أنفذ في نشر دين الله من ألف سيف تُنْتَضَى في سبيل الله[3]

ذلك وحي الله والهامه أجراه على لسان المرأة فنزل برداً وسلاماً على قلب الرجل

أفبعد هذا القول من ذلك القلب غاية لمستمع أو سبيل لمستزيد ؟

ألا ان خشية الله ودينه وهما سبيل الكمال لا يَجِدَان مجالاً أهدى ، ولا موطناً أخصب من قلب المرأة ، لأن حاجة الدين الى قلب صافٍ ، وعواطف غالبة ، أشدُّ من حاجته الى قلب ذكيّ ، ورأي ألمَعِيّ

الى كل ذلك تنتقل المرأة الى طور آخر تبلغه ، فتبلغ به غاية ما أُعِدَّت له من كمال النفس ، وشرف العاطفة . ذلك طور الأمومة . فهنالك تنزل المرأة عن حقها من الوجود لمن فُصِل عن لحمها ودمها تسهر لينام ، وتظمأ ليروَى ، وتحتمل الألم المُمِضّ[4] — راضية مغتبطة — لتذيقه طعم الدعة ، وتُنْشِيَهُ نسيم النعيم

١ الكل العيال أو الثقل ٢ مطبقة شديدة مرهقة ٣ انتضى السيف سله
٤ الممض الشديد الألم

تلك هى التضحية بالنفس بلغت بها الأمومة غايتها

* والجود بالنفس أقصى غاية الجود *

ان من آيات التضحية في المرأة ما يقف دونه الرجل عانِيَ الوجه نادِيَ الجبين ومن أمثال ذلك ما أنا سائقهُ اليك ، وقاصُّهُ عليك :—

في صيف سنة ١٣٢٩ هـ كانت احدى بواخر النيل تحمل العابرين غادية رائحة بين كفر الزيات ودسوق . ففى ذات مرة أحرج الرُّبان صدرها بمن احتملهم من قُصَّاد المولد الدسوقي ، فقذفها بضعفى ما تحتمل

سارت الباخرة متعثرة مترنحة تتحامل على نفسها وتضطرب في خطاها فما كادت تنكشف الى عُرض النيل قليلاً حتى آدها حِمْلها[1]، فانبتَّ عِقدها[2]، وانحلت عُقْدتها ، ومالت على نفسها ، وتدفَّق الماء من منافذها . هنالك خرج الناس عن عقولهم ، وتملكهم الفزع الأكبر ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، فأخذوا يتدافعون على صدر النيل علَّهم يلقون يداً تدفعهم أو ترفعهم

بين هذا الحفل المتماوج المُتدافع المُتواقع تقطعت الأنساب ، فلا أب ولا أم ولا زوج ولا ولد . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وفي ذلك المَوطن الذي دارت عليه كؤوس الموت مُترَعة ظهرت امرأة لا تتلمس الشاطئ كما يتلمسون ، ولا تُلَوِّح بيدها كما يلوِّحون بل كان شُغْلُها والموج يرفعها ويخفضها ، والموت يقبضها ويبسطها ؛ أن نزعت خِمارها ، وأدرجت فيه ولدها ،

١ آدها أثقلها ٢ انبت انقطع

ثم لوّحت به الى زوجها ، وقذفته على صفحة الماء مترفقة اليه وصاحت به متهدجة قائلة :— خذ يا فلان فذلك وصيتى اليك .....

قالت ذلك ثم غاصت بين طيات الماء بعد أن أسلمت وديعتها وأبرأت الى الله نفسها[1] ...

الى تلك المنزلة السامية رفع الله المرأة ليكل اليها أشرف منازل الحياة ؛ منزلة التربية والتعليم ، منزلة الأستاذ الذي لايمحو عامَه ، ولا ينسخ آيتهُ أستاذ سواه بل كل سائرٍ على سُنَّته ، ومستتبع طريقَه

لقد كان من سنن اليونان أيام سقراط وأفلاطون ومن لفَّ لفهما أن يقف الرجل خاشعاً حاسر الرأس اذا مرت به حامل وما كان ذلك لمظهر جُمانى فليس في ذلك مايدعو الى الهيبة والخشوع بل كل ذلك لما مهد الله لها من عمل روحي ملكيٍّ مقدس .

« فيأيتها الأم الرؤوم[2] : ليس ذلك الذي بين يديك بالطفل الذي يبقى »
« أمد الحياة طفلاً بل هو سر الوجود يذاع عنك وصفحة الحياة تنشر عن »
« أثرك وهو أدلُّ دليك من أسارير[3] وجهك وبيان لسانك »

---

١ وقعت هذه الفاجعة في منتصف الساعة الاولى من ١١ شعبان سنة ١٣٢٩ (٦ اغسطس سنة ١٩١١) ومن آلم ما حدث بها أن أخرجت من بين الغرق امرأة حانية صدرها على رضيعها ويداها حافتان به . وكان جهد ما تحتمل الباخرة مائة وعشرين فأرهقها الربان بمائتين وعشرين ٢ الرؤوم العطوف ٣ الأسارير — واحدها أسرار والأسرار واحدها سرر كعنب — خطوط الجبهة أو الكف

« ليست هذه البَضْعة[1] المتحركة باللُعبة المُلْهِيَة بل هى العالَم الأكبر »
« يضطرب كاضطرابه ، ويتخايل في مخايله فانظري على أي حالة تريدين أن »
« يكون الكون »

« ليس ذلك الدارج بين عينيك بالصبي الخَلِيّ بل هو خبيئة الدهر وعُدَّتُه »
« وربما ضم معاطف ثوبه على رجل الدنيا وواحدها وما ينبئك لعل هناك مُلْكا »
« يترقب سيفه ، أو عرشاً يطمئن لقدميه ، أو أمة متعثرة تنتظر النَّصَفة من »
« وَضَح رأيه ، وفيْض بيانه »

« ان تلك المنزلة التى أعدك الله لها هى تلك التى وصفها بحقٍّ بطلُ التاريخ »
« الحديث «بونابرت» فقال : ان المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسراها »
« ولقد سئل ذات مرة : أي حصون فرنسا أمنع . فقال : المرأة الصالحة . . . »

ليست المرأة بالخَلْق الضعيف فان من احتمل ما احتملته في ظلمات التاريخ من عَنَت الدهر ، وعسف الأب ، وصَلَف الزوج ، الى وَقْر الحَمل ، وألم المخاض وسُهد الأمومة — راضياً مطمئناً — لا يكون ضعيفاً

وليست بالخَلْق الحقير فان من وكَّله الله بابتناء الكون وانشاء الأمم لا يكون حقيراً

ألا انما المرأة دِعامة الكون لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به . فان هى

---

١ البضعة القطعة من اللحم

وهنت دونه ، وتخاذلت عنه ، تهاوت عَمَده ، وتصدعت جوانبه

ولقد فتح المعز لدين الله ما يلي افريقية حتى البحر المحيط ، ثم أخذ يرنو الى مصر واجماً متهيباً ، فلم يزل ذلك أمره حتى قال قائل ان نساء قصر الاخشيد أغرقن في الترف واستهنَّ بالفضيلة ... فما لبث أن قال : اليوم فتحت مصر ...

وكذلك وهنت نفس المرأة وهي مصدر قوتها وسبيل عملها فانبتَّ نظام الملك وانفصمت عروة الأمة وكان حقًّا على الله أن يبدلها ويُديل منها وما ربك بظلام للعبيد ؟

عبدالله عفيفي





المرأة العربية
في عهد جاهليتها

- ١ -
نصيبها من الوجود

لم تُطْوَ صفحة التاريخ على امرأة بلغ من الضَّنِّ بها ، والإيثار لها ، وبذل المهج رِخَاصاً في سبيلها ، ما بلغ بالمرأة العربية في تلك الحِقَب[1] المتطاولة المترامية

نشأت المرأة العربية في قوم غَلَبت عليهم دِقَّةُ الحِسِّ ، وسَوْرة النفس[2] ، وخوضُ مناهل الدم خوفَ انثلام الشرف ، واستباحة الحيّ ، فكانت هي أدقَّ أوتار الحس من قلوبهم ، وأوضحَ مواطن الشرف في نفوسهم . ولولا المرأة ما كان بالرجل نزوع الى حِمًى ، ولا رَعْيٌ على وطن

لقد كان العرب رُوَّاد غارات ، وطُلَّاب ثارات . وكان الرجل منهم يغتمر[3] الموقعة لا يدري أَوَقَعَ على الموت أم وقع الموت عليه . غير أن خيال ابنته وما عسى أن يصيبها بعده من حاجة وهَوَان كان يتغلغل في نفسه فيهيج بها حبّ

---

١ جمع حقبة وهو من الدهر مدة لا وقت لها ٢ سورة النفس حدتها ٣ يغشى

الحياة فمَثَلُهُ في ذلك مَثَلُ اسحاقَ بن خَلَف حيث يقول :—

لولا أُمَيمة لم أجزع من العدم ... ولم أَجُب في الليالي حِنْدِس الظُّلَم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرَّحِم
تهوى بقائي وأهوى موتها شَفَقًا ... والموت أكرم نَزَّال على الحُرَم
أُحاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها ... فيكشفَ السِّتْرَ عن لحم على وَضَم[1]
اذا تذكرت بنتي حين تَندبني ... فاضت لرحمة بنتي عَبرتي بدم

وفي سبيل ذلك يقول حِطَّانُ بن المُعلَّى :

لولا بُنَيَّات كزُغْب[2] القطا ... رُدِدْنَ من بعض الى بعض
لكان لي مُضْطَرَب واسع ... في الارض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرض
لو هبّت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغُمض

كذلك كانت المرأة تهتف بالرجل أو تلمُّ به تحت ظلال السيوف ، وقد مَلَكَ الروعُ القلوبَ ، وعقد الهول الألسنة ، وانثغرت الأفواه ، وحارت النواظر في المحاجر ؛ فيستمد عزمًا نبا ، ويسترد قوة عَزَبت . ومَثَلُ ذلك ما فعل ابنتا الفِنْد الزِّمَّاني يوم « تَحْلاَق اللمم » وهو يوم انتصاف بكر من تَغْلِب[3] .

١ الوضم الخوان يوضع عليه اللحم ليشوى و « لحم على وضم » مثل يضرب لكل ذليل لا يعتصم من مكروه ٢ زغب جمع زغباء — ما لم يستتم ريشه من الطير
٣ بكر وتغلب — ابنا وائل بن قاسط — أخوان انكشف كل منهما عن شعب عظيم من العرب . وبرغم ما بين الشعبين من صلة النسب وقرب الجوار دفعا الى النضال مجاذبة للسيادة وتدافعا في سبيل الحمية جمية الجاهلية فعانوا في سبيل ذلك حروبا وأهوالا ثقالا . وأهول ما جد

فقد اشتجرت الأسنة ، واعتنقت الأبطال ، ونفذت السيوف الى أعماق القلوب وظهرت تَغْلِبُ كالجذوة المضطرمة ، وبدأت بَكْرٌ تنكشف وترتد وهنالك حسر الفتاتان البكريتان خِمَاريهما ونفذتا بين صفوف قومهما وأخذتا تثيران بما تُنْشِدان نفوسهم ، وتُذْكيان نار الحفيظة فيهم وكان مطلع قولهما :

وغى وغى وغى وغى ... حَرَّ الحَرار والتَظَى[1]

من حروبهم حرب البسوس وكانت بكر هي البادئة بالعدوان فيها — وسيمر بك حديثها — لذلك اعتزل الحرب نفر من سادات بكر حتى لا يعينوا ظالما على مظلوم وانحازت اليهم عشائرهم ومن هامات أولئك الفند الزماني وكان — كما يقول ابن اسحاق — سيد بكر وفارسها وشاعرها . والحارث بن عباد فارس النعامة — وكان فارس ربيعة وشاعرها — وما زال أولئك على اعتزالهم حتى عرض مهلهل بن ربيعة — سيد تغلب وقائدها — لبجير بن الحارث بن عباد — وهو فتى لم يخط الى العشرين — فقتله ولم يعرف له حرمته وهو ابن اخته ولا عرف لأبيه سابقته وقد كف عن حربه لانه مظلوم . هنالك غضب الحارث غضبته الرائعة وصاح في قومه فلبته يشكر ومجل وبنو حنيفة وبنو قيس بن ثعلبة وساداتهم وفي القوم الفند الزماني — وكان يقوم بألف رجل — فانحازوا جميعا الى الحارث بن همام البكري ولما تراءى الجيشان قال الحارث بن عباد للحارث بن همام هل أنت مطيعي فيما آمرك به ؟ قال ماأنا بتارك رأيك الى ما هو شر منه قال اعلم ان القوم مستقلون لقومك في السلم فزادهم جرأة في الحرب فقاتلوهم بالنساء فضلا عن الرجال قال وكيف قتال النساء ؟ قال تعمدون الى كل امرأة لها جلد ونفس فتعطى كل واحدة منهن أداوة وهراوة فاذا صففت أصحابك فصففن خلفهم فان ذلك مما يزيد الرجال جلدا وشدة ونشاطا ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم فاذا جرح منكم انسان في القتال أمرن بسقيه واذا مررن من عدوكم بانسان ضربنه بالخشب فقتلنه ففعل ذلك الحارث بن همام ما أمر به الحارث بن عباد — وهو أول من أشار بحشد النساء مع الرجال — فتحاشدوا لذلك وحلقوا رؤوسهم علامة بينهم وبين نسائهم — ومن أجل ذلك سمي ذلك اليوم بيوم تحلاق اللمم

وكان من أمر الموقعة ما أجملناه في أصل الكتاب

١ حر حرار الشيء اشتد حره والنظى التهب تقولان دونكم الحرب فقد اشتد حرها والتهبت نارها

ومُلِّئت منه الرُّبَى ياحَبَّذَا المُحلّقون بالضحى

وأقبلت من ورائهما كَرْمة بنت ضِلَع ، أمُّ مالك بن زيد ، فارسِ بكر وواحدِها فتغنت بما يُحيل الجبان المستطار شهابا ثاقبا ، وسعيراً مستطيرا وكان مما تغنت به قولها :

نحن بنات طارق[1] نمشي على النمارق[2]
مَشْيَ القُطَيِّ البارق[3] المسكُ في المَفارق[4]
والدُّر في المخانق[5] ان تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق فِرَاقَ غير وامِق[6]
عِرْسُ المُوَلِّي طالق[7] والعار منه لاحق

فلم يلبث القوم أن تدافعوا وراءهن على أعدائهم ، واقتحموا صفوفهم ، واستباحوا معاقلهم ، وأعملوا السيوف في رؤوسهم ، وأنهلوا الأسنة من صدورهم فلم ينكشف الهول حتى كانت تغلب بين قتيل وأسير وشريد . وفي مثل هذا الموقف يقول عمرو بن كُلثوم :

على آثارنا بِيضٌ حِسَانٌ نُحاذر أن تُقَسَّم أو تهونا

---

١ طارق كوكب من كواكب السحر ويسمى كوكب الصباح — وهو المعنيّ بقوله جلت آياته "والسماء والطارق" — تريد نحن بنات المجد والسمو ٢ النمارق "جمع نمرق ونمرقة" الوسائد — تريد انهن يطأن باقدامهن مواطن الوجوه من الناس

٣ القطي صغار القطا ومن دأب القطا اذا مشى تثاقل وتباطأ حتى ضربوا به المثل فقالوا "أدل من قطاة" والبارق الحائر أو الفزع ٤ المفارق — جمع مفرق — وسط الرأس وهو الذي يفرق فيه الشعر ٥ المخانق — جمع مخنقة — القلائد ٦ الوامق المحب ٧ العرس الزوجة والمولي المدبر الفار

أخَذْن على بعولتهن عهداً اذا لاقَوْا كتائب مُعلمينا[1]
ليَسْتَلِبُنَّ أفراساً وبِيضا وأسرى في الحديد مُقَرَّنينا
اذا ما رُحْن يمشين الهُوَينى كما اهتَزَّت متون الشاربينا
يَقُلْنَ جيادنا ويقلن لستم بُعُولَتَنا اذا لم تمنعونا
اذا لم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيينا

كل ذلك ينبئك أن المرأة العربية مَثَار عاطفة الرجل ، ومَدَار وِجدانه هي سر حياته وموته هي مَهَاج غضبه ، ومَعقِد أُلفته هي مُجْتَلَى قريحته ، ومطلع قصيدته هي موطن غنَائه[2] ، ومذهب غِنائه هي مصدر إلهامه ، ومشرِق وحيه هي نور الوجود في ناظريه هي كل شيء بين يديه .

لقد بلغ خيال العربي من السموّ بالمرأة أن جعل الملائكة أشباها لها ونظائر فقال : هُم بنات الله وصَفِيَّاته . . . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا .

واذا علمت أن العرب اتخذوا الملائكة آلهةً من دون الله فما ظنك بأشباههم يومئذ ؟

بل ما ظنك بامرأة ملكت على الرجل قلبه ورأيه فلا يكاد يصيب معنى ، أو يطيف بموضوع ، حتى يُلِمَّ بذكرها ، ويتغنى بمحاسنها ، ويتمدح بشمائلها ، ويتأثر بأطلالها ومَعالمها[3] .

كذلك كان يفعل شعراء العرب وهم أَلْسِنةُ القوم ، وحَفَظَةُ آدابهم وهُداة مذاهبهم ، ونجوى سرائرهم . حتى لقد بكى مُهَلْهِلُ بن ربيعة كُلَيبا أخاه

---

١ البعولة — جمع بعل — الأزواج . والكتائب — جمع كتيبة — الجيوش . والمعلمون من أعلم الفارس اذا جعل لنفسه علامة الشجعان ٢ الغناء — بفتح الغين — الكفاية — وبكسرها توقيع الصوت ٣ الطلل ماشخص من آثار الديار . والمعالم — جمع معلم — ما يستدل به على الشيء

وهو مُحْرَق الكبِد ، موصول الكمَد ، فبدأ بالمرأة يذكُرها ويصف دارها قبل أن يذكُر أخاه وذلك حيث يقول[1] :

الدار قَفْرٌ عفاها بعد ساكنها ... بالريح بعد ارتحال الحيّ عافيها[2]
وغالها الدهر ان الدهر ذو غِيَلٌ ... فأصبحت بَلْقَعاً قَفْرًا مغانيها[3]
إلا رواكدَ سُفْعاً بين مُلتَبِد ... مثل الحمامة منتوف خوافيها[4]
دار لمهضومة الكَشْحَين خَرْعَبةٌ ... كالشمس حين بدا في الضَّوْء باديها[5]

فما زال يستتبع قوله في وصف صاحبة الدار حتى قال :

كليبُ لا خير في الدنيا ومن فيها ... اذ أنت خلّيتها فيمن يُخَلّيها

كذلك فعل الحارث بن عُبَاد بعد أن قتل مهلهِلٌ ابنَهُ بجيراً واستعَرَت جمرة الحفيظة[6] والثأر في صدره حتى صبها على آل مهلهل جحيما وحميما . فقال يصف فتكته ، ويذكُر ولده في قصيدة ضافية ألَمَّ في أولها بالمرأة فقال[7] :

بانت سعاد وما وفّتك ما تعد ... فأنت في إثرِها حرّانُ مُعتَمِدُ[8]

وما زال يمعن في وصف سعاد حتى استكمل فيها عشرة أبيات كاملة ، ثم عطف على موضوعه فقال :

١ بكر وتغلب ص ٤٤ ٢ عفت الريح الديار محتها ٣ غالها أخذها من حيث لاتدرى والاسم الغيلة وجمعها غيل والبلقع الارض التى لانبت فيها ولا شيء بها ومثلها القفر والمغانى جمع مغنى وهو المنزل الذى غنى به أهله ٤ الرواكد الثابتة . والسفع — جمع سفعاء — الاثافي وهى الحجارة توضع عليها القدر والخوافي من الطائر ريشات اذا ضم جناحيه خفيت يقول ان الدهر لم يبق من تلك الدار الا الأثافي الراكدة بين الدمن المتلبدة فمثلها في خفائها مثل خوافي الحمامة المنتوفة أو كأن الدمن المتلبدة وما خفي من بينها من الاثافي حمامة منتوفة الخوافي ٥ الخرعبة الشابة الحسنة الخلق الجسيمة اللينة الرقيقة والكشح ما بين الخاصرة الى الضلع ومهضومة الكشحين نحيلة الخصر ٦ الحفيظة الحمية والغضب ٧ بكر وتغلب ص ٧٦ ٨ بانت فارقت والمعتمد من اعتمد ليلته اذا قطعها سايرا

بل حى تغلبَ عن بكر ووقعتهم ... بالحِنو اذ خَسِروا جهداً وما رَشَدوا[1]

لعمرك ما ترك الحزن لمهلهل ما يشغله عنه ، وما أبقى الزمن للحارث ما يقوى على اللهو به . فمالهما يفعلان ذلك ؟ أمَا انهما لم يفعلا ما فعلا الا ليتألفا المعانى النافرة ، ويستقيدا الألفاظ الشاردة . ولولا ذلك ما جاء قولهما كما جاء عذبا فراتا ذلك طبع العرب . وتلك سُنّتهم .

ولقد كان الرجل منهم وما كاد يبتدر صالحة ، أو يسبق الى مَكْرُمة ، حتى يسبق الى المرأة ، فيسوق اليها الشعر فياضا بمأثرته ، حفيلاً بمفخرته ، وأكبر أمله أن تذكره بكلمة طيبة بين نظرائه ، فيروحَ عنها بفخر لا ينفَد ، ومجد لا يبيد . وفى مثل ذلك يقول شاعر قيس[2] :

إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلمى فَحَيِّينا ... وان سَقَيْتِ كرام الناس فاسقينا
وان دعوت الى جُلّى ومكْرُمة ... يوماً سَرَاة كرام الناس فادعينا[3]

ويقول شاعر ذُهل يوم ذى قار[4] :

ان كنت ساقية يوماً ذوى كرم ... فاسقى فوارس من ذهلِ بن شيبانا
واسقى فوارس حاموا عن ذمارهم ... واعلى مفارقهم مسكاً وريحانا

بل لقد كان الرجل يأتى الأمر تسوّغه نفسه ، ويحمله عليه موقفه ، وربما كان الخير كله فيه ، فلا تهدأ نفسه ، ولا تطمئن سريرته ، حتى يُفضِيَ اليها بعذره ، ويكشف عن مكنون أمره . وفى مثل ذلك مايقول أزهرُ بن هِلَال التميمى يعتذر عن فراره :

١ الحنو موطن من مواطن العراق بذى قار نشبت فيه موقعة بين بكر وتغلب فعقد النصر بلواء بكر ٢ هو بشامة بن حزن النهشلى ٣ الجلى الامر العظيم ٤ هو الدهان بن جندل

أعاتِكَ ما وليتُ حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدَّما
وحتى رأيت الوَرد يَدْمَى لَبَانُهُ وقد هزه الأبطال وانتَعَلَ الدِّما[1]
أعاتك انى لم أَلَم فى قتالهم وقد عَضَّ سيفى كبشَهم ثم صمَّما[2]
أعاتك أفنانى السلاح ومن يُطِلْ مقارعة الأبطال يرجعْ مُكَلَّما[3]

وشبيه بذلك قول من يقول :

قالت سَلَامةُ ما أرى لك عادةً أن تترك الأعداء حتى تُعذِرا[4]
لو كان قتل ياسلامَ فراحةٌ ! لكن فررت مخافةً أن أُوسَرا
وسبقت قبل المقرفين فوارساً لبنى فزارة دارِعين وحُسَّرا[5]

ولعل أبلغ من هذين معذرة ، وأقوم سبيلا ، ذلك الذى يعتذر عن قَراره فى داره ، ورضاه باليسير من عيشه ، فيقول :

قالت أما ترحل تبغى الغنى قلت فَمَنْ للطارق المُعتِم
قالت فهل عندك شىء له قلت نعم جُهْدُ الفتى المُعْدِم
فكم وحقّ الله من ليلة قد أُطعِم الضيف ولم أَطعَم
ان الغِنَى بالنفس يا هذه ليس الغِنَى بالمال والدرهم

ومن أمثل ما جاء فى الاعتذار الى المرأة قول عنترة العبسى :

بَكَرَت تخوّفنى الحتوف كأننى أصبحتُ عن غرَض الحتوف بمعزِل
فأجبتها ان المنية منهل لا بدَّ أن أُسقى بكأس المنهل

١ الورد من الخيل ما كان أحمر مائلا الى صفرة حسنة ويدمى يسيل دما والبان الصدر
٢ كبش القوم سيدهم وقائدهم وصمم السيف أصاب المفصل وقطعه ٣ المقارعة المضاربة والمكلم الكثير الجراح ٤ يعذر أى يصيب العذر ٥ المقرفون الذين ينتمون الى العرب بأمهاتهم لا بآبائهم والدارع الذى يتخذ الدرع للحرب وضده الحاسر

أما ضنّ الرجل بها ، وايثاره لها ، وحرصه عليها ، وتفديته اياها بنفسه وما ملكت يمينه ، فقد بلغ من أمره أن كسرى أَبْرَوِيزَ ملكَ الفُرس وسيد ملوك المشرق ، أرسل الى النعمان يبغى مصاهرته — ولو أن ملكا من أقطاب العالم وأبطاله الفاتحين خَطَبَ اليه كسرى ابنته لوثب عن عرشه زهواً واختيالا بتلك النعمة السابغة — على أن النعمان وهو مولاه ، وصنيعته ، والقائم بأمره ، والقارّ لسيفه ، والخاضع لسلطانه ، ردَّ رسوله مُقَنَّعاً باخيبة ضِنًّا ببنات المنذر أن يكُنَّ قعائد بيت أعجمى أيًّا كان مكانه وسلطانه . حتى اذا عاود الرسول مولاه بما لا يرضاه ، اضطرمت في صدره جذوة الغضب ، وثارت بين جنبيه سَوْرَة الملك ، فأرسل يستقدم عاهل العرب !

هنالك أبصر النعمان وميض الموت يلمع من صَوْب المدائن ؛ فأودع ابنته حُرَقة وما يعتزّ به من سيوف ودروع « هانئ بن قَبِيصة الشيباني » وذهب الى حيث طُرح تحت أقدام الفيلة ، فذهبت بلحمه وعظمه ودمه كل مذهب من ثغَرَات الأرض ، وسوّت معالم جسمه بالتراب .

بذلك تقع كسرى غليل غضبه ، وأراد أن يعاود ما بدأ ، فأرسل الى هانئ يقتضيه ابنة النعمان ، فما كان نصيبه منه بأجمل من نصيبه من صاحبه . هاج كسرى هائجُ الحَنَق على هذه الأُمّة التى استأسدت في وجهه ، واحتجزت فتاتها دونه . فأرسل فيالقه يزحَم بعضُها بعضاً ليوقع الخسف بها ، ويَبسُط رِواق الذل ضافيا عليها . وهنالك قام العرب يدفعون عن حوزتهم ، ويذودون عن أعراضهم فالتقوا بجحافل الفرس على بَطْحاء ذى قار ، في موقعة احمرّ لها وجه الأفق ،

وارتفع النَّقْع[1] المُثار ، حتى محَا آية الشمس ، فظهرت الكواكب واضحة عند منتصف النهار[2]. وقام من أبطال العرب من قطع وُضُن النساء[3] حتى لا يجدن سبيلاً الى الفرار اذا جاشت به نفوس ذويهن ؛ فتأججت عند ذلك قلوب القوم ، وأُرهِفَت أنيابُهُم ، واستحالوا الى صواعق ساحقة . ثم انحسر القتال وقد ضربوا أعداءهم ضربة أطارت قلوبهم ، فنكصوا على أعقابهم ، وفَزِعوا الى ديارهم ، وسيوفُ أولئك البواسل ، القلائل ، الأُباةِ الضيم ، الحُماةِ الذِّمار ، تَعمَل في أقفيتهم حتى أرباض المدائن[4]. وفي ذلك يقول العُدَيْل العِجْلي :

ما أَوْقَدَ الناس من نار لمَكْرُمة ... إلا اصطَلَينا وكنا مُوقِدِي النار

وما يَعُدُّون من يوم سمعت به ... للناس أفضَلَ من يوم بذى قار

جئنا بأسلابهم والخيلُ عابسةٌ ... لما استلبنا لكسرى كل أُسوار[5]

ذلك يوم ذى قار. ذلك يوم انتصاف العرب من الفرس ، وتحريرهم من رقهم[6].

ولم تكن المغالاة بالمرأة وقفاً على ذوات الثراء والسناء منهن . فقد كان يُغَالَى بها ، وتُغَالِى بنفسها ، مهما هان أمرها ، أو اتضعت عشيرتها . ومَثَلُ ذلك ما حَدَّث ابن الأثير أن أحد دَهاقين[7] الفرس جَهِدَ أن يتزوَّج امرأة من باهِلَة[8]

---

١ النقع . الغبار ٢ كذا يزعم العرب فيما يحدثون عن هذه الموقعة ٣ الوضن جمع وضين وهو بطان عريض للرحل منسوج من سيور أو شعر أو جلد فاذا قطع بقى الرجل لا يعتمد على شيء فيسقط ٤ أرباض المدينة — جمع ربض — ما حولها ٥ الأسوار — بضم الهمزة وكسرها — قائد الفرس والجيد الرمي بالسهام والثابت على ظهر الفرس وجمعه أساورة وأساور ٦ ابن جرير ج ٢ ص ١٥٠—١٥٦ والعقد الفريد ج ٣ ص ١١٣—١١٤ وحروب بنى شيبان ص ٣—٦٩ ٧ الدهاقين — واحده دهقان — التاجر وزعيم فلاحى الفرس ورئيس الاقليم ٨ باهلة قبيلة من أوضع قبائل العرب

فأبت عليه ذلك . كلُّ ذلك رَغم ما لِدَهاقِين الفُرْس من سعة العيش ، ونُعومة الحال ، وما بلغته باهلة بين العرب ، من لؤم الحسب ، وانصداع النسب .

كذلك بلغ من غضب العربي للمرأة ، وحرصه على كرامتها ، ووَقف شرفه على شرفها : أن يعمد الرجل منهم الى الملك المُتوَّج فيَقصِم هامته ، حِياطةً لهذا الشرف ، وذياداً عنه أن يُبذَل أو يُذَال . فقد حَدَّثوا أن عمرو بن هند ملك العرب قال لجلسائه : هل تعلمون أحداً تأنف أمه أن تخدُم أُمّى ؟ فقالوا : نعم لَيلَى بنت مهلهِل لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائلٍ أعز العرب ، وبعلها كُلْثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه ، وليث كتيبتهم . فارسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يُزِيرَ أُمَّهُ أُمَّهُ . فأقبل عمرو من الجزيرة في جماعة من بنى تَغْلِب ، وأقبلت ليلى في ظُعُنٍ[1] من قومها . وأمر عمرو بن هند برواقه فضربه فيما بين الجزيرة والفرات وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا . ثم دخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى وهند في قبّة واحدة . وقد كان الملك أمر أمه أن تُنحّى الخدم اذا دعا بالطُّرَف[2] وتستخدم ليلى !. فدعا عمرو بمائدته ، ثم دعا بالطُّرَف . فقالت هند : ناوليني يا ليلى هذا الطبَق . فقالت ليلى : لِتَقُمْ صاحبة الحاجة الى حاجتها ! فأعادت هند ما طلبت ، وألحّت في ذلك وأكثرت . فصاحت ليلى : واذُلّاه ! يا لتَغْلِب ! فسمعها عمرو ابنها فانتفض انتفاضة المحموم

---

١ جمع ظعينة وهى الهودج أو المرأة ما دامت فيه ٢ الطرف — جمع طرفة — ما تعطيه غيرك ما لم يعط أحد قبلك ويراد به هنا ما يتنقل به بعد الطعام

وقال : لا ذل لتغلب بعد اليوم ! ثم نظر الى سيف معلق بالرواق ليس هناك غيره . فاخترطه[1] وصدع به رأس عمرو . ونادى بعد ذلك فى بنى تغلب فانتهبوا مافي الرواق . واستاقوا نجائب[2] الملك . ففى ذلك يقول عمرو معلقته وفيها يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظِرْنا نُخَبِّرْك اليقينا
بأنّا نُوردُ الرايات بيضاً ... ونُصْدِرُهُنّ حُمْراً قد رَوِينا

حتى يقول :

ألا لا يعلمِ الأقوام أنّا ... تضعضعنا وأنّا قد وَنينا
ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأيّ مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأيّ مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقَيلِكم فيها قَطِينا[3]
تهدّدْنا وأوعدنا رويداً ... متى كنا لأمك مَقْتَوِينا[4]

وكأن ما فعل عمرو بن كلثوم لم يغن عن تغلبَ كثيراً . فقام مُرّة بن كلثوم وقتل ولد النعمان وأخاه ليطفئ جذوة من الغضب هاجها تعمد المهانة لأمه[5].

ألا ان كلمة واحدة قذفت بها امرأة فأصابت موطن الحسّ من رجل فهاجت لها الحرب أربعين عاما لم يدرّ فيها ضرع ، ولم يكتهل بين أثنائها فتى .

وحديث ذلك : ان البسوس ابنة مُنْقِذ – خالة جَسّاس بن مُرّة سيد بني بكر

---

١ اخترط السيف استله ٢ النجائب جمع نجيب وهو الفاضل من كل حيوان وأكثر ما يريد بها العرب الابل ٣ القيل الملك من ملوك حمير . وملوك الحيرة — الذين منهم عمرو بن هند — منهم . والقطينة قعيدة الدار ٤ المقتوى — بتشديد الياء وقد تخفف — الخادم ويجمع على مقاتية ومقتوين ٥ الأغانى ج ٩ ص ١٧٥ — ١٧٦

نزل بها ضيف من ذويها يدعى سعداً ، فأفسحت دارها له ، وأناخت بحظيرتها ناقته ، فما كاد يطمئن بالرجل مُقامُهُ حتى انطلقت ناقته ترعى . وقادها حَيْنُها[1] الى حِمًى[2] لكُلَيب بن ربيعة صهر جساس ، وفتى العرب ، وسيد تغلب — ولم يكن لأحد غير جساس أن يُرْعِيَ ابلَهُ حِمَى كليب — فلما بَصُرَ كليب بها غريبة بين ابله أنفذ سهمه في ضرعها ، فانطلقت تعدو وهي تَشخُبُ[3] دماً ولبناً حتى نزلت بفِناء البسوس . فلما استبانت ما بها صاحت وأعولت واندفعت تقول :

لَعَمْرُك لو أصبحت في دار مُنقِذٍ ... لما ضِيمَ سعد وهو جارٌ لِابياتي
ولكنني أصبحت في دار غُرْبةٍ ... متى يَعْدُ فيها الذئب يَعدُ على شاتي
فياسعد لاتغرر بنفسك وارتحل ... فانك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذْوَادِي[4] فانيَ عنهم ... لَرَاحلةٌ لا يفقدون بُنَيّاتي

سمع جساس تلك الكلمة الأخيرة فأصابت الوتر الارَنّ من قلبه ، فأجفل اجفال الأخيذة من تلك الوَصمة المُنْدِية ؛ وصمةِ العجز عن حياطة بنيات خالته ! فقال : « اسكتى أيّتُها المرأة فلَيُقْتَلَنّ غداً جمل هو أعظم عَقْراً[5] من ناقة جارك » ولم يزل يتوقع غِرّة[6] كليب حتى أنبئ بانفراده ، فاعتقل[7] رُمحه ، وخرج للقائه . فلما أبصره طعنه ، ودقّ صُلْبَهُ ، وأبى عليه الماء أن يُبَلِّغَهُ به . وعلى إثر ذلك ثارت حرب

---

١ الحين الهلاك ٢ الحمي موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعي وكان الشريف من العرب اذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى له وحده مدى عواء الكلب وكان كليب أحمي العرب لحماه ولذلك ضربوا به المثل فقالوا : أحمي من كليب ٣ شخبت الناقة سال ضرعها ٤ الاذواد جمع ذود والذود الطائفة من الابل قيل من الثلاثة الى العشرة أو العشرين أو الثلاثين ٥ العقر ضرب قوائم البعير أو الفرس بالسيف ٦ الغرة الغفلة ٧ اعتقل الفارس رمحه جعله بين ركابه وساقيه

البسوس ، وفيها استحرَّ القتل بالحَيَّين أربعين عاماً حتى كاد يلحقهما الدثور في أثَرِها وما عصفت بها الا كلمة واحدة كان خليقاً بها أن تذهب لحينها ، لولا أن نَسَجَتها امرأة ، وحاكتها على امرأة

ربما تلت أولئك سَرَوات القوم وهاماتهم ، غَضِب بعضهم لبعض ، وهاج بعضهم على بعض ، فتدافع العرب في مَسَاقهم طَوَاعيةً لهم ، وانسياقاً في اثرهم . فمثلهم في ذلك مثل عامّة الفرس والرومان وأمم القرون الوسطى من أشرافهم .

على أن ذلك ان قيل فيمن سوى العرب من الامم ، فالعرب أجلّ وأعظم من أن يوصموا به ، أو يكونوا في شيء منه .

ان شرف المرأة العربية حَلْقَةٌ مُفْرَغةٌ لا طَرَف لها . ولئن تدافعت عامّة العرب في مَسَاق أشرافهم يوم البسوس ، لقد تدافع الأشراف في مساق عامتهم يوم الفِجَار[1] بين قريش وهوازن . وكان من أمر ذلك أن شباباً من كِنانة أطافوا بامرأة من غِمَار الناس في سُوق عُكَاظ ، فأعجبهم ما رأوا من حسنها ، وسألوها أن تُسْفِرَ لهم عن وجهها . فأبت ذلك عليهم ، فأخذوا يُعنتُونَها[2] ويسخرون بها ، وهنالك نادت : يا آل عامر ! فلَبَّتها سيوف بنى عامر . ووقف بنو كنانة يدرأون عن فِتيانهم . وهاجت هَوَازِن لعامر ، واغتمرت قريش في كِنَانة[3] ، وهنالك تفجرت الدماء ، وتناثرت الأشلاء[4] . ولولا حكمة بدرت من حرب بن أمية يومئذ لكان

١ حروب الفجار حروب نشبت بين العرب في سوق عكاظ وهى أربع . وانما دعيت بهذا الاسم لان العرب أباحوا فيها حرمة الاشهر الحرم فقاتلوا فكان ذلك منهم فجاراً أى تفاجراً

٢ أعنته شق عليه ٣ عامر بطن من بطون هوازن وقريش فرع من فروع كنانة

٤ الاشلاء — جمع شلو — قطعة اللحم

الخطب أفدَح ، والمصاب أطَمّ . فقد وقف بين القوم فحسم ضغينتهم ، واحتمل ديات قتلاهم[1]

لم تقف منزلة المرأة من الرجل عند حد حمايته لها ، وسفك دمه دون البلوغ اليها ، ففي ذلك ما عسى أن يُشعر بشيء من رعاية المالك لما يملك ، وما كذلك كان أمرهما . فلقد كانا جميعاً على سواء ؛ يتجاذبان الرأى ، ويتساجلان المعونة ، ويتآزران على نوائب الحياة . وان من ضعف الأسلوب أن يقال ان العربى كان رفيقاً بالمرأة ، عطوفاً عليها . فان الرفق والعطف يُشعران بالضعف بين يدى القوة ، على حين كان نصيبها من الحياة على قدر نصيبه منها ، وقسطه من الاجلال والاحترام في قلبها على قدر قسطها في قلبه

فى العهد الذى كانت المرأة الرومانية تدين فيه بالعبادة للرجل ، وكانت تعتدُّه من دون الله إلهاً قهاراً ؛ كانت أختها العربية في الذِّرْوَة والسَّنَام من الحرية والمساواة . لها ما للرجل وعليها ما عليه

وليس أمثَلُ بذلك ولا أدلّ عليه من قولهم فيما سار من أمثالهم :—

* ان النساء شقائق الأقوام[2] * يريدون بذلك ان نساءهم في سواء رجالهم فلا فضل فيهم لامرئ على امرأة . بل لقد كان للمرأة من فرط الكرامة ، وحُرمة الكلمة ما لم يستشرف له الرجل على هول قُوَّته ، ومضاء عزيمته . ولقد عقدت فتاة من العرب أمانا لرجل فلم يستطع ملك العرب وجبارها أن ينقضه أو يبلغ منه

١ العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٩ ٢ مجمع الامثال ج ١ ص ٢٠ والاقوام جمع قوم ويراد بهم الرجال قال القائل : وما أدرى ولست اخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وبيان ذلك فيما حدَّثوا أن مَرْوَان القَرَظ[1] بن زِنباع غزا بكر بن وائل، فقصُّوا أَثَرَ[2] جيشه، فأسَرَه رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمَّه فلما دخل عليها قالت له : انك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمَروَان القَرَظ . فقال لها مروان : وما ترتجين من مروان ؟ قالت عُظمَ فدائه . قال : وكم ترتجين من فدائه ؟ قالت : مائةَ بعير . قال مروان : ذاكَ لك على أن تؤدّيني الى «خُماعةَ» بنت عوف بن مُحَلِّم — وكان مروان قد أسدَى اليها يداً فيما سلف من دهرها — فقالت المرأة : ومَن لى بمائة من الإبل ؟ فأخذ عوداً من الأرض فقال : هذا لك بها . فمضت به الى عوف بن مُحَلِّم فأجارته ابنتُه من كل مكروه . وكان مروان قد أساء الى عمرو بن هند ملك العرب وطاغية الحيرة فأقسم عمرو لا يعفو عنه حتى يضع يده في يده[3] . فلما علم بمستقَرِّه من عوف أرسل اليه ليأتيه به . فقال عوف : قد أجارته ابنتى وليس اليه من سبيل . فقال عمرو : قد آليت ألا أعفو عنه أو يضعَ يده في يدى . قال عوف : يضع يده في يدك على أن تكون يدى بينهما . فأجابه عمرو الى ما طلب وعفا عن مروان وما كان ليعفو عنه بعد أن ظفِرَ به لولا أن أجارته المرأة . ولو أن عوفا هو الذى أجاره لَسَامَهُ الحرب أو يُسْلِمَهُ[4]

تجاوزت المرأة موطن الرعاية الى ما هو أسمى وأجل . فقد كان حَسْب الهارب المطلوب أن يَعقِدَ رداءه بطُنُب[5] خبائها فيعود آمناً ليس عليه من سبيل .

١ لقب مروان بالقرظ لانه كان يغزو اليمن وهى منابت القرظ ٢ قص أثره اتبعه
٣ يريد بذلك أن يملكه نفسه وكان عمرو اذا ملك فتك ٤ مجمع الامثال ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ٥ الطنب — بسكون النون وضمها — حبل الخباء والسرادق ونحوهما

وكذلك كانت ساحتها حَرَماً آمناً اليه يفزع الخائفون ، وببابه يتدافع العافون ، ويَهتَدِى السَّارون[1]

ومن أبدع مظاهر ذلك ما حدَّثوا ان سُبَيعَة ابنة عبد شمس بن عبد مناف كانت زوجاً لمسعود بن مالك الثقفي[2]، فلما عصفت حرب الفجار الأكبر — بين كِنانة وقيس — كانت سيادة الأولين لحرب بن أمية ابن أخيها ، وقيادة الآخرين لمسعود زوجها . وكان مسعود قد ضرب لها خِباء وراء جنده ، فدخل عليها فأبصر بالدموع تجول بين خديها ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : أبكى لما عسى أن يصيب قومي . فقال لها : من دخل خباءك من قريش فهو آمن . فأخذت تصل به قِطَعاً حتى يَسَع الجمع العديد من قومها

فلما انكشفت قيس وغُلب على أمره مسعود ، قال لها ابن أخيها : من تمَسَّك بأطناب خبائك فهو آمن ومن دار حول خبائك فهو آمن فلم يبق قيسىٌّ الا اعتصم بها ودار حول خبائها[3]

وانى لَمُفْضٍ اليك بحديث عن القوم يملأ قلبك روعة وايماناً بما كان للمرأة يومذاك من سماحةٍ في الرأى ، ووفور في الحرية ، وسمو في المنزلة :

ذلك أن سيد العرب الحارث بن عوف المُرِّى قال لمن حوله : أترَونني أخطُبُ الى أحد فيردُّني ؟ قيل : نعم . قال : ومَن ذاك ؟ فقيل له : أوس بن حارثة الطائي . فقال الحارث لغلامه : ارحل بنا اليه . فركبا ومعهما خارجة بن

١ العافون — جمع عاف — القصاد . والسارون — جمع سار — السائرون ليلا
٢ مسعود بن مالك الثقفي سيد ثقيف . وثقيف بطن من قيس . أما زوجه سبيعة فقرشية وقريش نبعة من كنانة وبين القومين ثارت الحرب ٣ الاغاني ج ١٩ ص ٧٩

سِنَان حتى أتوا أوساً في بلاده، فأنزلوه في منزله . فلما رأى الحارث قال : مرحباً بك يا حارث . قال : وبك . قال : ما جاء بك ؟ قال : جئتك خاطباً . قال : لست هناك ! فانصرف الحارث ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته مُغْضَباً فقالت : مَن رجلٌ وقف عليك فلم تُطِلْ ولم تُكَلِّمْه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف المُرّي . قالت : فما لك لا تَسْتَنْزِله ؟ قال : انه اسْتَحْمَقَ[1] ! قالت : وكيف ؟ قال : جاءني خاطباً ! قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ قال : نعم . قالت : فاذا لم تزوج سيد العرب فمَنْ ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارَك ما قد كان منك . قال : بماذا ؟ قالت : تلحقه فتَرُدُّه . قال : وكيف وقد فَرَط ما فرط اليه ؟ قالت : تقول له « انك لقيتني مُغضَباً بأمر لم تُقَدِّم مني فيه قولاً[2] فلم يكن عندى من الجواب الا ما سمعتَ ، فانصرِف ولك عندى كل ما أحببت فانه سيَفْعَل » فركب في أثَرِهما

قال خارجةُ بن سِنَان : فوالله انى لأسير حانت منّي الْتِفَاتَةٌ فرأيته ، فأقبلت على الحارث وما يكلمني غمًّا ، فقلت له : هذا أوس بن حارثةَ في أثَرِنا . قال : وما نصنع به ؟ امْضِ . فلما رآنا لا نقف عليه قال : يا حارث ارْبَعْ عَلَيَّ[3] ساعة . فوقفنا له ، فكلمنا بذلك الكلام ، فرجع مسروراً

فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعي لى فلانة — لكُبْرَى بناته — فأتَتْهُ فقال : يا بُنَيَّة ، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل .

١ استحمق صار الى الحمق ٢ تريد انك فاجأتنى بالامر من غير تمهيد له
٣ اربع على قف بي

قال : ولِمَه ؟ قالت : لأنني امرأة في وجهي رَدَّة[1] وفي خُلُقي بعض العُهْدَة[2] ولستَ بابن عمه فيرعَى رَحِمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمَنُ أن يرى مني ما يكره فيطلقنى ، فيكون عَلَيَّ من ذلك ما فيه . قال : قومى بارك الله عليك . ادعي لى فلانة — لابنته الوُسْطَى — فدَعَتها ، ثم قال لها مقالتَهُ لأختها ، فأجابته بمثل جوابها وقالت : انى خَرْقاء[3] ، وليست بيدى صناعة ولا آمَن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكون عَلَيَّ من ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمي فيرعَى حقي ، ولا جارَك في البلد فيَسْتَحْيِيك . قال : قومي بارك الله عليك ، ادعي لى « بُهَيْسَة » — يريد الصُّغْرَى — فأُتِيَ بها ، فقال لها ما قال لهما فقالت : أنت وذاك . قال : قد عرضت ذلك على أختيك فأبَتَاه . فقالت : — ولم يَذكر لها مقالتيهما — لكننى والله الجميلة وجهاً ، الصَّنَاع يداً[4] ، الرفيعة خُلُقاً ، الحسيبة أباً ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير . فقال : بارك الله عليك . ثم خرج الينا فقال : قد زوَّجتك يا حارث « بُهَيْسَة » بنت أوس . قال : قد قبلت . فأمر أمها أن تهيئها وتُصْلِح من شأنها . حتى اذا حُمِلت الى زوجها ، وبلغ بها حِمَاه كانت حرب داحِسٍ والغَبْرَاء[5] بين عَبْس وذُبْيَان قد عَصَفَت هَوْجَاؤُها بهم ،

١ الردة القبح ٢ العهدة — العيب ٣ الحرقاء التي لا تحسن ما تصنع
٤ صناع اليدين — وصف للرجل والمرأة وجمعه صنع — حاذق ماهر يعمل بيديه
٥ داحس والغبراء فرسان أولهما لقيس بن زهير العبسى والثانية لحذيفة بن بدر الفزارى وكلا الرجلين سيد قومه . وكان من حديث الفرسين ان رجلا من عبس يارى آخر لزاريا في أى الفرسين أعتق وأسبق وكلاهما يؤثر فرس صاحبه ثم افترقا متراهنين عليهما عشرا في عشر ٠٠ أى يبتدىء الرهان بعشر ثم يضاعف أضعافا اذا اجتمع الفريقان ٠٠ قالوا وبلغت مقالة الرجلين قيسا وحذيفة فضاعفا في الرهان حتى أبلغاه الى مائة وتواعدا على

واشتدت نارها فيهم ، فلم تَذَرْ من شيء أتت عليه الا جعلته كالرَّمِيم[1] . وهَمَّ من يليهم من العرب بأن يَكْتَوُوا بضِرَامِها ، ويَصْطَلُوا بلظاها . فلما بَصُرت به مرتدياً مَطَارِف[2] العُرْس قالت : والله لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك ! قال : وكيف ؟ قالت : أتَفْرُغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟ قال : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم . فخرج لساعته الى صاحبه خارجةَ بن سِنَان وقَصَّ عليه حديث امرأته . فقال خارجة : والله انى لأرى همة وعقلاً ، ولقد قالت قولاً . قال : فاخرج بنا اليه . فخرج الرجلان فمشيا بين القوم بالصلح واحتملا حمائل[3] القوم وَدِيَات قتلاهم فكان ما نزلا عنه ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين ! وهي لعمر أبيك ثروة للاعرابى لا تقوم بما مَلَك الحضرى من ضياع ، وما اختزن من أموال[4]

السباق بعد أربعين يوما وأن يكون مداه مائة غلوة ٠٠ والغلوة مدى السهم ،، وأودعا الابل رجلا من بني ثعلبة يعطيها لمن حكم بالسبق له . فلما كانت الليلة التى سيستبقان في صبيحتها أكمن حمل بن بدر — أخو حذيفة بن بدر — فتيانا من قومه في شعب من الشعاب المشرفة على المضمار وأمرهم ان جاء داحس سابقا أن يردوه عن غايته وقد أمضوا في الصباح ما يبتوه في المساء فبرز فتى منهم الى داحس — وكان قد جاء سابقا — فلطمه فكبا فسبقت الغبراء فلما انتهي الفارسان الى الغاية تلاحيا وقال كل أنا أحق بالسبق ثم تراضيا على أن يكون الرهان لقيس وعلى أثر ذلك جاء رجل من فزارة فلاموا حذيفة على نزوله عن حقه وأشعروه الندم فأرسل ابنه الى قيس يطلب منه حق أبيه فقتله قيس وقتل حذيفة مالكا أخا قيس فثارت لذلك حرب داحس والغبراء واجتمعت ذبيان بأسرها الى لواء حذيفة وجدت عبس لنصرة قيس ودامت الحرب ناشبة دهرا طويلا ثم انتهت بما أجلناه في أصل مقالنا ١ الرميم العظم البالي ٢ المطارف جمع مطرف — بضم الميم وفتح الراء — أردية من الخز مربعة ذات أعلام ٣ الحمائل — جمع حمالة كسحابة — الديات يدفعها قوم عن قوم ٤ الاغاني ج ٩ ص ١٤٢—١٤٣

ذاك شيء بلغته المرأة يومذاك من سموّ في الوجود ، واكبار للرأى ، وبلوغ من النفس

بل لقد كانت وكان الرجل العربي — وهو مَن تَعْلَمُ من صلابة العود ، ورجاحة الرأى ، وفرط الإباء — ينزل تحت حكمها ، ويَنِيء الى ظلها ، ويطمئن لسلطانها اذا آنَسَ منها القدرة على قيادته وسياسته

وقد نبغ من النساء مشيرات آزرن أزواجهن وذويهن من الملوك والابطال فأحسَنَّ مؤازرتهم ، وملكات قمن بالأمر من دون الرجال فابتنين مجداً لا يُطَاوَل وبلغن غاية لا ترام

***

ونحن ملمون لك بحياة امرأتين ملكتا فاختصهما التاريخ بصفحتين خالدتين واصطفاهما بآيتين بينتين وهما :—

بِلْقِيسُ مَلِكة اليمن و زَيْنَبُ مَلِكة تَدْمُر

بِلْقِيس

﴿ ملكة اليمن ﴾

هنالك فوق مشارف الأرض[١]، وبين أفياء الثمر[٢]، وخمائل الزهر، وفسحات الأودية، ومسايل الماء، قامت مدينة مأرب عاصمة اليمن، وقبلة أقيالها، ومستقر عواهلها[٣]

بين يدى هذه المدينة الغانية امتد سد مأرب مطلع الحضارة القديمة، وآيتها الناطقة. وأدنى ما يقال عنه انه ثلاثون قنطرة ذرعها ثلاثة أميال في مثلها[٤] قد انبسط على جانبيه جنتان، هما صنع الله وآيته وحجته على تلك الأمة الوثابة الطموح[٥]. ومن حول هاتين الجنتين، وبين أفيائهما، انتثرت قصور مأرب، تلك التى جاذبت دور مصر دقة الوضع، وجلال الصنع، والنزوع الى السماء، ونازعت قصور فارس حسن النسق، وروعة المنظر، وجمال البناء

تلك هي مأرب دارة الملك اليمني في عهد بلقيس ابنة اليشرح أنفذ ملوك اليمن رأيا، وأسناهم ذكرا، وأهداهم سبيلا.

---

١ مشارف الارض أعاليها ٢ الافياء — جمع فيء — الظلال ٣ أقيال اليمن — جمع قيل بفتح القاف — ملوك أقاليمها. والعاهل — وجمعه عواهل — الملك الاعظم ٤ معجم ياقوت ج ٧ ص ٣٥٤ ٥ وآية ذلك قوله تبارك آيته ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور)

ورثت بلقيس عرش زوجها وأبيها، وما كان لها بهما من حاجة. فقد اتخذت لنفسها عرشا بلغ من ابداع صنعه، وجمال نسقه، أن وصفه الله جل ذكره بالعظمة فقال: « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ »

وهو الذى يصفه تبع بقوله:

عرشها رافع ثمانين باعا ... كللته بجوهر وفريد[١]

وبدر قد قيدته وياقو ... ت بالتبر أيما تقييد

أقامت بلقيس في ملكها خمسة عشر عاما بلغت فيها من جلال الصولة وكمال القوة أنها حين ركبت الى سليمان صلوات الله عليه سار في ركابها مائة ألف من أمراء اليمن[٢]

أما وفور عقلها، ومضاء عزمها، وسناء منزلتها، واستمكانها من نفوس رعيتها، فقد بلغ من أمره: أن سليمان حين أرسل اليها يؤذنها بدينه، ويدعوها الى سنته، كان كل ما كتب اليها: « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ». فأما هى فلم تأخذها العزة بالإثم ولم ينل من نفسها أن الكتاب لم يحو تكرمة وتبجيلا، ولم يذهب برشدها أن صاحب الكتاب ليس له في ذات نفسها من بسطة الملك وقوة السلطان ما لها، بل جمعت كل من يلوذون بطاعتها من الملوك — وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر من أقيال اليمن[٣] — وبرغم كل ما أسلفنا من أمر الكتاب أحلته محلا كريما

---

١ الفريد الدر المنظم يفصل بين حباته جوهر آخر ٢ الطبرى عن ابن عباس ج ١٨ ص ٨٧ ٣ الطبرى عن قتادة ج ١٨ ص ٨٦

فقالت : « يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِيَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ » ثم انثنت اليهم بعد ذلك فقالت : « يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ » أما هم فوقفوا دون رأيها ، ونزلوا تحت أمرها ، فقالوا : « نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ »

هنالك بسطت لهم أمر الحرب ، وأنها مدعاة دمار الديار ، ومتلفة البلاد والعباد فقالت : « إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » ثم كشفت لهم عن وجه الرأى فقالت : « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ » كفيلة بأن تصرف ذوى المطامع وتجتذب بُغاة الدنيا فان صرفته عن قصده فهو ملك ولنا من بأسنا وقوتنا ما يُثِلّ عرشه ويَفُلّ غربه[1] وان ردَّها وصُرِف عنها فعسى أن يكون نبيًّا يُبَصِّرُنا الحجة ، ويهدينا سواء السبيل

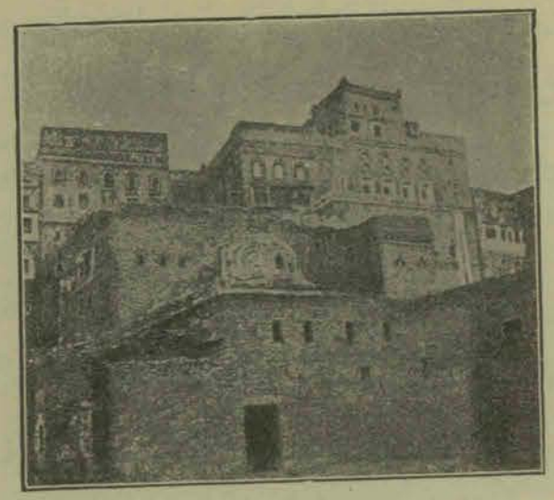
فلما جاءت رُسُلها سليمان بهديتها التى جمعت من كل شىء أسناه وأتمّهُ قال : « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ »

حتى اذا استبانت بلقيس وضح الهدى من سليمان تبدَّلت بدين آبائها دين الله وكان ذلك سبيلاً الى طمس آية المجوسية بين أرجاء اليمن

تلك آيات من الذكر الحكيم قامت بفضل المرأة ، ورجاحة عقلها ، وسماحة رأيها ، وان قوة الشوكة وعزة الملك لم تصرفاها عن ابتغاء الحق أيًّا كان سبيله ، ومن أى كان مفيضه

---

١ فل السيف ثلمه وغرب كل شيء حده



اطلال غمدان — ص ٤١

« غمدان » — لكل أمة أثر من العظائم تتركه بين يدى الدهر شهيدا بما ملكت من قدرة وغناء، وقوة ومضاء. وللعرب من ذلك النصيب الموفور، والحديث المأثور. وأعجب ما أودعوه صفحة العظائم أثران، تضاءل دونهما الزمان: سد مأرب وقصر غمدان. وكلاهما مما أنشأته بلقيس أيام احتكمت اليمن بمقادة الزمن. أما السد فقد سلف بعض القول عنه، وأما غمدان فقد انفسح فيه سبيل المقال ومجال الخيال. ولعله أبدع ماتفتحت عنه اكمام الايام، وحلى به جيد العصور، من القصور. فقد حدثوا انه عشرون طبقة بعضها فوق بعض، فوقها مجلس بنى بالرخام الملون، يعلوه سقف من رخامة واحدة تشف عما فوقها. وعلى كل ركن من أركانه أسد كأعظم من يكون من الأسد، اذا هبت عليه الريح دخلت من منافذه فاضطربت في صدره فخرجت من فيه كزئير الاسود. وكانت المصابيح توقد في القصر ومن حوله حتى يحسبه المشرف من بعض طرق اليمن برقا خافقا أوشهبا متألقة

مختار من الرازى والطبرى والمسعودى ومعجم. ياقوت ونسبة سد مأرب وغمدان الى بلقيس بعض ما قيل في تاريخهما

ولئن صح ما روى الفخر الرازى: أن بلقيس هى التى مدّت سدّ مأرب وجعلته طبقات ثلاثا بعضها فوق بعض[1]، لتكونَنَّ تلك المرأة مهبط وحي العظمة ومشرق نور الحضارة في العالم كله. فأما ما بُني قبل ذلك فجبال تعترض سَرَوَات[2] الطرق، وترهق مناسم الأرواح، نُشرت على هاماتها ألوية الظلم، ونُزِفت على أقطارها دماء الضعفاء

تلك هى بلقيس ربة القوم الذين راضوا الزمان ومدوا سد العَرِم وشادوا قصر غُمدان.

١ الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٦٠ ٢ سروات الطرق أواسطها أو ما ظهر منها

زينب

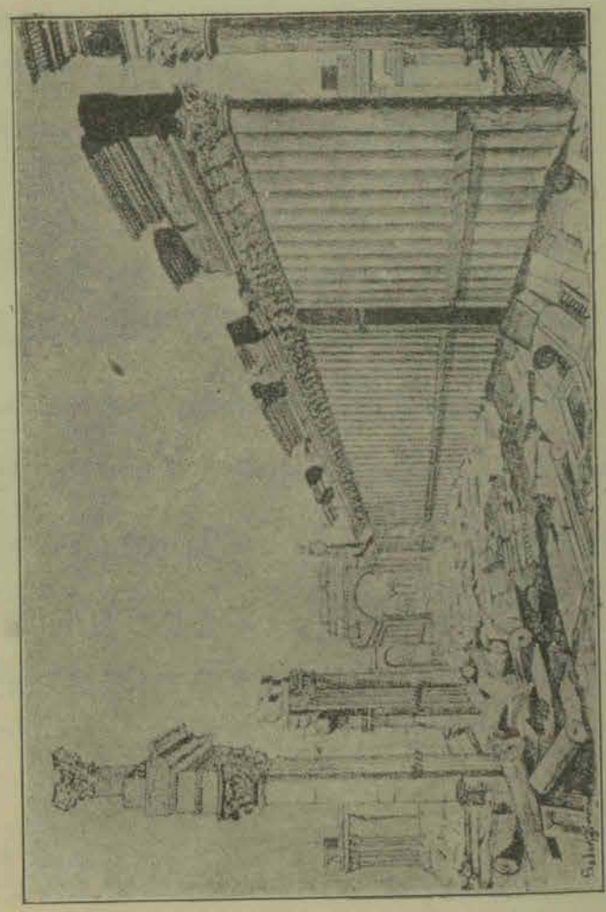
﴿ ملكة تَدْمُر ﴾

مدينة قاصية قامت بين نطاق من الصحراء فتألقَ لألأؤها وتبلّجَ[1] بهاؤها وأخذت تبدو كما شق النجمُ رداء الظلماء في كبد السماء. نهضت بها امرأة من العرب فبسطت سلطانها ونشرت أعلامها على ما بين مجاهل السودان ومعالم أنقِرَة من مسالك وممالك وأمم وشعوب[2]

تلك هي تَدمُر في عهد ملكتها زينب.

تقع تدمر في طرف بادية الشام الى الشمال منها، على مَدَى مائة وخمسين ميلاً من دمشق، ومسيرة خمسة أيام من الفرات. وهي ملتقى الغادين والرائحين بين الشام والعراق. لذلك كان انتجاع أهل هذا البلد الى ذينك القطرين لا ينقطع. ومن أجل ذلك جمعوا بين مدنيَّتي الفرس والرومان، فأُرهِفَت لذلك طباعهم ورَقَّت شمائلهم، ونَفَذَت أفهامهم، وطفقوا يقيمون الأبنية ترسخ أصولها في أعماق الأرض، وتناغى[3] مشارفها منازل الأفلاك. ومن أدل ذلك على ما نقول هيكل الشمس أو هيكل يعل. والقصر الأعظم الذى بلغ ذرعه ألفي ذراع في مثلها. ولا تزال أطلالهما باقية تعنو لها الوجوه وتخشع بين أيديها القلوب

١ تبلج أسفر ٢ العرب قبل الاسلام ص ٨٧ ٣ المناغاة من ناغت الأم صبيها اذا حدثته بما يسره



اطلال الرواق الاعظم — ص ٤٢

تلك هي الأمة التى قامت بأمرها زينب فبلغت بها غاية ما أسلفنا لك

تنقّل الملك بزينب في دورين : فكانت مشيرة لزوجها ، ثم وصية على ولدها وفي كلا الدورين كانت الوحى المُلْهِم ، واليد الطائلة

كانت زينب على فرط جمالها ، وعذوبة منطقها ، وسماحة أسلوبها ، ونفاذ لبها ، وعظمة قلبها ؛ من أشد الناس بأسا ، وأمضاهم عزما ، وأرسخهم في الحروب قدما .

وكانت اذا وقفت الصفوف ، وأُشرعت الرماح ، والتَمَت الأسنة ؛ تتقلد سيفها ، وتعتقل رمحها ، وعلى رأسها خُوذَة[1] مُرَصَّعة بالدر والياقوت ، وقد تدلّت فوق غلالتها أهداب من الحرير الأُرجُوانى ، ثم تمر بين الصفوف مُجَرّدة يُمنَى ذراعيها كما يفعل أبطال اليونان والرومان ، فيغيب القوم عن نفوسهم ، وتملك عليهم مشاعرهم ، حتى تكون أبصارهم التى بها يبصرون ، وأيديهم التى بها يبطشون ، وقلوبهم التى بها يشعرون ، ثم ينصبُّون على أعدائهم كما تنصبُّ النار على هشيم الكلأ . بذلك افتتح جندها ما افتتحوا من بلاد ، واقتحموا ما اقتحموا من معاقل . ولذلك أشادت الأمم قديماً بذكرها ، وأفسحوا لأخبارها وسِيَرها المكان الأوفى من صدور تاريخهم ، وبطون صحائفهم

وكانت زينب تجيد لغات الفرس واليونان والرومان وأخلاط من يليها من شعوب وقبائل .

على أن هذه الجمرة المستطيرة نكبت في آخر عهدها نكبة لم تجد لها من

---

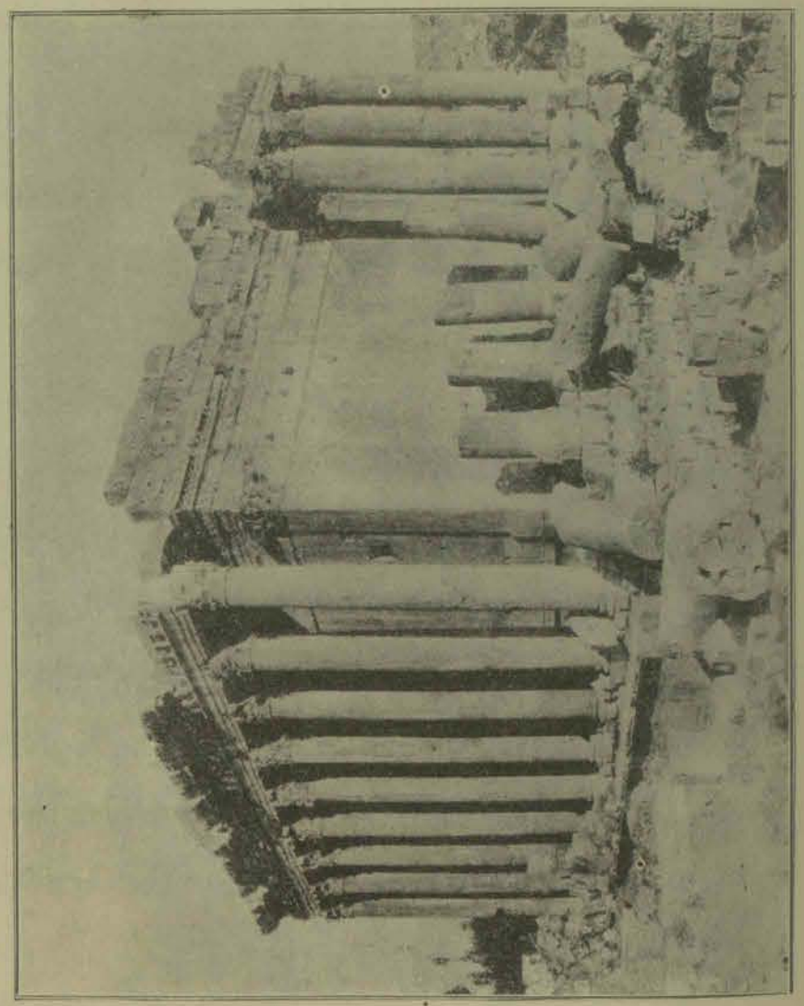
١ الخوذة المغفر وهو ما يلبسه الدارع فوق رأسه من الزرد

مُقيل . فقد فجأتها جنود الرومان معقودة اللواء بكف أورليان وكان في جيشها جمع لا يُحصَوْن عدداً ممن انحسر عنهم ظل الروم في عهدها ، يولونها ظاهر الطاعة وزمام قلوبهم بأيدى سادتهم الأقدمين ، فكانوا نواجم الفتنة والاضطراب في جندها . وكان سبيل ذلك أن تراجعت جنودها مرة بعد مرة حتى آل أمرها الى التسليم لعدوها سنة ٢٨٢ م . فأخذت أسيرة الى رومة ثم أعيدت الى موطنها لمكانها من نفوس قاهريها فعكفت على عزلتها ونسكها حتي ماتت

هذا وللعرب حديث عن ملكة تدمر يعزب لب الناقد عنه ، وتضل حقائق التاريخ دونه . وهم يَدْعونها الزَّبَّاء[1] ، وينسبون الى عمرو بن عَدِيّ اللَّخْمى انه قادها الى الموت انتقاماً لخاله جَذِيمة بن مالك ملك الحِيرة ويزعمون أن عمراً خبأ لها الرجال في الغرائر

وتلك لعمرك أشبه بأساطير الأولين منها بحقائق المؤرخين والله بكل شيء عليم .

١ معنى الزباء الكثيرة شعر الحاجبين والعينين ولعل ذلك مما غلب على ملكة تدمر



رأس الشمس — ص ٤٤

السباء والوأد

﴿ أما بعد ﴾ فاننا لا نخدع التاريخ في ماضيه ، فنمثله زهراً لاشوك فيه . فاذا كان من الحب ما يُمِضُّ ويؤذى ، ومن الصداقة ما يضر ويؤلم ، لقد أصيبت المرأة العربية في سبيل اعزازها والحرص عليها بلواذع بلغت في بعض المواطن حبة قلبها ، ومستقر حياتها .

فمن ذلك السباء . وذلك أن العرب كانوا يُعْقِبُون صفوف القتال بنسائهم ، وذوات أرحامهم ، تثبيتاً لأنفسهم ، وتشديداً لعزائمهم . وربما أحيط بهم ، وغلبوا على أمرهم ، فيكون همُّ الظافر أن يتخذ نساء المقهور سبايا يسوقهن الى بيته ، ويحتكم فيهن كما يحتكم في ماله ، لا لحاجته اليهن ، بل ليقطع باستلابهن آخر عرق ينبض من قلب عدوه فيعيش ذليل الناصية ، مُقَنَّع الوجه أمَدَ الحياة .

على أنهم وان غلظت الى هذا الحد أكبادهم على أعدائهم فهم يعرفون لسباياهم منازلهن بين قومهن فيخلطونهن بأنفسهم ، الا قليلاً ممن أرَّث[1] الحقد صدورهم ، وملكت الضغينة منازع الرحمة من قلوبهم . وفي أولى الحالتين يقول حاتم بن عبد الله الطائي :

فما أنكحونا طائعين بناتِهم ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا

---

١ أرّث النار أوقدها

فما زادها فينا السباء مذلة ولا كُلِّفت خَبْزاً ولا طبخت قِدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضاً وجوهُهم زُهْرا
وكائن ترى فينا من ابن سَبِيَّةٍ اذا لقى الأبطال يطعنهم شَذْرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه فيوردها بيضا ويُصدِرُها حمرا
كريم اذا اعتز اللئيم تخاله اذا ما سرى ليل الدجى قمراً بدرا

وهنالك كثير من سادات العرب وذوى زعامتهم انكشفت عنهم السبايا فلم يضع ذلك من منازلهم أو يُهجِّنْ من أحسابهم . ومن بين أولئك دُرَيدُ بن الصِّمَّة حكيم العرب وشاعر فرسانهم . وفارس شعرائهم وأُمُّه رَيحانة بنت معديكرب أسرها الصِّمَّة بن عبد الله ثم تزوجها فأنجبت دريداً واخوته . وهي التى يقول عمرو في حديث إسَارِها

أمِن رَيحانة الداعى السَّميعُ يُؤَرِّقنى وأصحابى هُجُوع
سباها الصِّمَّةُ الجُشَمِىُّ غصبا كأنّ بياض غُرَّتها صديع[1]
وحالت دونها فرسان قيس تَكشَّفُ عن سواعدها الدروع
اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

وبرغم كل ذلك كان النساء يبذلن ما ملكن من جُهد وحيلة في الخلاص من الأسر ولو الى الموت أنفة واستحياء وابقاء على ذكر آلهن وذويهن . ومن أمثلتهن في ذلك : « المنية ولا الدنية » كما حدثوا أن فاطمة بنت الخُرْشُب لما أسرها حَمَل بن بدر رمت بنفسها من الهودج منكسة فماتت[2] . ومن أمثال

١ الصديع ضوء الفجر ٢ الاغاني ج ١٦ ص ٢١

العرب : « شرٌّ يوميها وأغواه لها » وأصل ذلك ان امرأة من طَسْم يقال لها عَنْز أُخذت سَبِيَّة فحملوها في هودج وألطفوها بما ملكت ألسنتهم وأيديهم فقالت عند ذلك : « شرٌّ يوميها وأغواه لها » تريد ان شر أيامي حين صرت أكرم للسباء[1]

بل ربما تزوج الرجل بسبيته وأقام بها أمداً طويلاً مقام العشير الكريم من عشيرته الوفية ، حتى اذا أتاح لها القدر معاودة أهلها أقامت بينهم وأنفت أن تعود سيرتها الأولى من زوجها وبنيها . ومن ذلك ماحدث به احمد بن معاوية الباهلى قال : ان رجلاً من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ثم قالت له : أَزِرْنى أهلى ليذهب اسم السباء عنى ، ففعل . فلما نزلت بقومها وتذاكروا ما في السباء من ذل وعار قالت لزوجها : قد أبى القوم الا أن ينتزعونى منك . فقال : لا أفارقك حتى تثنى علىّ بما تعلمين . فقالت : العشية اذا اجتمع القوم . فاجتمعوا وحضر الرجل وزوجه فقال :

نشدتك هل خبَّرْتِني أو علمْتِنِي كريماً اذا اسود الكراسيع أزهرا[2]

فقالت : نعم . فقال :

نشدتك هل خبرتنى أو علمتنى شجاعا اذا هاب الجبان وقصرا

فقالت : نعم . فقال :

نشدتك هل خبرتنى أو علمتنى صبوراً اذا ما الشيء ولّى وأدبرا

١ لسان العرب ج ٧ ص ٢٥٠ والميدانى ج ٢ ص ٤٢٣ ٢ نشدتك حلفتك . والكراسيع — جمع كرسوع — وهو طرف الزند مما يلى الخنصر وسواد الكراسيع كناية يكنون بها عن البخل واللؤم

قالت : نعم . فانصرف نادماً حزيناً وهو يقول :

تُبَكِّى على ليلى بحق بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدرا[1]

ومثل ذلك ما فعلت سَلْمَى الكنانية زوج عروة بن الورد

وكان عروة شاعراً بطلاً كريما . وله في صفاته تلك مواقف لا يستهان بها . وكان قد أصاب سلمى في غزاة غزاها لبنى كنانة ، فأعتقها وتزوجها وحلّت من نفسه وعشيرته محلاً كريما ، فأقامت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، وهو لا يشك في أنها أرغب الناس فيه . وكانت تقول له : لو حججت بي فأمُرّ على أهلى وأراهم ؟ فحج بها فأتى مكة ثم أتى المدينة فنزل في بنى النضير — وكانت له بهم صلة وصداقة — وكان قومها يخالطون بني النَّضِير فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى : انه خارج بى قبل أن يخرج الشهرُ الحرام[2] فتعالوا اليه وأخبِرُوه انكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحتُهُ سَبِيَّةً وافتدونى منه فانه لا يرى أنى أفارقه ولا أختار عليه أحداً . فأتوه فسقوه الشراب . فلما ثمل قالوا له : فادنا بصاحبتنا فانها وسيطة النسب فينا معروفته وان علينا سُبَّةً أن تكون سبية ، فاذا صارت الينا وأردت معاودتها فعلنا . فقال لهم : ذلك لكم . ولكن لى الشرط فيها أن تخيروها ، فان اختارتني انطلقت معى الى ولدها ، وان اختارتكم انطلقتم بها . قالوا : ذلك لك . فلما كان الغد جاؤوه فامتنع من فدائها . فقالوا له : قد فاديتنا بها منذ البارحة ، وشهد عليك بذلك جماعة ممن حضر . فلم يجد الى الامتناع سبيلاً ، وفاداها . فلما فادوه بها خيروها ،

١ بلاغات النساء ص ٨٧ ٢ تريد قبل أن يظهر هلال الشهر الحرام

فاختارت أهلها ، ثم أقبلت عليه فقالت : يا عروة أما انى أقول فيك — وان فارقتك — الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سِترها على بعل خير منك . وأغضَّ طرفاً ، وأقلَّ فحشاً ، وأجودَ يداً ، وأحمى لحقيقته ، وما مَرَّ علىَّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الىَّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمَةُ عروة كذا وكذا — الا سمعته ، ووالله لا أنظرُ في وجه عَطَفانية أبداً ، فارجع راشداً الى ولدك وأحسن اليهم .

فانصرف عنها حزيناً حسيراً وفيها يقول قصيدته التى مطلعها :

أرِقت وصُحبتى بمضيق عُمْقٍ لبرق من تِهامةَ مُستطير

سقى سلمى وأين ديار سلمى اذا كانت مجاورة السَّدير[1]

أقول : ولم يكن غريباً عند العرب أن تفعل المرأة ما فعلته سلمى اذا استطاعت الى الخلاص سبيلاً . ولكن الغريب ألّا تفعله وهى قادرة عليه . كما حدثوا أن ربيعة أُغير عليهم ، فسبيت ابنة لأمير لهم ، فجهد الأمير في استردادها . حتى اذا خُيِّرَت بين أبيها وسابيها ، آثرت من هى عنده . فراعَ الأميرَ ذلك ، وغضب له قومه ، وسَنَّ لهم وأد البنات ، وسنوه هم لمن سواهم ، ويروون شبيه ذلك عن قيس بن عاصم

***

أما الوأد فأشد وأشنع ما اقترفته يد ظالمة آثمة ، في نفس بريئة طاهرة . وذلك أن يعمد الرجل الى وليدته وقد بدأت تستقبل الوجود وتستنشى نسيم

١ الأغاني ج ٢ ص ١٨٥

الحياة ، فيقذفها في حفرة من الأرض ، ويَهيل على جسمها التراب ، ثم يدعها في غمرة الموت بين طِباق الأرض ! ! . ولو أننا افترضنا تلك الجريمة الموبقة بين جمهور العرب لما آمنا بتلك الجيوش الخضارم[1] التي وطئت نواصي الأرض ، وطوّقت أعناق الأمم ، وهم أبناؤهم وحَفَدَتهم . والحق أن الوأد لم يكن معروفاً الا في فرائق من ربيعة وكِنْدة وتميم ، وأفذاذ[2] مغمورين لا يُعَدُّون قلةً من مختلف القبائل[3] . وهم بين رجلين : رجل أملق من عقل ومال ، فهو يخشى أن يسيء الفقر الى أدب ابنته ، ويهتك من سترها ، ويبذل من عرضها . وذلك جبان لا عزم له ولا ثقة ولا ايمان . والعرب براء منه . وآخر من سَراة القوم ذهبت بعقله الغَيرة ، وهوى بنفسه الإشفاق من تبدل الحوادث ، وتداول المَثُلات[4] ، وماعسى أن يصيبها من ذل أوسباء . وذلك وأمثاله شرٌ مكانا وأقل عددا

ذلك وقد نهض من سادات العرب من حال دون الوأد بما بذل من مال جم ، وسعى حميد .

ومن بين هؤلاء صَعْصَعَة بن ناجية التميمي . فقد كان يتلمس من مسها المخاض فيغدو اليها ويستوهب الرجل حياة مولوده ان كان بنتاً على أن يبذل له في سبيل ذلك بعيراً وناقتين عُشَرَاوَين[5] . فجاء الاسلام وقد افتدى أربعمائة وليدة[6]

ومنهم زيد بن عمرو بن نُفَيل القرشيّ . كان يضرب بين مضارب القوم

---

١ الخضارم — جمع خضرم بكسر الخاء والراء — الكثير الوفير من كل شيء
٢ أفذاذ — جمع فذ — افراد ٣ بلوغ الارب ج ٣ ص ٤٢ — ٤٣
٤ المثلات — جمع مثلة — العبر ٥ الناقة العشراء التي أتى عليها من وقت حملها عشرة أشهر ٦ الأغاني ج ١٩ ص ٣

فاذا بَصُر برجل يَهُم بوأد ابنته قال له : لاتقتلها ، أنا أكفيك مؤونتها . فيأخذها ويلي أمرها حتى تشِبّ عن الطوق فيقول لأبيها : ان شئت دفعتها اليك ، وان شئت كفيتك مؤونتها[1]

وللعرب غير السباء والوأد هَنَوات ظلموا بها المرأة ، وموعدنا بذكرها والوفاء بها عند الكلام عن المرأة العربية في عهد اسلامها ان شاء الله .

ولعمري اذا نحن أرخينا الستر على تلك المظالم وضربنا صفحاً عن أولئك الوائدين من القوم ، فانا واجدو العرب من وراء ذلك يكادون يذوبون عطفاً وحناناً على بناتهم ، فهم ينزلون عما ملكت أيمانهم اغلاء لهن ، وايثاراً للعز والنعمة والدلال فيهن . وأذكر أن صعصعة بن معاوية خطب الى عامر بن الظَّرِب حكيم العرب ابنته عمرة فقال : يا صَعْصَعة ، انك أتيتني تشترى مني كَبِدي ، فارحم ولدي قبلتك أو رددتك ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفرُّ من السر الى العلانية . يا معشر عَدْوَان خرجتْ من بين أظهركم كريمتكم ، من غير رهبة ولا رغبة ؛ أقسم لولا قَسْم الحظوظ على الجدود ، ما ترك الأول للآخر مايعيش به[2]

---

١ تيسير الوصول ج ٣ ص ١١٣ ٢ العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٢

— ٢ —

سمو أدبها ونفاذ لُبّها

ان المرأة التى انحسرت عن أشد أمم الأرض بأساً ، وأسماها نفسا ، وأدقّها حِسًّا ، وأرسخها في المكرُمات أقداما ، وأرفعها في الحادثات أعلاما ، وأوفرها في المشكلات أحلاما ، وأمدّها في الكرم باعا ، وأرحبها في المجد ذراعا ؛ تلك المرأة التى انحسرت عن هذه الأمة ، وأحلّها الرجل أسمى المواطن من نفسه ورأيه ومشورته ، لحرىٌّ بالقلم أن يقف دون وصفها خاشعا متراجعا

نشأت المرأة العربية ونشأ معها نصيبها من عزة الجانب وحرمة الرأى . « وقد علمت مما أسلفنا لك وستعلم مما يمر بك انها بلغت منهما غايتهما » فأنالها ذلك فضل ما وصلت اليه من شرف النفس ، ومضاء القلب ، ونفاذ الرأى ، وسموّ العاطفة .

ان المرأة التى سُلِبَتْ نفسَها ورأيَها ، وحُرِمت نصيبَها من الوجود ، ووُسِمَتْ بوِسام[1] من الذل والهوان ، لا تكون امرأة فاضلة ، ولا تنكشف عن أُمّة فاضلة . ذلك لأن المرأة اذا استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها . وأحر بمن هانت عليه نفسه ألا يمتنع عن دنيّة ، ولا يعتصم من منقصة .

---

١ الوسام ما وسم به الحيوان

كل ذلك أدركه العرب منذ التاريخ القديم . فقد ذكر كلاى « Clay »[1] — فيما وصل من مباحثه عن دولة بابل الأولى أو العمالقة الأقدمين « ٢٤٦٠ — ٢٠٨١ ق . م » — أن المرأة يومذاك كانت ممتعة بحريتها كاملة غير منقوصة وانها كانت هي والرجل على سواء في تصريف الرأى ، وتسنُّم المناصب

كذلك كان نساء العرب منذ أربعة وأربعين قرنا لا فرق بينهن وبين أحدث نساء هذا العصر مدنية الا أنهن فطرة الله وصِبْغته ، ونثار الطبيعة وأنوارها[2] ، لم تثقلهن كُلْفة ، ولم تحجب صفاءهن صناعة . قلب نقيّ ، ووجه غير مخضوب .

ان الكذب والزور والخديعة والخيانة وأشباه تلك الدنايا لا تجد السبيل الى قلب المرأة العربية لأنها جميعاً من فضول النفس الضعيفة وهي بمنجاة عن ذلك الضعف .

وأين للضعف من سبيل الى المرأة التى تقول وقد استَحَرَّ القتل بقادتها والحُماة المدافعين عنها

أبوا أن يفروا والقَنَا في نحورهم ... ولم يبتغوا من رهبة الموت سُلَّما
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ... ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما

تلك هي المرأة العربية في قَصِيّ عهدها ، وبعيد أمدها . قوة في حياء ،

---

١ Clay 166 ويذكرنا قول كلاي هذا بما روى الميداني ان أول مثل قالته العرب قولهم « المرأة من المرء وكل أدماء من آدم » يريدون ان ليس هناك ما يفرق بين المرء والمرأة . واذا علمت ان الامثال كلمات خلقت مع العرب وخلطت بماء نفوسهم فما ظنك بأول أمثالهم والى أين يصل الظن بعهده ويوم مقاله ٢ أنوار — جمع نور بفتح النون — وهو الزهر أو الابيض منه

ورقة في مضاء ، وذكاء في صفاء ، ورعى ووَفاء ، وصبر على اللأْوَاء ، وحَدَب على الأزواج والأبناء .

ونحن أولاء موفون لك الكلام على المرأة العربية في حياتها الزوجية ، ثم في عهد الأمومة ، ثم في حياتها العامة .

حياتها الزوجية

ما أسبغ الله على امرئ نعمةً أعظم أثراً ، ولا أسنى خَطَراً ، ولا أجمع لشتّات النعم ، ولا أجلبَ لنعيم الحياة من المرأة الصالحة . هي عُدَّة في الشدة ، وزينة في الرخاء . هي منار أمل الرجل ، منها يستمده ، وبها يستفيده ، واليها يعود به .

تلك هي المرأة الصالحة . فأما أحفل مشاهدها ، وأخصب منابتها ، فبين تلك المهامه[1] القفراء ، والأطلال البوالى من بلاد العرب . واليك آية ما نقول :

يقوم صلاح الزوجة على دعائم ثلاث اذا تكاملت لها وتوافرت فيها صُرِفت عن كل شيء الا الوفاء بواجبها

أولاها : حسن اختيارها . الثانية : رعايتها وبذل الود والوفاء لها . الثالثة شرف الرجل وعفته وبعد همته

١ المهامه — جمع مهمه — المفاوز البعيدة

اختيار الزوجة

كان مرجع العربى في اختيار عشيرته الى شرف الحسب وسناء الذكر . وليس بضائره ما عسى أن ينال ذلك من فقر وإقتار . بل قد يطلب السيد الكريم في زوجه أن يخالط شرفَها فراغُ يدها حتى يدرأ بذلك ماعسى أن يحدثه الثراء من الصَّلَف والكبرياء ، فقد نزع قيس بن زهير سيد عبس وبطلها الى النَّمِرِ بن قاسط[1] بعد أن أسرف في الدماء يوم الهبَاءة[2] فقال :

١ بطن من بطون ربيعة ٢ الهباءة مستنقع بيلاد غطفان وقعت دونه وقعة رائعة من وقائع « داحس والغبراء » فيها استحر القتل بالفريقين من عبس وذبيان حتى انتصف النهار وحجز الحر بينهم . فلما تحاجز الفريقان أقبل حذيفة بن بدر ومن معه من سادات ذبيان الى جفر الهباءة — والجفر البئر الواسعة — ليبتردوا فيه فعلم قيس بن زهير بمسيرهم فتأثرهم هو وخاصة أصحابه ووقفوا بهم والسيوف مصلتة بأيديهم وأخذ قيس ينادي بملء فيه ابيكم ابيكم — يخاطب أطفالا من عبس كانوا رهائن عند حذيفة فغدر بهم حذيفة وأخذ ينصب الطفل غرضا على مشهد من قومه ويقول ناد أباك فينادي أباه فلا يزال يرميه بالنبل حتى يموت — فقال حمل بن بدر نشدتك الرحم ياقيس فقال قيس ابيكم ابيكم وقال حذيفة خذ بني حمل بابنائكم ونرد السبق فقال قيس ابيكم ابيكم ثم عمدوا الى القوم فمزقوهم بالسيوف ومثلوا بجثمان حذيفة تمثيلا معيبا وأدركت قيسا الملامة مما فعل وساوره الحزن على حمل بن بدر فقال فيه :

تعلم ان خير الناس ميت ... على جفر الهباءة لايريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكى ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر ... يغى والبغي مرتعه وخيم
أظن الحلم دل علىّ قومي ... وقد يستجهل الرجل الحليم
ألاقى من رجال منكرات ... فأنكرها وما أنا بالظلوم
ومارست الرجال ومارسوني ... فعوج علىّ ومستقيم

يا معشر النمر نزعت اليكم غريباً حزينا ، فانظروا لى امرأة أتزوجها ، قد أذلّها الفقر ، وأدّبها الغنى ، لها حَسَب وجَمال . فزوجوه على هيئة ما طلب فكانت آثر الناس عنده وأذهبهم لبلواه[1]

ومنهم من كان يخطب في المرأة سعة الحيلة ، ومضاء الذكاء . وما أرادوا بذلك الا أن يكون ذكاؤها تراثا لبنيها . كما زعموا أن امرأ القيس الكندي آلى بأليّة[2] ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين . فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر . فبينا هو يسير في جوف الليل اذا برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته فقال : ياجارية ما ثمانية وأربعة وثنتان . فقالت : أما ثمانية فأطباء الكابة[3] ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما اثنتان فثديا المرأة . فخطبها الى أبيها ، فارتضى خِطبتَهُ ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال ، فجعل لها ذلك ، وعلى أن يسوق اليها مائة من الإبل . فلما بلغ الموعدُ استاق اليها الإبل ومولًى له معه ، حتى اذا كانا ببعض الطريق وامرؤ القيس على شفير بئر يشرب رمى به مولاه ، وذهب بالإبل حتى أتى الفتاة . فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جزُوراً[4] وأطعموه من كَرِشها وذنبها[5] . ففعلوا . فقالت : اسقوه لبنا حاذراً[6] . فسقوه فشرب . فقالت : افرشوا له بين الفَرْث والدم[7] . ففرشوا له ، فنام . فلما أصبح

١ العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٣ ٢ آلى بأليّة أقسم يمينا ٣ الاطباء — جمع طبي — بضم الطاء وكسرها — حلمات ضرع الحيوان ومثلها الاخلاف — جمع خلف بكسر الخاء — للبهائم . ومثلها الاثداء جمع ثدي للمرأة ٤ الجزور الناقة المجزورة وجمعها جزائر وجزر ٥ حتى تعرف ان كان لئيم الحسب فيأكل أو شريفا فيمتنع ٦ حاذراً حامضاً ٧ الفرث الروث في الكرش

قالت : عليكم العبدَ فشدوا أيديكم به . ففعلوا . وما عرفت ذلك منه الا لرضاه بالدنية وقراره على الهوان

قالوا : ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر فعاود حيّه واستاق مائة من الإبل وقصد الى فتاته فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها . فلما أتوه بهما قال : وأين الكبد والسَّنام ؟ وأبي أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً حاذراً . فأباه وقال : أين الصريف والرئيئة[1] ؟ فقالت : افرشوا له بين الفرث والدم . فأبى أن ينام ، وقال : افرشوا لى فوق التَّلْعَة[2] الحمراء ، واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت اليه : هلم شريطتى اليك في المسائل الثلاث . فأرسل اليها أن سلى عما شئت . فقالت : مم تختلج شفَتَاك[3] ؟ قال : لشربى المُشَعْشَعات[4] . قالت : فم يختلج كشحاك[5] ؟ قال : للبس الحَبِرَات . قالت : فم يختلج فخذاك ؟ قال : لركض المُطَهَّمات[6] . قالت : هذا زوجى لعمرى فعليكم به ، ودونكم العبد فاقتلوه[7] .

وهل أتاك حديث « شَنٍّ » — وكان رجلاً من دهاة العرب وعقلائهم — اذ قال : والله لأُطَوِّفَنَّ حتى أجد امرأة مثلى أتزوجها . فبينما هو في بعض مسيره اذ وافقه رجل في الطريق . فسأله شَنٌّ : أين تريد ؟ فقال : موضع كذا — يريد

١ الصريف الخمر الطيبة أو اللبن لا يمزج بشيء والرئيئة أن تحلب حليبا على حامض فيروب ويغلظ ٢ التلعة مجرى الماء من أعلى الوادي الى بطون الارض ٣ الاختلاج الاضطراب أحيانا ٤ الخمر المشعشعة الممزوجة بالماء ٥ الكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف ٦ الركض الاسراع والمطهم من الخيل الحسن التام كل شيء منه على حدته

٧ الأغاني ج ٨ ص ٧١ — ٧٢

القرية التي يقصدها شَنّ — فوافقه ، حتى اذا أخذا في مسيرهما قال له شَنّ : أتحملني أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب فكيف أحملك أو تحملني ؟! فسكت عنه شنّ . وسارا حتى اذا قربا من القرية اذا بزرع قد استحصد[1] . فقال شنّ : أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ترى نبتا مستحصدا فنقول أكل أم لا ؟! فسكت عنه شنّ . حتى اذا دخلا القرية لقيتهما جنازة ، فقال شنّ : أترى صاحب هذا النعش حيا أو ميتا ؟ فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ترى جنازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حيّ ؟! فسكت شنّ وأراد مفارقته ، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به الى منزله ، فمضى معه . وكان للرجل بنت يقال لها « طَبَقَة » فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه . فأخبرها بمرافقته اياه ، وشكا اليها جهله ، وحدثها بحديثه . فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ! أما قوله أتحملني أم أحملك ، فأراد أتحدثني أم أحدثك ، حتى نقطع طريقنا . وأما قوله أترى هذا الزرع أكل أم لا ، فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا . وأما قوله في الجنازة ، فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا . فخرج الرجل فجلس الى شنّ ، فحادثه ساعة ، ثم قال : أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه ؟ قال : نعم . ففسره . فقال شن : ما هذا من كلامك ، فاخبرني من صاحبه ؟ قال : ابنة لي . فخطبها اليه ، فزوجه اياها ، وحملها الى أهله . فلما رأوها قالوا : وافق شنّ طبقة . فذهبت مثلاً لكل اثنين متوافقين[2] .

١ استحصد الزرع حان حصاده ٢ مجمع الامثال ج ٢ ص ٢١١

وكان مرجع الرأي في الأمر كله الى الفتاة . فقد كان لها — اذا ذُكر عن خطيبها ما يُهجّنه ، أو وُصف منه ما ينبو الطبع عنه ، أو نزلت من الأمر على ما يحول دون الزواج به — أن تَرُدَّ خِطْبَتَهُ ، وليس لأهلها أن يستاقوها قسراً اليه . بذلك تجمل أشرافهم واستَنَّ في أثرهم مَن دونهم . وفي سبيل ذلك أبت الخَنْساء بنت عمرو بن الشَّريد أن تساق الى دريد بن الصِّمة — وكان سيد قومه وفارسهم وشاعرهم — لأن بينهما من تفاوت السن ما يرنّق[1] صفو العيش ويسيء طبع العشير

ولما أقبل سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب على عتبة بن ربيعة يخطبان اليه ابنته هندا عرض عليها أمر كل منهما وحسر لها عن بَيِّنة أمره في نفسه ، وأسرته ، وعشيرته ، فآثرت أبا سفيان فزُوِّجت منه .

وقالوا : ان الحارث بن سَلِيل الأسدي زار عَلْقَمة بن خَصَفة الطائي — وكانا حليفين ، وكلاهما سيد قومه — فأبصر ابنته الزباء — وكانت كأجمل أهل دهرها — فخطبها اليه ، فقال له علقمة : أنت كفء كريم يُقْبَل منك الصفو ويُؤْخَذ منك العفو ، فأقم ننظر في أمرك — وأبى أن يَقْطَع القول له — ثم انكفأ الى أمها فقال لها : ان الحارث بن سَلِيل سيد قومه حَسَباً ومَنْصِباً[3] وبيتاً وقد خطب الينا الزباء فلا ينصرفن الا بحاجته . فنهضت المرأة الى ابنتها ، وأنشأت تؤامرها[4] في أمر الحارث — وكان الحارث شيخاً لا شباب فيه — فكان أول ما بدأتها أن سألتها : أيُّ الرجال أحب اليك الكهل الجَحْجاح[5] ،

١ يرنق يكدر ٢ العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٤ ٣ المنصب الاصل ٤ آمره شاوره
٥ الجحجاح السيد وجمعه جحاجح وجحاجحة وجحاجيح

الواصلُ المَنَّاح[1]، أم الفتى الوضَّاح[2] ؟ وهنالك تجاذبا الحِوَار[3] في أيهما أمثل بالفتاة وأولى لها . وكلٌّ يؤثر شكله ، ويضرب الأمثال في نفاذ قوله . على أن الأمَّ كانت أدلَّ بحجتها . فنزلت ابنتها دون رأيها ... فهل رأيت مدى في الحرية أبعد من هذا[4] ؟

وشبيه ذلك ما حدثوا أن زَيْد الخيل[5]، وأوس بن حارثة ، وحاتم بن عبد الله الطائيّين نزعوا الى ماوِيَّة ابنة عَفْزَر احدى ملكات الحِيرَة[6] يخطبونها فقالت : ليَصِفْ كل انسان منكم نفسه . فقال زيد : أنا زيد الخيل ، تفخر بى طيّئ على العرب ، ولي في كل مِرْباع[7] غنيمة ، وغزَوت ثلاثاً وسبعين غزاة ، لم تثكل طائية فيها ولدا ، ولم تُفْجَع فيها بحليل ، ولم أخب في شيء منها ، ثم انى لم أرُدَّ سائلاً ولم أُلَاحِ[8] جاهلاً ، ولم أنطق باطلاً ، ولم أبت على وَغَم[9] . فقال أوس : أوَّلُ ما أخَذْتُ من لحيتى قامت سُعْدَى فالتقطت كل شعرة سقطت منها فأعتقت بها نسمة من معد . فقال حاتم : أنهبت مالي ثلاث عشرة مرة ، وأحَلَّتْ لي طيئ

١ المناح الكثير العطاء ٢ الوضاح الجميل ٣ الحوار المحاورة

٤ امثال أبي هلال ص ١٨٣ — ١٨٤ والميداني ج ١ ص ٨١ — ٨٢ ٥ زيد الخيل بطل من أبطال العرب وسيد من سادات طيئ اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يديه أسلم وقال فيه صلى الله عليه وسلم : ما وصف لى أحد من العرب الا رأيته دون ما وصف لى الا زيد الخيل فقد رأيته فوق ما وصف . وسماه رسول الله زيد الخير

٦ كذا يقول صاحب الأغاني ويقول صاحب لسان العرب انها كانت قينة من قيان الحيرة وأظن ذلك بعيدا عن الحق فكيف لامرأة مبتذلة ان يسارع ثلاثة من هامات العرب الى زواجها

٧ المرباع ربع الغنيمة الذى كان يتقاضاه الرئيس في الجاهلية . يريد : ان له على كل رئيس سلطانا ٨ الملاحاة المشادة في القول والافراط في الجدل فيه ٩ الوغم الثأر أو الحقد أو القهر

اموالها : آخذ ماشئت وأدَع ماشئت . قالت : هاتوا بذلك شعراً . فتنازعوا ذلك القول شعراً . فلما انتهوا قالت : أما انت يازيد فقد وَتَرْت العرب ، فقام الحرة معك قليل . وأما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر ، والدخول عليهن شديد . وأما أنت ياحاتم فرجل كريم المنتسب ، قريب المنصب ، وقد تزوجتك ، ورضيت بك . فتزوجها[1]

وقد أسلفنا لك حديث أوس بن حارثة ، ومؤامرَته بناته في زواجهن ، وفيه بلاغ .

وقلَّ أن غُلبت امرأة من العرب في أمر زواجها على أمرها . ومن حديثهم أن ملكاً من ملوك غسَّان[2] كان يَغْدِر النساء ، لا يبلغه عن امرأة جمال الا أخذها غير آبه برأيها ورضاها ، فأخذ بنت يزيد بن الصَّعِق الكِلَابى — وكان أبوها غائباً — فلما قَدِم أُخبر ، فوفد اليه ، فصادفه مُنْتَدِياً[3] — وكان الملك اذا انتدى لا يُحجَب عنه أحد — فوقف بين يديه فقال :

يأيها الملك المُقِيت[4] أما ترى ... ليلاً وصبحاً كيف يختلفان
هل تستطيع الشمس أن تأتي بها ... ليلاً وهل لك بالمليك يدان
فاعلمْ وأيقن أن ملكك زائل ... واعلم بأنَّ «وكما تَدِين تُدَان»

فأجابه الملك فقال :

ان التى سَلَبت فؤادَك خُطَّةٌ ... مرفوضة مِلآنَ[5] يا ابن كلاب
فارجع بحاجتك التى طالبتها ... والحق بقومك في هِضَاب إراب

١ أمثال أبى هلال ص ١٥٤ والأغاني ج ١١ ص ١٠٤ — ١٠٦ ٢ هم ملوك الشام وهم بقية من ملوك اليمن ٣ انتدى الرجل جلس في نادى قومه
٤ المقيت المقتدر ٥ ملآن أصلها من الآن

ثم نادى ان هذه السُّنَّة مرفوضة[1].

وربما اختارت المرأة لنفسها وهي في الشرف الصميم، والمجد القديم، من قومها، فلا لوم ولا نكير. وما كانت تخطب منه الا صفو الخلق، وكرم الضريبة. فقد وصف لخديجة بنت خويلد محمد بن عبدالله – صلوات الله عليه – وما كمله الله به، من أدب طاهر، وخُلُق عظيم، فخطبته لنفسها، وكانت أكرم زوجاته عليه، وأبقاهن أثراً عنده، وأسناهن ذكراً في الحياة.

وقد حدثوا أن بني كنانة توقعت غارة يفجؤها بها بعض الضاربين حولها من القبائل، فخرجت احدى كرائم الحي، وجلست بين صواحب لها، ثم دعت وليدة من ولائدها وقالت: ادعي لي فلانا، فدعت لها رجلا من الحي، فقالت له: ان نفسي تحدثني أن خيلاً تُغير على الحي فكيف أنت ان زوجتك نفسي؟ قال: أفعل وأفعل – وجعل يطنب في وصف نفسه ويفيض – فقالت له: انصرف حتى أرى رأيي. وأقبلت على صواحبها فقالت: ليس عنده غَناء. ادعي لي فلانا فدعت آخر. فخاطبته بمثل ما خاطبت صاحبه، وأجابها بمثل جوابه. فصرفته. ثم قالت للوليدة: ادعي لي رَبيعة بن مُكدَّم. فقالت له مثل قولها للرجلين قبله. فقال لها: ان أعجز العجز أن يصف الرجل نفسه، ولكني ان لقيت أعذرت[2]، وحسبُ المرءِ غَناءً أن يُعذِر. فقالت له: قد زوجتك نفسي، فاحضر غداً مجلس الحي ليعلموا ذلك. فلما كان الغد تزوجها، وخرج من عندها، ودافع الخيل، وردَّ كيد المعتدين.

١ أمثال أبي هلال ١٥٤ — ١٥٥ ٢ أعذرت أي أصبت العذر

وكذلك كان حسن الاختيار مجاذبة بين المرء وزوجه، هي تختار منه شرف الهمة، وسناء القدر، وهو يخطب فيها كرم المنبت، وجلال الخلال

لقد نشأت الفتاة بين أم كريمة، وأب كريم، فليس عجيباً أن تبتغي العشير الكريم. لقد أحلَّها أبوها موطن الرعاية والإكرام، وزودتها أمها بزاد من الأدب والفضائل، وليس من الحق أن يضيع كل ذلك عند زوج مُضيع.

كذلك كانت المرأة العربية زهرة طيبة الغرس، كريمة المجتنى، خرجت من دارة العز، الى دارة الجد وصدق العمل.

ذلك وكان من حق النساء أن يجلسن الى خطابهن من الرجال[1]، ويجاذبنهم عقدة الأمر، وشجون الحديث.

وأكثر ما كان يخطبُ الرجلُ الى غير عشيرته. وحجتهم في ذلك أن الغرائب من النساء أَوْلَدُ للنجباء من الأبناء، فأما بنات العم فلا يلدن فيما زعموا الا ضعاف الأجسام والأحلام. قال قائلهم:

أُنْذِرُ مَن كان بعيد الهمِّ تزويجَ أولاد بنات العمِّ
فليس ناجٍ من ضَوًى[2] وسُقْم

وقال آخر:

أَلا فَتًى نال العلى بِهِمّه ليس أبوه بابن عم أُمّه
ترى الرجال تهتدى بأُمّه[3]

وعلى هذا النسق سار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: « اغْتَرِبوا

١ العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٢ ٢ الضوى دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو هزالا
٣ الأم — بفتح الهمزة — القصد

لا تُضُوُوا » أي تزوجوا الغرائب ولا تتزوجوا بنات العمومة — حتى لا ينكشفن عن الضعاف[1] —

ومن حديثهم ان عمر بن الخطاب نظر الى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قُرْبُ أمهاتنا من آبائنا . قال : صدقتم . فتزوجوا في البعداء فأنجبوا[2] .

على أن من العرب من كان يؤثر بنات العم لأنهن أصبر على نَبْوَة[3] الخُلُق وريب الزمان . وكان بنو عبس يؤثرونهن ، وقد سئلوا أيّ النساء وجدتم أصبر ؟ فقالوا بنات العم[4] .

***

﴿ وبعد ﴾ فكل ما أسلفنا من حق المرأة في الزواج لم يكن كل ما تملك المرأة منه ، بل كان لها فوق ذلك فصل القول في فصمه . لقد كان من حق المرأة في حاشية الجزيرة العربية ، وبين أعطاف الزمن السحيق العميق ، أن تطلق الرجل ، كما كان لها الحق أن تختاره ! قال أبو الفرج « وكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية[5] .

ولم يكن النساء يومذاك في حاجة الى المصارحة بالطلاق ، بل كان حسب البدويات منهن أن يحولن أبواب أخبيتهن ان كانت الى الشرق فالى الغرب ، أو كانت الى الجنوب فالى الشمال[6] .

---

١ تاج العروس ج ١٠ ص ٢٢١ ٢ محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٥٩ ٣ نبوة الخلق ما يشوبه أحيانا من السوء ٤ عيون الاخبار ج ١ ص ١٩٧ ٥ الاغاني ج ١٦ ص ١٠٢ ٦ الاغاني ج ١٦ ص ١٠٢

كذلك طلقت ماوية بنت عَنْزَر زوجها حاتما حين أمعن به جنون الكرم فلم يُبْقِ لأبنائه ما يتبلغون به .

وفي سبيل ذلك أرسل اليها قصيدته التي استهلّها بقوله :

هل الدهر الا اليوم أو أمسِ أو غدُ ... كذاك الزمان بيننا يتردد

وفيها يقول :

فأقسمت لا أمشي على سرجارتي ... مَدَى الدهر ما دام الحمام يُغَرِّد
ولا أشترى ما لا بغدر علمته ... ألا كل مال خالط الغدر أنكدُ
اذا كان بعض المال ربًّا لأهله ... فاني بحمد الله مالي مَعْبَدُ
يُفَكُّ به العاني ويؤكل طيبًا ... ويعطى اذا مَنَّ البخيل المُطَرَّدُ[1]
اذا ما البخيل الخَبُّ[2] أخمد ناره ... أقول لمن يصلى بنارِيَ أَوْقِدُوا

ولهن — اذا لم يكنّ ذوات أخبية — أساليب يدللن بها الرجال على الطلاق ، فليس لهم عليهن من سبيل .

قال ابو هلال : وكانت عَمْرَة بنت سعد ، ومارِيَة بنت الجُعَيد العَبْدِية ، وعاتِكة بنت مُرَّة السُّلَمِيَّة ، وفاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية ، والسَّوَّاء العَنَزِيَّة وسَلْمَى بنت عمرو بن زيد النجارية وهي أم عبد المطلب بن هاشم ، اذا تزوجت الواحدة منهن رجلاً وأصبحت عنده كان أمرها اليها وتكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاماً اذا أصبح .

---

١ المطرد العرجون شبه به البخيل لجمود نفسه وانقباض يده ٢ الخب — بفتح الخاء وقد تكسر — المخادع الكثير الخداع

على أن من النساء من تناسين هذا الحق فنزلن عنه حياء لأزواجهن . ولكنّ الرجال بغوا في ذلك وأسرفوا حتى ان الرجل ليموت فيقول وليّه — وربما كان أخاه أو ابن عمه : — أنا أحق بامرأته . فينقلها الى داره ، ثم ان شاء استبقاها لنفسه ، وان شاء زوجها وذهب بمهرها ! ذلك ما نهى الإسلام عنه ، وقطع أسباب الأخذ به[1]

كرامتها على زوجها

هنالك فيما أوردنا من حديث القوم ، وأسلفنا من مساق أشعارهم ، وشتات آرائهم ، علمت مكان المرأة من زوجها ، واستمكانها من نفسه ، واحتكامها بذات يده ، واستئثارها بالصميم من قلبه ، ورأيت كيف حرصه عليها ، واحتفاظه بها ، ووفاؤه لها ، وتفديته اياها بالتالد والطريف من ماله ، والحر الشريف من دمه .

لقد كان العربي يعتد زوجه العشير الأدنى ، والمشير الأمين ، وكان يُطرق لقولها ، ويطمئن الى رأيها ، ويسكن دون الصفيّ العذب من لفظها ، وكان عزيزاً عليه أن تطلب فلا تجاب ، أو تشفع فلا تُشَفَّع .

ولقد كان من أمر عمرو بن حُجْر يوم خطب الى عوف بن مُحَلِّم ابنته أن أمهرها ضيعة له في كندة ، وأضاف الى ذلك أن يمنحها حاجات قومها ، فلا تُرَدُّ لأحد منهم حاجة ، وكان ذلك شرطاً معقودا .

---

١ وانا لعائدون الى هذا الموضوع فموفوه البيان في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله

أما لقد نشب الحرب بين أعظم شعوب العرب — عدنان وقحطان — حتى انقلب بها ميزان القوة ، واستحالت لها مقادة الملك للطمة أصابت امرأة من زوجها .

ذلك ان ملوك اليمن كانت لهم سيادة العرب جميعاً . وكانوا يرسلون ولاتهم وعمالهم يجمعون لهم الأتاوى[1] ، ويرهقون العرب في سبيلها ارهاقاً لا يطاق ، وكانت ربيعة قد انتقضت على اليمن فرماها الملك بوالٍ عتيد شديد هو لَبيد بن عَنْبَسَة الغَسّاني فأقام فيهم وتزوج امرأة منهم يقال لها عَمْرَة بنت الحَبَاب التَّغْلَبية فبينا هو يحدثها ذات يوم قال لها : ما بال كُلَيب — عظيم ربيعة — ينصر مُضَر ويتهدد الملوك ؟ قالت : لا أعلم في ولد اسماعيل ذا لِبْدَة هو أشد منه ! فهاج ذلك القول لبيداً حتى عمد اليها فلطمها وقال لها : أترَين أنك حرة ؟ أنت أمَتي فاقبلي ما يأتيك منا معشر الملوك . قالت : أنا أكرم منك . ثم خرجت مُغْضَبة حتى انتهت الى كليب وهي تقول :

ما كنت أحسب والحوادث جمة	انا عبيد الحي من غَسّان
حتى علتني من لبيد لطمة	سُجِرَت لها من حرها العينان[3]
ان ترض تَغْلِب وائل بفعالهم	تكن الأذلة عند كل رهان
لولا الوجيهة قطّعتني بَكْرَةٌ	جرباء مُشْعَلة من القَطِران[4]

---

١ الاتاوى — جمع أتاوة بكسر الهمزة — الخراج ٢ اللبدة الشعر المجتمع بين كتفي الاسد
٣ سجرت عينه خالط بياضها حمرة ٤ الوجيهة أم عمرة وآباؤها من الأزد وهم بطن من اليمن فبينها وبين لبيد صلة النسب وكان لبيد قد قال لعمرة لولا أمك الوجيهة قرنتك الى ناقة مشعلة بالقطران ثم زجرتها بك حتى تقطعك

فلما سمعها كليب خرج حتى هتك على لبيد قُبَّته ، وصدع بالسيف هامته ، وهنالك ساقت اليمن جحافلها ، وجمعت مضر وربيعة جموعها ، وقاد الأولين عمرو بن بابل اللَّخْمي ، ورأس الآخرين كليب بن ربيعة التَّغْلبي ، واقتتل الفريقان من صبيحة اليوم الى أصيله في موقعة بذلت فيها المهج ، وبيعت الأرواح بيع السماح ، ثم حمل كليب على عمرو فحال أصحابه دونه بالرماح . ويقولون ان أربعة آلاف سيف عرضت دونه فشقها كليب جميعاً حتى انتهى الى عمرو فطعنه فقصم صلبه ، وحملت ربيعة في اثره ، ومضر من ورائها ، حتى أوقعوا بجيوش اليمن ، ومزقوها كل ممزق ، وحرروا العرب من وسم عارها ، وذل اسارها [1] .

ولعمر أبيك ما كان مثل الزوجين في تودهما وتآلفهما وتجاذب الود والولاء بينهما الا كما قالت صفية الباهلية في رثاء زوجها :

عشنا جميعاً كغصني بانة سمقا ... حيناً على غير ما تَنْمي له الشجر
حتى اذا قيل قد طابت فروعهما ... وطال قنواهما واستنضر الثمر
أخنى على واحدى ريب الزمان ولا ... يبقى الزمان على شيء ولا يذر
فاذهب وحيداً على ما كان من اثر ... فقد ذهبت فأنت السمع والبصر
وما رأيتك في قوم أسر بهم ... الا وأنت الذى في القوم تشتهر
كنا كأنجم ليل بيننا قمر ... يجلو الدجى فهوى من بيننا القمر

وربما نادى الرجل امرأته فذكر اسمها مجرداً لأنه للود أوثق ، وبالقلب ألصق ، وقد يذكره مصغراً لأن ذلك أروح لنفسها وأبقى على الدلال فيها .

---

١ بكر وتغلب ص ١٥ — ٢٥

وقد يكنى عنه بما هو من خاصة شأنها ، ولِزام أمرها ، فيقول : يا ربة البيت . كما يقول مُرَّة بن مَحْكان التميمي :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ... ضمي اليك رِحال القوم والقربا

أو يا ربة الخِدْر كقول من يقول :

ألم تعلمي يا ربة الخدر انني ... أبيٌّ اذا رام العدوّ تهضمي

وربما سما بندائها فألطفه بأسنى مفاخرها ، كما يقول قيس بن عاصم المِنْقَري يخاطب زوجه مَنْفُوسة بنت زيد الخيل — وكانت قد أتته بطعامه في الليلة الثانية من بنائه بها فقال لها : أين أكيلي ؟ فلم تعلم ما يريد حتى قال :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذى البردين والفرس النَّهْد [1]
اذا ما صنعت الزاد فالتمسي له ... أكيلاً فاني لست آكله وحدى
قصيًّا كريماً أو قريباً فانني ... أخاف مذمات الاحاديث من بعدى
واني لعبد الضيف ما دام نازلاً ... وما في صفاتي غيرَها شِيَمُ العبد

---

١ ذو البردين عامر بن احيمر بن بهدلة وانما لقب ذا البردين لان وفود العرب اجتمعت بين يدي محرق ملك العرب فأخرج بردين من ثيابه وقال ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن احيمر فأخذهما فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر فقال محرق أنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال نعم لأن العز كله في معد والعدد في معد ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب فمن أنكر ذلك فليناظرني فسكت الناس فقال له هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك فقال أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وخال عشرة وها أنا في نفسي وشاهد العز شاهدي ثم وضع قدمه على الارض وقال من أزالها من مكانها فله مائة من الابل فلم يقم اليه أحد فخرج بالبردين فضرب بهزه المثل

والفرس النهد الحسن الجميل الجسيم المشرف

شرف الرجل وعفته

اذا رأيت الرجل يغشى مواطن السوء ، ويغتمر مكامن الريب ، ويَعْشام خفيات الدنايا ، فاشفق على زوجه أن يصيبها ما أصابه . لأن القرين سُنَّة القرين والرجل مرآة أخيه . فكيف بزوجه وهي ألزم له ، وأعلم بخبيئة أمره ؟

ان سيرة الرجل في نفسه هي الجزء الأكبر من عرضه . ومن فَرَّط في النصيب الأوفر أوشك أن يتبعه بالأقل . ومن لا أمانة له في نفسه ، لا أمانة له فيمن سواه .

وان تعجب فعجب ما يقول الرجل ان الله اصطفاه وفضله وآثره بوفر العقل ، ورياضة النفس ، وغلبة الهوى . وان المرأة انما هي حِسٌّ ثائر ، وعاطفة نَزّاعة ، يتضاءل العقل بينهما ، ويَتَفَيَّل[1] الرأى دونهما ، ثم هو يجرى في اللهو مخلوع العذار ، لا عاصم له من عقل ودين ، حتى اذا آنس منها مايكره ، أو نزل من أمرها على ما يريب ، طاش لبه ، وانخلع قلبه ، والْتَفَع بقناع العار وجهه ، وحَمَّلها من التَّبِعة ما لو حمّل نفسه اليسير الدنيّ منها لبلغ نظام الكون أقصى مداه من الكمال . ولكنه أساء الى نفسه ، فأساء الى عشيرته ، وتنكب الطريق السوىّ ، فعمت النكبة ، وتوالت المَثُلات . وَمَاظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ذلك مثل ما يختلج بنفوس القوم الذين وهنت ارادتهم دون نزعات أهوائهم

١ يتفيل يخطيء

وناءت نفوسهم بعقبى جرائرهم ، والرجل العربى أبعد ما يكون عن هؤلاء .

انّ الذى يَكْلِمُ العربى في سيرته ، ويرميه في عفته ، انما يطعنه في أمَسِّ صفاته به ، وأبقاها أثراً فيه ، في شجاعته التى أُرهِقَ عليها ، وشرفه الذى يموت دونه ، وهمته التى تضطرم بين جنبيه

ان الرجل الذى يتأثر النساء في مسيرهن ، ويجعل همه ابتغاء المهينات منهن جَبان ، ساقط الهمة ، مغمور العرض ، وليس العربي فى شيء من ذلك .

لقد كان الرجل من هؤلاء القوم يزهيه ويهز عطفيه أن يمدح بعفة المئزر أكثر مما يكون لو مدح بشجاعته واعتزامه . وكان الى ذلك مرجع فخره بنفسه وتمدحه بشمائله . لأن مغالبة النفس ، وقمع الهوى أدل على الشجاع ، وأمثل به من مغالبة الأسد في غيلها ، واقتياد العُصْم[1] من جَوها .

على أننا لا نَكْذِبُ التاريخ ، ولا نَتَبَغَّى المحال ، فنقول ان العرب سنيَّهم ودنيَّهم ، شريفهم ومشروفهم ، كانوا على سواء في اطِّراح المآثم ، واجتناب المحارم ، فذاك سبيل أهل الخيال ، الذين يرون من كل شيء غايته ، ويأخذون من كل مورد أصفاه . فان في تنزيه العرب أنفسهم عن الدنايا دليلاً على وجودها . وكما افترضنا بين غمار العرب الجبان المستطار حق لنا أن نفترض الفاحش المريب . على أن هؤلاء أوزاع من صعاليك العرب وشرادهم كان مغداهم الى اماء قَلَّ بينهن من تنتسب الى العرب ، وكن يتوارين عن العيون بمنجاة عن المدائن والقرى ومضارب خيام البادية . وكان الرجل اذا غدا اليهن ادَّرع الظلام وأرخى ازاره

١ العصم — جمع أعصم — وهو الغراب الابيض الجناحين الاحمر الرجلين والمنقار وذلك عزيز في جنسه

على اثر خطاه فوق الرمال حتى لا يتعرف الناس أثره . وكان العرب يَدْعون المرأة المَهينة بالمُظْلِمة من أجل ذلك . ومن جوامع كلمهم في المدح: فلانٌ لا يُرْخَى لمُظْلِمَةٍ إزَارُه . قالت العَوْراء بنت سُبَيع :

أبكى لعبد الله اذ حُشَّتْ قُبَيل الصبح نارُه[1]
طَيَّانَ طاوِى الكَشْح لا يُرْخَى لمُظامِةٍ إزارُه[2]

أما بغاة الشرف وأبناء سادات العرب فهم بنجوة عن كل ذلك . وقد طرد امرأ القيس أبوه ، ووكل به من يقتله ، لأنه اشتمّ روح الفجور من شعره .

وقالوا : ليس سيداً من غلبته شهوته .

وكان من أكبر المآثم عند العرب أن يلتقى الرجل بالفتاة فيبدأها بالكلام أو يُلقى اليها السلام ، وربما هاج ذلك شراً عقاماً . وقد يكون من ذوى قرباها والراغبين في خطبتها فتحول تحيته دون ما يبتغى . وفي ذلك يقول حُمَيد بن ثور:

وما لى من ذنب اليهم علمته سوى انني قد قلت يا سَرْحةُ اسلمي
نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي ثلاث تحيات وان لم تَكَلَّمي

وقد كف عنترة عن طلب عبلة جارية أبيه وسام نفسه البعد عنها ، والحرمان من زواجها ، لأنه ذكرها في شعره ، حتى لا يثلم سنة العرب ، ولا يحل حرامهم[3] .

---

١ حشت ناره أوقدت . قال التبريزي ** وهذا مثل أرادت انه قتل قبيل الصبح فضربت لقتله مثلا بايقاد النار والعرب تقول أوقدت نار الحرب اذا هاجت **

٢ الطيان صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع والعرب ترى من السيادة الا يشبع الرجل وطاوى الكشح ضامر ليس بضخم الجنبين . والاصل في المظامة المرأة التي أظلم عليها الليل ثم أطلقت على المهينة من النساء ٣ بلوغ الأرب ج ١ ص ١٤٢

ومن أمثال العرب : « كل شيء مَهَة ما خلا النساء وذكرهن » أى كل شيء يسير يحتمله الحر الا أن يذكر النساء وتذاع أخبارهن .

***

لذلك كله ولفرط ما طبعت المرأة عليه منذ نشأتها الأولى من صفاء الفطرة وسماحة الخلق ، وكرم التأديب ، اشتملت الزوجة العربية على خير ما اشتمل عليه فضليات النساء ، من مواتاة الزوج ، والبر به ، والإخلاص له ، والحدب عليه

ولئن ذكر عن الرجال أنهم يموتون ذوداً عن حريمهم ، لقد أثر مثل ذلك عن النساء انهن يمتن دون الدنية في أحرج المواقف وأضيقها ، ايثاراً لشرف أزواجهن على غوالى حياتهن ، وان لك فيما أسلفنا من أمر فاطمة بنت الخُرْشُب وقتلها نفسها دون أن تتخذ سبية أسيرة ودون أن يوصم اسم زوجها وبنيها ما فيه غناء

ومن أمثلتهن في ذلك : « المنية ولا الدنية »

لقد كانت الزوجة العربية من الزوج بحيث لا يملك أمر مادته ولا معناه الا بها . فهي تعلم من أمر الحياة ما يعلم ، وتحسن من رياضة الكلام ما يحسن وتجيد من اجالة الرأى ، وتصريف الأمر ما يجيد . فهي عديل نفسه ، وملاك أمره ، وقوام نظامه . ان أعوزه السمر أطربته ، أو جدَّ به الأمر آزرته ، أو التبس عليه الرأى أوضحته ، أو ضاق به الصدر فرجته .

وحدثوا أن رجلاً من سراة قريش — جمع بين ضيق الخلق وسماح اليد — خطب احدى كرائم قومه وحسيباتهم ، فلما وفق الى قبولها ذهب اليها فقال لها : يا هذه ان فيَّ سوء خلق يعود الى احتمال وتكرُّم ، فان كان بك علىَّ صبر والا فلست أغرُّك مني . فقالت له : ان أسوأ خلقاً منك لمن يحوجك الى سوء

الخلق . . . فما جرت بينهما كلمة حتى فرق بينهما الموت .

وليست تلك بالمتفردة في خلقها فان آثر ما عرف عن نساء العرب جميعاً سعة الصدر ، وطول الأناة . وقد راضهن على ذلك كثرة ما رأينه من تبدل الحال بين عسر ويسار ، وطول ما أَلِفْنَهُ من نشوة الكرم ، وجنون السخاء في أزواجهن ، حتى لا يبقون على ما يتبلغ به أطفالهم . كل ذلك الى ما عهدنه من تتابع الخطوب ، وموالاة الحروب ، وما اليها من ثُكل وفجائع ، مما وطنهن على احتمال الأذى ، وجعل مدى الصبر في صدورهن بعيداً مديداً .

***

والصبر والوفاء توأمان متناسقان ، ورفيقان متلاحقان ، اذا اكتمل أحدهما استتم الآخر . ولئن كان حميداً من المرأة أن تعاشر زوجها على الوفاء له ، فان أحمد من ذلك أن تفي له بعد طلاقها منه ، فتذكر له ولآله خير ما عرفت عنهم . وليس ذلك بعزيز على امرأة أقامت كريمة وفارقت كريمة « إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ باحسان » وسأورد لك من أمرها في ذلك ما يطمئن به قلبك ، ويسكن له ثائر نفسك .

حدث محمد بن زياد الأعرابي قال :

قامت امرأة عروة بن الورد العبسى في نادى قومه بعد أن طلقها فقالت : أما والله انك لَلضَّحُوك مقبلا ، السَّكُوت مدبرا ، خفيف على ظهر الفرس ، ثقيل على مَتْنِ العدو ، رفيع العماد ، كثير الرَّماد ، ترضى الأهل والأجانب . قال : فتزوجها رجل بعده فقال : أثني عليَّ كما أثنيت عليه . قالت : لا تحوجني

الى ذلك فاني ان قلت قلت حقاً . فأبى . فقالت : ان شِمْلَتَكَ الالتفاف[1] ، وان شِربتك الاشتفاف[2] ، وانك لتنام ليلة تخاف ، وتشبع ليلة تضاف .

وحدث أبو عمرو بن العلاء قال : تزوج رجل من بنى غَدَانة بامرأة من جَعدة ثم وقع بين الحيين ما حمله على فراقها فسه من ذلك غَمٌّ وأحزان ، فلما اعتزمت الرحيل قال : استمعي ويستمع من حضر : أما لقد اعتمدتك برغبة ، وعاشرتك بمحبة ، ولم أجد عليك زَلَّة ، ولم تدخلي لك مَلة ، وان كان ظاهرُكِ لَسرورا ، وباطنك للهوى ، ولكن القدر غالب ، وليس له صارف . فقالت له المرأة مجيبة : أثنيت وأنا مثنية ، فجزيت من صاحب ومصحوب خيرا ، فما استربتُ خيرك ، ولا شكوت ضيرك ، ولا تمنت نفسى غيرك ، وما ازددت اليك الا شرهاً ، ولا أحسست في الرجال لك شبها . ثم افترقا .

وحدث المدائني قال : تزوج حِصْن بن خُلَيد بينت الورد بن الحارث ثم طلقها فجاء اخوتها ليحملوها فقالت : مُرُّوا بى على المجلس بالحي أسلم عليهم فنعم الأحماء كانوا . فأقبل هو وهي في قبتها فقالت : جزاكم الله خيراً ، فما أكرم الجوار ، وأكف الأذى ! قالوا : ما الذى كان عن ملأمنا ولا هوى . فقالت : اللهم اني لم أُطَلَّق مِن بغض ولا قِلًى فعليكم السلام[3]

---

١ الشملة — بكسر الشين — هيئة الاشتمال بالشملة — بفتحها — وكانوا يعيبون من الرجل أن يلتف بها ويعدون ذلك من اللؤم ٢ الاشتفاف أن يشرب الرجل جميع ما في الاناء وذاك من اللؤم ٣ بلاغات النساء ص ٨٧ — ٩٠

الام العربية

هي مَنْبِتُ فتيان العرب ، ومَعقِدُ فخرهم ، ومَثَارُ حَمِيَّتهم ، ومُسْتَقَى أدبهم ، ومَلاذُهم ان جَدَّبهم الدهر ، ومفزَعهم ان أشكل عليهم الأمر ، ومُعَوَّلهم ان فدح الخطب ، وعَزَّ المعين .

تلك هي الأم العربية موطن ثقة الأب ، ونخر الابن ، وعِزّ العشيرة .

لقد نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بفخره — وهو أكرم العالمين خليقة وأكملهم كمالاً — الى أمهاته في الجاهلية فقال : « أنا ابن العواتك من سُلَيم[1] » . وما كان ذلك الا لأن الله قرن منزلته الملكية العلية بأسمى مراتب البشر ، وتلك التي هيأته لها منذ القدم أرحام أمهاته الطاهرة وأرواحهن الزكية .

وشبيه بذلك قول علي عليه السلام للأشعث بن قيس وقد خطب اليه ابنته : غرَّك ابن أبي قحافة اذ أعطاك ابنته وليست من الفواطم من قريش ولا العواتك من سليم[2] .

---

١ قال — ذلك صلى الله عليه وسلم — يوم حنين . وسليم قبيلة من أعز قبائل العرب نفرا وأكثرها فخاراً . اما العواتك اللاتي يفتخر عليه الصلاة والسلام بالنسبة اليهن فثلاث هن عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان ام عبد مناف بن قصي وعاتكة بنت مرة بن هلال ابن فالج أم هاشم بن عبد مناف وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم وهب بن عبد مناف جد رسول الله أبي أمه فالاولى عمة الثانية والثانية عمة الثالثة — لسان العرب ج ١٢ ص٢٥١

٢ أما العواتك فقد عرفتهن . وأما الفواطم فثلاث الاولى سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج علي عليه السلام والثانية فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب

واذا كان من القبائل من اتخذت آباءها منتهى أنسابها كمُضَر وربيعة فان منها من آثرت الانتساب الى أمهاتها كخِنْدِف وجَدِيلة[1]

واذا كان من الملوك من نسب الى أبيه كالنعمان بن المنذر ، فمنهم من نسب الى أمه كعمرو بن هند . على ان المناذرة جميعاً نسبوا الى أمهم « ماء السماء » وهي ماوِيَّة بنت عوف بن جُشَم ملكة العراق وأم ملوكها . واليها ينتهي جلال الجمال ، وجمال الخلال . وعنها ورث ملوك العراق سناء الشرف ، ومضاء الذكاء وبها كان العرب يعتَزُّون ، وباسمها يقسمون ويعتزمون .

ابن عبد المطلب . والثالثة فاطمة بنت عبد الله بن عمر بن عمران جدة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن والحسين عليهما السلام يدعيان بابني الفواطم لذلك — لسان العرب ج ١٥ ص ٣٥٣ . وأما الأشعث فهو الاشعث بن قيس بن معديكرب الكندي وكان من حديثه انه ارتد في جملة أهل الردة فأتي به أبو بكر رضي الله عنه أسيراً ثم أطلقه وزوجه أخته فروة بنت أبي قحافة فخرج من عند أبي بكر ودخل السوق فاختطر سيفه ثم لم تقه ذات أربع — من بعير وفرس وبقر — الا عقرها فريع الناس لذلك وظنوه ثائرا فزعوا الى أبي بكر فقالوا هذا الاشعث قد ارتد ثانية فأما هو فقد أشرف من سطح بيت ابي بكر وقال يا أهل المدينة اني غريب ببلدكم وقد أولمت بما عرقبت فليأكل كل انسان ما وجد وليغد عليّ من كان له قبلي حق فلم تبق دار من دور المدينة الا دخلها اللحم ولا رؤي يوم أشبه بيوم الاضحى من ذلك اليوم فضرب أهل المدينة به المثل فقالوا أولم من الأشعث بن قيس .. على ان ناسا من المسلمين لم ترضهم هذه المصاهرة لان احدى كرائم قريش أصبحت قعيدة بيت رجل أسلم بعد ردة — الميداني ج ٢ ص ٢٣٤

١ خندف هي ليلى بنت حلوان بن عمران زوج الياس بن مضر بن نزار وعنها انشعب أكثر بطون العرب ومن هؤلاء هذيل وكنانة وأسد والهون وأما جديلة فهي ابنة مدركة ابن الياس ومن بطونها العظيمة عدوان واليها ينزع ذو الاصبع العدواني خطيب العرب وعامر ابن الظرب حكيمها . وهنالك عدد غير قليل من قبائل العرب وبطونها تنزع الى امه وآثر النسبة اليها ومن هؤلاء بجيلة ومزينة وعاملة وغفراء وباهلة وسلول وحباب وتجيب وبنو رقاش وبنو طفاوة وبنو العبدية وبنو طهية وبنو حطى — على وزان جبلى —

واذا كان شديداً على الرجل أن يقال له : لا أب لك ، فان أوجع من ذلك وأشد أن يقال له : لا أُمَّ لك .

وليس عجيباً بعد ذلك أن يقوم لَبِيد بن رَبيعة في جماعة بنى عامر بين يدى النعمان بن المنذر فيقول : « نحن بنو أم البنين الأربعة » . وكذلك يجعل المرأة منزع القوم بأسرهم فى فخرهم .

وما كان لأحد من العرب أن يجاذب امرأته فخر تربيـة أبنائها ، وفضل تأديبهم . فكل ذلك منها مفيضه ، واليها مرجعه . حتى لقد كانوا يلقبون المرأة اذا انحسرت عن ثلاثة بنين فنبَهُ ذكرهم وذاعت بين الخافقين مآثرهم بالمُنْجِبة [1] ، ويتخذونها لذلك مضرب أمثالهم ، ومسار أشعارهم ، ومساق مفاخرهم ، وما كان الرجل في شيء من ذلك اللقب الكريم المجيد .

وقد حَلِي بذلك اللقب كثير من عقائل العرب نذكر منهن :

١ — فاطمة بنت الخُرْشُب وهي التى أنجبت الكَمَلة لزياد العبسي وهم : ربيعُ الكامل ، وقَيْسُ الحِفاظ ، وعِمارَة الوَهّاب ، وأَنَس الفوارس . وقيل لها : أى بنيك أفضل ؟ فقالت : الربيع ، لا بل قيس ، لا بل عمارة ، لا بل أنس ، ثَكِلْتُهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ، هم كالحَلْقة المُفْرَغة لا يُدْرَى أين طَرَفاها

٢ — أُم البنين ابنة عامر بن عمرو زوج مالك بن جعفر ، وأبناؤها : مُلاعب الأسنة ، وطُفَيل الخيل ، وزَبيع المُقْتِرين ، ونَزّال المضيف ، ومُعَوِّذ الحكماء ، وهي التى أسلفنا فيها قول لبيد : « نحن بنو أُم البنين الأربعة » وقد أثكلتها

١ الميداني ج ٢ ص ٢٠٥

القافية ولداً ، والافهم خمسة كما بيَّنا .

٣ — خَبِيئة بنت رِيلَح الغَنَوِية هتف بها هاتف في منامها فقال : أعشرة هَدَرَة [1] أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟ ثم هتف بمثل ذلك فى الليلة الثانية فقصت رؤياها على زوجها فقال : ان عاد ثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة . فولدت خالداً الأصبغ ، ومالكا الطيَّان ، وربيعة الأحْوَص .

٤ — عاتكة بنت هلال السُّلمية . أنجبت لعبد مناف بن قُصَيّ هاشما ، وعبد شمس ، والمُطَّلِب [2] .

٥ — ريحانة بنت معديكرب . ولدت للصِّمة بن عبدالله دريداً ، وعبدالله وعبد يغوث ، وقيساً ، وخالداً [3] .

ولولا خشية الإطالة ، وأن نخرج من حديث النساء الى حديث الرجال لعقدنا الفصول الطوال في مآثر أولئك الرجال وآثارهم وما منهم الا السيد الكريم ، والبطل العظيم .

كل ذلك وأمثاله مما جعل نساء العرب يَشْخَصْن بأبصارهن ، ويرمين بأمانيهن الى أبنائهن .

إن حَسْب الطفل أن يضطرب فى أحشاء أُمه حتى يدعوها الى الإطراق الطويل ، والتفكير الكثير ، وربما هاج ذلك ضرباً من الخيال ينبعث من أعماق صدرها فيثير دمها ، ويرهف حِسَّها ، ويتمثل بين مسارب سمعها صوتا واضح المنطق ، فياض المعاني ، يسوق لها البشرى ، ويضيء بين يديها مناهج الأمل ،

١ هدرة جمع هادر وهو الساقط . ٢ الميداني ج ٢ ص ٢٠٥ ٣ الاغاني ج ٩ ص ٢

ويهديها الى خير العمل ، فتحسب ذلك هاتفاً يهتف بها . وما هو الا صوت القلب يشدو بايقاع الأمانى .

وأكثر ما يستمع النساء الهواتف اذا هدأت عيونهن ، فيستيقظن على صوته . وقد يستمعنه وهن يقظات .

وممن سمعن الهاتف ووعينه ليلى بنت مُهَلهل أم عمرو بن كلثوم . هتف بها الهاتف حين حملت بابنها فقال لها :

يا لَكِ لَيلى من ولد ... يُقدِم إقدام الأسد
من جُشَم فيه العدد ... أقول قولاً لا فَنَد

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الآتي حين اشتمل عليها الليل فأشار الى الطفل وقال :

انى زعيم لك أُمَّ عمرو ... بماجِدِ الجَدِّ كريم النَّجْرِ[1]
أشجعَ من ذى لِبَدٍ هِزَبْر ... وَقّاصِ آدابٍ شديدالأسر[2]

يسودهم فى خمسة وعشر

قيل فساد قومه ، ولم يجاوز الخامسة عشرة من سنِيه[3] .

ومنهن عُتْبَة بنت عفيف أم حاتم الطائي سيد سُمَحاء العرب وامام أجوادهم هتف بها الهاتف فقال لها : أغلامٌ سمح يقال له حاتم أحب اليك أم عشرة غلمة كالناس ، ليوث ساعة الباس ، ليسو بأوغاد ولا أنكاس ، فقالت : حاتم[4] .

١ الزعيم هنا الكفيل والنجر الأصل ٢ ذو اللبد الهزبر الأسد والوقاص القاطع وأكثر ماتستعمل في قطع الاعناق ولا أحسب في نسبة وقاص الى الآداب الا تحريفاً من الرواة ولعل أصلها وقاص أعناق أو أقران ٣ الأغانى ج ٩ ص ١٧٥ ٤ ديوان حاتم

وأمثال هاتين كثيرات لا يُحصين عددا .

على اثر ذلك يولد الطفل ، فتبدأ تربيته بتسميته – وكانت تَشرك زوجها في تسمية بنيها – فان كان وليداً تخيرت له كل صُلْبٍ شديد من الأسماء ، يَنمى به حِسُّه ، وتُنبت عليه شجاعته . فمن أسمائهم : صَخْر ، وحَرْب ، وحَنْظَلة ، وعَلْقَمة وأسَد ، وذئب ، وأشباهها مما لا يشعر بوهى عند النداء ، ولا انثناء عن الأعداء

ومن طريف أمر التسمية وغريب أثرها ماحدَّث ابن حبيب ان أسماء بنت دُرَيْم كانت فى خباء لها ، وكان بنوها يرعون بمنجاة عنها ، فمر بها وائل بن قاسط فنظر اليها نظرة مريبة . فقالت : لعلك أسررت فى نفسك منى شيئاً ؟ فقال : أجل . قالت : لئن لم تنته لأستصرخن عليك أسبُعِى . فقال : والله ما أرى بالوادى أحدا . قالت : لو دعوت سباعه لمنعتنى منك وأعانتنى عليك . فقال : أوَ تَفْهَم السباع عنك ؟! قالت : نعم . ثم رفعت صوتها : ياكلب ، ياذئب ، يافهد ، يادب يا سِرْحان ، يا أسد . فجاء بنوها يتعاوَوْن ويقولون : ما خبرك يا أُماه ؟ قالت : ضيفكم هذا أحسنوا قِراه . ولم تَرَ أن تفضح نفسها عند بنيها . فذبحوا له وأطعموه . فذهب وهو كالمأخوذ عجباً مما رأى . وسمى ذلك الوادى بوادى السباع فهو اسمه منذ ذلك اليوم[1]

أما البنات فيختار لهن كل خفيف المسمع ، بديع الموقع من الأسماء . فمن أسمائهن : حُبَّى ، وحَبِيبة ، والنَّضِيرة ، وسُعْدَى ، ومَيَّة ، وأُمَيْمة . ونظائرها .

الى ذلك يأتى دور الرضاع ، وهنالك تمهد طفلها لما هو أهل له من عظمة

١ خزانة الادب ج ٣ ص ٥٢٢

الحياة ، فتجهد ألا يصدع سمعه شيء من دنيّ الألفاظ ورذلها . بل تردد له فى ارضاعه ومداعبته ألفاظ الشرف والسؤدد ، وتلقنه آيات المجد والكرم .

وللنساء فى سبيل ذلك ما لا يناله العد من الأناشيد القصار ، يُغنّين بها أولادهن ويرقصنهم بها ، وفيها من غرّ المكارم ، وحرّ العظائم ، ما هو خليق بأشبال أولئك الأبطال .

ومن قول منفوسة بنت زيد الخيل وهي ترقص ولدها :

أشبهْ أخى أو أشبهَنْ أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصُرُ عن مَنَاله يداكا

ولقد يظن قصار النظر فى قولها شيئاً من تعجيز الطفل وتقصير همته . على انه من ذلك بعيد . فهو مبالغة فى الإغراء ، وافتنان فى التشويق ، وخليق بالغلام أن يفكر حين يستمع ذلك الكلام فى منزلة جده قبل منزلة أبيه .

ومن قول فاطمة بنت أسد وهي ترقص ولدها عَقِيل بن أبى طالب :

أنت تكون ماجدٌ نبيل اذا تهب شمأل بليل

ومن قول أم الفضل بنت الحارث وهى ترقص ابنها عبد الله بن عباس :

ثكِلْتُ نفسى وثكلت بكرى ان لم يسد فِهْرًا وغيرَ فِهْرِ
بالحسب الوافى وبذل الوفر

وليس بفائتنا ونحن فى أول عهد الأم بابنها أن نسوق اليك حديثين لاثنتين من نساء العرب . وستعلم من تناسق رأييهما ووثوق الصلة بينهما الى أى حد وصلت المرأة العربية من تربية طفلها واعداد نفسها له منذ الاشتمال عليه .

قالت أُمَيمة أُم تأبط شرا — وقد سئلت عن أمر تربيتها لولدها : —

والله ما حملته تُضَعاً ولا وُضَعاً ولا ولدته يَتْناً ولا أرضعته غَيْلاً ولا أَبَتُّه مَئِقاً ولا أَنَمْتُه تَئِداً ولا سقَيْتُه هُدَبِداً ولا أطعمته قبل رِئَةٍ كَبِداً [1]

وقالت فاطمة بنت الخرشب — وقد سئلت أى بنيك أفضل : —

والله ما أدرى ، انى ما حملت واحداً منهم تُضَعاً ولا ولدته يَتْناً ولا أرضعته غَيْلاً ولا منعته قَيْلاً ولا أَنمته تَئِداً ولا سقيته هُدَبِداً ولا أطعمته قبل رئة كبداً ولا أَبَتُّه على مُأَقة [2] .

ونحن أولاء موفون لك القول فى شرح هذه الألفاظ ورأى الطب الحديث فى حالاتها

فالحمل التُّضَع أن تحمل المرأة قبيل الحيض . والوُضَع أن تحمل فى أعقابه . وفى كلتا الحالتين ينضحُ الرحم سائلاً يؤذى النطفة ويضعفها وهي فى أول منابتها ومُقْتَبَل عهدها بالحياة ولها ما لها من سوء نشأة الطفل وضعف تركيبه .

أما ولادة الطفل يَتْناً فأن يولد منكساً رجلاه قبل رأسه وهنالك تصاب عظام الطفل اللدْنة الناعمة بتأثير من الضغط الذى ينالها وقَلَّ أن يتلافاه مهما تطاول به العمر وامتدت بأيامه الحياة .

وأما الإرضاع غَيْلاً فأن تُرضع وليدها وهى حامل واللبن حينذاك فاسد موبق يكاد يكون مسموماً وقد يكون قاتلاً .

وأما القَيل الذى لا تمنعه طفلها فتناول اللبن وقت اشتداد الهاجرة واتقاد

---

١ لسان العرب مردداً في أجزاء متفرقة عند الكلام على كل من الفاظ الجملة والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ ٢ الميداني ج ٢ ص ٢٠٥

الرمضاء وهو يطفئ الحر وينقع غُلَّة الجسم . فأما بلوغ ذلك بالماء فقد يعقبه كثير من الأذى .

وأما المبيت مئقاً فأن يقضى الطفل ليله مُغْضَباً أو حزيناً . وفى ذلك من التأثير على نوم الطفل وذات نفسه ما فيه وليس هنالك شئ أزكى لنفس الطفل وأنهض بعقله وأصفى لدمه وجسمه من أن يكون مبتهجاً فى نومه ويقظته .

وأما النوم تئداً فأن ينام على موضع نكِد لصلابته أو استقذاره ولكليهما تأثير قوىٌّ شديد فى عظام الطفل ونمائه واتجاه صحته .

وأما الهُدَبِد فاللبن المتكبِّد الذى لَانَ بعضه وجف بعضه وذلك إما لقرب انقطاعه وإما لحالة نفسية أو جثمانيـة أصابت الأم . وذلك لعمرك السم النقيع يتناوله الطفل فيَذْوِى عوده وينحلُّ جسمه وليس وراء ذلك الا الموت أو الحياة على شر من الموت .

وأما الرئة والكبد فكل منهما يحتاج فى هضمه الى لُعاب الأسنان فاذا لم يستوف طعامها ذلك اللعاب كان وَخِماً ثقيلاً لا تملك المعدة أن تتخذ منه نصيبها من الفائدة فيستحيل الى اسهال شديد يعقبه ضعف شديد[1]

لذلك كله لم يكن بدعاً أن يمتدح أبو كبير الهذلى بعض رفاقه ببعض تلك الحالات ثم ينسب اليها قوته وصلابة عوده وبعد همته . فذلك حيث يقول :

ومُبَرَّإٍ من كل غُبَّر حَيْضةٍ وفساد مرضعة وداءٍ مُغْيِلِ[2]

١ مرجع الفضل في تعليل هذه الحالات وتطبيقها على الطب الحديث الى الطبيبين الكريمين أحمد سعيد بك وسليم صبري بك ٢ غبر الحيض بقاياه وفساد المرضعة يريد به ما يعترى لبنها من الفساد

ثم يقول في وصفه :

واذا رميت به الفِجاج رأيتـه يهوى مَخارِمَها هُوِىَّ الاجدل[1]
واذا نظرت الى أسِرّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلّل[2]
صعب الكريهة لا يرام جَنابه ماضي العزيمة كالحُسام المِقْصَلِ[3]
يحمي الصحاب اذا تكون عظيمة واذا هُمُ نزلوا فأوى العُيَّلِ[4]

ولم يكن ذلك شأن من ذكرنا من النساء فحسب ، بل لقد كانت العرب تعيّر من قصَّرت به أُمه فى بعض ذلك وتسبه به[5].

وبعد فذلك ماتواصى به نساء العرب في تربية أطفالهن وهن في جاهليتهن الأولى وما يبتغى الاطباء بعد بضعة عشر قرنا من عهدهن ان يكون النساء أتم عناية بأبنائهن وأشد حرصا عليهم من كل ذلك .

يدرج الطفل بعد ذلك فتجعل الأم مسلاته حديث الأبطال ، وآيات النزال ، وبذل النوال ، واصطناع الرجال . ثم يشب فتنثر بين يديه من جليل العظائم كتابا ، وتقيم بين عينيـه من جميل المكارم محرابا ، وتتعاهده كما يتعاهد الزارع الضَّنين منابت الغَرْس ، ومساقط الغَيْث . ان احتكمت به نزوة الشر ، وطاشت بلبه سورة الحقد ، بغير حق وفى غير حزم ، عطفت صدره ، وألانت

١ الفج الطريق الواسع في الجبل ونحوه وجمعه فجاج والهوى — بضم الهاء — القصد الى أعلى — وبفتحها — الى أسفل والمخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل والأجدل الصقر

٢ الأسرة الخطوط في الجبهة والعارض من السحاب ما يعرض في جانب السماء والمتهلل من تهلل الرجل اذا افتر عن أسنانه تبسما . يقول : اذا نظرت في وجهه رأيت أسارير تشرق اشراق السحاب المتشقق بالبرق يصفه بحسن البشر وطلاقة الوجه — التبريزى ج ١ ص ٤٥

٣ المقصل القاطع ٤ العيل جمع عائل وهو الفقير ٥ عيون الاخبار ج ١ ص ٤٥٤

جانبه ، وأوضحت نَهْج الخير له . وان سكنت همته ، وفترت عزمته ، أذكت حميته ، وأثارت حفيظته ، وهاجت غضبته .. ونحن أولاء نضرب لك الأمثال ومنها تعلم الى أى منزلة من نفاذ الرأى ، وقوة التأثير ، وحسن الهداية ، وَصَلَت الأمم العربية فى ذلك العهد السحيق .

جعل قوم لبشر بن أبى حازم الأسدى — وكان عبداً — جُعلاً على أن يهجو أوس بن حارثة بن لام . فأخذ يتلقفه بلسانه فى كل مجتمع وناد حتى اذا ضاق بأوس أمره أرسل رسولاً من لدنه ليشترى الشاعر العبد من مولاه بالغاً ما بلغ . فلما اشتُرى له وجيء به اليه قال له : هجوتنى ظالما لى ، أنت بين قطع لسانك ، وحبسك فى سرب حتى تموت ، أوقطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك ثم دخل على أمه سُعْدَى — وكانت قد سمعت كلامه — فقالت له : يا بنىَّ ، مات أبوك فرجوتك لقومك عامّة فأصبحت أرجوك لنفسك خاصة ، وزعمت انك قاطع رَجُلَا هجاك فمن يمحو ما قاله غيره ؟. قال : فما أصنع ؟ قالت : تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة . ففعل ما قالت . فملأ بشرٌ عِراض الآفاق بمدائح أوس . وكان مما مدحه به قوله :

الى أوس بن حارثة بن لام ليقضى حاجتى ولقد قضاها
فما وطئ الحصى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها[1]

وشبيه بهذا ما حدث أبانُ بن تَغلِب قال : خرجت فى طلب الكلأ فانتهيت الى ماء من مياه كلب ، واذا أعرابى على ذلك الماء ومعه كتاب منشور يضطرم

١ بلاغات النساء ص ١٤٠—١٤١

وعيداً وتهديداً ، وجعل يقرأه على مَن بين يديه من القوم . فقالت له أمه وهى فى خبائها — وكانت مُقْعَدَة كبيرًا : — ويلك دعنى من أساطيرك ! لا تَحْمِل عقوبتك على من لم يحمل عليك ، ولا تتطاول على من لم يتطاول عليك ، فانك لا تدرى ما تُقَرِّبك اليه حوادث الدهر ، ولعل من صيرك الى هذا اليوم أن يصير غيرك الى مثله غداً ، فينتقم منك أكثر مما انتقمت منه ، فاكفف عما أسمع منك ، ألم تسمع الى قول الأول :

لا تعاد الفقير علَّك أن تر كع يوما والدهر قد رفعه[1]

وأما ابتعاثها الهمم من مكامنها ، وانتضاؤها العزائم من أغمادها ، فذلك ما لا يكافها جهد القول ، ولا مُرَّ الوعيد ، فحسب الكلمة أن تخرج من فيها هادئة وادعة ، فيكون لها ما بعدها . ومَثَلُ ذلك ما روى الراوون ان ذؤاب ابن أسماء العبسي قتل عبد الله بن الصِّمة — وكان ذؤاب بطلاً أيّداً عتيداً — فلبث دريد يترقبه حتى أعياه . فلما انقضى الحول ولم يأخذ بثأر أخيه قالت له أمه ريحانة بنت معديكرب : يا بني ان كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زَبيد . فأنف لذلك ، وحلف لا يدَّهن ، ولا يكتحل ، ولا يمس طيبا ، ولا يأكل لحما ، ولا يشرب خمراً ، حتى يدرك ثأره . ثم استجمع لعبس وفاجأهم وأوقع بهم واقتاد ذؤابا أسيراً ودهب به الى فِناء أمه فقتله بمرقب منها ثم قال لها : هل بلغت ما فى نفسك ؟ قالت : نعم مُتِّعت بك[2] .

٢ ان هذه الحادثة وان كان مرجعها الى أول العهد الاسلامي فان بداوتها وذهاب الكبر بالمرأة فيها يسوغان روايتها في هذا الجزء من هذا الكتاب ٣ الاغاني ج ١٤ ص ٢٦

ألا ان أشد ما يملك النفس من أمر أولئكم النساء ، أن يدفعن بأبنائهن فى غمرة الواجب ، ومن دونها رَصَد الموت ، وبذل المهجات . لأن مِيتة العز أروح فى نفوسهن ، وأمثل بأبنائهن ، من حياة العجز . ودونك حديثاً لولا ان تاريخ العرب حافل بالكثير من مثله ، لكان أنشودة العظمة والفخار لتلك الأمة المجيدة الكريمة .

ذلك ان ظعائن من بنى كنانة خرجن فى رَكبهن ، وكان على خفارتهن ثلاثة من رجال القوم أحدهم ربيعة بن مكدّم — وكان غلاماً فتياً له ذؤابتان — فبينما هم فى طريقهم أبصروا بجمع من بني سُلَيم يملك عليهم عُرض الطريق ، وبين الحيَّين ثارات وأحقاد لا تلتئم جراحها ، ولا تخمد جذوتها . فقال ربيعة لِمَن معه : أنا آتيكم بخبر القوم . فلما همَّ بالسير قالت امرأة : هرب ربيعة ! فقالت أخته : أين تنتهى نَفرة الفتى[1] ؟! فعطف عليهن وقد رجف جسمه بما سمع منهن وقال :

لقد علمت انني غير فَرِق لأطعنَنَّ طعنةً وأعتنق[1]
أصبحهم صاحى بمحمَرّ الحدق عَضْباً حساماً وسنانا يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه ، فأصاب رجلاً من بني سليم فقتله ، ورماه رجل منهم بسهمه فأصاب يده فنزف دمه ، فلحق بالظعائن يستدمى[2] حتى انتهى الى أمه ، فقال : اجعلى على يدى عصابة ، ثم أخذ يقول :

شُدِّى عَلَىَّ العصب أُمَّ سيَّار فقد رُزِيت فارسا كالدينار
يَطعَنُ بالرُّمح أمام الأدبار

١ الفرق الجبان واعتنق يريد بها اعتناق الأبطال عند النزال ٢ استدمى الرجل طأطأ رأسه يقطر منه الدم

أما أُمه فلم يذهب بلبها مارأت ، ولم يلفتها ماسمعت من شطر قلبها عن السير به في سبيل الواجب . فما كان جوابها الا قولها :

إنا بنو ثعلبة بن مالكْ مُرّاً أخيارُنا كذلكْ
من بين مقتول وبين هالكْ ولا يكون الرزء الا ذلكْ

قالت ذلك بينما هى تشد العصابة على يده ، فاستسقاها ماء فقالت : ان شربت الماء مُتّ ، ولكن كُرّ على القوم . فكرّ راجعا يشتد على القوم وينزفه الدم ، وقال للظعائن أوضعْنَ[1] ركابكن حتى تنتهين الى أدنى البيوت من الحى فاني لمائت وسوف أقف دونكن لهم فأعتمد على رمحى فلا يقدمون عليكن لمكاني . ثم وقف على فرسه يعترض طريق القوم وركز رمحه في الأرض واعتمد عليه ، وهنالك فاضت رُوحه والقوم بمنجاة عنه ، لا يقدمون هيبة له ، ورعبا من بلائه واعتقاداً منهم بأنه رابض في موقفه ربضة الأسد المستجمع المتحفز . فلما طال بهم موقفهم ورابهم مكان صاحبهم ، رماه أحدهم بسهم فأصاب فرسه فوقع جثة هامدة ، على حين اعتصم النساء بالحى فلم يكن اليهن من سبيل . فلُقّبَ ربيعة منذ يومئذ بحامي الظعن ، وهو الذى حماهن حيا وميتاً[2] .

كذلك تقذف الأم بولدها في لهوة الموت وما به من هوان عليها ، ولا بها من غَناء عنه . فهو عَرْف الحياة تتنسمه ، ونور الوجود تتلمسه . ومن أجل ذلك آثرته بحياة الخلود ، حياة المجد والحمد والذكر الكريم .

ألا ان الناس ليظلمون تاريخ العرب ان زعموا ان حاتما مُسْتَنُّ الجود بين

٣ الايضاع السير بين القوم ٤ الأغاني ج ١٤ ص ١٢٦

العرب فذلك ميراث أُمه ائتمنته عليه ، وسجيتها طبعته عليها ، فما كان له الا أن يكون جواداً كريماً .

لقد كانت عُتْبة بنت عفيف أُم حاتم الطائي موفورة الثروة ، فياضة اليد ، فكانت لا تبقى على شيء اذا قصدها سائل ، أو هبط بفنائها نزيل . فلما رأى اخوتها اتلافها حجروا عليها مالها ، حتى اذا ظنوا انها قد وجدت ألم ذلك أعطوها طائفة من ابلها ، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها فقالت لها : دونك هذه الإبل فخذيها ، فوالله لقد عضنى الجوع ما لا أُضَيِّع معه سائلاً . وأنشأت تقول :

لَعَمرك قِدْماً عضني الجوع عضة ... فآليت ألّا أمنع الدهرَ جائعا
فقولا لهذا اللائمي اليوم أعفني ... وان أنت لم تفعل فعَضَّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أوعذل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم الا طبيعة ... فكيف بتركي يا ابن أُمّ الطبائعا[1]

تلك أثارة من نفاذ المرأة العربية فى بنيها واحتكامها بنفوسهم ، واستثارتها روح الفضائل والمكارم فيهم . وما بلغت ذلك الا بفرط حبهم لها ، ولياذهم بها ، وعكوفهم عليها . ومن أمثالهم : « الى أُمه يَلهَفُ اللَّهْفان » .

ولقد بلغ من كرامتها عليهم ، ووفور منزلتها بينهم ، أن السُّلَيك بن السُّلَكة السَّعْدِي — وأُمه جارية حبشية — أطار نومه ، وأثار همّه ، أن تشتمل بلاد العرب على خالاته ، ونظائر أُمه ، جوارىَ قد ملكهن الرق ، وأزرى

١ الأغاني ج ١٦ ص ٩٣

بهن التبذل ، وودَّ لو وجد من ذات يده ما يمكنه من افتدائهن جميعاً . فذلك حيث يقول[1] :

أشابَ الرأسَ انى كل يوم ... أرى لى خالة بين الرحال
يَشُقُّ عَلَىَّ أن يَلقين ضيما ... ويَعْجِزُ عن تخلُّصِهِنَّ مالى

ذلك أمر المرأة في بنيها . فأما بناتها فهن أتم بها اتماماً ، وأطول معها مقاماً ، وأكثر لها لزاماً . ومن أجل ذلك كن بها أشبه ، وكان أدبها بهن أمثل ، ولعمر أبيك انهن لزَهر الروض شبيه بعضه ببعض ، وهن لأمهاتهن أولى بقول مَن يقول :

فان يك سيار بن مكرم انقضى ... فانك ماء الوزد ان فقد الورد

ولا تزال الفتاة عاكفة على أدب أُمها حتى تحمل الى زوجها فاذا احتملت طوقتها بوصية تجمع بين شتاتها أشد ما يحوجها فى دار زوجها .

وان لك فيما أنا سائقه اليك من الحديث لآية بالغة بما كان للمرأة يومذاك من تكرمة وتأديب .

ذلك ان الحارث بن عمرو ملك كندة خطب الى عوف بن مُحَلِّم الشيباني ابنته . فلما كان يوم بنائه بها وأرادوا أن يحملوها اليه قالت لها أُمها :

أى بنية ان الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما اليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن

١ الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٥١

خلق الرجال . . . أى بنية انك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت ، الى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أَمَة ، يكن لك عبداً ، واحفظي له خصالاً عشراً ، يكن لك ذخراً ، أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحسن الطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك الا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع مَلْهَبة ، وتنغيص النوم مَغْضَبة . وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، ومِلاك الأمر في المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصينَّ له أمرا ، ولا تُفْشِينَّ له سرا ، فانك ان خالفت أمره ، أوغرت صدره ، وان أفشيت سره ، لم تأمنى غدره .

ثم اياك والفَرَحَ بين يديه ان كان تَرِحا ، والتَّرَحَ بين يديه اذا كان فرحا ، فان الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما تكونين له اعظاما ، يكن أشد ما يكون لك اكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما يكون لك مرافقة .

واعلمي أنك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت ، والله يخيرُ لك .

ثم احتُمِلَت اليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن[1]

١ الميداني ج ٢ ص ١٤٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٢

وقالوا ان النعمان بن المنذر تزوج أربعاً من أربع قبائل تأييداً لعرشه وتثبيتاً لملكه : واحدة أنمارية ، والثانية سُلَمية ، والثالثة نَمَرية ، والرابعة أسدية

فقال للأولى : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى عَطِّرى جلدك ، وأطيعى زوجك ، واجعلى الماء آخر طيبك .

وقال للثانية : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لي لا تجلسى بالفِناء ، ولا تكثرى المراء ، واعلمي أن أطيب الطيب الماء .

وقال للثالثة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لي لا تطاوعى زوجك فتُمِلّيه ، ولا تعاصيه فتُشْكِيه[1] ، واصْدُقِيه الصفاء ، واجعلى آخر طيبك الماء .

وقال للرابعة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لي أَدْنى سِترَك ، واكرمى زوجك ، واجتنبى الإباء ، واستنظفى بالماء[2]

١ شكيه تحمليه على الشكوى ٢ بلاغات النساء ص ٩٢

— ٣ —

المرأة العربية

في عامة حياتها

١ — عملها

الوَرَهُ والخُرق خَلتان ينبو عنهما طبع الحرة الشريفة فلا تطيقهما ولا تحتمل أن توصم بهما

فأما الورهاء فالهَوجاء التى لا يتم لها عمل . وأما الخرقاء فالتى تدَّعى العمل ولاتحسنه . وهما بغيضتان الى العرب جميعاً . وقديماً تحامَوْهما وتواصَوْا باجتنابهما مهما أوتيتا من بسطة الثراء ، ودرجتا بين مهاد النعماء . لأن الفراغ مدعاة الملل ، والملل سبيل الفساد .

وفي سبيل ذلك يقول الحارث بن كعب المذْحِجى لبنيه — وقد جمعهم بين يديه في آخر عهده بالحياة : — اياكم والورهاء ، فانها أدوأ الداء ، وتجنبوا الخرقاء ، فان ولدها الى أفن يكون .

ان امرأة واحدة من قريش عرف عنها الخُرق فكانت تجتلب الصوف فتغزله ثم تنقض ماتغزله . وبرغم ما كان لها من سعة العيش ودعة الحياة اتخذها العرب مثلاً سائراً . كلما رأوا رجلاً رزق اليسار وحُرِم حسن التصرف فيه قالوا :

خرقاء وجدت صوفا[1] . واليها أشاروا ، وبها شبهوا . وهى التى جعلها الله جل ذكره مضرب المثل في ذلك فقال : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا » .

لذلك لم يكن بدعا أن تأبى ابنة أوس بن حارثة على نفسها أن تكون زوجا للحارث بن عوف ، لأنها لا عمل لها ، فهى لا كفاءة لها ، وهي التى ستحتمل من دار سيد العرب الى دار سيد العرب !.

تلك أثارة من البيان بما كان للمرأة يومذاك من داعية الى العمل

فأما ذلك العمل فعلى نوعين :

نوع شامل ينضوى تحته النساء جميعاً وفيهن الفتاة المدلَّلة ، والسرية السنية ، قضاء للواجب ، ودفعاً للملل ، وتفاديا من سوء الأحدوثة . وآخر يتخذنه مَجْلَبَةً للرزق ، ومَعْدَاة على الحاجة ، وعونا على الزمن ، ودفعاً لسؤال اللئيم .

فمن الأول :

أ — أَسْوُ الجراح ، وشد العظام ، وحياطة الدم دون النزيف . ونفاذهن في ذلك شبيه بنفاذ الرجال في أساليب القتال ، ومقارعة الابطال ، لحاجتهن اليه اذا اتقدت الحرب ، واشتجرت السيوف ، ونفذت الرماح الى أعطاف الصدور . فهنالك يغتمرن الموقعة حاملات أدَاوَى الماء[2] ، والى جانب كل منهن ماتحتاج اليه الجراح من لفائف وجبائر وما سوى ذلك

---

١ أمثال أبى هلال ص ٢٨٣ ٢ الأداوى — بفتح الهمزة — جمع ادارة — بكسرها وهى وعاء من الجلد يتخذ للماء

وهن يُسَمَّيْنَ لذلك بالأواسى . وفيهن يقول قَيْسُ بن الخَطيم وقد طعن عدوّه طعنة منفسحة الجوانب جمة الشعاب

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نَفَذٌ لولا الشَّعاع أضاءها[1]

يهون عليّ أن تَرِدَ جراحُها عيونَ الاواسى اذ حَمِدت بَلاءها

فجعل أقصى طعنته القاتلة أن ترِدَ جراحُها عيون الأواسي فلا يجدن الى شفائها سبيلا .

وقد انبلج صبح الاسلام على كرائم حسيبات رافقن الغزاة الفاتحين مسعفات آسيات فكن في المحل الأمكن من نفوس المسلمين جميعاً . ولنا اليهن عودة في الكلام على المرأة المسلمة ان شاء الله .

ب — غزل أصواف الغنم وأوبار الإبل . وذلك مُسْلَاتُهُنَّ وأداة لهوهن . ومن أمثالهن في ذلك : نِعْمَ لَهْوُ الحُرَّة المِغْزَل .

ج — الضرب على المَعازِف من دفوف وطبول وصنوج ومزاهر ومزامير وطنابير وأشباهها[2] . بذلك كن يلهون في أفنيتهن أيام مواسمهن ومجامعهن وبذلك كن يخرجن مبتهجات لملاقاة بطل مظفَّر أو عند نبوغ شاعر مبين . وقد خرج

١ النفذ النافذة أو النفوذ والشعاع ما تطاير من الدم أراد ان طعنته ثغرت في جسم عدوه ثغرة أضاءت ما وراءها لولا الدم المنفجر منها ٢ المعازف جمع معزف ومعزفة — بكسر الميم فيهما — أدوات اللهو أخذت من العزف وهو اختلاط الصوت . والدفوف جمع دف قال ابن منظور . والدف الذى يضرب به النساء . والصنوج جمع صنج — بفتح الصاد — وهو على نوعين نوع لا وتر له وهو شبيه بالدف وآخر ذو أوتار وذلك مما نقله العرب عن الفرس قال ابن منظور ويقال امرأة صناجة ذات صنج . والمزاهر جمع مزهر — بكسر الميم — وهو العود . والطنابير جمع طنبور وطنبار وهو من المعازف ذات الاوتار

نساء بنى النجار وولائدهن للقاء النبى صلى الله عليه وسلم عازفات على المزاهر صادحات متغنيات[1]

وممن برع في الغناء ماوية ابنة عَفْزَر احدى ملكات الحيرة وهى التى زوجت نفسها فيما بعد من حاتم الطائي . وكانت على سمو مكانها تتلقى فتيان العرب فيفضون اليها باشعارهم فتوقّعه وتلقيه اليهم بصوت يميد بأجسامهم ويهز ماضُمّت عليه صدورهم

ومما ذكروا ان الحارث بن ظالم أساء اليه خالد بن جعفر بين يدى النعمان فخرج يهدُر غضباً حتى انتهى الى ماوية فاقترح عليها أن تغنى هذه الابيات[2] :

تعلَّم أَبَيْتَ اللَّعْنَ انى فاتك من اليوم أو مِنْ بعدِهِ يا ابن جعفر

أَخَالِدُ قد نبهتني غير نائم فلا تأمَنَنْ فتكى يَدَ الدهر واحذر

أَعَيَّرْتَنِي أنْ نِلْتَ منا فوارساً غداة حُرَاصٍ مثلَ جنات عَبْقَرِ[3]

أصابهمُ الدهر الخَتُورُ بخَتْرِهِ ومن لايق الله الحوادثَ يَعْثُرُ

فخرج من عندها ينتفض كالمحموم لفعل الصوت به ، ونفاذ الإيقاع في نفسه ، حتى عثر بخالد فقتله .

على ان الغناء من حيث هو فَنٌّ ومرتزق لم يكن في شئ من نساء العرب ، بل كان صناعة موقوفة على القِيان ، وهن اللواتى يُجْتَلَبْنَ من أطراف بلاد الفرس والروم وأول من شدا بالغناء في زعم العرب قَيْنتان لمعاوية بن بكر أحد العماليق

١ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٠ — ٧٨ ٢ الأغاني ج ١٠ ص ١٨ ٣ حراص واد قرب مكة أغار فيه خالد على عشيرة الحارث فقتل رجالهم واستبقى نساءهم وأطفالهم . وعبقر موطن يزعمه العرب من مواطن الجن فينسبون اليه كل غريب عندهم

الأُوَل تدعيان بالجرادتين[1] ثم ذاع الغناء على أثرهما بين القيان لأنهن كن يغنين الشعر العربى بالالحان الفارسية واليونانية فيكون له في أسماع العرب تأثير لا يناله الوصف

وفي أولئك القيان ومجالس غِنائهن يقول عمرو بن الإطْنابة ملك الحجاز :

عَلِّلاني وعللا صاحبيًّا واسقياني من المُرَوَّق رَيّا[2]
ان فينا القيان يعزفن بالدَّ ف لفتياننا وعيشا رخيًّا
يتبارين فى النعيم ويصبُبْـ ـن خِلالَ القرون مسكا ذكيا
انما هَمُّهُنَّ أن يتحليـ ـن سُموطا وسُنْبُلاً فارسيا
من سُمُوطِ المَرْجانِ فُصِّلَ بالدُّ رِ فأَحْسِنْ بِحَلْيِهِنَّ حُليّا

و — الى كل ذلك تقوم المرأة بأمر البيت ، وما اليه من اعداد المطاعم ، ورعاية الخيل ، وهنء الابل[3] .

ولا يفوتنا وقد ذكرنا حاجة المنزل أن نلمَّ بشيء من مطاعم العرب لأنها أمسُّ الأعمال بها ، وألزم لها ، فنقول :

قِوَام هذه المطاعم اللبن والتمر والبر والشعير والعسل والسكر والأُرُز والزُّبد واللحم والزيت والشحم والسَّمن .

وأشمل مطاعمهم الثريد والحَيْس وهو التمر يغلى مع اللبن والسمن ثم يدهك بعضه ببعض . وقد يضاف اليه بعد ذلك السَّوِيق .

---

١ الميداني ج ١ ص ٨٧ ٢ يريد بالمروق الشراب المصفى ٣ هنأت الجارية البعير طلته بالهناء — بكسر الهاء — وهو القطران ليبرأ من الجرب

مجلس شورای ملی
کتابخانه
۱۳۰۲

ولهم فيما عدا هذين مطاعم مألوفة .

منها الفالوذج وكان عبد الله بن جَدعان القُرَشِيّ قد أكله على مائدة كسرى فلما بلغ من نفسه سأل عنه فقيل له هو لُبَاب البُرِّ يُلْبَكُ مع العسل فابتاع غلاما فارسيًّا وقدم به مكة فصنع بها الفالوذج ومن هناك ذاع بين العرب .

والسَّخِينة وهى متخذة من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحَسَاء . وأكثر ماعرفت عند قريش . وأشد ما يألفونها عند جَهد الدهر وشدة الازمات . وكانوا يعيَّرون بها حتى سميت قريش فى موطن التعريض والتنابز بالالقاب « بالسخينة » .

قال حسان بن ثابت يهجو قريشا :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليَغْلِبَنَّ مُغالِبَ الغُلَّاب

والبَرِيك وهو الرطب يؤكل بالزبد أو السَّمن .

والحزيرة وهى أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فاذا نضج ذر عليه الدقيق فان لم يكن لحم فهو عصيدة .

والرَّبِيكَة وهى التمر يعجن بالسمن والأقط فيؤكل وربما صب عليه الماء فشرب . وفى المثل : غَرْثَانُ فارْبُكُوا له . وذلك ان رجلا قدم على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بغلام وأتوه به فقال : والله ما أدرى أآكله أم أشربه ؟ فقالت امرأته : غرثان فاربُكوا له . فلما طعم وشرب قال : كيف الطلا[1] وأمُّه ؟

---

١ الطلا ولد الظبى .

والبسيسة وهي الدقيق أو السويق يُلَتُّ بالسمن أو الزُّبد

والفَريقة وهى شيء يعمل من البُرّ ويخلط فيه أشياء للنُّفَساء

ومما يصنع للنفساء أيضاً :

الفُوَارَة وهي الحُلْبَة تطبخ بالتمر .

والحَرِيرة الحَسَاء من الدَّسَم والدقيق .

والبَهَطّ وهو الأُرْز يطبخ باللبن والسَّمن .

والمتتبع لمعاجم اللغة يستوقفه كثير من هذه المطاعم . وهى على امتزاج موادها بسيطة هينة لا تُعْنِتُ صانعتها ولا تُثْقِلُ طاعمها .

وأما أعمال الارتزاق فالمرأة فيها قسيمة الرجل وشهرتها فيها تكاد تتمشى مع شهرته .

فهم يقولون عن رُدَيْنَة انها صانعة رماح بالبحرين . واليها تنسب الرماح الرُّدَيْنِيَّة[1] وهى اكرم الرماح جوهرا وأسرعها نفاذا وأمنعها على اعتماز

وكانت السيدة خديجة رضي الله عنها على نُبْلها وسناء شرفها ذات متاجر واسعة يتنقل بها أتباعها بين الحجاز والشام . ومثلها فى معاناة التجارة هند بنت عُتْبَة زوج أبى سفيان بن حرب سَرِيُّ قريش وثريُّها

وهنالك أعمال يتناولها ذوات الخَصَاصة من النساء دفعاً للحاجة واستدفاعا لذل السؤال .

ومن ذلك جمع الكَمْأَة[2] من الأودية وبيعها ، ودبغ الجلود ، وتنميق الحصير

١ لسان العرب ج ١٧ ص ٣٧ ٢ الكمأة — جمع كمء — نبت أبيض حلو

وانتجاع الاسواق ، وارتياد مختلف الاحياء ، لابتياع التمر والعسل والسَّمن ، أو بيعها ، أواستبدالها بامثالها ، واعتراض الركبان فى مغداهم ورواحهم بالقُدُور والادَم يبيعْنها عليهم ، والطواف على الفتيان والفتيات بالعطر يُطَيِّبْنَهم به ، والنداء في الاحياء بين النساء بالخرز لتحلية الثياب وبالعقود والدمالج والقِرَطَة وودعات الأطفال وهى عقودهم من الودع .

ومن النساء من اتخذن النياحة على الموتي عملاً ومهنة . ومن أمثال العرب في ذلك : ليست النائحة الثَّكْلَى كالمستأجَرة .

ومنهن من همُّهن تعرُّف الغيب وكشف حجب المستقبل . ولهن فى ذلك وسائل منها زجر الطير . وذلك أن تضرب الطير بحصاة أو تصيح به فيطير فان كان ماتراه منه ميامِنَه فهو سانح وان أراها مياسره فهو بارح . وأكثر العرب يتفاءلون بالسانح ويتشاءمون بالبارح . قال ذو الرُّمَّة:

خَلِيلَيَّ لا لاقيتُما ماحييتما من الطير الا السانحاتِ وأسعدا

ومنهم من يتفاءلون بالبارح ويتشاءمون بالسانح . قال الأعشى:

أجارَهما بِشْرٌ من الموت بعدما جرى لهما طير السنيح بأَشأَم

وشبيه بالطير عند العرب الظباء فهى تزجر كما تزجر . غير ان لهذه قوما ، ولتلك آخرين .

ومنها الطرق بالحصى . وذلك أن تضرب المرأة على الرمال بالحصى وتخط عليها خطوطا متعارضة ، ثم تلقى على من بين يديها ما يَنِمُّ عنه ذلك النظام من كوامن السر وخفيات الأمور . وهاتان الصناعتان وان آمن بهما دَهماء[1] العرب

١ دهماء القوم جماعتهم

وعامّتهم فقد سخر بهما عقلاؤهم وذوو آرائهم . وفي ذلك يقول لَبيد بن ربيعة :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويقول ضابئ بن الحارث :

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى ... نجاحا ولا عن رَيْثهنّ يَخيبُ

ورب أمور لا تَضيرُك ضَيرة ... وللقلب من مَخْشاتهنّ وَجيبُ

ولا خيرَ فيمَنْ لا يُوطّنُ نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

ويقول المرقّش :

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واقٍ وحاتِم

فاذا الأشائمُ كالأيا ... مِن والأيامِنُ كالأشائِم

وكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌّ على أحد بدائم

ويقول النابغة :

تَعلَّمْ أنّه لا طَيْرَ الا ... عَلَى مُتَطيّرٍ وَهُوَ الثُّبُورُ

بَلَى شيءٌ يوافق بعض شيءٍ ... أحَايِينًا وباطُله كثيرُ

ويقول جَهم الهُذَلى :

يَظُنّانِ ظنا مَرّة يُخْطئانِهِ ... وَأُخْرَى عَلَى بَعْضِ الّذِي يصِفَانِ

قَضى اللهُ أن لا يَعْلَمَ الْغَيْبَ غيره ... في أى أمر الله يمْتَريَانِ

ومنها الكهانة والعرافة . وهما آثر علوم القوم ، وأنفذها في نفوسهم ، وأجلبُها لتصديقهم واقرارهم ، ولهما القول الفصل فى حكومتهم وخصوماتهم . وهم يقولون ان مرجع هذين العلمين الى الملائكة لأن رفاق الكهان والعرافين من

الجن يعلو بعضهم بعضا حتى يقاربوا السماء فيسترقوا السمع مما يتحدث به سكانها . والكهانة والعرافة كلمتان تكادان تترادفان . الا أن من اللغويين من فرّق بينهما بان الكهانة علم ادراك الماضى ، والعرافة علم ادراك المستقبل .

وهذان العلمان وان ادعاهما الرجال والنساء على سواء فان جمهور العرب يرى أن النساء فيهما أعمق ، وان أخبارهن أصدق ، ورفاقهن من الجن أدق وأوثق .

وفي الحديث الذى أورده عليك يتبين لك رأى العرب فى الكواهن ومبلغهن من علمهن :

حدث محمد بن طفر في كتابه خير البُشر بخير البَشَر فقال : رُوِى أن مَرْثَدَ بن عبد كُلَال قفل[1] من غزاة غزاها بغنائم عظيمة . فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم . فبينما هو كذلك اذ نام يوما فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرته وأهالته وهو نائم ، فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئا ، وثبت ارتياعه فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزنا ، واحتجب عن الوفود حتى أساءه الوفود الظن . ثم انه حشر الكهان فجعل يخلو بكل كاهن كاهن ، ثم يقول له أخبرني عما أريد أن أسألك عنه فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندى ، حتى لم يدع كاهنا علمهُ الا كان اليه منه ذلك . فتضاعف قلقه ، وطال أرقه . وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له أبيت اللعْنَ أيها الملك ان الكواهن أهدى الى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ألطف وأظرف من أتباع الكهان . فأمر بحشر الكواهن اليه وسألهن

---

١ القفول العودة

كما سأل الكهان . فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه . ولما يئس من طَلِبَتِهِ سلا عنها . ثم انه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفِعت له أبيات فى ذرى جبل ، وكان قد لفحه الهجير ، فعدل الى الأبيات وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت اليه عجوز فقالت له : انزل بالرَّحْب والسَّعة ، والأَمْن والدَّعة ، والجَفْنة المُدَعْدَعة[1] ، والعُلْبة المُتْرَعة[2] . فنزل عن جواده ودخل البيت . فلما احتجب عن الشمس ، وخفقت عليه الأرواح ، نام . فلم يستيقظ حتى تَصَرَّم الهَجِير . فجلس يمسح عينيه ، فاذا بين يديه فتاة لم ير مثلها قَوَاماً ، ولا جمالاً . فقالت : أَبيتَ اللعْنَ أيها الملك الهمام ، هل لك فى الطعام ؟ فاشتد اشفاقه ، وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفته ، وتصامم عن كلمتها فقالت له : لا حَذَر ، فَدَاكَ البَشَر ، فَجَدُّك الأكبر ، وحظُّنا بك الأوفر . ثم قربت اليه ثَرِيداً وقَدِيداً[3] وحَيْسًا . وقامت تَذُبُّ عنه ، حتى انتهى أكله . ثم سقته لبناً صَرِيفا وضَرِيبا[4] . فشرب ما شاء وجعل يتأملها مقبلة مدبرة ، فملأت عينيه حسنا ، وقلبه هوى . فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمى عُفَيْرَاء . فقال لها : يا عفيراء ، مَن الذى دعوته بالملك الهمام ؟ قالت : مَرْثَدٌ عظيم الشان ، حاشرُ الكواهن والكهان ، لِمُعْضِلة يَعْدَعنها الجان . فقال : يا عفيراء ، أتعلمين

---

١ الجفنة أكبر القصاع والمدعدعة الملأى من الثريد واللحم ٢ العلبة قدح ضخم من الخشب أو من جلود الابل يحلب فيه اللبن ويستقى فيه الماء . والمترعة الملأى

٣ القديد اللحم المملوح المجفف في الشمس ٤ الصريف اللبن الذى ينصرف من الضرع حارا اذا حلب فاذا زالت رغوته فهو الصريح . والضريب اللبن يحلب من عدة نياق فيخلط بعضه ببعض

تلك المعضلة ؟ قالت : أَجَلْ أيها الملك ، انها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام . قال الملك : أصبت يا عفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصيرَ زَوَابع[1] ، بعضها لبعض تابع ، فيها لَهَبٌ لامع ، ولها دخان ساطع ، يَقْفُوها نَهَرٌ مُتَدَافِع[2] ، وسمعتَ فيما أنت سامع ، دعاء ذى جَرْسٍ صادع[3] ، هَامُّوا الى المَشَارِع[4] ، فَرَوِيَ جارعٌ[5] ، وغَرِقَ كارعٌ[6] . فقال الملك : أَجَل ، هذه رؤياى ، فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : الأعاصيرُ الزوابع ، ملوك تبابعة[7] ، والنهر عِلْمٌ واسع ، والداعى نبي شافع ، والجارع وَلِيٌّ تابع ، والكارع عدوٌّ مُنازع . فقال الملك : يا عفيراء ، أَسِلْمٌ هذا النبيُّ أم حرب ؟ فقالت : أُقسم برافع السماء ، ومُنْزِل الماء من العَمَاء[8] ، انه لَمُطِلّ الدِّماء[9] ، ومُنْطِق العقائل نطق الإماء[10] . فقال الملك : الامَ يدعو يا عفيراء ؟ قالت : الى صلاة وصيام ، وصِلَة أرحام ، وكسر أصنام ، وتَعْطيل أَزْلام[11] ، واجتناب آثام . فقال الملك : يا عفيراء ، اذا ذَبَحَ قومَهُ فمن أعضاده ؟ قالت : أعضاده غَطَاريفُ يَمانون[12] ، طائرُهم به ميمون ، يُغْزِيهم فيَغْزُون ، ويُدَمِّثُ[13] بهم

---

١ الأعاصير — جمع اعصار بكسر الهمزة — وهى الرياح التى تهب من الأرض فتثير الغبار فترتفع كالعمود الى نحو السماء ومثلها الزوابع ٢ يقفوها يتبعها والنهر المتدافع الفياض يدفع فيه الماء بعضه بعضاً ٣ الجرس الصوت خفيا كان أو شديداً والصادع الواضح المبين منه

٤ المشارع — جمع مشرعة — المواضع التى ينحدر الى الماء منها ٥ الجارع الشارب شيئا فشيئا ٦ الكارع الذي يخوض الماء ٧ التبابع والتبابعة ملوك اليمن سموا بذلك لانه يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً له ٨ العماء السحاب

٩ مطل الدماء مهدرها ١٠ عقائل النساء الحسيبات المخدرات منهن والاماء تريد انه يسوى بين الناس جميعاً ١١ الازلام جمع زلم — بضم الزاى وفتحها — السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ١٢ الغطاريف — جمع غطريف — سادة القوم وأشرافهم وتريد بهم الأنصار فهم الى اليمن ينسبون ١٣ دمث مهد

الحُزُون[١]، والى نصره يعتزون . فأطرق الملك يؤامر نفسه في خِطْبَتها . فقالت : أبيتَ اللعنَ أيها الملك ، ان تابعي غيُور ، ولأمري صَبُور ، وناكحي مَثْبُور[٢] ، والكَلِفُ بي ثَبُور . فنهض الملك وجال في صهوة جواده وانطلق . فبعث اليها بمائة ناقة كوماء[٣]

ومن النساء من يَنفُثن العُقَد ، وتلك احدى قواعد السحر . وذلك أن تأتى المرأة بخيط أو وتر وتقرأ عليه شيئاً من مبهم القول ومعجمه ، وبينا هي تقرأ تنفث في الخيط وتعقد عقدة منه ثم تدفنه في مَعْطن من الأرض فلا تزال الجن موكلة بأذى المسحور به ما دام الخيط في موطنه . وأولئك هن اللواتى أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ منهن فقال : « وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِى ٱلْعُقَدِ »

وهنالك المراضع . وكان نساء من البادية يأتين المدائن والقرى مِلاءَ الأثداء فيؤْبَن بولدان الحَضَر يُرْضِعنهم ، ويتعهدن منابتهم ، بين ملاعب البدو ، ومضارب الخيام .

وكانوا يختارون المُرْضِع فى نفسها وعشيرتها فأيهن كانت أسمح خُلُقاً ، وأقوم خَلْقاً ، وأبْيَنَ بيانا ، وأعزَّ نفراً ، فهى الظافرة السابقة .

وكان من شيم العرب وأخلاقهم اذا ولد لهم ولد أن يلتمسوا له مرضعة فى غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له[٤] . ومن أجل ذلك دفع النعمان بن المنذر بابنه الى بني مرة ليُسْترضَع فيهم فأرضعته سلمى بنت الحارث بن ظالم[٥]

١ الحزون — جمع حزن بفتح الحاء — ما صلب من الارض ٢ المثبور من الثبور وهو الهلاك ٣ الناقة الكوماء العظيمة السنام الطويلته ٤ انسان العيون ج ١ ص ٩٦
٥ الاغانى ج ١٠ ص ٢١

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرْجِع فصاحته المُعْجِزَة الى منبته فى قريش واسترضاعه فى بنى سعد وهو الذى يقول : « أنا أعْرَبُكم[١] ولدت فى قريش واسْتُرْضِعت فى بنى سعد » . وقال له أبو بكر : ما رأيت أفصح منك يارسول الله . فقال له : ما يمنعني وُلدت فى قريش وأُرضِعت فى بنى سعد[٢] .

وفى حديث حليمة بنت أبى ذؤيب مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد خبر المراضع وخروجهن الى قرى العرب يبتغين المآب بأطفالهم .

قالت : خرجت فى نسوة من بنى سعد عشرة يطلُبْنَ الرُّضَعاء ، فى سنة شَهْباء[٣] ، على أتان قمراء[٤] ، ومعنا شارِف ما تَبِضُّ[٥] ، وما كنا ننام ليلتنا أجمع من صبيتنا الذى معنا[٦] ، ما في ثدىي ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، حتى قدمنا مكة . فما منا امرأة الا وقد عُرِض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها يتيم . وذلك انّا انما نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم ماعسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة معى الا أخذت رضيعاً غيرى . فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن الى ذلك الرضيع فلآخذنه . قال : لا عليك ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت اليه فأخذته

وفى حديث آخر ان حليمة قالت : استقبلنى عبد المطلب فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا امرأة من بنى سعد . قال : ما اسمك ؟ قلت : حليمة . فتبسم عبدالمطلب

١ أفصحكم عربية ٢ انسان العيون ج ١ ص ٩٦ ٣ شهباء جدباء ٤ قمراء شديدة البياض ٥ الشارف الناقة المسنة وتبض ترشح بقطرة من اللبن ٦ تريد بالصبي ابنها

وقال : بَخٍ بَخٍ سعد وحلم ، خصلتان فيهما خير الدهر ، وعز الأبد ، يا حليمة ، ان عندى غلاماً يتيما ، وقد عرضته على نساء بنى سعد فأبين أن يقبلنه وقلن ماعند اليتيم من الخير ؟ انما نلتمس الكرامة من الآباء ، فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدى به ؟ فقلت : ألا تذرني حتى أشاور صاحبى ؟ فانصرفت الى صاحبى فأخبرته ، فكأن الله قذف فى قلبه فرحا وسروراً . فقال لى : يا حليمة خذيه . فرجعت الى عبد المطلب فوجدته قاعداً ينتظرني فقلت : هلم الصبىَّ . فاستهلَّ وجهه فرحا . فأخذني وأدخلنى الى بيت آمنة فقالت لى : أهلاً وسهلاً وأدخلتني فى البيت الذى فيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو مُدْرَج في صوف أبيضَ من اللبن ، وتحته حريرة خضراء ، راقد على قفاه يغط ، تفوح منه رائحة المسك فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله ، فوضعت يدى على صدره فتبسم ضاحكا وفتح عينيه الىَّ ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر فقبَّلته بين عينيه وأخذته[1] .

والعرب يأبون أن تؤجر الحسيبات منهن على الرضاع ، ويقولون فى ذلك : « تجوعُ الحُرَّة ولا تأكلُ بثَدْيَيْها »

***

على أن هذه الصناعات وان آذن بعضها باتضاع فى منزلته ، وهبوط في مادته ، فليس منها ما يؤذن بضَعَة في الخُلُق ، ولا ثَلْمة فى العقل ، ولا ذلة فى الحياة . وان كان شريفاتُ العرب وربات الحسب منهم يتعالين عن الارتزاق بالصناعة فلم يتجاوزن بذلك حد الإدلال بالعز ، والمباهاة بالغنى . فأما تترف النفس

١ انسان العيون ج ١ ص ٩٦ — ٩٧

وتقاء العرض ، وصدق القول ، وفرط الإباء ، فهن فيها على سواء . وبين يدينا حديث عن امرأة تبيع الخرز بالبادية . وتلك المرأة وان تأخر بها الزمن الى أول العهد الاسلامى فان في عراقة بداوتها ما يلحقها بالجاهليات . وقلَّ من نساء الاعراب من غيَّرها الاسلام فى طبع أو عادة أو خُلُق .

أما الحديث فقد رواه رُسْتَم العَبْدِىّ قال :

خرجت من مكة زائراً لقبر النبى صلى الله عليه وسلم اذا جُوَيرية تسوق بعيراً وتترنم بصوت حلو بهذا الشعر :

فيأيها البيت الذى حِيلَ دونه ... بنا أنت من بيت وأهلُك من أهل

بنا أنت من بيت دخولك لذة ... وظلك لو يُسْطاع بالبارد السهل

ثلاثة أبيات فبيت أُحِبُّه ... وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى

فقلت : لمن هذا الشعر يا جُوَيرية ؟ قالت : أما ترى تلك الكوَّة[1] التى عليها الحمراء ؟ قلت : أراها . قالت : من هناك نَجَم[2] الشعر . فقلت : أحَىٌّ قائله ؟ قالت : هيهات ! لو أن لميت أن يرجع لطول غيبة كان ذلك ! فأعجبنى فصاحة لسانها ، ورقة ألفاظها . فقلت : ألك أبوان ؟ فقالت : فقدت أكبرهما وأكثرهما وأجلَّهما ، ولى أم . قلت : فأين أمك ؟ قالت : منك بمرأى ومسمع . واذا امرأة تبيع الخرز على ظهر الريق بالجُحْفَة . ثم قالت : يا أم ، شأنك ، فاستمعي من عمى ما يلقى اليك . فقالت : حيَّاك الله هيه ، هل من جائية بخير ؟ قلت : هذه بُنَيَّتك ؟ قالت : كذا كان أبوها يقول ! قلت : أتزوجينيها ؟ قالت :

١ الكوة — بفتح الكاف وقد تضم — النافذة في الحائط ٢ نجم ظهر

لعلةٍ ما رغبت فيها ! فوالله ما لها جمال ، ولا لها مال . قلت : لحلاوة لسانها ، وحسن عقلها . قالت : أيُنا أملَكَ ، هي أم أنا ؟ قلت : هي . قالت : إياها تخاطب قلت : تستحي أن تجيب الى مثل هذا . قالت : ما هذا عندها ، أنا أخبرُ بها . فقلت : يا جارية ، أما تسمعين ما تقول أُمك ؟ قالت : أسمع . قلت : ما عندك ؟ قالت : بحَسْبك أن قلتَ تستحي فى مثل هذا ! فاذا كنتُ أستحي من شيء فلِمَ أفعله ؟!... قالت ذلك ثم اعتزمت فى ابائها وانصرفت .

وشبيهٌ هذا الحديث وما ضمَّ من صراحة في الرأى ، ومجانبة للكُلفة ، وحسن نسق في الكلام ، بما أسلفنا من أحاديث ذوات الشرف والسناء من النساء . وفي ذلك وأمثاله ما يدلك على أن الدم العربى يتدفق الى تلك القلوب من مَعين واحد ، ويجرى الى غاية واحدة .

﴿ وبعد ﴾ فان لأولئك النساء على ما بينهن من تباين في العمل ، وتناءٍ في الحالات ، عملاً عامًّا ، يجتمعن اليه ، ويشتركن فيه . ذلك هو اقتياد عواطف الرجال ، وتصريف أزِمَّتها ، بما أوتين من نفاذ في الرأى ، وسعة في الحيلة ، وقوة في الأسلوب . لا لرجالهن وأبنائهن فحَسْب . بل للقوم جميعاً . ان عصفت برؤوسهم عاصفة الشر ، واحتكمت بنفوسهم الحمية : حمية الجاهلية ، سكَّنَّ الثائرة وأطفأن النائرة . وان بردت دماؤهم ، وجمدت عواطفهم ، وقَرّوا على الذل ، وأغضَوْا على القذى ، هِجْن أشجانهم ، وابتعثن أضغانهم ، ورمينهم بكلمات دونها حَرّ الطعان ، ووخز السنان . فهن ركن الأمة ، وعماد البلاد ، ان رجفت بها الأرض ، ومادت بأطرافها الحادثات .

ولقد أخذ الربيع بن زياد العامرى درع قيس بن زهير العبسى وغصبه اياها وأبى أن يعيدها وكلاهما سيد قومه . وبرغم ما بينهما من المصاهرة استحكمت حلقات الخلاف بينهما ، وقام كل يستصرخ قومه ، وكاد السيف يكون حكماً بين الحيَّين ، لولا كلمات من امرأتين حسمت الجرح ، ورأبت الصدع ، وردت الى ذى الحق حقه .

فأما أولاهما ففاطمة أم الربيع . عرض لها قيس في طريقها وهى على راحلتها في مسير لها . فأراد أن يتخذها رهينة بدرعه . فقالت له : أين عزب عنك عقلك يا قيس ؟ أترى بنى زياد مصالحيك وقد ذهبت بأمهم يميناً وشمالاً وقال الناس ما قالوا وشاءوا ؟ وانَّ حَسْبك من شرِّ سماعه . فأخجل ذلك القول قيساً وتركها وهو يفكر فى أمره .

وأما الثانية فالجُمانة بنت قيس قالت لأبيها لما شَرِق ما بينه وبين الربيع : دعنى أناظر جدى فان صلح الأمر بينكما والا كنت من وراء رأيك . فأذن لها فأتت الربيع فقالت[1] : اذا كان قيس أبى فانك يا ربيع جدى ، وما يجب له من حق الأبوة علىَّ الا كالذي يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأي الصريح تبعثه العناية ، وتجلى عن محضه النصيحة ، انك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجَدُّ مكافأته اياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادي أظلم ، وليس قيس ممن يخوف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ، فلا تركنن الى منابذته ، فالحزم في متاركته ، والحرب مَتلفة للعباد ، ذهابة بالطارف والتلاد ، والسِّلم أرخى للبال ، وأبقى لأنفس الرجال ،

١ الميدانى ج ١ ص ١٣١ ٢ بلاغات النساء ص ١٢٥—١٢٦

وبحقّ أقول لقد صدعت بحكم ، وما يدفع قولى الا غير ذي فهم . ثم أنشأت تقول:

أبي لا يرى أن يترك الدهرَ درعَه وجدي يرى أن يأخذ الدرع من أبى
فرأي أبى رأيي البخيل بماله وشيمة جدي شيمة الخائف الأبى

ولعمري لقد صدع الرجل بقول ابنة ابنته ، وكان ذلك فصل الخطاب .

أما صيحتها بالقوم ان طالت رقدتهم ، وهانت شوكتهم ، واطمأنت نخوتهم ، فأهون منها الوثوب على أنياب الأفاعى ، وركوب أطراف الأسنة

وأي جبان أمة يسمع قول عفيرة بنت عفان :

وان أنتمو لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكمو طيب العروس فانما خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعداً وسُحقاً للذي ليس دافعاً ويختال يمشى بيننا مِشْيَة الفحل

أو يسمع قولها بين مشتجر القنا وتحت ظلال السيوف : ألا ان خضاب النساء الحِنَّاء وخضاب الرجال الدماء .

ويسمع قول بنت حُكيم بن عمرو العبدي :

فان لم تنالوا نيلكم بسيوفكم فكونوا نساء في الملاء المُخَلَّق[1]

أي جبان أمة يستمع هذا القول وأشباهه من بين شفاه النساء فلا يترشف الدماء ، كما يترشف الظماء برد الماء .

ولما خرجت قريش الى أحد لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معهم نساؤهم يحملن الدفوف ويبكين على أصواتها المشجيات قتلى بدر فيوقدن بذلك نار الثار في قلوب الرجال[2].

١ المخلق المطيب بالطيب وبالزعفران ٢ ابن الأثير ج ٢ ص ٦١

ثم لما التقى الجيشان خاض المسلمون فى أحشاء قريش ، فانخلعت شُعَب قلوبهم وانحلت عُقَد صفوفهم ، وطرح لواؤهم تحت أقدامهم ، فلم يقدم رجل على حمله ، حتى كانت عَمْرَة بنت علقمة هى التى أخذته فرفعته . فاجتمعت قريش حولها[1] وهنالك أخذت هند بنت عتبة ومن حولها من نساء قومها يتغنين بالمُقْعِد من الشعر . وكان من غنائهن :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

الى آخر الأبيات التى أسلفناها فى يوم تحلاق اللمم . ويقلن أيضاً :

وَيْهاً بنى عبد الدار وَيْهاً حُماة الديار
ضرباً بكل بَتَّار[2]

فكان ذلك أشد عليهم من فتكات السيوف . فانقلبوا يقاتلون المسلمين حتى ظفروا بهم .

لم يكن ذلك كله جهد ما بلغته المرأة في مواطن القتال ، ومجالات النزال ، بل لقد اقتحمت الطريق الى أقصى مداه ، فقادت الجحافل ، وهتكت المعاقل ، ونالت من مهج الأبطال كل منال .

فقد عبرت « طَيِّئ » دهراً طويلاً تنوء في غزواتها الى امرأة منهم يقال لها « رَقَاش » يعتزون بقوتها ، ويستضيئون برأيها ، ويطالعون النجح من خفقة سيفها ، ووميض عزيمتها[3].

تلك طيئ بيضة اليمن ، وعرين البواسل ، ومربض القادة الكماة ، والذادة

١ ابن الأثير ج ٢ ص ٦٣ ٢ ابن الأثير ج ٢ ص ٦٣ ٣ جمهرة أبي هلال ص ٢١٤

الحماة ، ومثار الكرم والبيان ، والحرب العَوَان ، عقدت ألويتها على امرأة منهم فملكت بها رقاب اياد[1] ، وخلعت قلوب من سواهم .

﴿ أما بعد ﴾ فذلك عمل المرأة في بيتها ، وبين عشيرتها ، وفي مادة الحياة ومعناها . أفلا تراها في عامة ماتقصده وتعمد اليه مَفِيض الخير ، ومعين الأمل ، وعَتَاد البيت ، وَعِماد البلاد ؟ .

٢ — مجابرها وسفورها

ان المرأة التى تضرم جمرة الحرب ، وتخوض غمرتها ، وترسل الكلمة فتعنو لها الوجوه ، وتنخلع من هولها القلوب ، لايَضِيرها أن تخرج — سافرة — الى الرجال ، تحت ظلال السلم ، أو بين لوافح الحرب ، وليس بنافعها أن تتوارى عن العيون ، وتُسْدل من دونها الحجب .

تلك كلمة نقدمها بين يدى موضوعنا لتعلم أن المرأة العربية اذا أَرخت قناعها أو حسرته عن وجهها فليس ذلك في شيء من حياطة الشرف أو ابتذاله .

ونحن اذا تكلمنا عن حجاب المرأة العربية فان حقًا علينا قبل ذلك أن نكشف عن معنى ذلك الحجاب حتى يكون حكم التاريخ فيه واضحًا لاعِوَج فيه .

يطلق الحجاب على واحد من اثنين :—

أولها : قرار المرأة في دارها والاحتجاب دون الرجال فلا تكون بمرأًى ولا مسمع منهم .

١ مجمع الأمثال ج ١ ص ١٩٤

الثانى : ارخاء القناع على وجهها اذا غادرت دارها لبعض شأنها .

أما الأول فما كان بالمرأة من حَرَج أن تغشى مجالس الرجال ، وتطرُق أنديتهم ، وتخطب فى محافلهم ومشاهدهم ، لا في الخطب الملم ، والأمر المهم ، فحسب . بل فى القليل التافه من الشؤون أيضاً . فقد فصلنا فيما أسلفنا حديث امرأتين قامت كل واحدة تثنى على زوجها فى نادى قومه بعد طلاقها منه من غير تحرُّج ولا استحياء .

وهنالك فى سوق عكاظ وهو أحفل مجامع العرب ، وأجمع مواسمهم ، كان النساء يأتين من كل صوب وحَدَب على اختلاف مقاماتهن ، وانشعاب ديارهن ، فيزاحمن الرجال بالمناكب فى كل ما قصدوا له ، واحتفلوا به . فبينا كنت ترى امرأة تناضل الرجل فى حومة القول ، اذا بأخرى تخطب الناس . والى جانب من هؤلاء امرأتان تتناشدان الشعر وقد اجتمع عليهما خلق كثير .

فلقد حدثوا ان هند ابنة عتبة ، والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، تلاقتا هنالك ، فتذاكرتا مصيبتيهما ، وكانت الأولى قد قتل عنها أبوها وعمها وأخوها يوم بدر . ومات عن الثانية أبوها وأخواها . وادَّعت كل واحدة انها أوجع مصابا ، وأحرُّ كبدا من أختها . ولكى تفِىَ كل بدليلها جاءت بأبرع الشعر وأروعه فى وصف مصابها ، وجُهد ما فَعل بها وبقومها . ثم انصرفتا وقد جاش بالناس الحزن ، وتملكهم الإعجاب[1] .

١ وذلك تفصيل ما أجملناه من هذا الموقف مما حدث أبو الفرج عن ابن أبى الزناد قال : لما كانت وقعة بدر قتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فأقبلت

وما كانت الخنساء ولا صاحبتها بالتى ينكرها أحد من العرب ، فهما جميعاً فى المكان الأرفع من زكاء الحسب ، وسناء المنزلة .

تقول العرب فى أمثالها : ما يوم حليمةَ بِسرّ . فَمَنْ حليمة وما يومها ؟

هند بنت عتبة ترثيهم وبلغها تسويم الخنساء هودجها في الموسم — رفع العلم فوقه — ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد واخويها صخر ومعاوية . وأنها جعلت تشهد الموسم وقد سومت هودجها براية . وانها تقول أنا أعظم العرب مصيبة . وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك فلما أصيبت هند بما أصيبت وبلغها ذلك قالت أنا أعظم من الخنساء مصيبة . وأمرت بهودجها فسوم براية . وشهدت الموسم بعكاظ — وكانت سوقا يجتمع فيها العرب — فقالت اقرنوا جملى بجمل الخنساء ، ففعلوا . فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء من أنت يا أخية قالت أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ! وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم ؟ فقالت الخنساء بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو وبم تعاظمينهم أنت قالت بأبي عتبة بن ربيعة ، وعمى شيبة بن ربيعة ، وأخي الوليد . قالت الخنساء أو سواء هم عندك ؟ ثم أنشأت تقول

ابكي أبي عمرا بعين غزيرة ... قليل اذا نام الخلى هجودها
وصنوىّ لا أنسى معاوية الذي ... له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً ومن ذا مثل صخر اذا غدا ... بسلهبة الابطال قبا يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلمي ... ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها

أبكي عميد الأبطحين كليهما ... وحاميها من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى ... وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب ... وفي العز منها حين يغنى عديدها

وقالت لها أيضاً

من حسّ لى الأخوين كالـــغصنين أو ... من راهما

— وهن بضعة أبيات أوردناهن في مختار شعر النساء —

الاغاني ج ٤ ص ٣٤ — ٣٥

أما حليمة فهى ابنة الحارث بن أبى شمِر ملك الشام . وكانت كأجمل أهل دهرها وأكملهم .

وأما يومها فذلك الذى أقصه عليك : —

استحكمت الجفوة بين المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، والحارث بن أبي شمِر الغساني ملك الشام ، وطمع كل منهما في صاحبه ، فخرج اليه بما ملك من قوة وبأس شديد . وبينا الحارث فى طريقه الى العراق قدم عليه قادم من الحيرة له نسب فى الغساسنة فأخبره ان جيش المنذر لا يناله العدو وان لا طاقة له بقتاله ! فلما تراأى الجيشان على « عين أُباغ » اختار الحارث مائة من فتيانه كلهم شديد البأس ، قوى الشكيمة ، وأمرهم أن يأتوا المنذر فيُفضوا اليه بطاعتهم وطاعة أهل الشام جميعاً ، حتى اذا أنسوا منه هدوءا وغِرّة فتكوا به . ثم أمر ابنته حليمة فطافت بهم فضمّختهم بالمسك جميعاً — وكان ذلك مما أفاض عليهم حميّة وعزما واقداما — فذهبوا الى حيث أمروا ، وقتلوا المنذر وهو فى العدد العديد من قومه حتى اذا سمع الحارث وجنده صيحة الظفر من فتيانهم زحفوا فتلاقوا بأعدائهم وأوقعوا بهم .

فراحوا فريق فى الاسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ذلك يوم حليمة وهو من أروع أيام العرب وأهولها وحسبه على ما نريد دليلا[1] .

وأما حجاب الانتقاب فلم يكن له بينهن نظام شامل ولا هيئة واحدة في القبيلة الواحدة ترى « البُرْزة » وهى التى تجلس الى الرجال وتجاذبهم الحديث سافرة

---

١ الميداني ج ٢ ص ١٥٠ وخزانة الأدب ج ٢ ص ١١

غير محجوبة و « المحتشمة » وهي التى ترخى قناعها اذا خرجت عن بيتها فلا تطرحه حتى تعود . وهذا وذلك شأن ذوات السن منهن .

وشبيه بذلك شأن الفتيات . فمنهن « سقوط القناع » وهى التى لا تكاد تنتقب ثقة بنفسها وادلالا بحسنها أو سيراً على سجيتها وفي مثلها يقول المسيَّب ابن عَلَس:

اذ تستبيك باصلتيّ ناعم قامت لتفتنه بغير قناع[1]

ويقول المرقِّش الاصغر :

أرتْك بذاتِ الضال منها معاصما وخدًّا أسيلاً كالوذيلة ناعما[2]

والى هذه يشير عمر بن أبي ربيعة فى قوله :

فلما تواقفنا وسلّمت أقبلت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا[3]

ويقول أبو النجم في احدى أراجيزه :

من كل غرّاء سقُوط البرقع بَلْهاء لم تَحْفَظْ ولم تُضَيِّع[4]

ويقول الاصمعي : وقد تُلْقى المرأة خِمارَها لحسنها وهو على عفة . وأنشد فى ذلك بيت أبي النجم[5] :

---

١ تستبيك تغلبك على نفسك حتى تكون سبيا لها والأصلتى الحد الناعم الحسن

٢ ذات الضال موضع والوذيلة المرآة ومعنى ذلك انها لم تتحرج مما يخفى معاصمها أو يحجب وجهها ٣ زهاها الحسن استخفها . يقول : ان هذه الوجوه استخفها الحسن عن أن تقنع

٤ الغراء من الغرة وهى بياض الوجه والبلهاء الغافلة عن الشر الحسنة الظن بالناس ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم .. أكثر أهل الجنة البله .. ٥ شرح المفضليات لابن الانبارى ج ١ ص ١٣٠

ومنهن التى لا تكاد تفارق قناعها اذا انحسرت عن دارها : اما لاحتشامها واستحيائها وفى مثلها يقول الشَّنْفَرَى :

فوا كبدى على أُمَيمة بعد ما طمعت فهيهاتَ نعمةَ العيش زلت

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها اذا ما مشت ولا بذات تلفُّتِ

وإما لكلَف أصاب وجهها فهي تجهد أن تستره . وفى نحو ذلك ما نقلَ أبو زيد فى نوادره عن اعرابيّ قيل له : ما تقول فى نساء بنى فلان ؟ فقال : بَرْقِعْ وانظُرْ . يريد بذلك أن عيونهن خير ما فيهن .

وشبيه ذلك ما حدث الراغب أن أسديًّا قبيح الوجه خطب امرأة قبيحة فقيل لها : انه قبيح وقد تعمم لك . فقالت : ان كان قد تعمم لنا فانا قد تبرقعنا له[1]

وبين أيدينا أمثال سائرة مما أرسله العرب تنبئنا انَ كشف القناع أغلب حالات فتيات العرب وأمثلها بهن .

فمن ذلك قولهم : تَرَكَ الخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ القِنَاعَ . يريدون أن الفتاة لا تستر وجهها الا لشر تُؤْثِر أن تستره .

وقولهم فيمن لا يستر عيبه : * كَذاتِ الشيْبِ ليس لها خِمارُ *

فهم لا يرون الخِمارَ لزاما الا لذات الشيب فان خليقاً به أن يواريه .

وقولهم : ان العَوَانَ لا تُعَلَّمُ الخِمْرَةَ . فأما العوان فالنَّصَفُ التى ناهزت الأربعين . وأما الخِمرة فهيئة الالتفاع بالخمار . ومعنى ذلك أن العوان جاوزت السن التى كانت تعاني فيها التقنع فلا تحسنه .

---

١ محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٩٤

ومما جرى مجرى الامثال ما روى ابن منظور ان امرأة قالت لبعلها : مُرَّ بى على بنى نَظَرَى ولا تمرَّ بى على بنات نَقَرَى . أى مرَّ بى على الرجال الذين ينظرون الىَّ ولا تمرَّ بى على النساء اللواتى يعبنني ويُنَقِّرْن في عرضى .

وشبيه بذلك ما روى صاحب التهذيب من أمثال العرب ان اعرابية قالت لصاحبة لها : مُرِّى بى على النَّظَرَى ولا تمرى بى على النَّقَرَى[1] .

لكل ذلك لا نتحرج أن نقول ان طرح النقاب كان أغلب حالات نساء العرب . حتى لقد غلا الرازى والطبرى فأطلقا الأمر على سُنّة وجهه فقالا : ان نساء العرب كن يخرجن مكشوفات مُتَبَذِّلات سواء فى ذلك حرائرهن واماؤهن فأُمرن — أى في الإسلام — بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس[2] .

ذلك قول الإمامين المفسرين أرسلاه على اجماله وطَوَياه على بِلاله[3] ليخبرا به عن حالة شائعة وهيئة غالبة . والقول مافصلناه فيما أسلفناه .

تلك الحاله الشائعة هي التى عالجها القرآن الكريم في قوله جلت آيته : «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا» .

على أن هناك حالات شاملة لم تكن المرأة أيًّا كانت لِتُعْنَى فيها بأمر نقابها . وأشملها حالة الرَّوع[4] اذا اشتملت عليها الوقائع ، أو دارت على فريقها الدوائر ، وارتقبت من وراء ذلك ذل السباء ، وعار الإسار . وذلك اما لشغلها بالجليل المهم

١ لسان العرب ج ٧ ص ٨٧ ٢ الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٤٩ والطبرى ج ٢٢ ص ٣٢
٣ يقال طويت الثوب على بلاله اذا طويته وهو ندىّ يضرب للشيء مثلاً تحتمله على ما فيه
٤ الروع — بفتح الراء — الحرب

من الأمر ، واما لخشيتها السباء ، فهى تظهر سافرة حاسرة حتى تلتبس بالإماء .

وفى هذا الموطن يقول مُهَلْهِل بن ربيعة :

قَرِّبا مَرْبَطَ المشهَّرِ منى ... سوف تيدولنا ذوات الحجال[1]

ويقول عوف بن عطية بن الخَرِع التَّيْمِى[2] :

ولَنِعم فِتيانُ الصباح لقيتهم ... واذا النساء حواسِرٌ كالعُنقُرِ[3]
من كل واضعة الخِمارِ وأخْتُها ... تَسْمى ومِنْطَقُها مكان المِئْزَرِ[4]
وتكر أولاهم على أخراهم ... كر المُحَلَّأِ عن خِلاط المَصْدَرِ[5]

أما مناحاتهن ومواتف أحزانهن فهن فيها سوافر الوجوه ، حواسر الرؤوس ، وفى مثل ذلك يقول مُهَلهل بن ربيعة :

حتى تبيد قبيلة فقبيلة ... ويَعَضَّ كل مثقَّفٍ بالهام[6]
وتقوم ربات الخدور حواسرا ... يمسحن عُرض ذوائب الايتام

ويقول :

كنا نغار على العواتق ان تُرى ... بالأمس خارجة عن الأوطان[7]
نخرجن حين نُوى كليب حُسَّرًا ... مستيقنات بعده بهوان
وترى الكواعب كالظباء عواطلا ... يبكين مصرعه فقد أبكاني

١ المشهر فرس مهلهل والحجال — جمع حجلة — ستور العروس .
٢ هو من شعراء المفضليات ج ٢ ص ٥٩ ٣ العنقر أصول القصب الابيض
٤ واضعة الخمار ملقيته والمنطق شقة تلبسها المرأة تحت الازار — شبيهة بما يدعونه المكوف — يقول انها لفزعها أو شغلها بالعظيم من أمرها سقط ازارها فظهر منطقها
٥ المحلأ الممنوع عن الماء والخلاط اختلاط الناس والابل والماشية ٦ المثقف السيف المصقول والهام — جمع هامة — الرؤوس ٧ العواتق جمع عاتق وهى الفتاة التى لم تزوج

ويقول الربيع بن زياد :

من كان محزونا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه ... يلطمن أوجههن بالأسحار
قد كن يخبأن الوجوه تستّرا ... فاليوم حين برزن للنظّار
يضربن حرّ وجوههن على فتى ... عف الشمائل طيب الأخبار

وهنالك في أعياد القوم وأعراسهم وبين مظاهر زهوهم وأفراحهم اذا نبغ شاعر حكيم أو قدم قائد عظيم يخرج فتيات الحى سوافر الوجوه يعزفن على المعازف ويرقصن على المزاهر ويتغنّين بمآثرهم ومفاخرهم ويتمدحن بعظائمهم ومكارمهم ويرسلن القول عذبا نديا في وصف من اجتمعن له واحتفلن به . ولقد راب عنترة الفوارس مارآه من انتقاب خدينته عبلة دونه وسكوتها عما شغل به الناس من الإشادة به والثناء عليه بعد ما آب من حرب داحس والغبراء فقال :

ان تغدفي دوني القناع فانني ... طبّ بأخذ الفارس المستلئم[1]
أثنى عليّ بما علمت فانني ... سمح مخالقتي اذا لم أظلم
فاذا ظلمتُ فان ظلمي باسل ... مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم[2]

وما زال يتمدح بحسن ضريبته ، ويُمن نقيبته ، وجهد عزيمته ، حتى استوفاهن تيفا وأربعين بيتا .

أفلا تراه كيف عد انتقابها دونه انكاراً لعظيم شأنه ، وسمو مكانه ؟ ثم ألا تراه

١ اغداف القناع ارخاؤه على الوجه يقول اني ثبت عينك على فأرخيت قناعك دوني فأنا بصير بقتل الفرسان وأسر الأقران . التبريزي ج ١ ص ٩٨ ٢ الباسل الكريه

كيف ساق اليها من مأثور مكارمه ما كان خليقاً أن تصوغه له ، وتُفْرِغَهُ عليه ؟

ذلك وربما اختمرت المرأة حتى اذا التقت بالجبان فى طريقها كشفت عن وجهها ازراء به ، وايماء له بأنه ليس بالذى يحتشم منه . وقد حدثوا عن نساء بنى الحارث بن كعب انهن لم يكنّ يُقَنَّعْنَ دون جبنائهن . وذلك الذى عناه الحارث ابن حِلِّزَةَ اليَشْكُرِيُّ في قوله :

عيشى بجدّ لايضرْ ... كِ النوكُ ما أوتيت جدّا[1]
وضَعي قناعك ان رأيـ ... ـت الدهر قد أفنى معَدّا

يقول اذا ذهب الدهر بمعد فضعي قناعك فليس هناك عظيم يأخذك الحياء منه[2]

كل ذلك شأن الحجاب في أمم العرب الطارئة وهم بنو اسماعيل وحَفَدَةُ قحْطان الذين خلفوا على جزيرة العرب بعد ان عصف الدهر بأهلها الأولين .

اما الأمم البائدة — وهن عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس والعمالقة وأخر غيرهن لايعلمهن الا الله — فلم يكن الحجاب معروفا عندهن بل لقد تبرج النساء في تلكم الايام تبرجا أخذه الله عليهم فنهى المسلمين عن مثله في قوله تبارك اسمه : « وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول النيسابورى : كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى به وسط الطريق بين الرجال[3] . وفى كل ذلك ماينبئنا ان طرح النقاب فى تلك الحقب المتناكرة لم يكن

١ الجد — بفتح الجيم — الحظ والحظوة والرزق . والنوك — بفتح النون وضمها — الحمق يقول ان هناوة الحياة ونعيمها مرجعها الى الحظ لا الى العقل ٢ جمهرة الأمثال ص ٨٦
٣ تفسير النيسابورى ج ٢٢ ص ١٠

مرجعه الى بساطة البداوة وصفاء الملكات بل كان سبيله ما هم فيه من نعومة العيش وصفو الحياة .

على أننا لانزال نثنى القول ونكرره بأن حجاب المرأة العربية وسفورها لم يكونا في شيء من خُلقها ولا شرفها فقد تسفر الفتاة ترفعا وكبرياء وقد تحتجب اجتنابا للريب ودفعا لسوآت الظنون . ومن ذلك ما كان يفعل الفواجر اذا مررن بديار الحرائر . فقد كن يرخين القناع حتى يسترن عامة وجوههن .

وفي مثل ذلك مايقول الحارث بن كعب في وصيته لبنيه : يا بَنِيَّ قد أتت عليّ ستون ومائة سنة ماصافحت يميني يمين غادر ولا تنعت نفسى بخَلَّةِ فاجر ولا صبوت بابنة عم ولا كَنَّة[1] . ولا طرحت عندى مومسة قناعها .

***

وكما كان الحجاب مختلفا فى نظامه وسُنّته كذلك كان مختلفا في شكله وهيئته .

فهنالك الخمار والقناع والبرقع والنصيف واللثام واللفام وأشباهها .

فأما الخِمار والقناع فقريب بعضهما من بعض وكلاهما شُقّة توضع على الرأس ثم تلاث على جزء من الوجه . ويظهر أن أصل كونهما على الرأس ثم تسدل المرأة شيئا منها على جزء من الوجه اذا أحوجها ذلك . وشاهد ذلك قول البحترى يصف امرأة اضطرها الموقف فأرخت قناعها عَلَى فمها .

عَجِلَت الى فضل القناع فأثرت عَذَباته بمواضع التقبيل

وأما البرقع فغطاء سائر الوجه أو بعضه وله عينان تجلاوان عَلَى عينيها

١ الكنة امرأة الابن أو الاخ

وثقوب أخرى يظهر منها شيء من وجهها . ويسمى ذو الثقوب الضيقة بالوَصْواص . ويغلب أن يكون ذلك للإماء . أما ذو الثقوب المنفسحة فهو المَنْجول كأن عيونه عيون الحسان النجل . وفى ذلك يقول الشاعر :

لهونا بمنجول البراقع حِقبة فما بال دهر لزّنا بالوصاوص

وأما النصيف فثوب رقيق تتجلل به المرأة فوق ثيابها ، وربما قُنّعت ببعضه . وانما سمى بالنصيف لأنه نصفٌ بين الناس وبينها ، فهو يحجز أبصارهم عنها . وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف الحور العين : « ولَنصيف احداهن خير من الدنيا وما فيها » . ويقول النابغة فى وصف المتجردة امرأة النعمان بن المنذر :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتلقفته واتقتنا باليد

أما اللثام والنقاب فكلاهما قناع الوجه من طرف الأنف الى مادونه فان نزل الى الفم فهو اللفام .

والآن وقد بلغنا غايتنا من حجاب المرأة ، فان حقًّا علينا أن نُلِمّ قليلاً بثيابها وزينتها وما احتواه بيتها فنقول :

٣ — ثيابها

لبست المرأة العربية ضروبًا من الثياب مختلفًا فنونها وألوانها مما أخرجته مناسج اليمن وعُمان والبحرين والشام والعراق ، وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند . ومنها ما رق نسجه ، ودق خيطه ، وذلك ما تسميه بالمهلهل

والمسلسَل والهَفَّاف ، وما كُثُف حَوْكُه وضوعفت حواشيه ، وذلك ما تدعوه بالصفيق ، والشبيع ، والحصيف . ومنها ما لم يخالِط لونه لون آخر . ولهن فى ذلك الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والمُدَمَّى — وهو ذو الحمرة القانية — والمُشْرَق — وهو ما كان وسطاً بين الحمرة والبياض — والمفروق — وهو ما أشرب بالزعفران — وما اجتمع فيه اللونان فما فوقهما ومن ذلك المُشْرَب — وهو الذى يتماوج بين لونين — والمُخَطَّط ، والمُسَهَّم — وهو ما أشبهت خطوطه أفاويق السهم — والمُفَرَّق — وهو ما اجتمع الى لونه خطوط بيض — والنَّمِيق ، أو المُنَمَّق — وهو المنقوش — والمُوَشَّى وهو ما اجتمع عليه الزُّخْرُف — والمُعَيَّن — وهو ما أشبهت نقوشه عيون النرجس — والمُسَلَّب — وهو ما تقاطعت خطوطه كتقاطع الصلبان — والمُذْهَب — وهو ما حُبِك نسجه بخيوط من الذهب — وفيه يقول سلمى بن ربيعة :

والبيض يرفلن كالدمى في الرَّيط والمُذْهَب المصون

وأما مادتها فالحرير . ومنه الدِّيباج ، والدِّمَقْس ، والسُّنْدُس ، والاستبرق[1] . والخَزّ — وهو وبر دابة كالأرنب تدعى بذلك الاسم ويشبه الحرير في ملاسته ونعومته — ووَبر الأرنب ، وليس كل الأرانب يتخذ وبرها ، وانما هو نوع خاص يجتلب من شمال العراق . والقطن ، والصوف ، والكتان ، وأشباهها .

وأما أنواعها فجمة العدد ، مختلفة الهيئات . وأشملها وأعمها ما أنا سائقه اليك ومنه الشعار والدثار .

---

١ الديباج الحرير عامة والسندس رقيقه والاستبرق صفيقه أو ما حيك بالذهب منه والدمقس القز

أما شعارها — وهو ما يلى جسدها — فالصدار والمُجُول — وهما قميصان قصيران متقاربان لا أكمام لهما ودونهما السَّراويل — .

وأما دثارها — وهو ما يلى الشعار — فالدرع — وهو جلباب شامل يحيط بدثارها — والنطاق ، ويلبس دون الدرع — وهو ثوب تشده المرأة الى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل — واذا نحن قربناه الى متناول العصر الحاضر قلنا انه « ملكوف » مضاعف . ومن فوق هذين البَت — وهو ثوب أخضر مهلهل يحيط بجسم المرأة ويُقَنِّع جزء منه رأسها ووجهها — فان لم يكن البتّ فالحُلّة — وهى ثوب يُظاهره ثوب آخر ويغلب أن يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً ليظهر ما يليه . وقد تطلق الحلة على الثوب المبطّن . وقد ترتدى فوق ذلك بصنف من الأردية ازديانا واختيالاً أو تصوُّناً واحتشاماً .

ومن هذه الأردية العِطاف ، أو المِطَف — وهو رداء تلقيه على عطفيها وترسله على جسمها — والرَّيطة — وهى مُلاءة ذات لِفْق واحد أى شقة واحدة . والحَبَرَة — وهى بُرْدٌ مُوَشَّى من بُرُود اليمن — وليس هناك وصف أدق لها من قول صبى لحسان بن ثابت لسعه الزُّنْبار ولم يكن قد عرف اسمه فقال لأبيه : يا أبت لسعنى طائر كأنه ملتف في بُردى حَبَرَة يمانية . وهى أغلى وأبهج ما ارتداه النساء في ذلك العهد . وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم الحواميم في القرآن بالحبرات تنويهاً لها وإشادة بفضلها .

ومن أرديتهن المِرْط — وهي مُلاءة ذات شقتين — وليس بين أرديتهن ما هو أعم استعمالاً منه . ومنها اللِّفاع — وهو رداء تلتفع به وهو «بالشال» أشبه

ولهن غير ذلك الوِشَاح – وهو شُقّة مُرَصَّعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقيها وخصرها – والسَّرَق، واحدتُهُ سَرَقة – وهى شقاق من الحرير يلتفعن بها – والمِطْرَف – وهو رداء مربع من الخزّ موشّىٌ بالأعلام – .

والعَمَرُ – وهو منديل الرأس – ولا يلبسه الا الحرائر .

وهنالك المِيدع – وهو ثوب تضعه عند معاناة عملها فتصون به غوالى ثيابها من الابتذال – وهو شبيه بما ندعوه « بالمريلة » قال الضَّبّيّ :

أُقَدِّمه قُدَّام نفسى وأتقى به الموت ان الصوف للخزِ مِيدَع

ومن أرديتهن السِّلَاب – وهو لفاع أسود تعصب به رأسها فى المآتم والمناحات – قال ضمرة بن ضمرة النهشلى :

هل تَخْمِشَن ابلى على وجوهها أم تعصبنّ رؤوسها بسِلاب

ولهن فى هذه المواطن المِسْح – وجمعه مسوح – وفيه وفى السُّلب – جمع سلاب – يقول لَبيد :

يَخْمُشْنَ حُرَّ أوجهٍ صِحاح فى السُّلُب السود وفى الأمساح

وأما ما تحتذيه فالخُفّ – وهو ما طال من الأحذية – والقَفْش، أو الكَوْث وهو القصير المكشوف منها . والجورب – وهو شعار القدمين – والقُفَّاز ويتخذ للقدمين واليدين معاً، وهو أدق نسجاً، وأنضر لوناً من الجورب ولذلك شبهوا به الحناء في اليدين والقدمين فقالوا : تقفزت الفتاة اذا خضبت بالحناء .

٤ – حليها

بلاد العرب محفوفة الجنبات بمغاوص اللؤلؤ والمرجان . وهى فوق ذلك مستورَد للذهب والفضة والزمرُّد والزَّبَرْجَد والعقيق والياقوت وأشباهها مما يهبط به التجار من مختلف الأقطار ليبيعوه بلؤلؤ العرب ومرجانهم . فليس بدعا بعد ذلك أن يتخذ النساء تلك الجواهر معقد زينتهن، ومُجْتَلَب الأبصار اليهن، فلم يتجاف عنها الا واحدة من اثنتين : امرأة غنيت بفرط جمالها، وبديع محاسنها فهى تتركها ثقة بذلك الجمال، واستهانة بأمر الحلى، وتلك التى يدعونها العاطِل وأخرى امرأة نكبها الدهر، واستلب منها عزيزاً عليها، فهى تطرحها كراهية للزينة، وايذاناً بالحِداد، وهي التى يسمونها الأرهاء . فأما مَن سواهن فهن جميعا حاليات .

تقلد الصبية العربية صنوفا من الحلِىّ منذ بدء عهدها وأول نشأتها : وذلك حيث يقول الله جل ذكره حاكيا قول جهلة المشركين الذين اذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيمٌ : « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وهو فى الخِصَامِ غيرُ مُبِينٍ » فجعلوا التنشئة في الحلية شعار الإناث، وموطن الكناية عنهن .

أما ما عقدت الخناصر عليه من صنوف حليهن، وضروب زينتهن، فذلك الذى أورده عليك :

فهنالك التاج أو الإكليل وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحوط جبين المرأة

والقُرْط وهو ما علق فى أسفل الأذن . فأما ما علق فى أعلاها فالشَّنْف .

والحِبُّ وهو القرط من حبة واحدة . ويسمى الخيط الذى يصل بين القرطين بالعُقَاب .

والخِرْص ، الحلْقة من الذهب أو الفضة فى أذن الصبى والصبية والمرأة .

هذا ، ويغلب على القرط أن تعلق به جوهرة أو لؤلؤة . وقد ضربوا المثل بقُرْطَى مارية ابنة ظالم بن وهب الكندى زوج الحارث الاكبر الغسانى ملك الشام ، وفيهما درّتان كبيضتى الحمام لم ير الراؤون أعجب ولا أوضأ منهما ، وقد توارثهما نساء الملوك من بعدها حتى كان مآلهما الى فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجا لعمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة . فلما وليها قال لها : ان أحببت المقام عندى فضعى القرطين فى بيت مال المسلمين . فصدعت بأمره . فلم يزالا في موطنهما من بيت المال حتى انتقض الملك الأموى فذهب خبرهما[1] .

ومن أمثالهم : أنفس من قرطى مارية . يضربونه في كل غال وعزيز عليهم .

وقولهم : آتيك بما شئت ولو بقرطى مارية . قال قائلهم[2] :

يأيها الملك الذى مَلَك الأنام علانيه
المال آخِذُه سوا ىَ وكنتُ عنه ناحيه
انى أؤديه اليك ولو بقُرْطَى ماريه

وهنالك القِلادة . وهى ما يجعل بالعنق . ويسمى موطنها بالمُقَلَّد وأنفسُها ما كان من اللؤلؤ وحده أو مفصَّلاً مع غيره من الجواهر . ومنها الزمرد

١ قطر الغيث المسجم ص ١٦٩ ٢ جمهرة الامثال ص ٢٤٢

والزبرجد والياقوت والمرجان . وقد يضاف الى ذلك الشَّذْر ، وهو حبات من الذهب . والجُمَان وهى لآلئ من الفضة . وهم يسمون اللؤلؤة التى توسطت حبات العقد بالواسطة .

والتِّقْصار أو المِخْنقة قلادة لاصقة بالعنق .

وتسمى الأهداب المتدلية من القلادة على الصدر بالسُّمُوط ، وواحدها سِمْط . والسِّمط أيضاً الخيط ينظم فيه اللؤلؤ وغيره .

والطوق حَلْىٌ يحيط بالعنق ويغلب أن يكون ذلك للأطفال .

والسِّخاب قلادة من قَرَنْفُل أو ما يشابهه ، ويغلب أن تكون تلك للاطفال أيضاً .

والسَّلْسُ نظم ينظم من الخرز . والخرز صنوف جمة ، أجلها وأحبها الخرز اليماني ، وهو صنف من الخرز محلّى

والوِشاح وهو خيطان من الجوهر منظومان مختلفٌ بينهما معطوف أحدهما على الآخر .

والسُّوَار أو الأَسْوِرة ، وهو نطاق المِعصم . وهو من خصائص الحرائر وفي أمثالهم : * لو ذاتُ سِوَارٍ لطمتنى *

والمِعضَد أو الدُّملج طوق العضد . وهو شبيه بالسوار لليد .

والخاتم والفَتَخ ، وأوّلهما ما له فص ، والثاني ما لا فص له . وكلاهما يلبس فى أصابع اليدين والرجلين معاً .

والخَلخال ، وانما يطلق على ما له رنين ، فان لم يكن له رنين فهو الفَتَخ فان

غاص فى الساق فهو الخَدَمة . وعند العرب صنف من الحلى يصاغ مجوفاً ويحشى بالطيب ويسمى ذلك بالكبيس .

ويسمى صوت الحلىّ بالوسواس أو النقنقة

والتميمة خرزة تعلق فى عنق الصبى أو الصبية أو خيط تعلق فيه التعاويذ بزعم انه يدفع عنهم الآفات .

ومن لواحق الزينة عندهن بل من أصولها ودعائمها الطيب وهو زينة العرب جميعا — رجالاً ونساءً وأطفالاً .

والطيب عندهن على صنفين أعواد يُتَبَخَّرُ بها ، ودُهن يدَّهَن به . فمن الاول الصندل ، والساج ، واللبنى ـ وهو شجر يسيل منه لبن كالعسل فى طعمه ـ والعود . والنَّد ـ وهو المسك يعجن بالعود ـ والرَّند وهو شجر زكى الرائحة .

ومن أزهارهن الآس ومنه يعتصر دهن يُدَّهن به . ومن الثانى العنبر والمسك والغالية وهي أزكى صنوف الطيب عندهن وتتخذ من المسك يعجن بالعنبر والبان . فأما البان فشجر يسمو ويطول في استواء وورقه كورق الاثل وثمرته كقرن اللوبياء ولها حب يعتصر فيخرج منه ذلك الدهن .

على أن هنالك من العرب — وأخصهم أهل البادية — من يتواصون باطراح الطيب وترك التضمخ به ويرون في الماء غناء عنه ومن ذلك مايقول الحارث ابن كعب المذحجى فيما يوصى به بنيه : وتزوجوا الأكفاء وليستعملن في طيبهن الماء .

٥ - بيوتها

لم تكن بيوت العرب على سواء في تكوينها ونظامها ومادتها . فهى تختلف باختلاف مواطنها واقدار ذويها . فأهل البادية لحاجتهم الى النجعة ، واعتزامهم الرحيل ، وتأثرهم مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ ، كانت بيوتهم بحيث يسهل تقويضها ، ومتاعهم بحيث يُحْتَمل حمله ، فلم يجاوزوا به مواطن الحاجة ، وسِداد العَوَز. فأما بيوتهم فأكثرها خيام تضرب ثم تطوى ، وقَلَّ أن كانت من الحجر أو اللَّبِن. وهي من حيث هذا وذلك على عشرة أنحاء : خِباء من صوف ، وبِجادٌ من وَبَر ، وفُسطاط من شَعَر ، وسُرادِق من قطن ، وقَشْع من جلد ، وطِراف من أَدَم ، وحَظيرة من شَذَب[1] ، وخيمة من شجر ، وأقْنة من حجر ، وكُبّة من لَبِن . وهي بسائط التكوين . ومَثَلُها فى ذلك كَمَثَل ما أحاط بها من سهل ، وجبل ، وجو ، وأرض ، وسماء . غير ان أشرافهم لغدوهم على حواضر البلاد ، وغشيانهم مجالس الملوك ، كانوا يتأنَّقون بعض الأَنَقة فى بيوتهم ، وينقلون اليها من تلك المظاهر ما لا تنبو عنه طباعهم ، ولا أسلوب حياتهم . وربما جمع الرجل بين هذه البيوت كلها أو بعضها ليتخذ منها مأوى لضيفانه ، ومثوى لعشيرته ، وحظيرة لماشيته ، ومجلسا لنسائه ، ومهبطا لسُمّاره .

وكانت للنساء مجالس يجتمعن فيها فيتناقلن الحديث ، ويتجاذبن أطراف الكلام ، كما كانت للرجال أندية يتسامرون فيها ويتشاورون . وذلك ما يراد من

١ الشذب قطع الشجر



المرأة العربية في أكمل زينتها – ص ١٣٢

قول عمرو بن كلثوم في وصيته لأبنائه حيث يقول : وأبعدوا بيوت النساء عن بيوت الرجال فانه أغض للبصر .

أما المدن فمستقر الدور والقصور . وهي لا تقل في شيء عما سواها في مختلف الاقطار والأمصار ، وبينها أبدع ما وضعته الايدى ، وأثمرته العقول . ففى اليمن غُمدان وظفار وأشباههما . وفي العراق الخَوَرْنَقُ والسَّدير واضرابهما . وفي الشام السُّوَيداء وقصر الغَدير ونظائرهما . وفي تدمر وتيماء الزواق الأعظم ، والابلق الفرد وأمثالهما . وفى كل مدينة من القصور الشم ، مالا تناله العُصْم ، ومن دونها قصور لا تدانيها سناء ولا بناء . على ان لها نصيبها من جلال وجمال . ومن ذلك تعلم أن بلاد العرب لا تقل في بيوتها عن كل بلد مُشرق العهد ، عريق المجد ، بعيد الامد .

أما أثاثها ومتاعها فانى ناقل لك أعمه وأهمه . ففيها من الفُرُش الحَصير ، ومنه المنمق المنقوش . وفي النساء صوانع خصصن بتنميق الحصير . قال النابغة :

كان مجرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَها عليه حصيرٌ نمَّقَتْه الصوانع[1]

والبِسَاط وهو كل شيء بسط ليجلس عليه . ومن البسط الزَّفرف ، وهى بسط خضر ـ واحدتها رفْرَفة ـ . والزرابى ـ جمع زَربى ـ وهى بسط بديعة الرُّواء ، لها خَمْل ـ هُدب ـ ناعم دقيق ؛ وانما سميت بذلك تشبيها بالزَّرْبى من الزهر ، وهو نبت يجمع بين الصفرة والبياض . والطنافس ـ جَمْع طُنْفُسَة ـ ومثلها كمثل

١ الرامسات الرياح سميت بذلك لأنها تدفن الأثر وذيول الريح أواخرها أو أوائلها ومرجع الضمير في عليه النؤى في البيت قبله :

رماد كـكحل العين لأيا أبينه ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

والنؤى حفير حول الخيمة

الزرابى فى حملها ، وان كانت دونها ، في رقة نسجها ، ورُواء منظرها . والعَبْقَرِىّ ـ جمع عبقرية ـ وهي الطنافس الثِّخان ، أو البسط الموشيَّة من الديباج ، أو أبدع الزرابى . والنمارق ـ جمع نُمْرُقَة ـ ومنها وسائد وبسط وهي جميعاً ذات وشى مرقوم وقد ذكر الله جل ذِكْرُه تلك الصنوف من البسط في القرآن في سياق وصف الجنة ليصورها بذلك للعرب على أبدع ما يفهمون ، وأحبِّ مايعلمون .

أما ما على الفراش من المقاعد فمنه الحشايا ـ واحدته حَشِيَّة ـ وهي مقاعد محشوة تبسط على الارض للجلوس وفوق السرر للنوم . وقد يبالغون في حشوها فيتخذونه ريش النعام . فاذا ازداد حشوها وارتفع سَمكها فهي الوشائز .

وعندهن الحَجَلة وهي غرفة العروس تزين بالفُرُش والأسرة والستور . وبها الأرائك ـ واحدتها أريكة ـ وهي شبيهة بالوشائز . غير انها أرفع وأرق وأبهج . ومن أجل ذلك اختصوا بها غرفة العروس .

وأما الأسِرَّة فصنوف شتى . وأوضعُها ما اتُّخذ من سَعَف النخل . وأعزها ما كان من العاج . وذلك الذى يقول فيه القائل :

واللهِ لَلنَّوْمُ على الديباج على الحشايا وسرير العاج
أهون يا عمرو من الادلاج وزفرات البازل العَجْعَاج

ولهن غير ذلك الكِلل ـ واحدتها كِلة ـ وهي ستور رقيقة تقى من البعوض . وموطنها فوق السرر ودونها .

وهنالك الحِلْس وكن يضعنه تحت الفراش بينه وبين الأرض . ويقابله النَمَط وهو ظِهارة الفراش .

أما جدران الغرف وحيطانها فكن يشددن عليها النجود ، وهي ستور منمّقة ذات صور وأشكال تشد على جدران الغرف لتزدان بها .

ولهن مايحفظن به حرّ المتاع . ومن ذلك الصندوق، والخزانة ، والجُوالق . وبعضها قريب من بعض . فأما صندوق الثياب خاصة فهو الصُّوان . وفي الغرفة المرآة، والمِسرَجة وموضعها فوق المِنارة . ومايشتعل فيها هو السراج ، والقنديل وتصله بسماء الغرفة سلسلة تدخل فى عراه . وكلا المسرجة والقنديل تضىء فيه الذُّبالة ، وهي فتيلة تستق من الدهن . وأكثر مايكون دهن المصباح من الزيت . وقد يتخذ من السمن . وشاهد ذلك الحديث فى الفأر يقع فى السمن : اذا كان جامدا قوّر ماحوله وارم به . وان كان مائعا فاستصبح به .

تلك هي غرفة المرأة العربية ، أتينا على خير ما حوت من زينة ، وضمت من متاع ، حتى تتراأى بذلك صورة ماعليها وما حولها وحتى تعلم من كل ذلك ان المرأة العربية وان أبَرّت على كثير ممن سواها في فضلها فلم تُقصر عنهن في شىء من مادتها وزينتها .

***

وان من أمتع ما قيل في وصف نواعم العيش من فتيات البادية قول المَرّار ابن المُنقِذ التَّميمي يصف فتاة من سَنِيّات قومه[1] :

ناعَمَتْها أمُّ صِدقٍ بَرَّةٌ ... وأبٌ بِرٌّ بها غيرُ حَكِرْ[2]

فهي خَذواء بعيش ناعم ... بَرَدَ العَيشُ عليها وقَصُرْ[3]

١ المفضليات ج ١ ص ٣٣ ٢ غير حكر أى لايحبس عنها شيئا ٣ الخذواء الناعمة وبرد العيش طيبه ونعومته

لاتمَسُّ الأرض الا دونَها ... عن بلاط الارض ثوب منعفر[1]

تطأ الخزَّ ولا تكرِمُه ... وتُطيل الذيل فيه وتجُرّ[2]

وترى الرَّيط مَواديع لها ... شعُرا تلبسها بعد شعر[3]

عَبَق العنبر والمسك بها ... فهي صفراء كعرجون العُمُر[4]

وهي لو يُعصر من أردانها ... عَبِق المسك لكادت تنعصر

٦ — دينها وعقائدها

اذا استثنيت فصائل منبثّة فى تفاريق بلاد العرب ، من اليهود والنصارى ، وآحاداً من الموحدين ، فلست بواجد للقوم دينا قيِّما يعتدّون به ويعتمدون عليه .

فهم يعتقدون أن هناك إلهاً فاطر السموات والأرض ، وانه أودع سره وأفاض من روحه على ما شاء من خَلْقه . لذلك عبدوا الملائكة والكواكب ، ولذلك اتخذوا الأصنام من الشجر والحجر . كل يختار أفضل ما يراه . وأولاه — فيما يزعمون — بقوة الله ، حتى لقد حلا لبنى حنيفة أن يتخذوا الههم من الحَيْس فعبدوه دهراً طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ! فقال قائل من تميم :

أكلتْ ربَّها حنيفة من جو ... ع قديم بها ومن اعواز

١ بلاط الارض ما استوى منها وثوب منعفر أصابته غبرة يقول انها لاتسير على الارض وانما تفرش لها أنماط تقيها التراب ٢ يقول ان بساط بيتها من الخز وثيابها التى تطيل ذيولها من الخز كذلك. ٣ الشعر جمع شعار والريط والمواديع — جمع ميدع — سبق بيانها ٤ العرجون قنو النخلة والعمر نخلة السكر

وغيره يقول :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحّم والمجاعه
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتّباعه

وقد بلغ من اضطراب هذا الدين أن تعبد العشيرة الحجر ، فان وجدوا غيره آنق منه تبدلوه به ، وتركوا معبودهم القديم .

وفى حديث أبى رجاء العُطاردى : كنا نعبد الحجر فى الجاهلية . فاذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقِي ذلك ونأخذه ، فاذا لم نجد حجراً جمعنا حَفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به[1] .

وربما اتخذت الأسرة لعبادتها صنما خالصاً لها ، بل ربما اتخذ الرجل لعبادته صنما خالصاً له[2] .

وآثر مايعبدون من أصنامهم ثلاثة لثلاث من الاناث : اللاتُ ، والعُزَّى ، ومَناةُ الثالثة الأخرى . جعلوهن رموزاً للملائكة لانهم - فيما خُيِّل لهم - بنات الله ، وأنثوا للأُوليَين منهن اسمين من أسماء الله جل ثناؤه ، فاتخذوا من الله اللات ومن الأعزِّ العزَّى ! سبحان الله وتعالى عما يصفون[3] .

مثل ذلك الدين الواهن المضطرب لاأثر فى تكوين المرأة العربية ، وليس فى شىء مما طبعت عليه من سموّ النفس ، وجلال الخُلُق ، لانه لامظاهر له من كتب منشورة ، وقواعد منثورة ، ومآثر مأثورة .

١ بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٢٧—٢٢٨ ٢ طبقات ابن سعد ج ٧ ص
٣ تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٣١

على أن وَهَن هذا الدين اسلم دَهماء النساء الى صنف من العقائد والهواجس رسخ فى ذوات نفوسهن رسوخ الدين . وانى مُجمل لك القول فى أعمق هذه العقائد فى قلوبهن ، وأعلقها بنفوسهن ، لا كشف لك عن صورة غير مخضوبة ، وصحيفة غير مكذوبة .

﴿ الخرزات والتمائم والرُّقَى ﴾

ان اختمار الوثنية فى المرأة العربية خيّل لها ان في بعض الحجر مآثر وأسراراً تكشف عنها العزائم والرُّقَى .

فهنالك بين ثنايا الجبال ، وبين أعطاف المغاور ، صنوف من الخرز مما فُصِل من شُعَب الصخور ، وتناولته يدُ القِدم ، فأبدعت أشكاله ، ونوعت ألوانه ، بما سلطت عليه من وَهَج الشمس ، وتَسكاب المطر .

أُلقي في رُوع المرأة العربية ان لكل طائفة من هذا الخرز أثراً في اصلاح أمرها من اجتلاب خير ، أو دفع مكروه ، وأعدَّ لها السواحر كلمات تلقيها على كل فريق لتستثير ما يطويه ، من أثر صالح ، وسر كمين .

وذلك الذى أورده عليك مختار خرزهن ، ومأثور عزائمهن ورقاهن .

فمن خرزاتهن :

الهِنَّمة وهي خرزة يجتلب بها النساء قلوب أزواجهن . وهن يَقُلْن عليها أخَذْتُه[1] بالهِنَّمة ، بالليل زوج وبالنهار أَمَة[2] .

١ التأخيذ حبس المرأة زوجها على نفسها ٢ لسان العرب ج ١٦ ص ١٠٧

والدَّرْدَيس وهى خرزة سوداء، كأن سوادها لون الكبد، اذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشف كلون العنبة الحمراء. تتحبب بها المرأة الى زوجها. وموطنها قبور عاد[1]. قال قائلهم:

قطعت القيد والخرزات عنى فمن لى من علاج الدَّرْدَيس

وقال:

جَمِّعن من قَبَلٍ لهن وفَطْسَةٍ والدردبيس مقابلاً في المِنْظَم[2]
فانقاد كل مُشَذَّبٍ مَرِسِ القُوَى لحبالهن وكل جَلد شَيْظَم[3]

وهن يقلن في رقاهن عليها: أخَذْتُهُ بالدردبيس، تُدِرُّ العِرْق اليَبِيس، وتَذَرُ الجديد كالدَّرِيس[4].

وكَرَارِ وهى خرزة يؤلف بها نساء البادية قلوب رجالهن. ومن مقالهن عليها: يا كَرَارِ كُرِّيه، يا هَمْرَة اهمِريه، ان أقبل فسُرِّيه، وان أدبر فضُرِّيه[5].

والقَبَلة وهى من خرز نساء الاعراب. يتخذنها لاقبال أزواجهن عليهن ورُقْيتها: يا قَبَلة اقبِليه، ويا كَرَارِ كُرِّيه.

والصَّرْفة وهى خرزة يصرفن بها الرجال عن مذاهبهم، وشتات أغراضهم

١ لسان العرب ج ٧ ص ٣٨٤ ٢ القبل والفطسة خرزتان سيمران بك والمنظم الخيط ينظم الخرز فيه ٣ المشذب الشارد والمرس الشديد المراس والشيظم الطويل الجسيم الفتي من الناس ٤ الدريس القديم البالى من الثياب تريد بالجديد زوجه الجديدة ٥ الهمرة خرزة من خرزاتهم وهمر الفرس الأرض اذا ضربها بحافره ومنها قالت يا همرة اهمريه — لسان العرب ج ٦ ص ٤٥٢

والعَطْفة وهى خرزة يُعَطِّفن بها الرجال اذا قَسَت قلوبهم.

واليَنْجَلِب وهى خرزة يتخذنها للرضا بعد الغضب، والأوبة بعد النِّفار. ورُقيتها: أخَذْتُه باليَنْجَلِب، فلا يَرِم ولا يَغِب، ولا يَزَل عند الطُّنُب[1].

والسُّلْوَانة وهى خرزة شفافة اذا دفنت في الرمل اسودّ لونها فاذا أُخرجت سحقت وصب عليها ماء المطر فان شربها من ابتُلِيَ بحب انسان سلا عمن أحبه. ويسمى ماؤها السُّلوان[1]. قال قائلهم:

شربت على سُلْوانة ماء مُزْنة فلا وجديد العيش يا مىَّ ما أسلو[2]

وقال:

يا ليت ان لقلبي ما يُعَلِّلُه أو ساقياً فسقاني عنك سُلوانا

وقال الراجز:

لو أشرب السلوان ما سَلِيتُ ما لى غى عنكم وان غَنِيتُ

والسَّلْوَة وهى خرزة يشف ظاهرها عما وراءه، اذا استشففتها رأيتها كزُلال البيض يُسقى تقيعها الحزين فيسلو والكَلِف فينصرف[3]

قال الشمَرْدَل:

ولقد سُقِيتُ بسلوَةٍ فكأنما قال المُدَاوِى للخيال بها ازدد

وقال عُروَة بن حِزَام:

جعلت لِعَرّاف اليمامة حُكْمَه وعراف نجد ان هما شفياني

١ بلوغ الارب ج ٣ ص ٦ ٢ المزنة السحابة البيضاء ٣ المخصص ج ٤ ص ٤٢

فقالا نعم نشفى من الداء كله وظلا مع العُوّاد يبتدرانى

فما تركا من رُقية يعرفانها ولا سَلوَة الا وقد سَقَيانى

والقِرْزَحْلَة وهي من خرز الضرائر ، اذا لبستها المرأة مال اليها بعلها دون سواها[1] . قال قائلهم :

لا تنفع القِرزحلة العجائزا اذا قطعنا دونها المفاوزا

والكَحْلَة وهي خرزة تجعل على الصبيان فتقيهم أذى العين وللنفس من الجن والإنس . ولها لونان بياض فى سواد كالرُّب[2] والسمن اذا اختلطا . وربما اتخذها النساء لتأليف قلوب الرجال .

والفَطْسَة وهي خرزة يُسقَم بها العدوّ حتى يموت . ومن مقالهم عليها : أَخَذْتُه بالفَطسَة ، بالثُّوبا والعَطسَة ، فلا يزل في تَعسَة ، من أمره ونكْسَة ، حتى يزور رَمسَه .

ومن رُقاهن لتأليف القلوب : هَوّابَة هَوّابة[3] ، البرقُ والسحابة ، أَخّذته بمِركَن[4] ، فُبُّهُ تمكَّن ، أخّذته بإبرَة ، فلا يزل في عَبرَة ، جلَبتُه بإشفَى[5] ، فقلبه لا يهدأ . جلبته بمِبرَد ، فقلبه لا يَبرُد[6]

وهنالك التمائم . والتميمة خرزة رقطاء ، أو طائفة من الخرز والعُوَز ، تنظم في سير ثم تعلق في عنق المولودحين يولد .

---

١ لسان العرب ج ١٤ ص ٧٢ ٢ الرب عصارة الثمر ٣ الهوابة النار الملتهبة والشمس المتوهجة ٤ المركن الأجانة التى تغسل فيها الثياب ونحوها ٥ الأشفى المثقب الذى يثقبون به الجلود ليتخذوا منها الزاود والقرب ٦ بلوغ الأرب ج ٣ ص ٦

ومما يفعلن ليقين أبناءهن أذى العين ، وشرور الجن ، أن يعمدن الى الوليد حين يولد فيخططن عليه من صمغ السَّمُر – وهو شجر من أشجار البادية يزعم العرب أن الجن يرهبون منه – ثم يعلقن عليه سن ثعلب أوهرة . ومن حديثهن ان جنية أرادت صبيًا فلم تقدر عليه . فلما رجعت قيل لها في ذلك . فقالت : كانت عليه نُفَرَة ، ثعالب وهِرَرَة ، والحيض حيض السَّمُرَة[1] .

وربما علقن عليه كعب أرنب ، لأن الأرنب لا يعلوها الجن ولا يقربونها قال ابن الأعرابى : قلت لأعرابى من علّق على نفسه كعب أرنب لم يصبه جِنّان الحى ، ولا عُمّار الديار . فقال : إى والله ، ولا شيطان الحَمَاطة ، ولا غُول القفر وتُطفأ عنه نِيران السَّعَالِى[2] .

التفاؤل والتطير

المرأة العربية كمن سواها من الناس ، اذا اعتزمت أمراً ، أو صَبَت الى مطلوب كان أكبر همها أن تعرف ما آله من الخير والشر ، وتكشف عن نصيبه من العسر واليسر . لذلك عُنِيَت في عامة أمرها أن تطالع ما تستقبله من مظاهر الكون . فان كان ممن خُيِّلَ لها أنه بادرة الخير ، وطليعة التوفيق ، مضت في عملها آمنة مؤمنة مطمئنة ، وان مُنِيت بما راعت نَبأَته ، وساءت طَلْعته ،

---

١ حيض السمرة صمغها ٢ الجنان — جمع جنّ — والجن ولد الجان وعمار الديار الذين يساكنون الناس من الجن وشيطان الحماطة صنف من الحيات والسعالى اناث الغيلان أو سواحر الجن — محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٣

رجف قلبها ، وانبعثت ريبتها ، واستشعرت الهيبة من الخيبة .

وهي في ذلك قسيمة الرجل ، لِمَا اجتمع عليهما من غلبة المشاعر ، وانفساح مدى الخيال .

والعرب أمة لغة وبيان ، يَكْلَفون باللفظ ، ويستأسرون لديباجة الكلام . لذلك كان أول ما يأخذهم من الشيء اسمه ، وما ينبئ عنه اشتقاقه من خير أو شر ، ثم ما ينم عنه صوته ومنظره ، ثم مواطنه التي يهبط اليها ، ويغلب عليها ، ان كان مما يألف الرياض الحالية ، أو الطلول البالية ، والرسوم العافية .

ومما ينبئك عن موقع الأسماء من نفوسهم ، ومبلغ أثرها في مشاعرهم ، قول بَشَّار بن المُضَرَّب :

تغنى الطائران بِبَين ليلَى ... على غصنين من غَرْب وبانْ[1]

فكان البانُ أن بانت سُلَيمى ... وفي الغَرْب اغتراب غير دان

فانظر كيف أخذ الغربة من الغرب ، والبين من البان ؟

ومثله قول من يقول :

أقول يوم تلاقينا وقد سجعت ... حمامتان على غصنين من بان

الآن أعلمُ أن الغُصْن لي غَصَن ... وانما البان بين عاجل دان[2]

---

١ الغرب شجرة ضخمة شاكة من شجر الحجاز ومنه الحديث الكريم : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق . يريد باهل الغرب أهل الحجاز والبان شجر شديد الحفرة يسمو ويطول في استواء وثمرته تشبه قرون الاوياء الا ان خضرتها أشد ولها حب ومن ذلك الحب يستخرج دهن البان ولاستواء البان ونعومة أفنانه شبهوا به نواعم النساء ٢ غصنت الغصن غصناً قطعته ومن ذلك أخذ الشاعر الغصن — بفتح الغين — من الغصن — بضمها —

فقمت تخفضني أرض وترفعني ... حتى ونيت وهد السير أركاني

ومثل ذلك ما يقول جِرَان العَوْد :

جرى يوم رحنا بالجمال يَزُفُّها ... عُقاب وشَحَّاج من البين يبرح[1]

فأما العُقاب فهو منها عقوبة ... وأما الغراب فالغريب المُطَوَّح

فلم يجد في العُقاب الا العقوبة ، وجعل الشَّحَّاج — وهو غراب البين — دليل الغريب المطوّح .

ولئن أشفق جِرَان العَوْد من العقاب ، وارتقب منه العقوبة ، لقد تيمّن به غيره ، وتنظّر منه العقبى ، مما هو فيه من نار الشوق ، فقال :

وهاب رجال أن يقولوا وجَمْجَموا ... فقلت لهم جار الىّ ربيح

عُقاب بأعقاب من النار بعدما ... مضت نِيَّةٌ لا تُستطاع طَرُوح

وقالوا دَمٌ دامت مودة بيننا ... وعاد لنا غصن الشباب قريح[2]

وقال صِحابي هدهد فوق بانة ... هدى وبيان في الطريق يَلُوح

وقالوا حَمامات فُمٌ لقاؤها ... وطَلْحٌ فَزِيرت والمَطىّ طَليح[3]

قالوا : فهو اذا شاء جعل الحَمام من الحِمام والحميم والحِمَى . وان شاء قال : وقالوا حمامات فمّ لقاؤها . واذا شاء اشتق البين من البان . واذا شاء اشتق منه البيان .

وشبيه بذلك قول من يقول :

---

١ العقاب أحد عتاق الطير وسباعها ويطلق على الذكر والأنثى . والشحاج الغراب واشتقاقه من الشحيج وهو أشد حوته ٢ الغصن القريح ذو النوّار الأبيض

٣ الطلح شجر عظام ترعاه الابل وناقة طليح متعبة

وقالوا عُقاب قلت عقبى من الهوى دنت بعد هجر منهم ونُزُوح
وقالوا حمامات لهُمّ لقاؤها وعاد لنا حلو الشباب ربيح
وقالوا تغنى هدهد فوق بانة فقلت هدى نغدو به ونروح

لكل ذلك كان الغراب أشد ما يروعهم ، وتُطرف به أعينهم ، لما ينبئ عنه اسمه من الغربة ، ولروعة سواده ان كان أسود ، ولاختلاف لونه ان كان أبقع ، ولأنه غريب لا يقطع اليهم ، ولأنه لا يوجد فى موضع خيامهم يَتَقَمَّم[1] الا عند معاينتهم لمساكنهم ، ومزايلتهم لدورهم . ولأنه ليس شىء من الطير أشد على ذوات الدَّبْر[2] من ابلهم من الغربان . لأنه ينقب عن الدَّبر حتى يبلغ الى دايات[3] العنق ، وما اتصل بها من خرزات الصلب ، وفقار الظهر[4] . قال عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع
ان الذين نعبت لى بفراقهم هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا

وأشد ما يتشاءمون بالغراب اذا ولاهم ظهره[5] أو شماله — وذلك البارح عندهم — أو أبصروه يتفلى وينتتف ، أو صاح بهم صيحة واحدة . أما اذا اسقبلهم بوجهه أو ثنّى فى صوته ، فهم به يتيمنون .

ومَثَلُ الصُّرَدِ[6] عندهم كمثل الغراب . فهو طليعة الشؤم ، وسبيل الخراب . وهم اذا رأوه ذكروا التصريد ، وهو القلة ، وانزعجوا مما عسى أن يصيبهم من نقص فى الأهل والمال . قال قائلهم :

١ القمامة — بضم القاف — الكناسة وتقدم تتبع القمامة ٢ الدبر القرحة في الدابة
٣ الدابة الفقرة في الكاهل أو الظهر ٤ الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٥ — ١٣٨
٥ المخصص ج ١٣ ص ٢٤ ٦ الصرد طائر كبير الهامة يشبه البوم ويغتذى بالعصافير

دعا صُرَد يوماً على غصن بانة وصاح بذات البين فيها غرابها
فقلت أتصريد وشَحْطٌ وغربة فهذا لعمرى نأيُها واغترابها[1]

وحكم الرَّخَم والبُوم كحكم الصُّرَد والغراب . وهم يقولون : ان لئام الطير ثلاثة ، الغربان والرخم والبوم .

كذلك أمر الجراد عندهم لأنهم تنظروا منه الجرد ولأنه مختلف الألوان[2] فهو عندهم كحوادث الزمان .

أما الهدهد فأمره من أولئك بعيد ، فهو عندهم غرة النُّجح ، وآية اليُمن ، وسبيل الهداية . ويزعمون أنه الذى كان يدل سليمان صلوات الله عليه على مواضع الماء فى أعماق الأرض . ويقولون ان القُنْزُعَة[3] التى على رأسه ثواب من الله على ما كان من بره بأمه ، لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه[4] .

وشعارهم اذا استمعوا من الطير ما يروعهم أن يقولوا طائر الله لا طائرك[5] .

أما ما سوى الطير من الحيوان فهم يتشاءمون منه بالأعضب ، والأعور ، والأبتر ، والقعيد ، والنطيح .

فالأعضب المكسور القرن ، أو المشقوق الأذن . والأبتر المقطوع الذنب . والقعيد ما أتاك من ورائك من ظبى أو طائر . والنطيح ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبى أو وحش[6]

١ الشحط البعد والاضطراب ٢ الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٦ ٣ قنزعة الهدهد — بضم القاف والزاى وفتحهما وكسرها — عرفه ٤ الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٦٠ — ١٦١
٥ المخصص ج ١٣ ص ٢٤ ٦ لسان العرب في الكلام على هذه الكلمات

أما النبات فهم يتشاءمون منه بالغرب والبان كما علمت ، وبالخلاف لأنه سبيل القطيعة . ويتيمنون بالريحان لأنهم أخذوا منه الروح . وربما نظروا الى مرارة طعمه فتشاءموا به[1] .

***

وللعرب فيما عدا الطير والوحش والنبات ، بوادر يتشاءمون بها ، ويعوذون منها . ومنها العُطاس . قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العُطاس بهيكل شديدٍ منيع الجنب فَعْمٍ المُنَطَّق

يقول : انه يغتدى قبل أن يستيقظ الناس لئلا يستمع عطاسهم فيخيب . وكان قولهم اذا عطَس من يحبونه : عمراً وشباباً . واذا عطَس من يبغضونه : وَرْيا وقُحاباً[2] . واذا استمع أحدهم العاطس ممن لا يعرف قال : بِكِلَابي أسأل الله أن يجعل شُؤمك بك لابي[3] .

وكانت المرأة تتطير اذا انكفأ الإناء وصب ما فيه . وتقول في العياذ من ذلك : دافق خير .

وكانوا اذا اشتروا الدار ، أو بنوها ، أو فجَّرُوا العين ، ذبحوا عندها ذبيحة ودعوها ذبيحة الجن ، حتى لا ينالها من الشؤم شيء[4] .

﴿ وبعد ﴾ فان كان التطير مما أسلفنا لزام العرب ، وسبيل قصدهم ، فلقد جحده كثير من رجالهم ، وبخاصة أولى العزم والإقدام منهم .

---

١ الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٤٢ ٢ القحاب كالسعال وزنا ومعنى
٣ بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٦٦ ٤ المخصص ج ١٣ ص ٢٥

قال الحارث بن حِلِّزَة :

يأيها المزمع ثم انثنى لا يثنك الحادى ولا الشاحج
ولا قعيد أعضب قرنه هاج له من مربع هائج
بينا الفتى يَسْعَى ويُسعَى له تاح له من أمره خالج[1]
يترك ما رَفَّحَ من عيشه يعيش منه هَمَجٌ هامِج[2]

وقال حاتم بن عدى :

وليس بهياب اذا شد رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم[3]
ولكنه يمضى على ذاك مقدماً اذا صد عن تلك الهناة الخُثَارِم[4]

وقال علقمة الفحل :

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته لابد مشئوم

﴿ سفر الرجل وطول غيبته ﴾

اذا اقتعد الرجل راحلته ، وابتدأ ارتحاله ، فان كان بغيضاً الى المرأة عمدت الى النار فأوقدتها ، حتى تحول دون مآبه اليها . وان كان عزيزاً عليها قبضت قبضة من مواطئ قدمه واحتفظت بها ، فذلك أسرع لعودته[5] . قال قائل :

قالت له واقتبصت من أثره يارب أنت جاره في سفره

---

١ الخالج المنتزع يريد به الموت ٢ رفح ماله ترفيحاً أصلحه وأحسن القيام عليه
٣ الواقي الصرد . والحاتم الغراب ٤ الهناة الشيء . والخثارم الرجل الكثير التطير
٥ محاضرات الادباء ج ١ ص ٧٢

وقالت امرأة :

أخذت تراباً من مواطئ رجله غداة غدا حتى يؤوب مُسَلَّما

فان طالت غيبته ، وخَفِي عليها خبره ، جاءت الى بئر عاديّة مظلمة ، بعيدة الغور ، فنادت فيها : يا فلان ، أويا أبا فلان . فان سمعت بعد ذلك صوتا علمته حيًّا والا فهو مائت . وللرجال نصيبهم من هذا الخيال . قال قائلهم :

دعوت أبا المغوار في الحفر دعوة فما آض صوتي بالذى كنت داعيا[1]

أظن أبا المغوار فى قعر مظلم تُمِرُّ عليه الذاريات السوافيا[2]

وقال آخر وقد سمع رجع صوته :

ألم تعلمي أنى دعوت مجاشعاً من الحفر والظلماء بادٍ كُسورُها

فجاوبنى حتى ظننت بانه سيطلع من جَوْفاء صعب حدورها

لقد سكنت نفسى وأيقنت انه سيقدم والدنيا عُجابٌ أمورها

﴿ خَدَر الرجل واختلاج العين ﴾

مما يزعم العرب – رجالهم ونساؤهم – أن الرِّجل اذا خدرت فذكر ربُّها غائباً حبيبا ذهب خدرها[3] .

فان اختلجت العين تنظَّرُوا من وراء اختلاجها قرب لقاء الغائب الحبيب .

قال قائلهم :

١ آض رجع ٢ يريد بالمظلم القبر والذاريات الرياح الهائجة والسوافي جمع سافية وهى التراب أو الريح الحاملة لها ٣ بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢ و ج ٢ ص ٣٥٢

اذا اختلجت عينى تيقنت اننى أراكِ وان كان المزار بعيدا

﴿ رأيها فى مصير موتاها ﴾

مما يزعم العرب ، أن الميت اذا حال عليه الحول تحسرت عظام رأسه عن طائر على سُنّة البوم يحُم على شفير قبره . فان كان صاحبه قتيلاً لم يؤخذ بثأره أقبل يصيح : اسقونى اسقونى . فلا يزال على صياحه حتى يؤخذ بثأره . وهم يسمون الطائر بالهامة ، وعظام الرأس بالصدى .

قال ذو الأصبع العدوانى :

ياعمرو ان لاتدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال حاتم :

أماوىَّ ان يصبح صداى بقفرة من الارض لا ماء لدىَّ ولا خمر

ترىْ أن ما أنفقت لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلت به صفر

وقال أبو ذؤاد :

سُلِّط الموت والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام

وقال شدّاد بن الأسود الليثى :

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف لقاء أصداء وهام

وقال مغلس الفقعسى :

وان أخاكم قد علمتم مكانه بسفح قنا تسفى عليه الاعاصر

له هامة تدعو اذا الليل جنّها بنى عامر هل للهلالىّ ثائر

ومن العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم، فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً على قبره . ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم . وهو أبداً مستوحش يألف الديار المعطّلة ، ومصارع القتلى ، والقبور ، وأنها لا تزال عند ولد الموتى ، ومُخلّفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره[1] .

والعرب يدينون بيوم القيامة ويرتقبونه . ومما يتخذون من العدة له أن يحفروا على جانب من قبر صاحبهم حفيرة ، ويقيموا بها بعيراً ، يعقلونه ، لا يعلفونه ، ولا يسقونه ، حتى يموت . فذلك مركبه يوم القيامة . فان لم يفعلوا له ذلك خرج يوم البعث يسعى حافياً متسكعاً . وهم يسمون هذا البعير بليّة[2] . قال قائلهم يوصى ولده :

احمل أباك على بعير صالح ... يوم القيامة ان ذلك أصوب
لا تتركن أباك يسعى خلفهم ... تعِباً يخرّ على يديه ويَنكُب

﴿ ضمان القلوب ﴾

تشق المرأة رداء زوجها ، ويشق برقعها ، ذلك عندهم ضمان الحب ، ووثاق القلوب ! وحُجّتهم فى ذلك أن ترى المرأة صنيع زوجها ، وهو يرى صنيعها ، فلا تزال تذكره ، ولا يزال يذكرها . وربما تبادلا ثيابهما فلبس كلٌّ بُرد صاحبه

١ مروج الذهب ج ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢ ٢ محاضرات الادباء ج ١ ص ٧٤

ثم لا يزال يعبث بتمزيقه حتى يُبليه[1] . قال سُحَيم بن معبد الأسدى :

فكم قد شققنا من رداء مُحَبَّرٍ ... ومن برقع عن طَفْلَةٍ[2] غير عانس
اذا شق برد شق بالبرد مثله ... دَوالَيك حتى كُلُّنا غيرُ لابس

وقال آخر يصف ثوبه مما فعلت به امرأته :

نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى ... وإلْفُ الهوى يغرى بهذى الوساوس

كأن ثيابى نازعت شوك عُرْفُط ... ترى الثوب لم يَخْلَق وقد شُقّ جانبه[3]

﴿ صنيع المقلات ﴾

المقلات المرأة التى اهتصر الموت أبناءها فلم يبق منهم على أحد . تلك المرأة اذا وطئت القتيل الشريف عاش فى زعمهم أبناؤها[4] . قال قائلهم :

تظل مقاليت النساء يطأنه ... يَقُلْنَ ألا يُلْقَى على المرء مئزر

ولا أحسب ذلك الا وسيلة مما ابتدعه العرب لإذلال أعدائهم ، فألقوا فى رُوع الثواكل من النساء ان في ذلك حياطة من الموت فلا يعود الى انتزاع أكبادهن من بين جوانحهن :

والى تلك السنة أشار الكُمَيْت بن زيد الأسدى فى مدحه الحسين بن علىّ عليهما السلام[5] :

١ خزانة الأدب ج ١ ص ١٧١—١٧٢ ٢ الطفله الفتاة الناعمة والعانس التى طال مكثها في أهلها دون أن تتزوج ٣ العرفط شجر شائك يقول ان ثيابه مزقت وهى جديدة في مواطن مختلفة منها كما يمزقها الشوك حين يعلق بها ٤ محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٣ ٥ لسان العرب ج ١٦ ص ١٣٢

وتُطيل المرزآت المقاليـــت اليه القعود بعد القيام
يتعرفن حُرَّ وجه عليـه عِقْبَةُ السَّرْوِ ظاهراً والوِسام[1]

﴿ البثر[2] في شفة الصبى ﴾

مما يعمل النساء اذا بُثِرَت شفة صبيهن، أن يُحمِّلنه مُنخُلاً فيطوف على بيوت الحى ينادى : الحَلا الحَلا[3] الطعام الطعام . فتلقى له النسـاء كِسَر الخبز وأقطاع التمر واللحم فى المنخل، فينثر ذلك للكلاب . فأيما كلب أوطفل تناول منه بثرت شفته وبرأ الصبى . قالت امرأة[4] :

ألا حَلا فى شفة مشقوقه فقد قضى منخلنا حقوقه

﴿ عمل الشمس في الاسنان ﴾

كان عمل الصبى والصبية اذا سقطت لأحدهما سنّ، أن يأخذها بين السبابة والإبهام، ويستقبل بهـا الشمس، ويقول : ياشمس أبدلينى بسنّ أحسن منها ولتجرِ فى ظلمِها إياتُك[5]. فهنـالك تستق من ضوء الشمس، فلا يكون سنّ أوضأ ولا أدق منها . وذلك المعنىُ بقول طَرَفة :

١ السرو الشرف والوسام الجمال ٢ البثر خرّاج صغير ٣ الحلا البثر
٤ محاضرات الأدباء ج ١ ص ٧٤ وبلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٥٧ — ٣٥٨
٥ شرح ديوان طرفة للشنقيطي . والظلم بفتح الظاء ماء الأسنان وبريقها واياة الشمس ضوءها

شادن يحلو اذا ما ابتسمت عن إقاحٍ كأقاح الرمل غرّ[1]
بدلته الشمس من منبته بَرَداً أبيض مصقول الأُشُر

وقوله :

سقته إياة الشمس الا لثاته أُسِفَّ ولم تَكْدُمْ عليه بإثمِدِ[2]

٧ — بعض شأنها

﴿ عُرْسُها ﴾

للزواج عند العرب يومان : يوم الإملاك — وهو يوم العَقْد — ويوم البناء — وهو يوم الدخول — . ذلك بعد أن يقدِّم القوم بين يدى الأمر ما يروضه ويمهده .

﴿ يوم الاملاك ﴾

فى ذلك اليوم يأخذ ذوو الفتاة زينتهم، ويجمعون قاصيتهم، ويَنْتَدُون في ساحة دارهم، أو نَدِيِّ عشيرتهم، وفى صدرهم وَلِيّ صاحبتهم، مرتدياً بُرْدَىْ حِبَرَة متخلِّقاً بالخَلُوق[3]. وهنالك يَقْدُم رجال الفتى، فيهبطون من أكفائهم ونظرائهم مَهْبِطاً كريما . حتى اذا اطمأنّ بالقوم المكان، أنشـأ ولىّ الزوج يخطب القوم

١ الشادن الظبى والأقاح جمع أقحوان وهو البابونج ولزهره وضح وبهاء وحسن نظام
٢ اللثات منابت الأسنان وأسف ذر عليه ولم تكدم أى لم تعض والأثمد الكحل يقول ان ثغرها وضاء براق الا لثاتها فهى حواء وذلك ما يتجمل به العرب ٣ انسان العيون ج ١ ص ١٤٨ — ١٤٩

خطبة رَيِّقَةً مُونِقَةً ، يكشف فيها عما تناجوا به ، وقَدِموا له ، ويقدر فيها المهر عاجله وآجله . ثم يجيبه ولىّ مخطوبتهم بمثلها ، يُضَمِّنها الرضا بالقوم أخدانا ، وبصاحبهم صهرا . حتى اذا انتهيا نُحِرَت الجُزُر ، ومُدَّت المطاعم ، وسُمع الغِناء من مجالس النساء .

وتسمى وليمة ذلك اليوم بالنقيعة .

وصيغة العقد عندهم ، أن يقول الزوج : خِطْبٌ . فيقول ولىّ الزوجة : نِكْحٌ[1]

وذلك حديث ذلك اليوم في أسرتين من سادات أسر العرب وهاماتهم .

أرسلت خديجة بنت خويلد الى أمين قريش ومأمونها محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — تخطبه وتقول له : اني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك ، وحُسْن خُلُقك ، وصدق حديثك . فرجع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بالقول الى عمه العظيم الكريم أبي طالب بن عبد المطلب ، فرضيه له ، وأقرّه عليه ، لِمَا استقرّ لخديجة من نُبْل الخُلُق ، وسناء الحياة .

غدا الرسول على خديجة بالرضا ، وبأن القوم غادون في أثره . فأرسلت في آلها ، ورجال أسرتها ، واستأذنت عمها ، فأذن لها ، وقال : هو الفحل لايقرع أنفه . ثم نهضت اليه ، خلّقته بالعبير ، وكسته بردى حبرة حمراء . وأقبل القوم من بنى هاشم ، وفيهم كريم فتيانهم ، ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبد الله ، فنزلوا من بنى عمهم أكرم منزل وأسناه . وهنالك تداول الخطابة أبو طالب بن عبد الله سيد قريش وامامها ، وورقة بن نوفل — ابن عمّ خديجة — حَبْر قريش وعالمها .

---

١ تاج العروس ج ١ ص ٢٥١

ولما انتهى القائلان نحر محمد — صلوات الله عليه — جزُورين . وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنّين . واليك نص الخطبتين :—

﴿ خطبة أبى طالب ﴾

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضِئْضِئ[1] مَعَدّ ، وعنصر مُضَر . وجعلنا حَضَنَة بيته ، وسُوَّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجا ، وحرماً آمنا ، وجعلنا حكام الناس . ثم ان ابن أخى هذا ، محمد بن عبد الله ، لايوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونُبلا ، وفضلاً وعقلا . وان كان فى المال قُلٌّ ، فان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعاريّةٌ مسترجعة . وهو والله بَعْدُ له نبأ عظيم ، وخطر جليل . وقد رغب اليكم ، رغبة فى كريمتكم خديجة . وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتى عشرة أوقية ونَشًّا[2] .

﴿ خطبة ورقة بن نوفل ﴾

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت . فنحن سادة العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله . لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم . فاشهدوا علىّ معاشر قريش ، أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد ، من محمد بن عبد الله .

وكان ورقة فى موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن أسد عم خديجة ، الذى نهض

---

١ ضئضيء الشيء معدنه ٢ النش عشرون درهما وهو نصف الاوقية

فقال : اشهدوا علىّ معاشر قريش ، أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله ، خديجة بنت خويلد[1] .

وكان من سنة العرب ، اذا خطب الرجل قومه ، أن ينهض واقفاً ، أو يعتلى شَرَفاً من الأرض ، أو يتبوأ ظهر راحلته ، الا في خطبة الأملاك فان شأنه أن يخطبها وهو جالس مطمئن . ذلك لان المقام مقام دعة وتبسط لا حاجة فيه الى فورة الدم ، وثورة العاطفة ، بما يبذل من تطاول واستشراف ، وقبض وبسط ، وارعاد وابراق .

﴿ المهر ﴾

هو صلة الرجل لامرأته ، تأخذه كاملاً غير منقوص ، لاسبيل لأحد اليه ، ولا سلطان له عليه . لذلك عدوا من اللؤم المؤثب في نفس الرجل أن يتخذ حُلْوان ابنته أو مُوَلِّيَتِهِ . وذلك أن يتفق على جزء من المهر يبغيه لنفسه[2] .

وأعز مهورهم الذهب السبيك ، والأينق العُشَراء ، يبذلون منها على قدر مارزقوا من نعمة العيش ، وبسط الغنى . على ان حد ذوى الجاه والسُّؤدد واليسار مائة رطل أو مائة ناقة . وقد يجمع الرجل بينهما . فقد أمهر عبد المطلب بن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب[3] .

وليس العرب بالذين يساومون فى المهر قَلَّ أو كثر . وحسبهم من الرجل

١ انسان العيون ج ١ ص ١٥٠ ٢ لسان العرب ج ١٨ ص ٢١٩
٣ انسان العيون ج ١ ص ٤٨

جهد همته ، وبعد غايته ، وسناء نسبه ، وصفاء ضريبته . فقد نزع لَقِيط بن زرارة شريداً الى قيس بن خالد ذي الجدين ، كريم العرب ، وأحد ملوكها ، فخطب اليه ابنته ، وتكلم بكلمات كشفن منه عن قلب زكى ، وأنف حَمِيّ ، ونسب سنيّ . فزوجه الملك ابنته لليلته ، وساق اليها المهر عنه[1] .

أما ذوو الخصاصة فان بِحَسْبِ الرجل أن يسوق الى امرأته عرضا مما يباع ويشترى . ومن حديث العرب ان مُهَلْهِلَ بن ربيعة رحل بآل بيته بعد ان استَذَلَّته بَكْر يوم تحلاق اللمم ، فاستجار بمِذْحج . وهنالك جاءه ناس منهم يقال لهم بنو جَنْب ، فخطبوا اليه ابنته طمعاً في أن يَشْرُفوا بشرف قومه ، وينبهوا بوثوق الصلة به ، فأبى ذلك عليهم . ثم سعى اليه مجيروه من مِذْحَج ، وظاهروا جنباً فى خِطْبَتِهم ، وأبصر هو القشر والكريهة منهم ، فنزل لهم عن ابنته ، وساقوا اليه فى مهرها رقاعاً من جلد ، وأفاؤوا بها على فتى من غِمارهم . فقال مهلهل في ذلك[2] .

نهنهنى صاحبي فقلت له ... ان الحظوظ جعلن بالقِسَم[3]
أصبحت لا مَنْفَساً أصبْتُ ولا ... أُبْتُ كريما حرا من الندم
عز على وائل بما لقيت ... أخت بنى الأكرمين من جُشَم
أنكحها فقدُها الأراقم من جنـ ... ـب وكان الحِباء من أَدَم[4]
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا ... يغنون عن عَيْلَة ولا عَدَم
لو بأبانين جاء يخطبها ... ضُرِّج منه جبينه بدم[5]

١ جمهرة الامثال ص ٢٠١ وسيمر الحديث مفصلا فيما نختاره من أمثال نساء العرب
٢ بكر وتغلب ص ٩١ ٣ نهنهه عن الامر كفه وزجره ٤ الاراقم حي من تغلب وهم قبيل كليب ومهلهل بن ربيعة والحباء العطاء ويريد به المهر ٥ ابانان جبلان تقيم بينهما تغلب

وربما احترش[1] الاعرابى ضبا فاحتمله الى كفيئته فكان ذلك مهرها وعُقدة زواجها. قال أعرابى[2]:

أمهرتها بعد المِطال ضبّين من الضباب سَحْبَلَيْن سَبْطين[3]

نعم لعمر الله مهر العِرْسَيْن

فذلك مهره الذى أبَرَّ به على غيره، وتجمل به على صاحبته، وعده تأنقاً في البذل وافراطا فى السماحة. ذلك مهر العروسين.

والعرب يقولون: الأزواج ثلاثة، زوجٌ مَهْرٌ، وزوجٌ بَهْرٌ، وزوجٌ دَهْرٌ. أما زوج مَهْرٌ فرجل لاشرف له يُسْنِي المهر ليُرَغِّب فيه، وأما زوج بهر فالشريف وان قلّ ماله تتزوجه المرأة لتفخر به، وأما زوج دهر فذلك الكفء الذى لاعيب فيه[4]

﴿ يوم البناء ﴾

لاتجد في مأثور حياة العرب ومعدود أيّامهم، يوما أتم بهاء، ولا أعم صفاء، ولا أبدع رُواء، ولا أكثر ضياء، ولا أجمع للبهيج الهنىّ من محافلهم، ومعالم أفراحهم - من يوم البناء. فهنالك يتبارى الفتيان فيلعبون بالرماح. وينتضلون بالصفاح. ويَسْتَبِقُونَ على متون الخيل. ويأخذون في الميسر - وهو أداة لهوهم وسنة الندى والكرم فيهم - ويسرحون ويمرحون. ويشربون ويطربون.

١ احترش الضب صاده وذلك بان يحرك يده على باب جحره ليظنها حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه ٢ الحيوان ج ٦ ص ٣٦ ٣ السجل من الضباب الضخم والسبط الحسن القد والمنظر ٤ المخصص ج ٤ ص ٢٤

أما بين يدى الدار، وفي حجراتها، فهم يبسطون الأنماط، ويشدونها على الجدران وعليها النقوش المموّهة والصور المزينة - وتلك التى استنكرها الإسلام واطّرحها فى أعراس المسلمين[1] -. وعلى النمارق المصفوفة، والزرابىّ المبثوثة، يجلس النساء، ويأخذ فتياتهن فيما عف وظرُف من ضروب اللهو وفنون المرح.

فأما الليل، فأحسن ما اكتحلت به نواظر العرب حتى جعلوه مضرب أمثالهم فقال قائلهم: * ياليلةً ما ليلة العروس[2] *

فهنالك تُجْلَى الفتاة، ويُفْرَغ عليها الحُلِىّ مما تملك وما لاتملك، لأن قومها يستعيرون لها أمتع ما فى الحى من حَلْى. بل ربما تجاوزوا حيهم الى ما سواه. فقد استعار عتبة بن ربيعة - وهو فى الشرف الصميم من قومه - حلى بنى أبي الحقيق لتزف فيها ابنته هند على أبي سفيان ورهنهم ابنه الوليد. فأقام بينهم شهراً ثم رد الحلى موفوراً[3].

فى ذلك الزِّىّ البهىّ تسير الفتاة في حشد من لِدَاتها وأترابها حتى يصلن بها الى حجلتها. فينشئ الإماء يرقصن بين يديها، ويُغَنِّينها بمآثر آبائها، والغرّ الميامين من قومها. وفى ذلك الموطن لا يحتجب النساء عن الرجال.

وقد عَبَرَ العرب على سنتهم هذه فى مقتبل العهد الاسلامى. فقد حدث البخارى عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ بن عفراء انها قالت: جاء النبى صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُنى علىّ فجلس على فراش كمجلسك منى[4] فجعلت جويريات لنا

١ ارشاد الساري ج ٨ ص ٧٥ ٢ المخصص ج ٤ ص ١٩ ٣ طبقات بن سعد ج ٧ ص ١٧١ ٤ تخاطب راوى الحديث

يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر[1]، اذ قالت احداهن : وفينا نبي يعلم ما فى غد . فقال : دعى هذا وقولى بالذى كنت تقولين[2].

ومن مقال النساء لصاحبتهن عند مفارقتها : باليمن والبركة . وعلى خير طائر .

***

﴿ أما بعد ﴾ فلا يهولنّك ما رأيت من اعتداد القوم بأعراسهم فوق اعتدادهم بمواسمهم وأعيادهم . فان العرب على ما تعلم أمة حرب وجلاد . وهم لا يزالون في وقائع تُبَهْرِج[3] دماءهم ، وتدتصر مهجات نفوسهم ، حتى تخطب القبيلة الى القبيلة ، فتجدان من تعاطف الأرحام ، تعاطفاً في القلوب ، وأسواً للجروح وأمنة من الحادثات .

وأخرى أن العرب اذا أكبروا أمر الزواج فانما يكبرون ما تنحسر عنه النساء من الأبناء ، وهم عُدَّة الحى ، وغاب الحمى ، وعز العشيرة .

﴿ مناحتها ﴾

لنساء العرب مظاهر من الوفاء كلها حسن جميل الا ما تعسّفه الثواكل منهن في مناحاتهن ومهاجات أحزانهن من توَرُّط في الجزع واسراف في البلاء.

والمرأة العربية أحمل الناس لنازلة وأصبرهم على مُلمّة ، الا اذا انتزع الموت منها أليفاً حميما أو عزيزاً عظيما . فهى تسير في شعاب من الأحزان طَلْقة العنان

١ تريد يتغنين بمآثرهم يوم بدر وكان الذى قتل يوم بدر أبوها وعماها
٢ ارشاد الساري ج ٨ ص ٥٦ ٣ تبهرج أى تبيح

بل انها لتضاعف أحزانها ، وتؤرث ضرام حشاها ، بما تنهجه يومذاك من خطة وتشتمل عليه من عادة . .

على أن نساء العرب في مواقف الحزن طبقات بعضها فوق بعض . فهنالك المتجَمّلة المؤتزرة بالصبر ، التى تشتفى بالبكاء ، وتكتفى بالرثاء . ثم تأتى بعد هذه الصالقة والشاقة والحالقة .

فالصالقة التى ترفع صوتها وتدعو بدعوى الجاهلية[1] كأن تقول في ندبة ولدها : وا ولداه ، أو واكبداه . وفى كبيرها : وا جبلاه ، أو واعضداه .

والشاقة التى تُنحى على جيب جلبابها[2] شقًّا وتمزيقًا . وبذلك أوصى طرفة أخته بقوله :

اذا مت فانعينى بما أنا أهله ... وشقى علىَّ الجيب يا ابنة معبد

والحالقة التى تحلق شعرها فلا تبقى على بقية منه .

وأولئك اللواتى لعنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرئ منهن[3] .

ومنهن التى تجعل في يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها . والى هذه يشير عبد مناف بن رِبْع الهُذَلي في قوله[4]:

ماذا يَرِيع ابنتَىْ رِبْعٍ عويلُهما ... لا تَرْقُدان ولا بُؤسَى لمن رقدا[5]

١ ذلك من قول رسول الله " ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية " وفسر القسطلاني دعوى الجاهلية بما بينته لك ٢ جيب القميص طوقه
٣ لسان العرب مرددا في شرح هذه الكلمات وتيسير الوصول ج ٣ ص ٢٩٨—٢٩٩
٤ الكامل المبرد ج ٢ ص ٢٦٣ ٥ ابنتا ربع اختاه وماذا يريعهما عويلهما أى ماذا يرد عليهما العويل والسهر

كِلتاهما أُبطنَتْ أحشاؤها قَصَبًا من بطن حَلْبة لا رَطْبًا ولا نَقِدا[1]

اذا تأوَّب نَوْحٌ قامتا معه ضربًا أليمًا بسِبْتٍ يَلْمَجُ الجِلِدا[2]

كل ذلك أو بعضه مما يفزع اليه الغاليات[3] اللواتى اهتاجهن الحزن فأسرفن على أنفسهن. فأما ذوات الرأى الجزل والحسب الكريم فهو عندهن مأثمة يأبين أن يقارفنها ويهبطن اليها، على رغم مايعالجن من حُرَق وأحزان. وتلك هي الخنساء وما ضُرِب به المثل من تدلهها، وتصدع قلبها، واضطرام حشاها، لم ينزل بها الهلع الى منازل أولئك المسرفات. فلم تحلق شعراً، ولم تضرب صدراً. وذلك حيث تقول في رثاء أخيها معاوية:

فلا والله لا تسلاك نفسى لفاحشة أتيت ولا عقوق

ولكنى رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق

وأشد أثقال المصيبة في الرجل يلقى على امرأته. فهى تقيم من بعده سنة كاملة لا تمس ماء، ولا تُقَلِّمُ ظفراً، ولا تزيل شعراً[4].

بل ربما ضاعفت المرأة هذا الشقاء فاتبذت بيتا صغيراً تقيم فيه عامها بنجوة من الناس، ولبست شر ما تلبس من الثياب.

واليك ذلك الحديث الكريم فان فيه وفاء بتلك العادة المُعْنِتة.

---

١ يريد بالقصب المزامير و « كلتاهما أبطنت أحشاؤها قصباً » أى كأن في جوفهما مزامير من طول ما ترجعان في نوحهما وقوله لا رطباً ولا نقداً أى ليس ذلك القصب بالرطب الذى لا يبين فيه الصوت ولا بالنقد « المتأكل » الذى يسرع اليه العطب

٢ تأوبن النوح عاودهن في جنح الليل والسبت النعل ويلمج يؤثر وحرك لام الجلد لضرورة الشعر ٣ الغاليات من الغلو وهو الافراط في كل شيء ٤ القسطلانى ج ٨ ص ٢٠٨ — ٢١١

حدث البخارى عن حُميد بن نافع عن زينب ابنة أبي سَلَمَة قال: جاءت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ان ابنتى تُوُفى عنها زوجها، وقد اشتكت[1] عينها، أفتَكْحَلُها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا. مرتين أو ثلاثا. كل ذلك يقول لا. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت احداكن ترمى بالبَعْرَة على رأس الحَوْل، قال حُميد بن نافع: فقلت لزينب وما ترمى بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة اذا توفي عنها زوجها دخلت حِفْشًا[2] ولبست شر ثيابها ولم تَمَسَّ طيبا حتى تمر بها سنة ثم تُؤتَى بدابة: حمار أو شاة أو طائر فتفتض به[3]، فقلَّما تفتض بشيء الا مات. ثم تخرج فتُعْطَى بعرة فترمي. ثم تراجع بعدُ ماشاءت من طيب[4].

على أن نظرة واحدة في رواية الحديث، وسؤال راويه عما يراد منه على قرب عهده بالجاهلية، تُنبِئُنا أن تلك العادة لم تكن عامة شاملة في بطون العرب وشعوبها.

***

وكان قول النساء اذا حُمِل الميت من بيته، أو وُورى في قبره، أن يقلن: لا تَبْعَدْ. يردن بذلك اننا أحوج ما نكون اليك فلا تحجب دوننا أثر يمينك ولا نور جبينك. والعرب كَلِفون بأن ينسبوا الميت بعد الموت جميل ما اشتمل

---

١ اشتكت أى وجعت ٢ الحفش البيت الصغير جدا ٣ تفتض به أى تتمسح بجلده
٤ صحيح البخارى ج ٧ ص ٦٠

عليه من صفات ومَكْرُمات . فهم يقولون ان ربيعة بن مُكَدَّم حمى الظعنَ حيًّا وميتا ، وان حاتما نفح ضيوفه وهو في قبره بما كان يحبوهم به وهو حى[1]

لذلك قال النساء : لا تبعد .

قالت الفارعة بنت شداد في رثاء أخيها مسعود بن شداد :

أبا زُرَارَة لا تَبْعَدْ فكل فتى يوما رهين صفيحات وأعواد[2]

وقالت الخِرْنِق بنت بدر :

---

١ أما حديث ربيعة فقد عرفته مما أسلفته وأما حديث حاتم فذلك الذى أسوقه اليك مما حدّث ابن الكلبي قال : — مر أبو الخيبرى في نفر من قومه بقبر حاتم بمكان يقال له (تبعة) وحوله أنصاب نواتئ من حجارة كأنهن نساء فنزلوا به فبات أبو الخيبرى ليلته كلها ينادى اقر ،، اطعم ،، أضيافك يا أبا جعد فيقال له مهلا ما تكلم من رمة بالية ؟ فيقول ان طيئا تزعم انه لم ينزل به أحد الا قراه فلما كان آخر الليل نام أبو الخيبرى حتى اذا كان في السحر وثب فجعل يصيح ،، وا راحلتاه .. فقال له أصحابه مالك ؟ قال والله خرج حاتم بالسيف وأنا أنظر اليه حتى عقر ناقتى فقالوا كذبت والله ماخرج قال بلى والله فنظروا الى راحلته فاذا هى محتزلة — مقطوعة — لاتتبعث قالوا والله قد قراكم فظلوا يأكلون لحمها ثم اردفوه وانطلقوا فساروا ثم نظروا الى راكب فاذا هو عدى بن حاتم مقبلاً عليهم فقال : أيكم أبو الخيبرى قالوا هذا قال ان حاتما جاءني في النوم فذكر لى شتمك اياه وأنه قرى راحلتك أصحابك وقال لى في ذلك أبياتا رددها علىّ حتى حفظتها وهى :

أبا الخيبرى وأنت امرؤ حسود العشيرة شتامها
فاذا أردت الى رمة بداوية صخب هامها
تبغي اذاها واعسارها وحولك غوث وأنعامها
وانا لنطعم أضيافنا من الكوم بالسيف نعتامها

وقد أمرتى أن أحملك على بعير فدونكه فأخذه فركبه وذهب

٢ الصفيحات أو الصفائح حجارة عراض رقاق . تريد بها القبر وتريد بالأعواد سرير الموت

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين همُ سُمُّ العُداة وآفة الجُزُرُ[1]
النازلين بكل معتركٍ والطَّيِّبون معاقد الازُر

وقالت امرأة ترثى ولدها :

بُنِيَتْ عليك بُنىَّ أحوَجَ ما كنا اليك صفائحُ الصَّخْرِ
لا يُبْعِدَنْكَ الله يا عَمْرِى[2] إمَّا مضيت فنحن بالإثْرِ

وقالت أم عمرو بنت مُكَدِّم فى رثاء أخيها ربيعة بن مكدم :

فاذهب فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ من رجل لاقى الذى كلُّ حىّ مثلَهُ لاق

وقال الفَرَّار السُّلمى :

ما كان ينفعنى مقال نسائهم — وقُتِلْتُ دون رجالهم — لا تَبْعَدِ

***

وكانت المنادب والمناحات على سادة الحى وأشرافهم سنة كاملة . بذلك أوصى لبيد بن ربيعة ابنتيه في قوله :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا الا من ربيعة او مضر
فقوما وقولا بالذى تعلمانه ولا تَخْمِشَا وجهاً ولا تحلقا شعَر
وقولا هو المرء الذى لا صديقَهُ أضاع ولا خان الأمين ولا غدر
الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

حتى اذا لحق لبيد بربه ، نهض ابنتاه بما أمرهما به ، فكانتا تلبسان ثيابهما

---

١ العداة جمع عاد وهو العدو والجزر جمع جزور وهو البعير أو الناقة المجزورة . تصفهم بالبأس والكرم ٢ عمرو ابنها أضافته الى نفسها

كل يوم ، وتقصدان الى مجلس جعفر بن كلاب عظيم عشيرته فترثيانه ولا تعْولان . وكذلك أقامتا سنة كاملة ثم انصرفتا[١] .

وانما أوصى لبيد بنتيه بما أوصاهما ، بعد أن آمن بالله واعتصم بدينه ، لِما اتصف به من الشرف القديم فى قومه ، فلم يشأ أن يرزأهم فيما عف من سننهم ومناهجهم .

﴿ تجمّلها ﴾

يحب الرجل العربى من المرأة أن تملأ أقطار عينه طولا ، وعرضاً ، وامتلاء ، واستواء . وأن تكون الى كل ذلك كَحْلاء ، عيناء[٢] ، زجّاء[٣] ، بلجاء[٤] ، بيضاء ، شماء[٥] ، مأشورة[٦] ، فلجاء[٧] ، لمياء[٨] ، لعساء[٩] ، جيداء[١٠] ، غيداء[١١] ، أثيثة الشعر[١٢] ، مُشْرِقة النحر ، مهضومة الحصر[١٣] .

---

١ الأغانى ج ١٤ ص ٩٨ ٢ العيناء من العين — بفتح الياء — وهو عظم سواد العين واتساعها ٣ الزجاء من الزجج وهو دقة الحاجبين وطولها ٤ البلجاء من البلج وهو تباعد مابين الحاجبين ونقاوته من الشعر ٥ الشماء من الشمم وهو دقة الانف واستواء قصبته في علوّ ٦ مأشورة ذات الأشر — بضم الهمزة والشين — وهو دقة الأسنان وتحزيزها وحدّة أطرافها ٧ الفلجاء من الفلج وهو تباعد مابين الثنايا والرباعيات ٨ اللمياء من اللمى — بفتح اللام والميم — وهو سمرة في الشفاه واللثات ٩ اللعساء — من اللعس — وهو سمرة في حمرة في الشفة وحدها أو الجسم كله ١٠ الجيداء — من الجيد — بفتح الجيم والياء — وهو طول العنق في حسن ودقة — ١١ الغيداء — من الغيد — نعومة في العنق أو في سائر الجسم ١٢ اثيثة الشعر طويلته على حسن فيه وغزارة واسترخاء ١٣ مهضومة الحصر كناية عن رقة وسطها عما يحيط به

ذلك ما يَرُوع الرجل العربى من جمال المرأة . وذلك ماتحب المرأةُ العربية أن توسَم به ، وتُطبع عليه . فان حُرِمت بعضه تصنّعته ، وتجمّلت فيه بما لا ينبو الطبع عنه ، ولا يُرَد الطرف دونه .

وتلك التى أوردها عليك ، فنون من التجمل ، كَلِفَتْها اللواتى حُرِمن الكفاية من الجمال .

فهنالك : التكحل ، والتنمّص ، والتزجيج ، والتفليج ، والتَّلْمِيَة ، والوَشْر ، والوَشْم ، والوصل ، والخِضَاب .

فالتكَحُّل أخذ العين بقليل من الكحل تداوياً أو ازديانا .

وأكثر ما يكون التكحل بالإثمد . وهو حجر أسود الى حمرة . ومعدنه بأصبهان . وليس فى مذاهب العرب مايجلو العين ويذهب بأقذائها مثله . ولا تكتحل المرأة الا بين يدى المرآة .

قال قائل :

اذا الفتى لم يركب الأهوالا وخالف الأعمام والأخوالا
فأعطِهِ المِرْآة والمِكْحالا واسع له وعُدَّه عِيالا

يقول : أولى بمن لم يقتحم الأهوال أن يكون من ذوات الحجال .

والتنمّصُ أخذ ما بين الحاجبين من الشعر حتى تُخيَّل للناس البَلَج .

والتزجيج حف ما حول الحاجبين من الشعر واطالتهما بالإثمد .

والتفليج تفريق ما بين الثنايا والرباعيات تشبهاً بالفُلْج من النساء .

والتَّلْمِية خضاب الشفاه واللثات بالإثمد حتى تحكى اللمى .

والوَشْرُ تحزيز الأسنان وتحديدها بمِبْرَد ونحوه مَجْلبة للأُشُر فى الأسنان وأكثر ما يفعل ذلك ذوات السن منهن . لأن الأشر من صفات الحدثات .

والوشم وذلك أن يُوخَزَ ما تشاء المرأة من جسمها بإبرة أو نحوها حتى يسيل الدم ثم يُحْشَى بالنَّوْر[1] أو النِّيلج أو الكحل حتى يَخْضَرّ أو يسودّ .

وأكثر ما تَشِمُ المرأة ذراعها وشفتاها ولثاتها ، وقد تجاوزهن الى غيرهن .

والمرأة العربية مَشَابِهُ مما تفعل القَرَوِيَّات من نساء مصر من وشم أذرعهن وما سواها بصور النبات والحيوان .

وربما اتَّشَم الرجل بزعم أن الوشم يشد عَضُده ويُقَوِّى دمه .

والوصل أن تصل المرأة شعرها بشَعَرٍ مُعار . وأكثر ما كان يفعل ذلك يهوديّات العرب . وآية ذلك ما حدَّث البخارى عن حُمَيد بن عبد الرحمن انه سمع معاوية بن أبى سفيان عامَ حَجَّ وهو على المنبر وهو يقول – وتناول قُصَّة من شعر كانت بيد حَرَسِىّ – : ما كنت أرى يفعل ذلك الا اليهود ، أين علماؤكم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل ذلك[2] .

وهناك صوانع من النساء خصصن بذلك وانقطعن له .

---

١ النوْر ما تجمع من دخان الشحم ٢ ارشاد الساري ج ٨ ص ٤٧٥

ففيهن النامصات ، والفالجات ، والواشرات ، والواصلات ، والواشمات . وهن يطفن على النساء مأجورات يكففنهن معاناة ذلك بأيديهن . وأولئك اللواتى لعنهن نبى الله صلى الله عليه وسلم في الاسلام[1] .

وأما الخضاب ، فأكثر مايكون بالحناء في أيديهن وأرجلهن ، وبالكَتَم[2] الممزوج بالحناء في رؤوسهن . فذلك أجلب لفُحومة الشعر ونعومته .

وعندهن خليط من الطيب يتضمخن به فيكسب وجوههن حمرة واشراقا ولا يكون ذلك الا فى ذوات العز والثراء . والعرب يسمون أولئك المتضمخات بالعواتك[3] .

على أن تصنع الجمال مما يَنِدُّ عن الطبع العربىّ الا أن يكون كحلا أو طيبا وأكثر ماتُرَى المرأة العربية غانية بجمالها ، أو مغتنية بآلها وخلالها ، أو مشغولة بجدها وأعمالها . بل لقد تواصى الحسيبات من النساء بالاكتفاء بالماء ومن جوامع كَلِمِهِنَّ : أطيب الطيب الماء .

---

١ ارشاد الساري ج ٨ ص ٤٧٥ — ٤٧٧ ٢ الكتم نبت يخرج في شواهق الجبال وينبت في صم الصخور لا يقوم في استواء بل يتدلى كما تتدلى الخيوط ٣ العواتك جمع عاتكة ومن ذلك سميت العواتك من النساء

— ٤ —

فصاحتها وسماحة منطقها

اذا عُدَّت سِمات الحسن ، وصفات الجمال ، فحسن المنطق أروعها وأبدعها وأملكها للأنفس ، وآخذها بالقلوب . لأن معالم الجمال تستمد روعتها من البدن وحده . فأما جمال الكلام فوسط عدل بين الروح والبدن .

واذا عُرِفت المرأة — في مختلف أطوارها بالإكثار من فضول القول ، والإرسال من حواشيه ، لتبلغ من نفوس جلسائها فان المرأة العربية قد بلغت ذلك وتجاوزته بما ملك أسلوبها من دقة وبراعة ، وسماحة رأى ، وحسن بيان .

ولعل ذلك خير ما مكن لها من نفوس الرجال ، ومهد من أسماعهم ، ووطأ من قلوبهم .

لقد كانت المرأة العربية ، وما تكاد تُسامَى فى ارتياد شعاب القول ، وعَجْم أعواده ، وكشف فنونه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه ، فاغتمرت حومة البيان قائلة ناقدة . فان نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول الناقد العليم . وَلَشَدَّ ما أخذت على فحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه . ولها من دقة النقد ، واطف المأخذ ، ونفاذ الادراك ، وحسن البديهة ، ماجعل لها فى شتات مواقفها الرأى القاطع ، والكلمة الفاصلة .

وستعلم من هذين الشاهدين بُعد شأوها من دقة النقد ، ونفاذ البديهة . وفى تاريخ العرب ما لا يناله العدّ من أمثالها .

أما الأول ، فما حدثوا أن امرأ القيس ، وعلقمة الفحل ، تنازعا الشعر ، فقال علقمة لصاحبه : قد حكمت بينى وبينك امرأتك «أُمَّ جُنْدُب» . قال : قد رضيت . فقالت لهما : قولا شعراً ، على رويّ واحد ، وقافية واحدة ، تصفان فيه الخيل . فقال امرؤ القيس قصيدة أولها :

خليليَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدُب ... لِنَقْضِيَ حاجات الفؤاد المعذب

وعارضها علقمة بمثلها ومطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ... ولم يك حقًّا كل هذا التجنب

وأنشدها . فحكمت لعلقمة . فقال لها زوجها : بأى شىء غلبته ؟ فقالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهوبٌ وللساق دِرَّة ... وللزجر منه دَفْعُ أَخرجَ مُهْذِب[1]

فجهدْت فرسك بسوطك ، ومَرَيته بساقك ، وأتعبته بجَهدك . وقال علقمة :

فولى على آثارهن بحاصب ... وعيبة شؤبُوب من الشد ملهب

فأدركهن ثانياً من عُنانه ... بمرّ كمرّ الرائح المتحلب[2]

---

١ الالهوب اجهاد الفرس في عدوه حتى يثير الغبار والدرة شبيهة بالسوط والأخرج من الطيور المكاء والمهذب المسرع في طيرانه أو عدوه . يقول انه اذا قنع الفرس بالسوط وعلاه بالدرة اشتد عدوه حتى كأنه الطير ٢ الحاصب ريح شديدة تحمل التراب والحصباء وعيبة الماء مجاوزته السدود والشطوط والشؤبوب الدفعة من المطر ويقال تحلب المطر اذا سال . يقول ان فرسه جاوز الريح الحاصب والمطر المتدافع وأدرك سوابق الخيل غير معنت ولا مجهود

فلم يضرب فرسه بسوط ، ولم يمره بساق ، ولم يتعبه بزجر . فلم يكن لامرئ القيس من ردّ الا أن طلقها ! وتلك آية العجز عن مقارعة الحجة بالحجة . أما هي فقد خلّفته على صاحبه[1] .

وأما الثاني ، فحديث الخنساء بنت عمرو بن الشريد .

ذلك ان النابغة الذبياني كان حكماً يحتكم اليه الشعراء فى عكاظ . فكان فيمن تقدم بين يديه الخنساء ، وحسان بن ثابت . فلما أنشدته الخنساء قصيدتها التى تقول فيها :

وان صخراً لمولانا وسيدنا وان صخراً اذا نشتو لنحّار
وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال لها : لولا ان أبا بصير « الأعشى » أنشدنى لقلت انكِ أشعر أهل الأرض . فهاج ذلك جمرة الغضب فى صدر حسان ، وقال للنابغة : أنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ! قال النابغة : بماذا ؟ فقال : بقولى

لنا الجفنات الغرّ يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فيروون أن النابغة قال للخنساء : خاطبيه ياخَناس . فقالت له : أضعفت افتخارك وأنزرته فى ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت : قلتَ الجفنات والجفنات ما دون العشر . ولو قلتَ البيض لكان أكثر اتساعا . وقلت : يلمعن واللمع شئ يأتى بعد شئ ، ولو قلتَ يشرقن لكان أكثر لأن الاشراق أدوم من اللمعان . وقلت : بالضحى ولو قلت بالدجى لكان أكثر طُرّاقاً . وقلت :

١ الأغانى ج ٧ ص ١٣١

أسيافنا والأسياف ما دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا كان أكثر . وقلت : يقطرن ولو قلت يَسِلن لكان أكثر . وقلت : من نجدة والنجدات أكثر من نجدة . وقلت : دماً والدماء أكثر من الدم . فلم يحر حسان جواباً . وانصرف عند ذلك مستحييا[1] .

لذلك كله نهجت المرأة العربية كل مناهج القول ، واستنّت فى جميع ضروبه فأسهبت ، حتى استرقت الأسماع ، وملكت أزمة القلوب ، وأوجزت حتى كشفت عن الحكمة وفصل الخطاب .

ولقد وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم رجال هم أمَسُّ الناس به ، وأطولهم لزاماً له ، وأملأهم قلباً منه ، وهم ملوك القول ، وفرسان البيان ، ومن بينهم بطل حومتهم ، وامام سُنتهم ، علىُّ بن أبي طالب عليه السلام . فلم يبلغ واحد من وصفه ما بلغت امرأة أعرابية ألَمَّ عليه الصلاة والسلام بها وهو فى طريقه الى المدينة . فوصفته لزوجها وصفا جعله ملء سمعه وبصره ، ونفسه ، ووجدانه[2] .

ولئن اعتز رجال العرب بقوم منهم ضربوا الأمثال ، ونشروا مطارف الحكمة ، وكشفوا قناع الحقيقة ، فان لنسائهم أن يعتززن بفريق منهن لا يقل عن أولئك شأنا ، ولم يتخذ دونَ مكانهم مكانا . ومن هؤلاء صُحْر بنت لقمان ، وحَذَام بنت الريان ، وخُصَيلة بنت عامر بن الظّرِب ، وفاطمة بنت الخُرْشب ، وهند وجمعة ابنتا الخُسِّ الإيادى ، وأمثالهن ونظائرهن ممن تنبو شفار الاقلام دون الوفاء بذكرهن ، وذكر ما كان لهن من كلمة نافذة ، ورأى مسموع .

١ شرح شواهد المغنى ص ٩١ ٢ وسيمر بك حديث ذلك

أما الشعر – وأخصه شعر العاطفة – فهو حديث أنفسهن ، ونجوى ضمائرهن ، ومَبَثُّ أوجاعهن ، ومثار سرائرهن ، والمحتكم بألسنتهن احتكامَ الدموع بأعينهن . ويا رب مُهْتاجة هاضها الشوق ، وأضناها الأسى ، فلم يأسُ جراح كبدها ، ولم يطفئ لهيب حشاها الا بيتان من الشعر جاشت بهما نفسها ، فزفر بهما صدرها ، فجرى بهما لسانها ، ففاضت لهما عيناها ، فسكنت الى حنين الصوت ، واشتفت بنشيج البكاء .

لعلَّ انسكاب الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نُجيَّ البلابل

ولئن وقف أبو طالب بن عبد المطلب فناح على أبيه بقصيدة بارعة رائعة ، لقد وقف الى جنبه أخواته الست : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم ، وأميمة ، وأروى ، فانحسرن عن ست قصائد ، هنَّ صبيب المهج ، وذوب القلوب .

وان تبغ المَزيد من القول ، والفُسْحة فى المقارنة ، فدونك فاسمع هذا الحديث :

أبو نواس الحسن بن هانئ شاعر الدولة العباسية . وشعره ثمرة نَعْمائها ، ومرآة حضارتها ، وصفحة أهوائها . ذلك الشاعر المُغْدِق الفيَّاض ، هو الذى يقول : أجهَدْتُ نفسى على أن تقع في الشعر « عين أُباغ » فامتنعت علىَّ فقلت عينَىْ أباغ فذلك حيث أقول[1] :

فما نجدت بالماء حتى رأيتها مع الشمس في عينى أباغ تغور

ذلك قول الشاعر الذى فاق المُحْدَثين نفاذاً في القول ، ودقة في الوصف . فاذا وعيته ، وملأت بصرك منه ، فانظر الى قول امرأة من بنى شيبان[2] :

١ معجم ياقوت ج ٦ ص ٢٥١ ٢ لسان العرب ج ١٠ ص ٢٩٩

وقالوا شاعراً منكم قتلنا كذاك الرمح يَكلَفُ بالكريم

« بعين أُباغ » قاسمنا المنايا فكان قسيمها خير القسيم

ألست ترى الكلمة التى تأبَّت على شاعر المهدى والرشيد والأمين ، سيقت الى امرأة من غمار نساء العرب رِيقة رَيِّضَة ؟.

وما عجب ذلك ؟! ألم تدفن المرأة في عين أباغ غصون روضتها ، وليوث غابها ؟ فما لها لا تلين لها ، وتسكن اليها ؟.

ذلك شأن المرأة العربية في الشعر . وغلبتها فيه على الرجل ، كغلبة عاطفتها على عاطفته . وأى الرجال يملك أن ينوح على زوجه بمثل ما ناحت به جليلة بنت مرة على زوجها ؟ أوليس ذلك لأنه لا يملك قلباً كقلبها ؟ ولا يشعر بالنار تضطرم بين جوانحه كما تضطرم بين جوانحها ؟.

أما لقد تألقت المرأة العربية في سماء الشعر ، فنفذ سناها الى أعطاف الصدور ، فانحسرت ظلماؤها ، وتفرجت ضوائقها . على حين ترك غيرها من نساء الأمم المختلفة – في متباين أطوارهن ومنشعب ديارهن – أمكنتهن خالية مظلمة يرتدُّ عنها الطرف خاسئا وهو حسير .

وعجيبٌ كل العجب أن تنازع المرأة الرجل في زماننا هذا أمر معقولاته ومجهوداته ، وتدعه يختص نفسه بالشعر ، وهو ثمرة نفسها ، ونسج يدها . ولو شاءت لكان لها فضل الزعامة ، وشرف الإمامة .

ونحن أولاء بمعونة الله وتوفيقه نجمع لك من نثار نساء العرب نظامهن ما لعل نفسك تزهو به وتسكن اليه .

أثارة من قولها

مأثور منه المنثور

١ — بين امرأتين

وافت جمعة وهند ابنتا الخَسّ[١] سوق عكاظ، فاجتمعتا بين يدى القَلَمَّس[٢] الكنانى. فقال لهما: انى سائلكما لأعلم أيكما أبسطُ لسانا، وأظهرُ بيانا، وأحسنُ للصفةِ اتقانا. قالتا: سلنا عما بدا لك. فستجد عندنا عقولاً زكية، وألسنة قوية، وصفة جلية. قال القَلَمَّس: أىُّ ذكور الخيل أحبُّ اليك ياجمعة؟ قالت: أُحِبُّ المنسوب جدُّه[٣]، الأسيل خدُّه[٤]، السريع شدُّه[٥]، الطويل مدُّه[٦]،

١ اختلف العلماء والمؤرخون في نسب هند وجمعة فمن قائل انهما أختان وانهما ابنتا الخس الأيادى ومن قائل ان هندا هى ابنة الخس وأما جمعة فابنة حابس. وهما جميعاً حكيمتان يضرب بهما المثل في جلال الحكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ: من أهل الدهاء والنكراء ومن أهل اللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخس وهى الزرقاء وجمعة بنت حابس — البيان والتبيين نسخة خطية ص ٨٨ — ٩٠ والنكراء — على وزن حمراء — الدهاء. واللسن — بفتح اللام والسين — جودة اللسان. واللقن جودة الفهم ٢ القلمس سيد من سادات كنانة وحكيم من حكماء العرب وكاهن من كهانهم ومما عرف عنه أنه كان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه قالت هند ابنة الخس

اذا الله جازى منعما بوفائه فجازاك عنى يا قلمس بالكرم

٣ المنسوب جده أى الذى ينتهي نسبه الى جواد كريم. وكانت العرب تحفظ انساب العتاق من خيلها كما تحفظ ذلك في رجالها ٤ خد أسيل طويل مسترسل ٥ الشد العدو بسكون الدال ٦ المد بسط الجسم وارتفاعه

الشديدَ هَدُّه[١]، الجميلَ قَدُّه. قال القلمَّس: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: هذا فرس خَليق ان طُلب لم يُلْحَق، وان جورى لم يُسْبَق، وان بوهيَ لم يُفَق، وغيره أحبُّ الىَّ منه. قال: فقولى. قالت: أحبُّ الوثيقَ الخَلْق[٢]، الكريمَ العِرْق[٣]، الكثيرَ السَّبْق، الشديدَ الذَّلْق[٤]، يمرُّ من البرق. قال: كلتا كما محسنة. فأىّ إناث الخيل أحبُّ اليك يا جمعة؟ قالت: أحبُّ كل حيِيّة الفؤاد، سَبُوح[٥] جَوَاد، سَلِسَة القياد، شديدة الاعتماد، في الدَّفع والاشتداد، ذات هِبَاب وثَماد[٦]. قال القلمس: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: هذه فرس صاحبها خليق ألا يفوته أمر، ولا يَهُوله ذُعْر، اذا شاء كَرّ، واذا هاب فَرّ، وغيرها أحبُّ الىَّ منها. قال: فقولى. قالت: أحبُّ الشديدَ أَسْرُها[٧]، البعيدَ صبرها، القليل فَتْرُها، الجميل قدرها، السريع مَرُّها، المخوف كَرُّها. قال القلمس: كلتا كما محسنة. فأى ذكور الخيل أبغض اليك يا جمعة؟ قالت: أبغض كل بليد، وارم الوريد[٨]، ذا ركال شديد[٩]، لا ينجيك هاربا، ولا تظفر به طالبا، ولا يستركَ شاهداً ولا غائبا. قال القلمس: كيف تسمعين يا هند؟ قالت: هذا فرس إمساكه بلاء، وعلاجه عناء، وركوبه شقاء، وغيره أبغض الىَّ منه. قال: فقولى. قالت: أبغض السريع البُهْر[١٠]، البطىء الحصر[١١]، السَّكيت الطَّفْر[١٢].

١ هد الفرس ضربه الارض بحافره ٢ الوثيق الخلق. المحكم التكوين ٣ العرق الأصل ٤ ذلق كل شيء حده وحدته ٥ السبوح من الخيل المسرع في لطف ولين كأنه يسبح على الماء ٦ الهباب النشاط في السير والثماد حفر الارض ٧ الاسر قوة الجسم واحكام الخلق ٨ الوريد عرق في العنق ٩ الركال ضربك الفرس برجلك ليعدو ١٠ البهر انقطاع النفس ١١ الحصر الانحباس عن السير ١٢ السكيت الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلبة

قال القامس : كلتا كما محسنة . فأى النساء أحبُّ اليك يا جمعة ؟ قالت : أحبُّ الغريرة[١] العذراء ، الرُّعْبوبة العَيطاء[٢] ، الممكورة اللفاء[٣] ، ذات الجمال والبهاء ، والسِّتْر والحياء ، البَضّة الرخصة[٤] كأنها فضة بيضاء . قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت جارية هي حاجة الفتى ، ونُهْيَة الرِّضا ، وغيرها أحبُّ الىَّ منها . قال : فقولى . قالت : أحبُّ كل مشبَعة الخَلْخال[٥] ، ذاتِ شَكَلٍ ودلال[٦] ، وظَرْف وبهاء وجمال . قال القامس : كلتا كما محسنة . فأى النساء أبغض اليك يا جمعة ؟ قالت : أبغض كل سلفع[٧] بَذِيّة ، جاهلة غبيّة ، حريصة دنيّة ، غير كريمة ولا سَرِيّة[٨] ، ولا سِتِّيرَة ولا حَيِيّة . قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت امرأة صاحبها خليق ألا تصلح له حال ، ولا يَنْعَمَ له بال ، ولا يُثْمِرَ له مال ، وغيرها أبغض الىَّ منها . قال : فقولى . قالت : أبغض المتجرِّفة الشوهاء[٩] ، المنفوخة الكَبْداء[١٠] ، العِنِفِص الوقْصاء[١١] ، الحَمِشَة الزَّلاء[١٢] ، التى ان وَلَدَت لم تُنجِب ، وان زُجِرت لم تَعتَتِب ، وان تركت طفقت تصخب . قال القامس : كلتا كما محسنة . فأى الرجال أحبُّ اليك يا جمعة ؟ قالت : أحبُّ الحُرّ النجيب ،

١ الغريرة الطيبة القلب ٢ الرعبوبة الفتاة البيضاء الحلوة اللينة الناعمة . والعيطاء الطويلة العنق ٣ الممكورة الممتلئة الساقين في بياض ولين . واللفاء السمينة الطويلة ٤ البضة اللينة الجسد الناعمة الجلد الممتلئة . والرخصة اللينة الناعمة كذلك ٥ اشباع الخلخال كناية عن امتلاء الساق ٦ الشكل الجمع بين الحمرة والبياض ٧ السلفع من النساء الشديدة الصخب السيئة الخلق ٨ السرية الشريفة ٩ المتجرفة الشديدة الهزال ١٠ المنفوخة المتسعة البطن . والكبداء المرأة الضخمة الوسط البطيئة المشي ١١ العنفص المرأة البذيئة القليلة الحياء القليلة الجسم الكثيرة الحركة الكثيرة الاختيال والوقصاء القصيرة العنق ١٢ الحمشة القليلة اللحم الدقيقة الساق والزلاء الخفيفة الوركين

السرىّ القريب ، السمْح الحسيب ، الفَطِن الأريب ، المِصْقَع الخطيب ، الشجاع المَهيب . قال القامس : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت رجلاً سيدا جواداً ينهض الى الخير صاعدا ، ويسرك غائباً وشاهدا ، وغيره أحب الىَّ منه . قال : فقولى . قالت : أحبُّ الرَّحْبَ الذراع ، الطويل الباع ، السخىّ النفّاع ، المنيع الدفّاع ، الدَّهْمَئِىّ[١] المطاع ، البطل الشجاع ، الذى يحل باليَفاع[٢] ، ويُهين في الحمد المتاع . قال : كلتا كما محسنة . فأىّ الرجال أبغض اليك يا جمعة ؟ قالت : أبغض السَّأَلة اللئيم ، البغيض الزنيم[٣] ، الأشْوَه الدَّميم ، الظاهر العُصُوم[٤] ، الضعيف الحَيْزُوم[٥] . قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : ذكرت رجلاً خَطَره[٦] صغير ، وخَطْبه يسير ، وعيبه كثير ، وأنت ببغضه جدير ، وغيره أبغض الىَّ منه . قال : فقولى . قالت : أبغض الضعيف النُّخَاع[٧] ، القصير الباع ، الأحمق المِضْياع ، الذى لا يُكْرَم ولا يطاع . فقال : أحسنتما وأجملتما ، فبارك الله فيكما ، ووصلهما وحباهما[٨] .

١ الدهمئى الكريم ٢ اليفاع المرتفع من الأرض وانما يحل الكريم باليفاع حتى يرى السارون ناره فيقبلون اليه ٣ الزنيم الشرير أو الدعي الذى ينتسب الى القوم وليس منهم ٤ العصوم بقايا الخضاب ٥ الحيزوم الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحمق وضيق الذراع ٦ الخطر . القدر والمنزلة ٧ تريد بالضعيف النخاع العاجز الذى يضيق بالهم ولا يطيقه ٨ بلاغات النساء ص ٥٨ — ٦٢

٢ - أبلغ الكَلِم في أبلغ الكرم

قالت ماوية امرأة حاتم :—

أصابتنا سنةٌ اقشعرَّت[1] لها الأرض ، واغبرَّ أفق السماء ، وراحت الإبل حُدْبًا حَدَابير[2] ، وضنَّت المَراضع على أولادها فما تَبِضُّ[3] بقطرة ، وحلّقت ألسنَة[4] المال ، وأيقنا بالهلاك . فوالله إنّا لفي ليلة صِنَبِّرٍ[5] بعيدة ما بين الطرفين ، اذ تضاغى[6] صبْيَتُنا جوعا ، عبد الله وعدىٌّ وسَفَّانة . فقام حاتم الى الصَّبيين ، وقمت أنا الى الصبية . وأقبل يعلّلني بالحديث . فعرفت مايريد ، فتناومت . فلما تهَوَّرت[7] النجوم ، اذا شيء قد رفع كِسْرَ البيت[8] ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صِبْية يتعاوَوْن عُواء الذئاب ، فما وجدتُ معوَّلاً إلا عليك يا أبا عدىّ . فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم ! فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جَنائبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها[9] . فقام حاتم الى فرسه فوجأ[10] لَبَّته بمُدْية نخرّ . ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية الى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم نشوى ونأكل . ثم جعل يمشى فى الحىّ يأتيهم بيتاً بيتاً

١ اقشعرت الأرض أمحلت ٢ الحدب جمع أحدب وهو ما دخل صدره وخرج ظهره وانما تظهر الابل كذلك اذا اشتد بها الجوع لامحال المراعي . والحدابير جمع حدبار — بكسر الحاء — وهى الناقة الضامرة أو التى ذهب سنامها ٣ تبض تسيل
٤ التحليق وجع يصيب الحلق وتلك كناية بديعة عن الفقر والمسغبة تقول ان المال من ابل وخيل ومال انقطع صوته ٥ ليلة صنبر باردة شديدة الريح ٦ تضاغوا تصايحوا
٧ تهورت انحدرت الى المغرب ٨ الكسر الشقة السفلى من الجباء ٩ الرئال — جمع رأل — أولاد النعام ١٠ وجأ طعن

فيقول هبُّوا أيها القوم ، عليكم بالنار . فاجتمعوا . والتفع في ناحية ينظر الينا . فوالله ان ذاق منه مُزْعة[1] وانه لأحوح اليه منا . فأصبحنا وما على ظهر الارض من الفرس الا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نَوَارِ أقلّى اللوم والعذلا ... ولا تقولى لشيء فات مافعلا
ولا تقولى لمال كنت مهلكه ... مهلاوان كنت أعطى السهل والجبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة ... ان الجواد يرى في ماله سبلا[2]

٣ — امرأة تصف رسول الله

لما فارق رسول الله مكة مهاجراً الى المدينة ، خرج ومعه صاحبه أبو بكر ورائده عبيدالله بن أُرَيقط . فمروا على خيمة أم معبد — وكانت امرأة بَرْزة جَلْدَة تحتبي بِفِناء الكعبة ثم تسقى وتطعم — فسألوها لحما وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئامن ذلك . وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتين[3] . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاة في كِسْرِ الخيمة ، فقال : ماهذا ياأم معبد ؟ قالت : شاة خلَّفها الجَهد عن الغنم . قال : هل بها من لبن . قالت : هي أَجْهَدُ من ذلك . قال : أتأذنين لى أن أحلبها . قالت : بأبى وأمى أنت نعم ان رأيت بها من حَلَب فاحلبها . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها وسمَّى الله ودعا لها في شاتها .

١ ان نافية بمعنى ما والمزعة القطعة من اللحم ٢ العقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميدانى ج ١ ص ١٢٣ ٣ أرمل القوم نفد زادهم واسنتوا أصابهم القحط

فتثاجّت[1] عليه ودرّت واجترّت . ودعا بإناء يَرْبِضُ[2] الرَّهْط ، فحلب فيه ثجّا حتى غلبه الثِّمال[3] . ثم سقاها حتى رَوِيَت . وسقى أصحابه حتى رَوُوا . ثم شرب آخرهم . وقال : ساقي القوم آخرهم ، فشربوا جميعاً عَلَلاً بعد نَهَل[4] . ثم أراضوا[5] . ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء حتى ملأ الإناء . ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها . فقلّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حُيَّلاً عِجافاً[6] هزالاً مُخّهن قليل[7] ولا نِقًا[8] بهن . فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين هذا يا أم معبد ، والشاة عازبة حيال ، ولا حَلُوبة فى البيت ؟ فقالت : لا والله ، انه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . قال : صفيه لى يا أم معبد . فقالت :

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، أبلج[9] الوجه ، حَسَن الخَلْق ، لم تَعِبه ثُجْلَة[10] ولم تُزْرِ به صُقْلة[11] ، وسيما قسيما ، في عينيه دَعَج[12] ، وفى أشفاره وَطَف[13] ، وفى صوته صَحَل[14] ، وفى عنقه سَطَع[15] ، وفى لحيته كَثَاثة . أحوَر[16] ، أكحل ، أزجّ ، أقرن[17] . ان صَمَتَ فعليه الوقار ، وان تكلم سماه وعلاه البهاء . فهو أجمل الناس

١ تثاجت سالت ٢ يربض الرهط يكفيهم أمدا ٣ الثمال — بكسر الثاء — جمع ثمالة — بضمها — ما يعلو اللبن من الرغوة ٤ اذا استقى الانسان مرتين فالأولى النهل والثانية العلل ٥ أراضوا أى شربوا مرة أخرى ٦ حيلا جمع حائل وهى التى انقطعت عن الحمل وعجاف جمع عجفة — بكسر الجيم — وهى المهزولة ٧ قلة المخ كناية عن الضعف والهزال ٨ النقا جمع نقاوة — بضم النون — وهى المختار من كل شيء ٩ وجه أبلج وضاء أغر ١٠ الثجلة ضخم في البطن ١١ الصقلة دقة الجسم وشدة نحوله ١٢ الدعج شدة سواد العين في شدة بياضها ١٣ الوطف غزارة أشفار العين وطولها ١٤ الصحل شبيه بالبحة في الصوت وألا يكون حادا ١٥ سطع العنق طولها في جمال ١٦ أصل الحور أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك الا في البقر والظباء ثم استعير لعين الانسان اذا غلب سوادها على بياضها ١٧ الأقرن المقرون الحاجبين

وأبهاه من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب . حُلْوُ المنطق ، فصل ، لا نزرٌ ولا هذر[1] ، كأن منطقه خرزات نُظِمْ يتحدّرن ، رَبعة ، لا تَشْنَأه من طول ، ولا تقتحمه العين من قصر . غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدًّا . له رفقاء يحفون به ، ان قال أنصتوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره ، محفود محشود[2] ، لا عابس ولا مُفَنَّد . صلى الله عليه وسلم .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره بمكة ماذكر ولو كنت وافقته لالتمست صحبته ، ولأفعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا .

٤ – سناء الرأى وحسن الاستعطاف

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى طيئ فريقاً من جنده يقدمهم علىّ عليه السلام . ففزع عدىّ بن حاتم الطائي – وكان من أشد الناس عداء لرسول الله – الى الشام . فصبّح علىٌّ القوم ، واستاق خيلهم ونَعَمَهم ورجالهم ونساءهم الى رسول الله . فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سَفَّانة بنت حاتم فقالت :

يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد . فان رأيت أن تُخَلّى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ! فان أبي كان سيد قومه ، يَفُكّ العاني ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار ، ويُفَرِّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكَلّ[3] ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائباً . أنا بنت

١ النزر القليل والهذر الذى لا يعبأ به من القول ٢ المحفود الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويبادرون الى طاعته والمحشود الذى يحف به من معه ٣ الكل العائل واليتيم

حاتم الطائى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا جارية ، هذه صفات المؤمنين حقا . لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه . خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزاً ذل ، وغنيًّا افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال . وامتنّ عليها رسول الله بقومها فأطلقهم تكريماً لها . فاستأذنته فى الدعاء له . فأذن لها . وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببرّك مواقعه ، ولا جعل لك الى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم الا وجعلك سبباً فى ردها عليه . فلما أطلقها رجعت الى أخيها عدىّ وهو بدُومة الجَنْدَل . فقالت له : يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تَعْلِقك حبائله ، فانى قد رأيت هَدْيًا ورأيًا سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالاً تعجبنى : رأيته يحب الفقير ، ويفكّ الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير . وما رأيت أجود ولا أكرم منه . فان يكن نبيًّا فللسابق فضلُه ، وان يكن ملكاً فلن تزال فى عز اليَمَن . فقدم عدى الى رسول الله فأسلم ، وأسلمت سَفَّانة[1] .

---

٥ – بين نارين

لما قَتَلَ جساس بن مرة كُلَيب بن ربيعة ، وقفت جليلة بنت مرة فى المناحة وقفة تذيب الصخر – وكانت أخت القاتل وزوج القتيل – فقال نساء الحى لأخت كليب : أخرجى جليلة عن مأتمك ، فان فى قيامها شماتة وعارا علينا عند العرب . فقالت لها : يا هذه ، اخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا ، وشقيقة

١ الأغانى ج ١٦ ص ٩٣ وانسان العيون ج ٢ ص ٢٨٥

قاتلنا . فخرجت وهى تجر أعطافها . فلقيها أبوها مُرَّة . فقال لها : ما وراءك يا جليلة ؟ فقالت : ثُكِل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل . وبين ذلك غَرْس الأحقاد ، وتفتُّت الأكباد . فقال لها : أوَ يكفّ ذلك كرم الصفح ، واغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع وَرب الكعبة ! أَبالبُدْن[1] تدع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا :– ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ، وفراق الشامت ! ويل غداً لآل مرة ، من الكرَّة بعد الكرَّة ! فبلغ جليلة قولها فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سِترها ، وتَرَقُّب وِتْرِها . أسعد الله جَدَّ أختى أفلا قالت نَفْرَة الحياء ، وخوف الأعداء ؟ ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام ان لُمْتِ فلا	تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى	يوجب اللوم فلومي واعذلى
ان تكن أخت امرئ لِيمَت على	شَفَقٍ منها عليه فافعلى
جَلَّ عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلى أو ينجلى
لو بعينٍ فُدِيَت عينى سوى	أختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين أذىَ العين كما	تحمل الأم أذى ما تَعْتَلى[2]
يا قتيلاً قوض الدهر به	سقف بيتىّ جميعاً من عَلِ[3]

٢ البدن جمع بدنة — بفتح الباء والدال — الناقة أو البقرة تهدى الى مكة ثم اطلقت على كل عظيم جسيم من الابل والبقر ١ يقال اعتلت الأم أى مرضت بحملها تقول ان العين تحمل أذى أختها كما تحمل الام راضية أذى حملها اما هى فما عساها تعمل وقد أصيب عيناها معاً . وروى فى هذا البيت : أذى ما تفتلى واذا ما تمتلى غير ان ما بين يديك أوجه وأمثل

هدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأول
ورماني قتله من كثب ... رِمْيَةَ المُصْمَى به المستأصَل[1]
يا نسائى دونكن اليوم قد ... خصنى الدهر برُزْءٍ مُعْضِل
خصنى قتل كليب بلظَى ... من ورائى ولظى مستقبلى
ليس من يبكي ليومَيه كمن ... انما يبكي ليومٍ ينجلى
يشتفى المُدْرِك بالثأر وفي ... دَرَكى ثارىَ ثُكلُ الثُكلِ
ليته كان دمي فاحتلبوا ... درراً منه دمى من اكحلى[2]
فأنا قاتلة مقتبولة ... ولعل الله أن يرتاح لى

٦ - تداوُل الأيام

لما صدع سعد بن أبى وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أتته حُرَقة بنت النعمان بن المنذر فى حفدة من قومها وجواريها — وهن فى زيّها ، عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات — تطلب صِلة . فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال: أيكن حُرَقة ؟ قالت : هأنذا . قال : أنت حُرَقة ؟ قالت : نعم ، فما تَكرارك فى استفهامى ؟ ثم قالت : ان الدنيا دار زوال لاتدوم على أهلها انتقالاً ، وتعقبهم بعد حال حالا . كنا ملوك هذا المصر ، يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى الإمرة ، وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فشق

١ الكثب الترب واصمى الرمية اذا انفذها ٢ الأكل عرق فى الذراع اذا نُزف لايرقأ

عصانا ، وشتت شملنا . وكذلك الدهر يا سعد ، انه ليس يأتى قوماً بمسرة ، الا ويعقبهم بحسرة . ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... اذا نحن فيهم سوقة نتنصَّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تَقَلَّبُ تارات بنا وتَصرف

فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد كأنه ينظر اليها حيث يقول :

ان للدهر صولة فاحذرنها ... لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى معافى فيَرْدَى ... ولقد كان آمناً مسرورا

وحدثوا أن عمرو بن معديكرب — وكان من قصاد النعمان وزواره — دخل عليها وهي بين يدى سعد ، فلما نظر اليها قال : أنت حُرَقة ؟ قالت : نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بجودات شِيَمك ؟ أين تتابع نعمك ، وسطوات نقمك ؟ فقالت : يا عمرو ، ان للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفضهم بعد رفعة ، وتُفْرِدُهم بعد مَنَعة ، وتذلهم بعد عز . ان هذا الأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره . قالوا : فلما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهى ، وانما يكرم الكريم الكريم[1] .

٧ - صفات فى فقرات

لما قتل الحارث بن ظالم المُرِّىّ ، خالد بن جعفر العامرىّ ، لحق بحاجب بن زرارة التميمي يعتصم به من بنى عامر . فاتبعه رجال منهم . حتى اذا كانوا ببعض

١ خزانة الادب ج ٣ ص ١٨١—١٨٢

الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تجنى الكمأة ، فتعرفوا منها أمر الحارث . ومكانه من حاجب . ثم احتجزوها عندهم . فترقبت حتى أنست غِرَّة من القوم فأفلتت . وانطلقت تعدو الى حاجب . فأخذت تحدثه حديث القوم . فقال لها : اخبريني أى قوم أخذوك ؟ قالت : أخذني قوم يقبلون بوجوه الظباء ، ويدبرون باعجاز النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : فحدثيني مَن في القوم ؟ قالت : رأيتهم يغدون على شيخ كبير لا ينظر بماقيْه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذلك الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شابًّا شديد الخَلْق ، كأن شعر ساعديه حَلَق الدِّرْع ، يَعْذِم[1] القوم بلسانه عذم الفرس العضوض . قال : ذلك عُتْبة بن بشير ابن خالد . قالت : ورأيت كهلاً اذا أقبل ومعه فتيان يُشْرف القوم اليه ، فاذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه زُرْعة ويزيد . قالت : ورأيت شابا طويلاً حسناً اذا تكلم بكلمة أنصتوا لها . ثم يَؤُلون[1] اليه كما تؤل الشُّول[3] الى فحلها . قال : ذلك عامر بن مالك . قالوا : وجاء القوم فكانوا كما قالت وقال[4] .

٨ - نساء يَصِفْن رجالا

حدث أبو بكر بن دريد قال : كان قَيل[5] من أقيال حِمْير مُنع الولدَ دهراً ، ثم ولدت له بنت . فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً عن الناس . ووكل بها نساء من

١ العذم عض الفرس وهى استعارته لحدة اللسان ٢ ألّ في مشيه أسرع
٣ الشول جمع شائلة وهى ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر ٤ الأغانى ج ١٠ ص ١٨ ٥ القيل الملك من ملوك حمير

بنات الأقيال يَخْدُمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشأ وأتمّه في عقلها وكمالها . فلما مات أبوها ملّكها أهل مِخْلافها[1] . فاصطنعت النسوة اللاتى ربَّيْنها وأحسنت اليهن . وكانت تشاورهن ، ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوما : يابنت الكرام ، لو تزوّجت لَتَمّ لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فأخذت كل واحدة تصف العذب الهنىّ من صفات زوجها . فقالت : أمهلنني أنْظُرْ فيما قلتنّ . فاحتجبت عنهن سبعاً . ثم دعتهن . فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتني أُمَلّكه رِقّي ، وأُبِثُّه باطلي وحقي . فان كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بِغْيتي ، وان كان غير ذلك فقد طالت شِقْوَتي . على انه لا ينبغي الا أن يكون كفؤا كريماً ، يسود عشيرته ، ويَرُبّ[2] فصيلته ، لا أتقنع به عاراً في حياتي ، ولا أرفع به شَنَاراً لقومي بعد وفاتي . فعليكُنّه فابْغِينَه ، وتفرقن في الاحياء ، فأيتكن أتتني بما أحب فلها أجزل الحِباء ، وعليّ لها الوفاء . فخرجن فيما وجّهتهن له — وكُنّ بنات مقاول ذوات عقل ورأى — فجاءتها احداهن — وهي عمَرّطة بنت زُرعة ابن ذي خَنْفَر — فقالت : قد أصبت البُغْية . فقالت : صفيه ، ولا تُسَمّيه . فقالت : غيث في المَحْلِ[3] ، ثِمال في الأَزْل[4] ، مفيد مبيد ، يصلح النائر ، وينعش العائر ، ويَغْمُرُ الندىّ ، ويقتاد الأبىّ ، عِرْضه وافر ، وحَسَبُه باهر . غَضُّ الشباب ، طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت : سَبرةُ بن عَوّال بن شداد بن الهمّال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبتِ من بغيتك شيئا ؟ قالت : نعم . قالت : صفيه ،

١ المخلاف الكورة أو الأقليم وهو لليمن خاصة ٢ يرب فصيلته يحفظها ويرعاها ويربيها
٣ المحل الجدب والقحط ٤ الثمال الغياث والأزل الضيق والشدة

ولا تسميه . قالت : مُصَامِص[1] النسب ، كريم الحسب ، كامل الأدب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مُقْتَبَلُ الشباب ، خصيب الجناب . أمره ماض ، وعشيره راض . قالت : ومن هو ؟ قالت يَعْلَى بن هَزَّال بن ذى جَدَن . ثم خلت بالثالثة فقالت : ماعندك ؟ قالت : وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد[2] يعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن يستنال . في العشيرة معظَّم ، وفى الندى مكرم . جَمّ الفواضل ، كثير النوافل[3] ، بذّالُ أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت : ومن هو ؟ قالت : رَوَاحَة بن حُمَيْر بن مضحى بن ذى هِلَاهِلة . فاختارت يعلى بن هَزَّال فتزوجته . فاحتجبت عن نسائها شهرا . ثم برزت لهن فاجزلت لهن الحباء . وأعظمت لهن العطاء[4] .

٩ — مجاذبة الثناء

وصفت أعرابية زوجها بكرم الأخلاق عند أمها فقالت : يا أُمَّه منْ نشر ثوب الثناء ، فقد أدى واجب الجزاء . وفي كتمان الشكر جحود لما وجب من الحق ودخول في كفر النعم . فقالت لها أمها : أى بذية أطبت الثناء ، وقمت بالجزاء . ولم تدعى للذم موضعا . اني وجدت مَنْ عَقَل لم يعجل بذم ولا ثناء الا بعد اختبار . فقالت : يا أُمه ، مامدحت حتى اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت .

١ المصامص الخالص من كل شيء وهو مصامص في قومه اذا كان زاكى الحسب خالصاً فيهم
٢ المرافد جمع مرفد — بفتح الميم وضمها — المعونة ٣ النوافل — جمع نافلة — ما زيد على العطاء ٤ امالى القالى ج ١ ص ٨٠—٨٢

قال الزوج : ماوفيتك حقك ، ولا شكرتك الا بفضلك ، ولا أثنيت الا بطيب حسبك ، وكريم نسبك . والله أسأل أن يمتعنى بما وهب لى منك[1] .

١٠ — الكَلِم القِصَار

قيل لهند ابنة الخُسّ : ما مائة من المعز ؟ قالت : مُوَيلٌ يشِفّ الفقر من ورائه : مال الضعيف ، وحرفة العاجز . قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت : قرية لاحِمّى لها . قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت : بَخٍ بَخٍ ! جَمال ومال . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد . قيل : فما مائة من الحُمُر ؟ قالت عازبة الليل ، وخزى المجلس . لا لبن فيحلب ، ولا صوف فيجزّ .

وقيل لها : من أعظم الناس في عينيك ؟ قالت : من كانت لى اليه حاجة .

وقيل لها : الصيف خير أم الشتاء ؟ فقالت : من جعل بؤسا كأذى[2] .

١ امالي القالى ج ١ ص ٢٢٥ وبلاغات النساء ص ٨٧ ٢ أمالى المرتضي ج ١ ص ١٥١ والبيان والتبيين نسخة خطية ص ٩٠

أمثال[1]

أرسلها النساء فتمثل بها الرجال

﴿ أَغَيْرَةً وَجُبْنًا ﴾

قالته امرأة من العرب تعير به زوجها . وكان تخلف عن لقاء العدوّ واعتكف فى منزله . ثم بَصُرَ بها تنظر الى قتال الناس فضربها . فقالت : أَغَيْرَةً وَجُبْنًا ؟!

﴿ بَيْتِي يَبْخَلُ لَا أَنَا ﴾

قالته امرأة سُئلت ما ليس فى بيتها . فلما عَزَّ عليها عطاؤه قيل لها : أتبخلين؟ فقالت : بيتى يبخل لا أنا .

﴿ تَرَى ٱلْفِتْيَانَ كَٱلنَّخْلِ وَمَا يُدْرِيكَ مَا ٱلدَّخْلُ ﴾

يضرب لذى المَنْظَرِ لا خير فيه .

قال المُفَضَّل : أول من قال ذلك عَثْمَة بنت مطرود البُجَلية . وكانت ذات عقل ورأى مسموع فى قومها . وكانت لها أخت يقال لها خَوْد وُسمت بالجمال ، وكرم الخلال . وأن سبعة اخوة من الأَزد خطبوا خَوْداً الى أبيها . فأَتوه وعليهم

١ كل ما أثبت به من الأمثال مرجعه الى كتب الأمثال للميدانى والضبى وأبي هلال

الحُلَل اليمانية ، وتحتهم النجائب الفُرْه[1] . فقالوا : نحن بنو مالك بن عُقَيلة ذى النِّحْيين . فقال لهم : انزلوا على الماء . فنزلوا ليلتهم . ثم أصبحوا غادين في الحُلَل ، ومعهم ربيبة لهم كاهنة يقال لها الشَّعْثاء . فمروا بوصيدها[2] ، وكلهم وسيم جميل . وخرج أبوها فجلسوا اليه ، فرحب بهم . فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شباب . وكلنا يمنع الجانب ، ويمنح الراغب . فقال أبوها : كلكم خِيَار . فأقيموا نرى رأينا . ثم دخل على ابنته فقال : ما ترين ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم ، فقالت : زوجني على قدرى ، ولا تَشْطُط فى مهرى . فان تخطئنى أحلامهم . لا تخطئنى أجسامهم . لعلى أصيب ولدا ، وأُكثِرُ عددا . فخرج أبوها فقال : اخبروني عن أفضلكم . قالت ربيبتهم الشعثاء : اسمع أخبرك عنهم : هم اخوة ، وكلهم أُسوة . أما الكبير فمالك ، جرىء فاتك ، يُتْعِب السنابك[3] ، ويستصغر المهالك . وأما الذى يليه فالغَمْر ، بحر غَمْر[4] ، يقصر دونه الفخر ، نَهْدٌ[5] صَقْر . وأما الذى يليه فعلقمة ، صُلْبُ المَعْجَمة ، منيع المشتمة ، قليل الجَمْجَمة[6] . وأما الذى يليه فعاصم ، سيد ناعم ، جَلْدٌ صارم ، أبيٌّ حازم ، جيشه غانم ، وجاره سالم . وأما الذى يليه فثُؤَاب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب ، كريم النصاب ، كليث الغاب . وأما الذي يليه فمُدْرِك ، بَذُول لما يملك ، عزوب مما يترك ، يفنى ويهلك .

١ نجيب فاره وجواد فاره اذا كان كريماً لاعيب فيه ٢ الوصيد الفناء ومرجع الضمير في وصيدها الى (خود) ٣ السنابك — جمع سنبك كقنفذ — أطراف حوافر الخيل تصفه بالشجاعة ومعاناة الحروب ٤ الغمر الماء الكثير ومعظم البحر ٥ النهد الاسد

٦ صلب المعجمة عزيز النفس . ومنيع المشتمة لايجرأ أحد أن يشتمه لأنه لا عيب فيه والجمجمة ألا يبين كلام الرجل

وأما الذي يليه جَخْدَل ، لقِرنه مُجَدِّل ، مقل لما يحمل ، يعطى ويبذل ، وعن عدوه لا يَنكِل . فشاورت أختها فيهم . فقالت أختها عَمْه : ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل . اسمعى منى كلمة : ان شر الغريبة يعلَن ، وخيرها يدفن ، تزوجى فى قومك ، ولا تغررك الأجسام . فلم تقبل منها . وبعثت الى أبيها : زوجنى مدركا . فتم ذلك على مائة ناقة ورعاتها . وحملها مدرك . فلم تلبث عنده الا قليلاً حتى صَبَّحَهم فوارس من بنى مالك بن كنانة . فاقتتلوا ساعة . ثم انكشف عنها زوجها واخوته وعشيرته . فسبيت فيمن سبين من النساء . فبينا هى تسير بكت . فقالوا : ما يبكيك ؟ أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قبح الله جمالاً لا نفع معه . انما أبكي على عصيانى أختى فى قولها : ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل ! وأخبرتهم كيف خطبوها . فقال لها رجل منهم يكنى أبا نُوَاس — شاب أسود أفوه مضطرب الخَلْق — : أترضين بي على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم ، انه مع ما ترين لممنع الحليلة ، وتتقيه القبيلة . قالت : هذا أجل جمال ، وأكمل كمال . قد رضيت به . فزوجوها منه .

﴿ لَا تَأْمَنِي ٱلْأَحْمَقَ وَفِي يَدِهِ سِكِّينٌ ﴾

قالته امرأة من بنى كنانة .

﴿ رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَٱنْسَلَّتْ ﴾

يضرب لمن يرمي الناس بعيبه ،

قالته امرأة لضرتها . وكانت الضرة تشتم النساء بعيب هو فيها . فلما بادأتها به قالت لِمَن حولها من النساء : رمتنى بدائها وانسلّت .

﴿ صَارَتِ ٱلْفِتْيَانُ حُمَمًا [1] ﴾

من قول الحمراء بنت ضَمْرَة بن جابر .

وذلك ان بنى تميم قتلوا سعد بن هند ، أخا عمرو بن هند الملك . فنذر عمرو ليَقْتُلن بأخيه مائة من بني تميم . فجمع أهل مملكته ، فسار اليهم . فبلغهم الخبر . فتفرقوا فى نواحى بلادهم . فأتى دارهم فلم يجد الا عجوزاً كبيرة — وهي الحمراء بنت ضمرة . فلما نظر اليها والى حُمْرَتها قال لها : انى لأحسبك أعجمية ! فقالت: لا والذى أسأله أن يَخفض جناحك ، ويَهُدَّ عمادك ، ويضع وسادك ، ويسلبك بلادك ، ما أنا بأعجمية . قال : فمن أنت ؟ قالت : أنا بنت ضمرة بن جابر ، ساد مَعَدًّا كابراً عن كابر ، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة . قال : فمن زوجك ؟ قالت : هَوْذَة بن جَرْوَل . قال : وأين هو الآن ؟ أما تعرفين مكانه ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعلم مكانه حال بيني وبينك ! قال : وأي رجل هو ؟ قالت : هذه أحمق من الأولى ، أعن هوذة يُسْأَل ؟ هو والله طيب العِرق ، سمين العَرَق [2] ، لا ينام ليلة يُخاف ، ولا يشبع ليلة يُضَاف ، يأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقد . فقال عمرو : أما والله لولا انى أخاف أن تلدي مثل أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك . فقالت : وأنت والله لا تقتل الا نساء أعاليها ثُدِيّ ،

١ الحم الفحم ٢ العرق — بفتح العين — العظم الملبس باللحم

وأسافلها دُمِيّ[1] . والله ما أدركتَ ثارا ، ولا محوت عارا ، وما مَنْ فَعلتَ به هذه بغافل عنك . ومع اليوم غد . فأمر باحراقها . فلما نظرت الى النار قالت : أَلَا فتى مكانَ عجوز ؟ ! فذهبت مثلاً . ثم مكثت ساعة فلم يَفْدِها أحد . فقالت : هيهات ! صارت الفتيان حُمَمًا . فذهبت مثلاً . ثم ألقيت فى النار . ولبث عمرو عامة يومه لا يقدر على أحد . حتى اذا كان في آخر النهار أقبل راكب يسمى عماراً ، تُوضِعُ به راحلته . حتى أناخ اليه . فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا رجل من البَرَاجم . قال : فما جاء بك الينا ؟ قال : سَطْع الدخان ، وكنت طويتُ منذ أيام فظننته طعاماً . فقال عمرو : ان الشقيَّ وافِدُ البراجم . فذهبت مثلاً . وأمر به فأُلقيَ فى النار . فقال بعضهم : ما بلغنا انه أصاب من بنى تميم غيره . وانما أحرق النساء والصبيان .

﴿ لَا تَعْدَمُ ٱلْحَسْنَاءُ ذَامًّا [2] ﴾

قالته حُبَّى بنت مالك العَدْوَانية

﴿ لَا عِتَابَ عَلَى ٱلْجَنْدَلِ ﴾

يضرب فى الأمر اذا وقع لا مرد له

وأصله ما حدثوا ان احدى ملكات سبأ ، وفد اليها قوم يخطبونها . فقالت : لِيَصِف كل رجل منكم نفسه وليَصْدق وليوجز . لأَتقدّم ان تقدمت ، أَو أَدَع ان تركت على علم . فتكلم رجل منهم يقال له مدرك فقال : ان أَبى كان في العز

١ الدمى جمع دم ٢ الذام العيب

الباذخ ، والحسب الشامخ . وأنا شَرِس الخليقة ، غير رِعْدِيد عند الحقيقة[1] . قالت : لاعتاب على الجندل . فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم يقال له ضَبِيسُ ابن شَرِس . فقال : أنا في مال أثِيث ، وخُلُقٍ غير خبيث ، وحسب غير عَثِيث ، أحذو الفعل بالفعل ، وأجزى القرض بالفرض[2] . فقالت : لا يَسُرُّك غائباً ، مَنْ لا يَسُرُّك شاهداً . فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم يقال له شَمَّاس بن عباس . فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندى والباس . حَسَن الخُلُق في سجية ، والعدل في قضية . مالى غير محظور على القُلّ والكُثر ، وبالى[3] غير محجوب على العسر واليسر . قالت : الخَيْرُ مُتَّبَعٌ ، والشَّرُّ مَحْذُور . فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يامدرك ، وأنت ياضبيس : لن يستقيم معكما معاشرة لعشير حتى يكون فيكما لين العريكة . وأما أنت ياشماس فقد حلت منى محل الأَهْزَع[4] من الكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدماثة خلقك ، وكرم طباعك . ثم اسْعَ بِخَيْرٍ أَوْ دَع . فأرسلتها مثلاً وتزوجت شَمَّاساً .

﴿ تَرَكَ ٱلْخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ ٱلْقِنَاعَ ﴾

قالته امرأة من كندة يقال لها عصام .

وأصله ما رووا أن الحارث بن عمرو ملك كندة ، لما بلغه جمال خُمَاعة ابنة عوف بن مُحَلِّم الشيبانى وكمالها ، وقوة عقلها ، دعا عصام — وكانت امرأة ذات

١ الرعديد الجبان المستطار القلب والحقيقة ما يحق على المرء أن يحميه وقد يريدون بها الالواء ٢ القرض القطع والقرض الجزء يريد أنه لايصبر على ضيم بل يجزى الشر بأشد منه ٣ البال رخاء العيش ٤ الأهزع خير السهام وأفضلها تدخره لشديدة

عقل ولسان ، وأدب وبيان — وقال لها : اذهبي حتى تعلمى لى علم ابنة عوف . فذهبت . وأبصرت من جمال الفتاة ، وروعة أدبها ، وكمال شمائلها ، ما ملك عليها بصرها وسمعها وقلبها . فخرجت وهى تقول : ترَك الخداع من كشف القناع ثم انطلقت الى الحارث ، فلما رآها مقبلة قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صَرَّح المَحْضُ عن الزَّبَدُ[1] . فسار كلتا الجملتين مثلاً . ثم حدثته حديثها ، ووصفتها له أبدع وصف وأبينه وأتقنه ، فأرسل الملك الى أبيها يخطبها فزوجها اياه . وقد أسلفنا حديث خِطبتها ، ووصية أمها لها .

﴿ كُلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيهَا مُعْجَبَةٌ ﴾

يضرب في عجب الرجل برهطه وعشيرته .

وأول من قال ذلك العَجْفَاء بنت علقمة السعدى . وذلك انها وثلاث نسوة من قومها خرجن فاتّعدن بروضة يتحدثن فيها . فوافين بها ليلاً فى قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة مُعْشِبة خصبة . فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة ، ولا كهذه الروضة روضة ، أطيبَ ريحا ، ولا أنضر . ثم أفضن فى الحديث فقلن : أى النساء أفضل ؟ قالت احداهن : الخَرُود[2] ، الودود ، الولود . قالت الأخرى : خيرهن ذات الغَنَاء ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفوع غير المنوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة ، الرافعة لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت احداهن

١ المحض اللبن الخالص والزبد رغوة اللبن يضرب المثل للصدق بعد الخبر ٢ الخرود الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة المستترة

خيرهم الحَظِيُّ الرضىُّ ، غير الخَطّال ولا التَّبّال[1] . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخىّ ، الوفىّ ، الرضىّ . الذى لا يُغير الحرة ، ولا يتخذ الضرة . قالت الرابعة : وأبيكن ، ان في أبى لنعتكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفَلْج[2] عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كلُّ فَتاة بأبيها مُعْجَبة .

وفى بعض الروايات أن احداهن قالت : ان أبي يكرم الجار ، ويعظم النار ، وينحر العشار ، بعد الحوار ، ويحمل الأمور الكبار . فقالت الثانية : ان أبي عظيم الخَطَر ، منيع الوَزَر ، عظيم النَّفَر ، يحمد منه الوِرْد والصَّدَر[3] . فقالت الثالثة : ان أبى صدوق اللسان ، كثير الأعوان ، يروى السنان ، عند الطعان . قالت الرابعة : ان أبى كريم النزال ، مُنيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال . ثم تنافرن الى كاهنة معهن فى الحى فقلن لها : اسمعى ما قلنا ، واحكمى بيننا واعدلى . ثم أعدن عليها قولهن . فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة[4] ، على الاحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة . ولكن اسمعن قولى : خير النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع الى أهلها مطلقة . فهى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها . فتلك الكريمة الكاملة . وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، اذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل ، كثير النَّفَل[5] . ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجبة .

١ الخطال المقتر الذى يحاسب أهله بما ينفق عليهم والتبال الشديد العداوة الكثير الترات
٢ الفلج الفوز والسبق ٣ الورد الاشراف على الماء والصدر العودة من الاستقاء
٤ الماردة العاتية ٥ النفل العطية

﴿ لَوْ تُرِكَ ٱلقَطَا لَيْلاً لَنَام ﴾

يضرب لمن حُمِلَ على مكروه من غير ارادته .

وأول من قاله حَذَام بنت الريان . وذلك ان عاطس بن خِلَاج سار الى أبيها فى حِمْير وخَثْعَم وجُعْفِيّ وهَمْدَان . ولقيهم الرَّيان فى أربعة عشر حيا من أحياء اليمن ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم تحاجزوا . وان الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هُرَّاباً ، فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح عاطس فغدا لقتالهم فاذا الأرض منهم بلاقع ، فجرد خيله ، وحثّ فى الطلب ، فانتهوا الى عسكر الريان ليلاً ، فلما كانوا قريباً منه ، أثاروا القطا ، فمرت بأصحاب الريان ، فخرجت حذام بنت الريان الى قومها فقالت :

ألا ياقومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لناما

أى ان القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا الى قولها ، وأخلدوا الى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام دَيْسَم بن طارق وقال بصوت عال :

اذا قالت حَذَام فصدقوها فان القول ما قالت حَذَام

وثار القوم ، فلجئوا الى وادقريب منهم ، فانحازوا به حتى أصبحوا ، وامتنعوا منهم

﴿ مَرْعًى وَلَا كَالسَّعْدَان ﴾

يضرب للشىء يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد . وذلك انها أقبلت من الموسم — فى عكاظ — فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة . فمرَّت عليها وهى تنشدهم مراثى فى أهل بيتها . فلما دنت منها قالت : على مَنْ تبكين ؟ قالت : أبكي سادة مضوا . قالت : أنشدينى بعض ماقلت . فأنشدت هند أبياتاً أسلفناها . فقالت الخنساء مرعًى ولا كالسَّعْدان .

﴿ مَاءٌ وَلَا كَصَدَّاء ﴾

يضرب للرجلين لهما فضل ولكن أحدهما أفضل .

والمثل لقَذُورَ بنت قيس بن خالد ذى الجدين الشيبانى . وكان من حديثها ان زُرَارة بن عَدَس رأى ابنه لقيطاً يختال ، فقال له : كأنك أصبت ابنة قيس بن خالد ومائة من هجان المنذر بن ماء السماء ! فخلف لقيط لا يَمَسّ الطيب ، ولا يشرب الخمر ، حتى يصيب ذلك . فسار حتى أتى قيس بن خالد — وهو سيد ربيعة — وكانت عليه يمين لا يخطب انسان اليه علانية الا أصابه بسوء . فخطب اليه لقيط فى مجلسه ، وقال : عرفت اني ان أُعالنك لم أشِنك ، وان أُناجك لم أخدعك . فزوجه بنته القذور ، وساق المهر عنه وهداها اليه من ليلته ، فاحتمل بها الى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل الى أهله . فقالت : ألقَى أبى وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كونى له أَمة يكن لك عبداً ، وليكن أطيب طيبك الماء . انه فارس مُضَر ، ويوشك أن يقتل . فان كان ذلك فلا تحمشى لك وجهاً ، ولا تحلق شعراً . فقتل لقيط ، فاحتملت الى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم ، فجعلت تكثر ذكر لقيط ، فقال لها : وأىُّ شىء رأيت منه كان أحسن فى عينك ؟ قالت كل أموره حَسَن . ولكنى أحدثك

انه خرج الى الصيد فى يوم دُجْنٍ[1] وقد تطيب وشرب ، فرجع الىَّ ولقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أطرافه ... فسكت عنها . حتى اذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرع من الصيد ، وأتى وبه نضح من الدم والطيب . فقال لها : كيف ترَينى ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : ماء ولا كصَدَاء

١ الدجن المطر الكثير

عيون من الشعر

﴿ فى الحَنين الى الوطَن ﴾

١ — قالت أم موسى بنت سِدْرَة الكِلَابية — وكانت تزوجت فنُقِلت الى حُجْر[1] — :

قد كنت أكره حُجْرًا أن أموت بها ... وأن أعيش بأرض ذات حيطان
يا حبذا الغُرَق[2] الأعلى وساكنه ... وما تضمن من ماء وعيدان
أبيت أرقب نجم الليل قاعدة ... حتى الصباح وعند الباب عجلان[3]
لولا مخافة ربى أن يعاجلنى ... لقد دعوت على الشيخ ابن حيَّان[4]

٢ — جلست امرأة ضبية تسمى زينب أم حسانة ، على بركة فى روضة بين الرياحين والأزهار ، فى ألطف وقت وأبهجه — وكانت قد احتملت من البادية الى الحضر — فقيل لها : كيف حالك هنا ؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية ؟ فأطرقت ساعة ، ثم تنفست وقالت[5] :

١ بلاغات النساء ص ١٩٦ وحجر قرية نابهة من قرى اليمن ٢ الغرق موطن باليمن من مواطن همدان ٣ تصف ديار حجر وما يرتبط بأبوابها من الماشية أما في البادية فليس الا النجائب من خيل وابل ٤ ابن حيان أبوها ٥ محاضرات الادباء ج ٢ ص ٢٧٧

أقول لِأدنى صاحبيَّ أُسِرُّه ... وللعين دمع يُحْدِرُ الكحلَ ساكبُه
لعمرى لنهر باللِّوَى نازح القذى ... بعيد النواحى غير طَرْقٍ مشاربه[1]
أَحَبُّ الينا من صهاريج مُلِئَتْ ... لِلعب ولم تَمْلُحْ لدىَّ مَلاعبه
فيا حبذا نجد وطيب ترابه ... اذا هضبته بالعشىّ هواضبه[2]
وريح صبا نجدٍ اذا ما تنسَّمت ... ضحى أوسرت جُنْحَ الظلام جَنائبُه[3]
وأقسم لا أنساه ما دمت حية ... وما دام ليل من نهار يعاقبه
ولا زال هذا القَطْرُ يُسْفِر لوعة ... بذكراه حتى يترك الماءَ شاربه

٣ — وقالت وجيهة بنت أوس الضبية[4]:

وعاذلةٍ تغدُو علىَّ تلومنى ... على الشوق لم تَمْحُ الصبابة من قلبى[5]
فما لى ان أحببت أرض عشيرتي ... وأبغضت طَرْفاء القُصَيبة من ذنب[6]
فلو أن ريحاً بَلِّغَت وَحْىَ مرسل ... حَفِيٍّ لناجيتُ الجَنُوبَ على النَّقْب[7]
فقلت لها أَدى اليهم رسالتى ... ولا تخلطيها طال سَعدُك بالتُّرْب[8]
فانى اذا هَبَّت شَمالاً سألتها ... هل ازداد صُدَّاح النُّمَيرَة من قُرْب[9]

---

١ اللوى ما التوى من الرمال والنازح القذي الصافي الذى لا يشوبه كدر والطرق الماء الذى خاضته الابل وبالت فيه ٢ هضبت السماء فاضت والهاضبة السحابة
٣ الجنائب ريح تهب من مطلع سهيل — في الجنوب — الى مطلع الثريا
٤ شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ١٨٧ ٥ الصبابة رقة الشوق
٦ الطرفاء صنوف من الشجر منها الأثل . والقصيبة الموطن الذى نزلت به
٧ الحفى المكثر من السؤال . والنقب الطريق بين الجبلين ٨ طال سعدك جملة معترضة للدعاء للريح ولا تخلطيها بالترب أى لا تذليها أو لا تجرى عليها ذيولك فتنسيها
٩ يظهر من مساق القول ان ريح الجنوب كانت تجتاز مقرها الذى هبطت اليه الى

البطء

﴿ بكاء الابناء ﴾

٤ — قالت أم تأبط شرا ترثى ولدها[1]:

طاف يَبغى نَجْوَةً ... مِنْ هلاك فهلك
ليت شِعرى ضِلَّةً ... أىَّ شىء قتلك
أمريض لم تُعَد ... أم عَدُوٌّ خَتَلَك
أم تولَّى بك ما ... غال فى الدهر السُّلَك[2]
والمنايا رَصَد ... للفتى حيث سَلَك
أىُّ شىء حَسَنٍ ... لفتى لم يَكُ لك
كلُّ شىء قاتلٌ ... حين تَلْقَى أجلك
طال ما قد نِلتَ فى ... غيرِ كَدٍّ أَمَلَك
ان أمراً فادحاً ... عن جوابى شَغَلَك

ديار عشيرتها . لذلك حملتها رسالتها وكانت الشمال تستقبلها من منازل قومها . ولذلك سألتها عما استعجم عليها من أخبارهم . والصداح من الصدح وهو اختلاط الصوت بعضه ببعض ولعل النميرة ماء من مياه وطنها وتريد بالصداح ما يحدث حين يصدر القوم عن مشاربهم من اختلاط أصوات الرعاة بماشيتها ١ شرح الحماسة الخطيب التبريزى ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٢

٢ السلك فرخ القطا أو الحجل وللثانى منهما حرص شديد وحذق باخفاء نفسه اذا أبصر الخطر . على ان الموت يغلبه . لذلك تقول لولدها ان الموت الذى اغتال السلك في جوه نفذ اليك في مأمنك

سأُعَزِّى النفس اذ لم تُجِبْ مَن سألك
ليت قلبى ساعةً صَبْرَهُ عنك مَلَك
ليت نفسى قُدِّمَت للمنـــايا بَدَلَك

٥ — وقالت امرأة ترثى طفلها . وكانت قد سافرت به . فلما كانت ببعض الطريق فاضت نفسه[1] :

يا عَمرو ما لى عنك من صبرِ يا عمرو يا أسَفى على عمرو
للهِ يا عمرٌو وأىَّ فتى كَفَّنْتُ يوم وضعت فى القبر
أحثو التراب على مَفَارقه وعلى غَضَارة وجهه النَّضْرِ
حين استوى وعلا الشباب به وبدا منير الوجه كالبدر
ورجا أقاربه منافعـــه ورأوا شمائل سيد غَمْرِ[2]
وأَهَمَّهُ هَمّى فساوَرَه وغدا مع الغادين فى السَّفْرِ[3]
تغدو به شَقْرَاءُ سامِيَةٌ مَرَطَى الجزاء شديدة الأسرِ[4]
ثَبْتُ الجنان به ويُقْدِمُها فَلْجٌ يُقَلِّبُ مقلتىْ صَقْرِ[5]

١ زهر الآداب ج ٢ ص ٨ — ١٠ من هامش العقد الفريد ٢ الغمر الكريم الأصل الكريم الخلق ٣ أهمه الأمر شغله وحزنه وساوره أخذ برأسه والسفر الركب المسافر ٤ تريد بالشقراء فرسه والشقرة في الخيل حمرة في لونه مضاف اليها المغرة — بضم الميم — وهى خضاب أحمر في عرفه وذنبه والمرطى السريعة ٥ ثبت الجنان صفة للفرس أى انه أهلها ثبات القلب فلا تضطرب في سير ولا ترتاع من مخوفة ويقدمها أى يسبق بها والفلج الظفر والسبق وهو هنا على حذف مضاف أى ذو فلج تريد ولدها وانما شبهت عينيه بعينى الصقر لما يلوح عليهما من مخايل القوة والسيادة . أقول وكل هذه الآيات الخمسة مضافة الى حين أما متعلق الظرف فمحذوف والتقدير أتموت حين تم لك كل ذلك

ربيته دهراً أُفَنِّقُه في اليُسر أغذوه وفي العُسر[1]
حتى اذا التأميل أمكننى فيه قُبَيل تلاحق الثَّغْرِ[2]
وجعلت من شغفى أُنَقِّلُهُ في الأرض بين تنائف غُبْرِ[3]
أَدَعُ المزارع والحصون به وأُحِلُّهُ في المَهْمَهِ القَفْرِ[4]
ما زلتُ أُصْعِدُهُ وأُحْدِرُه من قُتْرِ مَوْماة الى قُتْرِ[5]
هرباً به والموت يطلبه حيث انثَوَيْتُ به ولا أدرى[6]
حتى دُفِعتُ به لمصرعه سَوْق المعيز تساق للعَتْرِ[7]
ما كان الا أن هَجَعْتُ له ورمى فأغفَى مطلَعَ الفجرِ[8]
ورمى الكرى رأسى ومال به رمس يُساور منه كالسكر[9]
اذ راعنى صوت هبت به وذُعِرْتُ منه أيَّما ذُعْرِ
واذا منيَّتُه تُساوره قد كَدَّحت في الوجه والنحر
واذا له عُلَقٌ وحشرجة مما يَجِيش به من الصدر
والموت يقبِضُهُ ويبسُطه كالثوب عند الطى والنشر
فدعا لأنصره وكنت له من قبل ذلك حاضر النصر

١ أفنقه أنعمه ٢ تلاحق الثغر اكتمال الاسنان ٣ التنائف جمع تنوفة — بفتح التاء — وهى الارض الواسعة البعيدة الأطراف أو الفلاة لا ماء فيها ٤ المهمه كالتنوفة والقفر الارض التى لا نبات فيها ٥ القتر الناحية أو الجانب والموماة الفلاة الواسعة ٦ انثويت أقمت ٧ العتر الذبح ٨ الهجوع النوم الخفيف ومثله الاغفاء ورمى بمعنى ترامى أى تخاذلت أعضاؤه ومطلع الفجر ظرف للأفعال قبله تقول لم يكن الا ان أغفيت وأدركه الاعياء لدى مطلع الفجر فنام حتى حدث ما وصفته في الابيات التالية
٩ الرمس الصوت الخفى الذى لا يكاد يبين

فعجزت عنه وهي زاهقة ... بين الوريد ومدفع السَّحْرِ
فمضى ! وأىُّ فتى فُجِعْتُ به ... جَلّتْ مصيبته عن القدر
لو قيل تفديه بذلت له ... مالى وما جَمَّعت من وَفْرِ
أوكنت مقتدراً على عُمرى ... آثرته بالشَّطْرِ من عُمرى
قد كنت ذا فقر له فغدا ... ورَمى علىَّ وقد رأى فقرى
لو شاء ربى كان متعنى ... بابني وشد بأزره أزرى
بُنِيَت عليك بُنَىَّ أحوجَ ما ... كنَّا اليك صفائحُ الصخر
لا يُبْعِدَنك الله يا عَمرى ... إمَّا مضيت فنحن بالإثْرِ
هذى سبيل الناس كلهم ... لا بد سالكها على سفَرِ
أوَ لا تراهم في ديارهم ... يتواقعون وهم على ذعر
والموت يوردهم مواردهم ... قسراً فقد ذَلُّوا على القَسْرِ

٦ — وقالت أم بسطام بن قيس الشيبانى ترثى ولدها بسطاما[1] :

لِبَيْكِ ابنَ ذى الجدين بكْرُ بن وائل ... فقد بان فيها زينها وجمالها
اذا ما غدا فيها غدَوا وكأنهم ... نجوم سماء بينهن هلالها
فللهِ عينا من رأى مثله فتى ... اذا الخيل يوم الرَّوع هَبَّ نزالها
عزيز مِكَرٌّ لا يُهَدُّ جناحه ... وليث اذا الفتيان زَلَّت نِعالها[2]

١ ذيل ديوان الخنساء ص ١٢٠ — وكان بسطام من خير سادات العرب بيتاً وأعزهم قبيلاً وكان مضرب الأمثال في قوة الباس وصدق اللقاء وقد ذكره ابن عبد ربه في الصف الأول من أبطال العرب وقرن به ربيعة بن مكدم وعنترة الفوارس وزيد الخيل وأمثالهم وكان مقتله يوم الشقيقة ٢ المكر الذى يكر على خصمه بعد ان انثنى حيلة عنه

وحمال أثقال وعائذ محجرٍ ... تحل لديه كل ذاك رجالُها[1]
سيبكيك عانٍ لم يجد من يفكه ... وتبكيك فرسان الوغى ورجالها
وتبكيك اسرى طالما قد فككتهم ... وارملة ضاعت وضاع عيالها
مُفَرِّجُ حومات الخطوب ومدرك الـ ... ـحروب اذا صالت وعز صيالُها
تغشى بها حينا كذاك ففجعت ... تميم بها أرماحها ونبالها
فقد ظفرت منا تميم بعثرة ... وتلك لعمري عثرة لا تُقالُها[2]

٧ — وقالت أم قيس الضبّية ترثي ولدها[3]

من للخصوم اذا طال الضجاجُ بهم ... بعد ابن سعد ومن للضُّمَّرِ القُودِ[4]
ومَشْهَدٍ قد كَفَيتَ الغائبين به ... في مجمع من نواصى القوم مشهود[5]
فرجته بلسان غير ملتبسٍ ... عند الحفاظِ وقلب غير مزؤود[6]
اذا قناة امرئ ازرى بها خورٌ ... هزَّ ابن سعد قناةً صُلْبة العود

٨ — وحدثوا ان رسول الله ارسل خالد بن الوليد ليحطم وُدًّا فقام بنو عبدوُد يدرأون عنه ، فضرب خالد فتى من فتيانهم فقتله . حتى اذا علمت أمه حديثه أقبلت اليه والقوم على أهبة ان يدفنوه فقالت :

يا قرحة القلب والاحشاء والكبد ... ياليت امك لم تولد ولم تلد
لما رأيتك قد أدرجت فى كفن ... مطيباً للمنايا آخر الأبد

١ المحجر الحرام تريد انه يعوذ كل من يتحرم بساحته ٢ تقالها من الاقالة أى ليست من العثرات التى ينهض منها ٣ شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٥١ ٤ جد الضجاج أى صار ضجاجهم جداً والضمر جمع ضامر والقود الطوال الأعناق ٥ نواصي القوم أشرافهم ٦ الملتبس المعقود المزؤود المذعور

أيقنت بعدك اني غير باقيـة وكيف يبقى ذراع زال عن عضد[1]

ثم أكبت عليه فزفرت زفرة كان فيها موتها فدفنا معا

بطء الآباء

٩ — قالت دختنوس ابنة لقيط بن زرارة ترثي أباها[2] :

عثر الأغرُّ بخير خنـــدف كهلها وشبابها[3]
وأضرّها بعدوها وأفكّها لرقابها
وقريعها ونجيبها فى المُطبِقات ونابها[4]
ورئيسها عند الملو ك وزين يوم خطابها
وأتمها نسباً اذا رجعت الى أنسابها
يرعى عموداً للعشيـــرة رافعاً لنِصَابها[5]
ويعولها ويحوطها ويَذِبُّ عن أحسابها
ويطأ مواطن للعدوِّ وكان لا يُمشَى بها

١ العقد الفريد ج ٢ ص ١٨ ٢ الأغانى ج ١٠ ص ٣٩ والكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢٤٤ وكان لقيط في الذروة والسنام من سعة الجاه وعز العشيرة . وكان مقتله يوم شعب جبلة بين عبس وذبيان وهو من أعظم أيام العرب وأنبهها وليس هناك ما يشبهه في كثرة ما حشد فيه من القبائل الا يوم ذى قار ويوم كلاب ٣ الأغرّ من الخيل ما علا البياض جبهته
٤ القريع كالمقروع السيد والمطبقات النوائب الشداد والناب سيد القوم
٥ يرعى عمود العشيرة أى يحمى حماها . والنِّصاب الأصل

فِعلَ المُدِلِّ من الأسو د لحَينِها وتبَابِها[1]
كالكوكب الدرّي في سيماء لا يخفى بها[2]
عبث الأغر به وكلُّ منية لكتابها
فرت بنو أسد فرا ر الطير عن أربابها
لم يحفظوا حسباً ولم يأووا لغى عقابها
عن خيرها نسباً اذا نصت الى أنسابها
وهوازن أصحابهم كالفأر فى أذنابها

١٠ — وقالت هند بنت عتبة تبكي أباها عتبة بن ربيعة[3] :

يريب علينا دهرنا فيسوءنا ويأبى فما نأتى بشىء نغالبه
أبعد قتيل من لؤى بن غالب يراع امرؤ ان مات أومات صاحبه
ألا رب يوم قد رُزِئت مُرَزَّأً تروح وتغدو بالجزيل مواهبه[4]
فأبلغ أبا سفيان عنى مألُكا فان ألقه يوماً فسوف أعاتبه[5]
فقد كان حرب يسعر الحرب انه لكل امرئ فى الناس مولى يطالبه

١١ — وقالت أيضاً تبكى آلها[6] :

١ المدل من السباع والطير الذى يفترس صيده من حيث لا يعلم والضمير في حينها عائد على مواطن العدو ٢ السيماء العلامة ٣ سيرة بن هشام ج ١ ص ٥٣٦ — ٥٣٧ وكان عتبة من آحاد قريش شرفا ونبلاً ومنصبا وهو الذى استنفر قريشاً الى بدر لاستنقاذ أبى سفيان وكان هناك مقتله ٤ المرزأ الكريم ٥ المألك الرسالة وأبو سفيان زوجها وكان قد أرسل الى قريش يستعديهم على رسول الله وكان ذلك سبيل مأساتهم في بدر
٦ سيرة بن هشام ج ١ ص ٥٣٧

لله عيناً من رأى هُلْكا كهلك رجاليه
يا رُبّ باك لى غداً فى النائبات وباكيه
كم غادروا يوم القليـــب غداة تلك الداعيه[1]
من كل غيث في السنيـــن اذا الكواكب خاويه
قد كنت أحذر ما أرى فاليوم حق حذاريه
يا رُبّ قائلة غداً يا ويح أم معاويه

١٢ — وقالت قُتَيْلة بنت النضر بن الحارث تبكى أباها . وكان قد أسر فيمن أسر من مشركى بدر . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه صبرا بين يديه ، لِلِجاجه فى عدائه ، وامعانه في هجائه[2] :

يا راكباً ان الأُثَيْلَ مَظِنّةٌ من صبح خامسة وأنت موفق[3]
أبلغ به مَيْتاً فان تحية ما ان تزال بها الركائب تَخْفِقُ
منى اليك وعَبرةً مسفوحة جادت بوابلها وأخرى تخنُقُ
هل يسمعَنّ النضر ان ناديته بل كيف يسمع ميّتٌ أو ينطق
ظلّت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تمزّق[4]
قسراً يقاد الى المنيـة متعباً رَسْفَ المُقيَّد وهو عانٍ مُوثَقُ

١ القليب البئر وتريد بيوم القليب يوم بدر ٢ حماسة البحترى ص ٢٧٦
٣ الأثيل واد قرب المدينة به قتل النضر والمظنة الموضع تقول أيها الراكب بينك وبين الأثيل خمس ليال اذا لم تجد عن الطريق ٤ تريد ببنى أبيه آل رسول الله والنضر يلتقى برسول الله في قصي وتنوشه أى تطلبه والمشار اليه في هناك بدر ففيه مزقت ارحام قريش

أمحمد ولأنت صِنْو نجيبة من قومها والفحل فحل مُعْرِق[1]
ما كان ضَرَّك لو مننت وربما من الفتى وهو المَغِيظ المُحْنَقُ
فالنضر أقرب من أصبت وسيلة وأحقهم ان كان عتق يُعتَقُ
لو كنت قابل فدية لفديته بأعزّ ما يُفْدَى به من يَنفُق

قال ابن هشام : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر : لو بلغنى قبل قتله ما قتلته .

١٣ — وقالت أروى بنت الحَبَاب[2] :

قُلْ للأرامل واليتامى قد ثوى فلتَبْكِ أعينُها لفقد حَبَاب
أودَى ابنُ كل مخاطر بتِلَاده وبنفسه بُقْيا على الأحساب
الراكبين من الأمور صدورها لا يركبون مَعاقد الأذناب

١٤ — وقالت امرأة[2] :

ألا فاقصرى عن دمع عينك لن تَرَىْ أبا مثله تَنمى اليه المفاخر
وقد علم الأقوام أن بناته صوادق اذ يندبنه وقواصر

١٥ — وقالت ابنة مالك بن بدر[3] :

لله عيناً من رأى مثل مالك عَقِيرةَ قوم أن جرَى فِرسان

١ حماسة البحترى ص ٢٧٥ ٢ حماسة أبى تمام ج ٢ ص ٢٠١ ٣ الأغانى ج ١٦ ص ٢٩ — ٣٠ — ومالك بن بدر — أخو حذيفة بن بدر — قتل في أيام داحس والغبراء وكان قد أضل ابلاً له فخرج يبغيها فلقيه رجل من بنى رواحة يدعى جندبا فرماه بسهم فقتله . وقد نسب الميدانى بعض هذه الأبيات الى عنترة ونسب لسان العرب بعضها الى بنت مالك بن زيد

فليتهما لم يشربا قط قطرة وليتهما لم يجريا لرهان
أَحَدَّ به أمسِ الجُنَيْدِبُ نَذْرَه فأى قتيل كان فى غَطَفَان[1]
اذا سجعت بالرقتين حمامة أوالرس فابكى فارس الكَتِفان[2]

١٦ — وقالت صبية، ماتت أمها، فأضرت بها امرأة أبيها[3]:

فلو يأتي رسولى أمَّ سعد أتى أمى ومن يَعنيه حاجى[4]
ولكن قد أتى مَنْ بين وُدّي وبين فؤاده غَلَقُ الرّتاج[5]
ومن لم يؤذه ألم برأسى وما الرئمانُ الا بالنتاج[6]

بكاء الاخوة

١٧ — قالت فارعة ابنة شداد، تبكى أخاها مسعود بن شداد، وذلك من قصيدة ضافية[7]:

يا عينُ بكّى لمسعود بن شداد بكاء ذي عبراتٍ شجوُه باد
من لا يُذَاب له شحم السَّديف ولا يجفو العيال اذا ما ضُنَّ بالزاد[8]

١ الجنيدب تصغير جندب وهو قاتل أبيها. ٢ الكتفان فرس ابيها ٣ شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ٢٠١ ٤ أم سعد أمها ومن يعنيه حاجى أى من تهمه حاجاتى. ٥ تعنى بهذا البيت امرأة أبيها أى قد أتى رسولى من لا يصل ودى الى قلبه لانغلاق باب مودته علىّ والرتاج الباب ٦ الرئمان العطف والنتاج الولادة أى ان المرأة لاتعطف الا على من تلد ٧ امالى القالى ج ٢ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ ٨ السديف شحم السنام وهو أجود شحم البعير أى لا يستأثر به دون ضيفه وعياله

ولا يَحُلُّ اذا ما حلَّ منتبِذًا يخشى الرزية بين المالِ والنادِ[1]
قوّال مُحْكَمة نقّاضُ مُبْرَمة فرّاج مُبْهَمة حبّاسُ أوراد
نحّارُ راغيـة قتّال طاغية حلّال رابية فكاك أقياد[2]
حلال مُمْرِعة حمال مضلعة فراج مُفْظِعة طلاع أنجاد
شهاد أندية رفاع أبنيـة شداد ألوية فتاح أسـداد
جماع كل خصال الخير قد علموا زين القرين ونِكْلُ الظالم العادى
أبا زُرَارَةَ لا تبعد فكل فتى يوماً رهين صفيحات وأعواد
هلا سقيتم بنى جرم أسيركم نفسى فداؤك من ذي كربة صاد

١٨ — وقالت هند بنت عتبة، تبكي أخاها وأسرتها، وقد ذهبت بهم الحرب يوم بدر:[3]

من حسَّ لى الأخوين كالـ ـغصنين أو من رَاهُمَا
قَرْمان لا يتظالما ن ولا يرام حِمَاهما[4]
وَيْلى على أبوىَّ والـ ـقبر الذي واراهما
لا مثل كهلى فى الكهو ل ولا فتى كفتاهما
أسـدان لا يتذللا ن ولا يرام حماهما

١ المنتبذ المتنحى المنفرد أى انه لايبتعد عن قومه مكانا قصيا خشية أن يطرقه ضيف في بيته أو نادى قومه ٢ الراغية الناقة والرابية المرتفع من الأرض وانما يحل بها الكريم حتى يرى السارون ناره فيقبلون اليه ٣ الاغاني ج ٤ ص ٣٣ — ٣٤ ٤ القرم الفحل الذى يكرم عن المهنة ومنه استعير للسيد الكريم

رُحَيْن خَطِّيَّيْنِ فى كبد السماء تراهما[1]
ما خلفا اذ ودعا فى سؤدد شَرْوَاهما[2]
سادا بغير تكلف عَفْواً بفيض نداهما

١٩ — وقالت ليلى بنت سلمى[3]:

أقول لنفسى فى خفاء ألومها لك الويل ما هذا التجلد والصبر
ألا تفهمين الخُبْرَ ان لست لاقياً أخى اذ أتى من دون أكفانه القبر
وكنت أرى بيناً به بعضَ ليلة فكيف ببين دون ميعاده الحشر
وهوّن وجدى اننى سوف أغتدى على إثره يوماً وان طال بى العمر
فتى كان يعطى السيف فى الرَّوع حقه اذا ثَوَّب الداعى وتشق به الجزر[4]
فتى كان يدنيه الغنى من صديقه اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
فتى لا يَعُدُّ المال رَبًّا ولا تُرَى له جفوة ان نال مالاً ولا كبر
فنعم مُناخ الرَّكب كان اذا انبرت شَمالٌ وأمست لا يُعَرِّجها سِترُ
ومأوى اليتامى المحلين اذا انتهوا الى بابه شُعثاً وقد قَحِطَ القَطْرُ

٢٠ — وقالت الخنساء ترثي أخاها معاوية[5]:

أريقى من دموعك واستفيقى وصبراً ان أطقتِ ولن تطيقى

١ الرع الخطىّ منسوب الى الخط وهو مرفأ السفن بالبحرين ترد اليه سيوف الهند ورماحها وليست بمنبت للرماح ولا بمصنع لها ٢ شروى الشيء مثله ٣ حماسة البحترى ص ٢٧٤ ٤ ثوب الداعي أشار بثوبه وكانت عادة الخائف المستجير أن يصعد مرتقى عاليا ويشير بثوبه وينادى يالفلان فيجيبه والجزر جمع جزور وهى الناقة ٥ الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٦٢ — ٢٦٣

وقولى ان خير بنى سُلَيْم وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل تَرجعن لنا الليالى وأيام لنا بلِوَى الشقيق
واذ نحن الفوارس كل يوم اذا حضروا وفتيان الحقوق
واذ فينا معاوية بن عمرو على أدماء كالجمل الفنيق[1]
فبكيه فقد أودى حميداً أمين الرأى محمود الصديق
فلا والله لا تسلاك نفسى لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق

بقاء الازواج

٢١ — قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية، تبكى زوجها[2]:

يا عين بَكّى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح[3]
قد كنت لى جبلاً ألوذ بظله فتركتنى أضحى بأجرد ضاح[4]
قد كنت ذات حَمِية ما عشت لى أمشى البَرَاز وكنت أنت جناحى[5]

١ الأدماء من الابل والخيل . المشربة سوادا أو بياضاً والجمل الفنيق الذى لا يؤذى لكرامته على أهله ٢ شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٨٨ — ١٩٠ وكانت فاطمة من أكمل قومها أدبا وأجراهم لسانا وأبوها الأحجم بن دندنة الخزاعي سيد من سادات قومه وهو زوج خالدة بنت هاشم بن عبد المطلب ٣ تريد بالاربعة الموقين واللحاظين والعرب تزعم ان الدمع يجرى من الموق فاذا جد البكاء واشتد فاض من اللحاظ أيضاً
٤ الأجرد الأملس والضاحي البارز للشمس تريد ان سترها قد انكشف عنها
٥ البراز الفضاء من الأرض لا يستره شيء

فاليوم أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع عاذلى بالراح
واذا دعت قُرْية شَجَنًا لها يوماً على فَنَنٍ دعوت صباحى[1]

٢٢ — وقالت الهيفاء بنت صبح القُضَاعية[2]:

أبكى وأبكى بإسفار وإظلام على فتى تغلبىّ الأصل ضرغام
لهفى عليه وما لهفى بنافعةٍ الا تكافُحُ فُرسان وأقوام
قل للحُجَيب لحاك الله من رجل حُمِّلت عار جميع الناس من سام
أيَقتل ابنُكَ بعلى يا ابن فاطمة ويشرب الماء؟ ذا أضغاث أحلام
والله لازلت أبكيه وأندبه حتى تزورك أخوالى وأعمامى
بكل أسمر لَدْنِ الكف معتدل وكل أبيض صافى الحد قَمْقام[3]

٢٣ — وقالت امرأة من طَيّئ[4]:

تأوّب عينى نُصْبها واكتئابها ورجيت نفساً راث عنها إيابها[5]
أُعلل نفسى بالمرجَّم غيبُهُ وكاذبتها حتى أبان كِذَابها[6]
أَلَهْفى عليك ابن الأشَدّ لبهمة أَفَرّ الكُماةَ طعنها وضِرَابها[7]
متى يَدعُهُ الداعى اليه فانه سميع اذا الآذان صَمّ جوابها

١ تريد بدعوة الصباح انها تقول — اذا سمعت تغريد الطير في الصباح — واسرء صباحاه

٢ ذيل ديوان الخنساء ص ١٩١ ٣ تريد بالأسمر الرمح واللدن اللين من كل شيء والأبيض السيف والقمقام العظيم ٤ شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٧١ ٥ أصل التأويب سير النهار كله حتى يتصل بالليل والنصب من أنصبه الحزن اذا أثر فيه وراث الشيء أبطأ تقول ان حزنها لا ينقطع وان النفس التى عقدت بها رجاءها أبطأ بها الاياب ٦ تريد بالمرجم أى الذى يظن به الظنون يقال رجم الرجل بالغيب اذا تكلم بما لا يعلم

٧ البهمة الحلقة الشديدة وتريد بها الحرب وأفر الكماة طعنها أى حملهم على الفرار

هو الأبيض الوضاح لو رميت به ضواح من الرَّيّان زال هضابها[1]

٢٤ — وقالت خرنق بنت بدر بن هفان، تبكى زوجها بشرا، وتذكر من أصيبوا معه يوم قُلاب[2]:

ألا أقسمت آسَى بعد بشر على حيّ يموتَ ولا صديق[3]
وبعد الخير علقمة بن بشر اذا نزَت النفوس الى الحلوق[4]
وبعد بني ضُبَيعة حول بشر كما مال الجزوع من الحريق
مُنِي لهم بوالبة المنايا بجنب قُلاَب للحَين المَسُوق[5]
فكم بقُلاَبَ من أوصال خِرق أخى ثقة وجُمْجُمة فليق[6]
ندامى للملوك اذا لقوهم حبُوا وسُقُوا بكأس هم الرحيق
هُمُ جدعوا الأنوف وأوعبوها فما ينساغ لى من بَعدُ ريق[7]
وبِيضٍ قد قَعَدن وكل كُحل بأعينهن أصبح لا يليق[8]
أضاع قدورهن مصاب بشر وطعنة فاتك فمتى تفيق[9]

١ تريد بالأبيض الوضاح الخالص النسب الصافي الخلال . والريان جبل ببلاد طيء والضواحى النواحى ٢ ديوان خرنق نسخة خطية بدار الكتب السلطانية — والخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة بن العبد البكرى لامه ومكانها من شواعر النساء كمكان أخيها من الشعراء وأكثر شعرها في رثاء زوجها بشر بن عمرو سيد بنى مُرثد لما قتله بنو أسد يوم قلاب ٣ آسى من الأسى وهو الحزن ٤ نزت النفوس علت وذلك كناية عن شدة الكرب ومثله قول الله جلت آيته « وبلغت القلوب الحناجر » ٥ والبة شعبة من بنى أسد وقلاب جبل بديارهم دارت دونه الحرب بينهم وبين بشر فكانت الغلبة لهم

٦ الخرق الجواد الكثير الجود ٧ جدع الأنف قطعه وأوعبه استأصله

٨ لا يليق أى لا يبقى تقول ان فتيات الحي أصبحن لا يبقين على بقية من الكحل لكثرة ما يبكين ٩ في هذين البيتين اقواء وهو مخالفة شكل القافية لما دونها من القوافي

بطء العشيرة

٢٥ — قالت رَيطة بنت عاصم[1]:

وقفت فأبكتنى بدار عشيرتى ... على رُزئهن الباكياتُ الحَواسرُ
غدوا كسيوف الهندوُرّادحومة ... من الموت أعيا وِردَهن المَصادر
فوارس حاموا عن حريمى وحافظوا ... بدار المنايا والقنا متشاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رُزْئنا ... لهُدّت ولكن تحمل الرزء عامر[2]

٢٦ — وقالت خِرنِق:

لا يَبعَدَن قومى الذين همُ ... سم العُدَاة وآفة الجُزُر
النازلين بكل معتَرَك ... والطيبون معاقد الأُزُر[3]
الضاربون بحومة نزلت ... والطاعنون بأذرع شُعُر[4]
ان يشربوا يهبوا وان يذروا ... يتواعظوا عن منطق الهُجُر
قوم اذا ركبوا سمعت لهم ... لَغَطاً من التأييه والزجر[5]
من غير مافُحش يكون بهم ... فى مُنتَج المُهُرات والمُهر
هذا ثنائى ما بقيت لهم ... فاذا هلكت أجَنّنى قبرى

---

١ شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ ٢ سلمى أحد جبل طيء
٣ الأزر جمع ازار وطيب معاقدها كناية عن عفة ذويها ٤ الأذرع الشعر — جمع أشعر — الطويلة الشعر وذلك أقوى لها ٥ التأييه زجر الخيل والصياح بها يريد أنهم لا يتفاحشون في فخرهم اذا نتجت خيلهم وذلك خير مظاهر الثروة عندهم

٢٧ — وقالت أمامة بنت ذي الأصبع العدوانى تبكي قومها:

كم من فتى كانت له مَنْعَةٌ ... أبلجَ مثل القمر الزاهر
قد مرت الخيل بحافاتهم ... مر الحيا بالجبل العاطر[1]
قد لقيت فَهْم وعَدوانها ... قتلاً وهلكاً آخر الغابر
كانوا ملوكا سادة في الورى ... دهراً لها الفخر على الفاخر
حتى تساقوا كأسهم بينهم ... بغياً فيا للشارب الخاسر
بادوا فمن يحلل بأوطانهم ... يحلل برسم مقفر دائر

فى الفخر

٢٨ — قالت عاتكة بنت عبد المطلب تفخر بيوم عكاظ[2]:

سائل بنا في قومنا ... وكفاك من شر سَماعُه
قيساً وما جمعوا لنا ... في مجمع باق شناعُه
فيه السنَوّر والقنا ... والكَبْش ملتَمِعٌ قِناعُه[3]
بعكاظ يعشىْ الناظرين ... اذا هم لمحوا شعاعُه[4]
فيه قتلنا مالكاً ... قَسْرًا وأسلمه رَعاعُه
ومجدَّلاً غادرنه ... بالقاع تنهشه ضباعه

---

١ الحافات الجوانب والحيا المطر ٢ شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٣٠
٣ السنور الدروع أو جملة السلاح وقناع الفارس بيضته ٤ الباء في بعكاظ متعلقة بقولها في مجمع ويجوز أن تكون متعلقة بملتمع ويعشى الناظرين أى يخطف أبصارهم

٢٩ — وقالت الخنساء تفتخر وتذم الزمان :

تعرّقنى الدهر نَهْسًا وحزّا ... وأوجعنى الدهر قَرْعًا وغمزا [1]
وأفنى رجالى فبادوا جميعاً ... فغُودِر قلبى بهم مستفزّا [2]
كأن لم يكونوا حِمًى يُتّقى ... اذ الناس اذذاك من عز بزا [3]
وهم فى القديم أُساة العَدِيـ ... ـم والكائنون من الخوف حِرْزا
وهم منعوا جارهم والنسا ... ء يَحفِز أحشاءها الخوف حَفْزا [4]
غداةَ لَقُوهم بملمومة ... رَدَاح تغادر فى الأرض رِكْزا [5]
ببِيض الصِّفاح وسُمر الرماح ... فبالبيض ضربًا وبالسُّمْر وخزا
وخيل تكدّسُ بالدارعيـ ... ـن تحت العَجاجة يحْمِزْن جَمْزا [6]
جَزَزنا نواصيَ فرسانها ... وكانوا يظنون ألا تُجَزّا [7]
ومن ظن ممن يلاقى الحروب ... بأن لا يُصَاب فقد ظن عجزا
نَعِفُّ ونعرف حق القِرَى ... ونتخذ الحمد ذخراً وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد ... ونسحب فى السلم خزّا وقزّا

٣٠ — وقالت الهيفاء بنت صبح القضاعية تفخر بأبيها [8] :

الخيل تعلم يوم الرَّوع ان هُزِمت ... أن ابن عمرو لدى الهيجاء يحميها

١ تعرقها أى أكلها حتى ذهب بلحمها والنهس أخذ اللحم بمقدم الاسنان والحز القطع
٢ مستفزا من استفزه أي أخرجه عن موطنه ٣ من عز بز مثل من أمثال العرب أى من غلب سلب يقال بزه ثوبه اذا سلبه اياه ٤ الحفز الطعن
٥ الملمومة وصف لموصوف محذوف أى كتيبة ملمومة والرداح من الكتائب الثقيلة الجرارة ٦ التكدس السرعة في المشي والعجاجة الغبار والجمز الاسراع حتى يكون عدوا
٧ كانت العرب تجز نواصي من تطلقه من الاسرى ٨ ذيل ديوان الخنساء ص ١٩١

لم يُبدِ فُحْشًا ولم يُهدَد لمُعظَمة ... وكلُّ مَكْرُمة يلقى يُسَاميها [1]
المستشار لأمر القوم يحزبهم ... اذ الهَنَاة أهمَّ القوم ما فيها [2]
لا يَرْهَب الجارمنه غدرةً أبداً ... وانْ ألمّت أمور فهو كافيها

٣١ — وقالت خرنق بنت بدر ، تفخر بزوجها بشر بن عمرو وصحابته [3] :

لقد علمت جَدِيلة أن بشراً ... غداة مُرَبِّحٍ مُرُّ التقاضي
غداة أتاهم بالخيـل شُعثًا ... يدق نسورها حد القِضَاض [4]
عليها كل أصيد تغلبيّ ... كريم مُرَكَّب الحدين ماض [5]
بأيديهم صوارم مرهفات ... جَلَاها القَين خالصة البياض
وكل مثقف بالكف لَدْن ... وسابغةٌ من الحَلَق المُفَاض
فغادر مَعقِلاً وأخاه حِصْنا ... عفير الوجه ليس بذى انتهاض

فى اللوم والاغراء

٣٢ — قالت امرأة من كندة [6] :

لا تخبروا الناس الا أن سيدكم ... أسلمتموه ولو قاتلتمو امتنعا
أنْعَى فتى لم تذر الشمس طالعة ... يوما من الدهر إلّا ضر أو نفعا

١ المعظمة كالعظيمة النازلة ويسامها أى يسمو اليها ٢ حزبه الامر نابه واشتد عليه والهنات جمع هنة ويكنى بها عن المنكرات ٣ ديوان خرنق ٤ النسور بواطن حوافر الخيل والقضاض الحصي الصغار ٥ الأصيد الذى يميل بعنقه كبرا ٦ شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ١٧

٣٣ — وقالت بنت حُكَيم بن عمرو البَبْدِية[1]:

أيرجو ربيع أن يؤوب وقدثوى ... حُكَيمٌ وأمسى شِلْوُه بمُطَبَّقِ[2]
فان كنتم قوما كراما فعجلوا ... له جُرأةً من بأسكم ذات مِصدَق
فان لم تنالوا نيلكم بسيوفكم ... فكونوا نساء فى المُلاءِ المُخَلَّق[3]
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له ... فما أنتم الا كمعزى الحبلق[4]

٣٤ — وقالت كبشة بنت معديكرب، تعير أخاها عمراً لقعوده عن ثار أخيه عبد الله[5]:

وأرسل عبد الله اذ جان يومه ... الى قومه لا تعقلوا لهم دمى[6]
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكراً ... وأترك فى بيت بصُعدة مظلم[7]
ودع عنك عمراً ان عمراً مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان أنتمُ لم تثأروا واتَّدَيتمُ ... فشوا بآذان النعام المُصَلَّم[8]
ولا تردوا الا فضول نسائكم ... اذا ارتملت أعقابهن من الدم[9]

---

١ حماسة البحترى ص ٣١ ٢ الشلو العضو ٣ الملاء جمع ملاءة والمخلق المضمخ بالطيب والزعفران ٤ الحبلق غنم صغار لا تكبر أو قصار المعز ودمامها ٥ شرح ديوان الحماسة ج ٢ ص ١١٧ ٦ لم يقل عبد الله شيئا من ذلك وانما تخيلته لتبلغ من نفوس أخيها وقومها والعقل اعطاء الدية والرضا بها ٧ الأفال جمع أفيل وهو الذى أتت عليه سبعة أشهر أو ثمانية من أولاد الابل واختصت الافال والأبكر بالذكر لتحقير شان الدية وصعدة مخلاف من مخاليف اليمن وانما قالت مظلم لان العرب تزعم ان الميت اذا أخذوا بثأره أضاء قبره والا بقى مظلماً ٨ اتديتم أى قبلتم الدية والمصلم المجدوع وتلك كناية عن الجبن والذل ٩ يقال ارتمل اذا تلطخ بالدم وكان من عادتهم اذا وردوا الماء أن يكون النساء آخر من يرد حتى يشربن ويغسلن أنفسهن وثيابهن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل

٣٥ — وقالت امرأة من غامِد في هزيمة ربيعة بن مكدم لجمع من قومها:

ألا هل أتاها على نأيِها ... بما فضحت قومَها غامِدُ
تمنيتم مائتى فارس ... فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيو ... ل ضأنا لها حالب قاعد

نساء بصفة أنفسهن

٣٦ — حَدَّث الأصمعى قال[1]:

كان أعرابى عنده أربع نسوة، كندية، وغسانية، وشَيبانية، وغَنَوِية، والأعرابى غسانى. وكن متظاهرات على الغَنَوِية. فجمع بينهن ثم قال: لِتَقُلْ كل واحدة منكن قولاً تصف به نفسها. فقالت الكندية:

كأنى جَنَى النحل والزنجبيل ... وصَفْوُ المدامة والسلسبيل
يزين سنا الوجه لى مَبْسِمٌ ... كمثل اللآلى وعين كحيل

وقالت الغسانية:

برانى إلهى بإله السما ... نصفاً قضيبا ونصفا كثيبا
وألبسنى ما يسوء الحسود ... جمالاً ومِلْحا وحسنا عجيبا[2]

وقالت الشيبانية:

أفوق النساء اذا ما اجتمعـــن كبدر السماء نجوم الدجى[3]

---

١ بلاغات النساء ص ١٥١ — ١٥٢ ٢ الملح الملاحة ٣ أى كما يفوق بدر السماء نجوم الدجى

ويقصر عني جميع الصفات فمن نالني نال فوق المنى

وقالت الغنوية :

تزود بعينك من بهجتي فقد خلق الله منى الجمالا
اذا ما تفرست فى رؤيتى رأيت هلالاً وأحوى غزالا[1]

﴿ أمَّا بعد ﴾ فذلك تمام الجزء الأول من كتاب المرأة العربية . وعلى أثره أجزاء ثلاثة ، هن مواثل للطبع . واذا نحن ذكرنا عظم توفيق الله لنا ، وجلال نعمته علينا ، فلا شك ان أسمى مظاهر ذلك ما تجلت به العناية العلية السلطانية ، من سوابق المنن ، وسوابغ الآلاء . وليس بدعا على مليك النيل ، وذخر اسماعيل ، وناشر دولة العلم ، وباسط مطارف الآمال ، أن يسبق جوده خفقة القلب ، وخطرة المنى . زاد الله مولانا السلطان المعظم وفرا في دينه ودنياه ، وبسطة في ملكه وحكمه ، وتوفيقاً وتأييداً ، وتثبيتاً وتسديداً آمين ؟

١ الأحوى الأسمر الشفتين

المرأة العربية

فى جاهليتها وأسلامها

فهرست

الجزء الأول

٢ تقديم الكتاب
الى حضرة صاحبة العظمة السلطانة نازلى
٣ فاتحة الكتاب
٤ مقدمة الكتاب
٤-١٦ في سبيل المرأة
٤ « ١ » ماضينا وحاضرنا
١٠ « ٢ » المرأة في الحياة

المرأة العربية
في عهد جاهليتها

— ١ —
١٧-٥١ نصيبها من الوجود

١٧ المرأة العربية موطن الشرف والحياة من الرجل ، لها يحيا ولها يموت ١٨ صوتها تحت ظلال السيوف — يوم تحلاق اللمم — نشيد الحرب ٢١ رأى العرب

في الملائكة وانهم بنات الله ٢١ الشعراء والنساء ٢٣ تمدح العظماء بين أيدى النساء ٢٥ مغالاة العرب بالمرأة — حُرَقة بنت النعمان — كسرى يخطبها والنعمان يأباه — مقتل النعمان — يوم ذى قار ٢٦ وضيعة من العرب تمتنع على عظيم من الفرس ٢٧ غضب العربى للمرأة — عمرو بن هند وعمرو بن كلثوم — هند وليلى — مقتل عمرو بن هند ٢٨ — كلمة من امرأة تثير الحرب أربعين عاما — حرب البسوس ٣٠ العرب تقتتل لامرأة من عرض الطريق تهان — حرب الفجار ٣١ نساء العرب في سواء الرجال — فتاة تبرم عقدا لا يملك الملك أن ينقضه ٣٢ الساحة المقدسة — احتماء الرجال بأطناب أخبية النساء — سُبَيعة بنت عبد شمس في حرب الفجار ٣٣ نفاذ المرأة — حديث أوس بن حارثة وامرأته وبناته

٣٧-٤٤ ملك النساء ٣٨-٤١ بلقيس ملكة اليمن — ديارها — خلالها — سياستها — صورة غمدان وكلمة عنه ٤٢-٤٤ زينب ملكة تدمر — كلمة عن تدمر — وصف زينب — زينب بين جندها — مأساة زينب — زينب أم الزباء — صورة الرواق الأعظم
٤٥ شقاء الكرامة ٤٦-٤٩ السباء — المرأة العربية آخر عرق ينبض من الرجل — كرائم السبايا — ريحانة بنت معد يكرب — الانفة من السباء — فاطمة — عنيزة — سلمى
٤٩ الوأد ٥٠ الوائدون — الفادون — صعصعة بن ناجية — زيد بن عمرو

— ٢ —
٥٢-٩٣ عمر المرأة ونفاذ أمرها

٥٢ المرأة العربية في قومها — أثر عزتها وحريتها في نبلها وفضلها ٥٣ المرأة العربية منذ نيف وأربعين قرنا
٥٤-٧٥ حياتها الزوجية

٥٤ صلاح الزوجة – دعائم صلاحها – اختيارها – كرامتها على زوجها – شرف الرجل وعفته
٥٥ اختيار الزوجة العربية – أسلوب الاختيار – شرف الحسب وسناء الذكر – قيس ابن زهير – يوم الهباءة ٥٦ سعة الحيلة ومضاء الذكاء – امرؤ القيس وامرأته ٥٧ شن وطبقة ٥٩ رأى الفتاة – الخنساء ودريد – هند وعتبة وأبو سفيان – الحارث بن سليل وامرأته وابنته – يزيد بن الصعق وملك غسان ٦٠ ما تؤثره المرأة من صفات الرجل – زيد الخيل وأوس بن حارثة وحاتم الطائي بين يدى ماوية ابنة عفزر ٦٢ شريفة من بنى كنانة تمتحن الرجال – الغرائب وبنات العم ٦٤ حق المرأة العربية في الطلاق ٦٥ حاتم وماوية – شريفات طلقن أزواجهن
٦٦ كرامة المرأة العربية على زوجها – المرأة العربية هى العشير الأدنى والمشير الامين ٦٧ رجل يلطم زوجته فتنشب الحرب بين عدنان وقحطان – تحرير مضر وربيعة ٦٩ نداء الرجل العربي لامرأته
٧٠ شرف الرجل وعفته – العفة فضل من الشجاعة ، والفجور شعبة من الجبن ٧١ فخر العربي بعفته – النساء المهينات – الإماء – حذر المريب – الرجل المريب مجفو من قومه منبوذ من عشيرته – امرؤ القيس وأبوه ٧٢ تقديس أسماء النساء
٧٣ سعادة الاسرة العربية – كفاية المرأة – معونتها – مصابرتها – شرفها – وفاؤها
٧٦-٩٣ الأم العربية
٧٦ الام العربية معقد فخر الرجال – فخر النبى بأمهاته – فخر على بأمهاته – فخر القبائل بأمهاتها – انتساب الملوك الى الامهات – انتساب البطون الى الامهات – القبائل التى سميت بأسماء أمهاتها ٧٨ اعتراف العرب بأثر النساء في الرجال – المنجبات من النساء
٧٩ اهتمام المرأة بابنها منذ أول حملها – حديث الهواتف – ليلى بنت مهلهل – عتبة بنت عفيف ٨١ تسمية الابناء – أسماء بنت دريم ووائل بن قاسط – وادى السباع ٨٢ تمهيد الطفل للعظائم – أناشيد النساء للأبناء – كيف تربى المرأة العربية طفلها –

رأى الطب الحديث فى أسلوب تربيتها
٨٦ تكوين الرجال – أوس بن حارثة وأمه – عجوز تنصح ابنا عظيما ٨٧ ريحانة بنت معديكرب وابنها دريد ٨٨ ربيعة بن مكدم وأمه وأخته ٩٠ حاتم وأمه ٩١ السليك وخالاته – أثر المرأة في ابنتها – خماعة بنت عوف وأمها ٩٣ زوجات النعمان

– ٣ –

المرأة العربية ٩٤-١٧١

فى عامة حياتها

٩٤-١١٤ «١» عملها
٩٤ الوءد والخرق – أثرهما في سيرة المرأة العربية – خرقاء قريش
٩٥ أعمال النساء العامة – المرأة العربية والطب ٩٦ الغناء والموسيقى – الحارث بن ظالم وماوية بنت عفزر – مجالس الغناء ٩٨ رعاية البيت – مطاعم العرب
١٠٠ أعمال الارتزاق : الصناعة : ردينة التجارة : خديجة بنت خويلد وهند بنت عتبة ١٠١ مهن النساء : النياحة – زجر الطير وطرق الحصا ١٠٢ الكهانة والعرافة – مرثد بن عبد كلال وعفراء ١٠٦ النفث فى العقد – الارضاع – حديث حليمة ١٠٨ ضعة المهنة وعظمة الخلق – حديث فتاة من بنات البائعات
١١٠ عمل المرأة في الأمة ١١١ تسكين الثائرة – فاطمة بنت الخرشب والجمانة

بنت قيس ١١٢ اثارة العزائم ـ هند بنت عتبة ـ عمرة بنت علقمة
١١٣ قيادة النساء ـ رقاش قائدة طيء

١١٤ـ١٢٥ «٢» حجابها وسفورها

١١٤ حد الحجاب ـ حجاب البيت وحجاب الانتقاب ـ تصيبهما من المرأة العربية ـ المرأة العربية في المحافل والمشاهد والاندية والاسواق ـ نساء العرب فى عكاظ ـ هند والخنساء ١١٧ يوم حليمة ١١٨ الانتقاب ـ البرزة ـ المقنعة ـ سقوط القناع ١٢٠ حالات السفور الشاملة
١٢٣ السفور فى أمم العرب البائدة ١٢٤ هيئات الانتقاب : الخمار ـ القناع ـ البرقع ـ النصيف ـ اللثام ـ اللفام

١٢٥ـ١٢٨ «٣» ثيابها

١٢٥ أشكالها ـ ألوانها ـ مناسجها ١٢٧ شعارها ـ دثارها
١٢٨ ثياب الحداد ـ الاحذية

١٢٨ـ١٣٢ «٤» حليها

١٢٩ العاطل ـ الغانية ـ المرهاء ـ تحلية البنت منذ ولادتها ـ صنوف الحلى
١٣٠ قرطامارية ١٣٢ الطيب ـ صورة المرأة العربية في أكمل زينتها

١٣٣ـ١٣٧ «٥» بيتها

١٣٣ بيوت البادية ـ مجالس النساء ١٣٤ القصور ١٣٥ أثاث البيوت ١٣٦ وصف المرأة الناعمة العيش

١٣٧ـ١٥٥ «٦» دينها وعقائدها

١٣٧ معبودات العرب ١٣٨ اضطراب دينهم ١٣٩ الحرزات والرقى
١٤٣ التفاؤل والتطير ١٤٩ سفر الرجل وطول غيبته ١٥٠ خدر الرجل واختلاج العين ١٥١ رأيها فى مصير موتاها ١٥٢ ضمان القلوب ـ صنيع المقلات ١٥٤ البئر فى شفة الصبى

١٥٥ـ١٧٢ «٧» بعض شأنها

١٥٥ عرسها ـ يوم الاملاك ١٥٨ المهر ١٦٠ يوم البناء
١٦٢ مناحتها ـ نساء العرب فى مناحاتهن ١٦٤ الحداد ـ حداد النساء على أزواجهن ١٦٥ قولهن اذا حمل الميت واذا دفن
١٦٧ مناديب الاشراف
١٦٨ تجملها ـ صفات الجمال عند العرب ـ صنوف التجمل عند النساء
١٧٠ مثال من الجمال العربي

ـ ٤ ـ

١٧٢ـ٢٢٨ فصاحتها وسحر منطقها

١٧٢ بيان المرأة ـ دقة نقدها ـ امرؤ القيس وعلقمة بين يدى أم جندب الخنساء وحسان ١٧٥ المرأة العربية والرجل العربي في حومة البيان ـ حكيمات العرب ١٧٦ المرأة العربية والشعر

١٧٨ أثارة من قولها

١٧٨ مأثور من المنثور «١» بين امرأتين ١٨٢ «٢» أبلغ الكلم في أبلغ الكرم ١٨٣ «٣» امرأة تصف رسول الله ١٨٥ «٤» سناء الرأى وحسن الاستعطاف ١٨٦ «٥» بين نارين ١٨٨ «٦» تداول الايام ١٨٩ «٧» صفات في فقرات ١٩٠ «٨» نساء يصفن رجالا ١٩٢ «٩» مجاذبة الثناء ١٩٣ «١٠» الكلم القصار

١٩٤ أمثال أرسلها النساء فتمثل بها الرجال

٢٠٥ عيون من الشعر ـ فى الحنين الى الوطن ٢٠٧ البكاء ـ بكاء الابناء

٢١٢ بكاء الآباء ٢١٦ بكاء الاخوة ٢١٩ بكاء الازواج

٢٢٢ بكاء العشيرة ٢٢٣ في الفخر ٢٢٥ في اللوم والاغراء

٢٢٧ نساء يصفن أنفسهن ـ كلة الختام

كتابخانهٔ مجلس شورای ملی
تأسیس ۱۳۰۲

المرأة العربية

فى جاهليتها وأسلامها

« ألفه »

عبد الله عفيفى

المدرس بالمدرسة الثانوية الملكية

الجزء الثانى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

سنة ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

الى صاحبة الجلالة
ملكة مصر

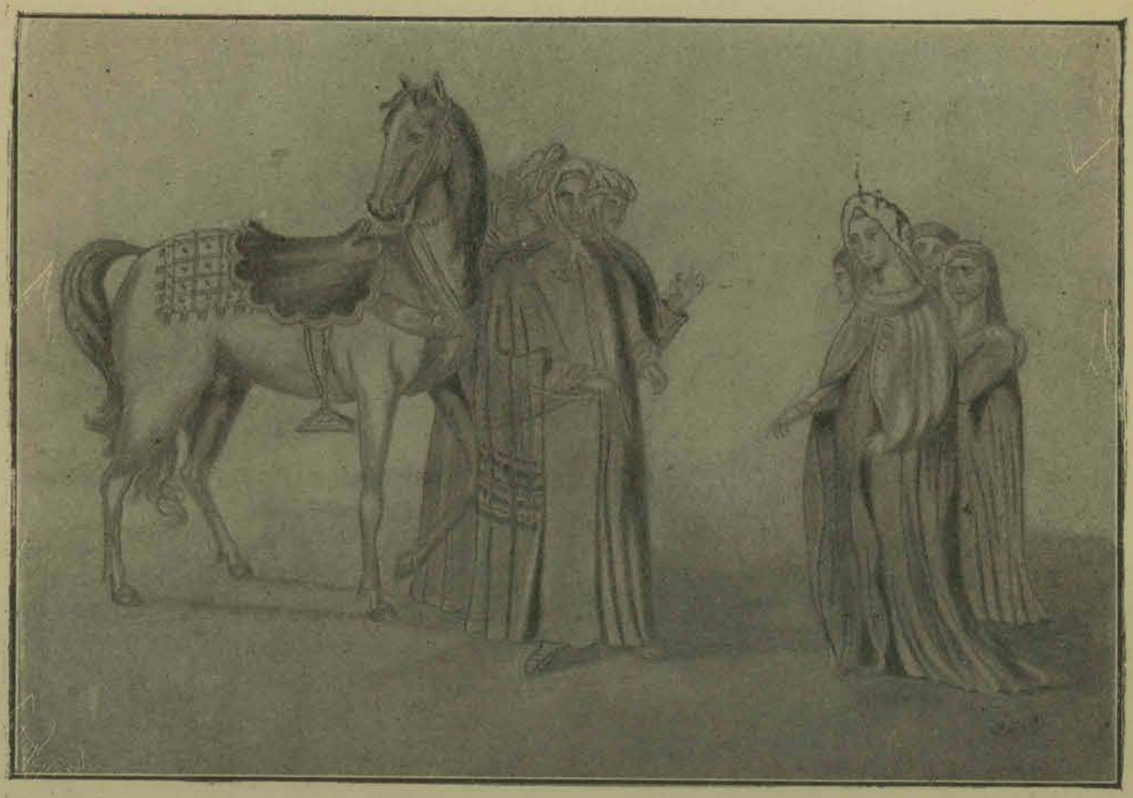
مولاتى

تلك هى الصفحة المقدسة من تاريخ الوجود تجلت بها المرأة العربية فى نزهو الاسلام على أرجاء العالم المظلم فملأته نورا وطهرا وحكمة وعلما ثم عدت عليها العوادى فقنعت آيتها وعفت رسمها.

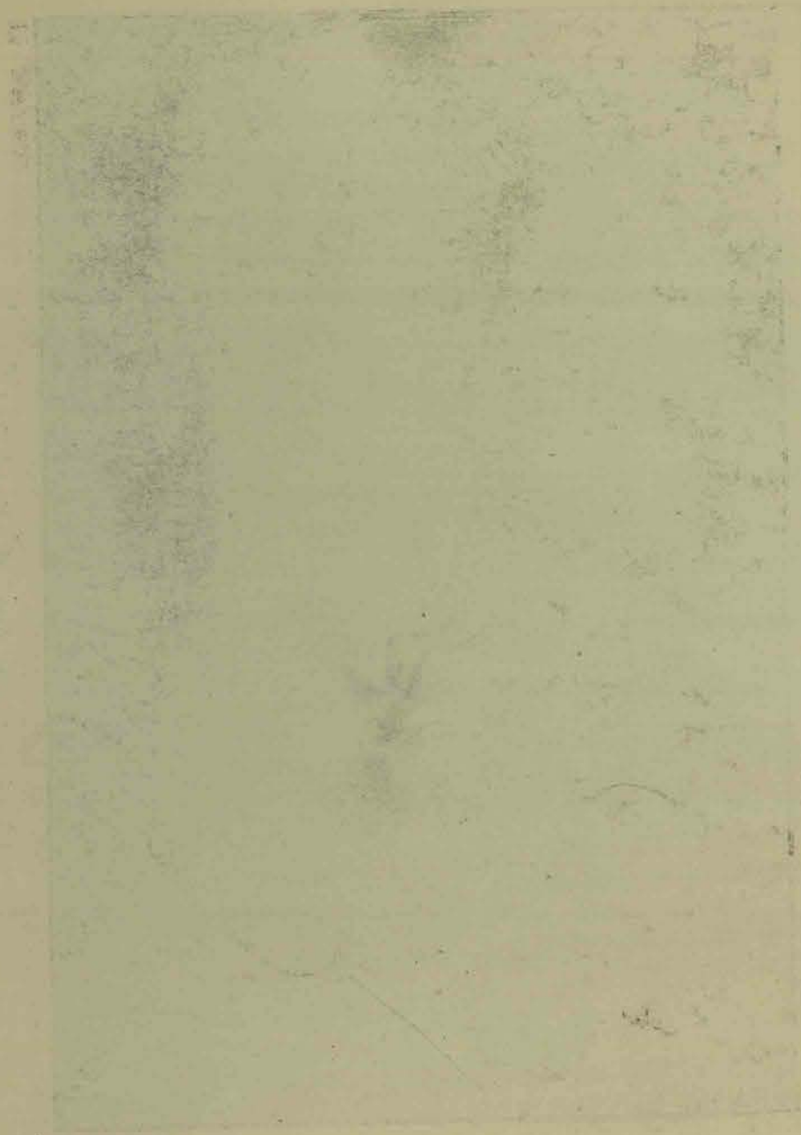
واليوم - وكوكب ملك مصر يخفق صاعدا ويشرق بسناه - أنشر تلك الصحيفة المطهرة من طى الزمن وأبتعثها من مدارج المحن لتكون عقدة الصلة بين تلك النفوس الزكية وبين ذات الجلالة الملكية

بارك الله لصاحب الجلالة فيما أولاه وملأه ما ولاه ورعاه فيما استرعاه وأقر بيده بناء الوطن الذاهب فى سماء المجد صعودا وخلودا آمين

عبدك الخاضع
عبد الله عفيفى



أميرة أندلسية بالزى المراكشى تخاطب فارسين من فرسانها
(اخذت عن صورة زيتية على جانب من قصر الحمراء بالاندلس)



كتابخانهٔ مجلس شورای ملی
۱۳۰۲

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِين

سُبْحانك يا مُبْدِعَ الكون بلا عون ، ومفيضَ البيان على اللسان ، تبارَكْتَ وتَعالَيْت ، لكَ الحمد ولكَ المُلْك ، أَنْتَ وليُّنا ، فارْزُقْنا من فَيْضِ حِكْمَتِكَ ، واهْدِنا بنُور هِدايَتِكَ ، واجْنُبْنا بِفَضْلك زَيْغَ القلم ، ولَغْوَ الكلام ، وفتنة الهوَى ، وضلالَ السَّبيل ، إِنَّكَ نِعْمَ المَوْلى ونِعْمَ النَّصير ؟

المرأة العربية

في عهد اسلامها

تمهيد

المرأة والدين

للمرأة من دقة الحس ، وقوة العاطفة ، وبعد الخيال فوق ما للرجل . فهي لا تبرح الدهر بين خاطر مُتَوثِّب ، ووِجدان متأثِّر . لا تكاد تستمع خبرا ، أو تلمح منظرا ، أو تُطيف بها ذكرى ، حتى ينال ذلك من أعماق نفسها ، واسرار وجهها ، وشئون عينيها . وربما أَلَمَّت بالحديث وهي تعامه ضربا من الخيال فلا تزال رغم ذلك بين دم يَتَصعَّد ثم يَتَحدَّر ، وقلب يَثِبُ ثم يطمئن ، ووجه يَرْبَدُّ ثم يُشرِق ، وعَبرة تطفو ثم تنحسر ، حتى تنتهي منه وقد استبق بنفسها أثراً لا تملك أن تمحوَه . ذلك خَلْقُ المرأة وتلك شيمتها . فطرةٌ طيبة ، وسريرة صافية وقلب دائم الخفقان .

مِثل تلك الطبائع المستكنة في نفس المرأة ان وُفِّقت الى من يتعاهدها ، ويصلح نهجها ، ويزيل العوائق من دونها ، كانت سبيل الكمال المطلق ، والخير الصريح في الأمم . وان مُنيت بمن يُموِّه لها الباطل ، ويُزين لها صفحة الشر ، ويَجْنُبُها طريق السداد ، قضاء لنهمة فاسدة ، ومَجْلَبةً لعرض زائل ، انعكست آيتها ، وانتكست حالتها ، وهاجت الداء الدوىّ ، والشر العُقام . وان هي تركت وأمرَها وخُلِّيت وسبيلها ، كان شأنها كشأن دفائن الكنوز في قفر من الارض ، تتحول الأزمنة وتتبدل الأمم وهي على حالِها ، لا خير فيها ، ولا أثر لها .

حقيقة لا مِرَاء فيها ... فأى طرق التربية آثر في حياة المرأة ، وأحق باستكمال فضائلها ، واذاعة مزاياها ؟

الدِّين وحده هو الكفيل بذلك . فهى بما لها من انفساح مدى التصور ، وقوة سلطان العاطفة ، تتمثل عظمة الله بأكثر مما يتمثل الرجل ، وتستشعر حبه والخوف منه بأشد مما يستشعر .

ان ايمان المرأة ايمان لامثار فيه للرّيب ، ولامجال للشبهات . فهي لاتعتصم بالتأويل ، ولاتفزع الى الحيلة ، شأن الرجل اذا أثقله الواجب وأعياه الاحتمال . فاذا أشرِبت ذلك الايمان منذ أول عهدها ، ولُدُونة عُودها ، وجدت الله ملءَ سمعها ، وبصرها ، وقلبها ، وسريرتها ، فلا تشعر إلا به ، ولا تعمل إلا له ، ولا تُقدِم على ماعساه يغضبه ، ويستنزل سخطه .

ان تصديق المرأة تصديق وثيق عميق . فهى لا تحاول — كما يحاول الرجل — تطبيق أمور الدين جليلها ودقيقها على عقلها . وفي الدين أشياء لا تنالها

العقول الا اذا رسخت حكمتها ، ورجحت كفتها ، واتسعت رُقعتها ، وأين للناس أن يكونوا جميعا كذلك ؟

ولستُ بناسٍ أبد الدهر مشهداً لا يزال على طول العهد به يهتاج عواطفي ، ويُحيل جوانحى وجوارحى الى وجدان فياض ، ومشاعر ثائرة . وهو على ما تقول أدَلّ ، وبه أمثل . وذلك الذى أقصه عليك :—

في أصيل يوم من صيف سنة ١٩١٤ كنت واقفاً في جمهور الواقفين في محطة طنطا أترقب القطار القادم من الاسكندرية لآخذه الى القاهرة .

لقد كان كلٌّ في شغُل بتلك الدقائق المعدودات يقضيها في توديع واشفاق ، وترقب وانتظار ، وحمل متاع وتنسيق آخر ، وكنت في شغُل بصديق يجاذبني حديثاً شيقاً ممتعا . في تلك اللحظات الفانية ، وبين ذلك الجمع المحتشد ، راع الناسَ صياح واعوال ، وتهدج واضطراب ، ومشادَّة ومدافعة ، ثم أبصروا فاذا فتاة في السابعة عشرة من سنيها ، يقودها الى موقف القطار شرطى عات شديد ، وساع من سعاة معتمدى الدول قوى عتيد ، ومن خلفها شيخ أوربى جاوز الستين مكتئب مهزول ، وهى تدافع الرجلين حولها بيدين لا حول لهما .

أقبل القطار ثم وقف ! فكاد كل ينسى بذلك الموقف موقفه وما قصد له ، ثم أُصعدت الفتاة وصعد معها من حولها ، وعجلت أنا وصاحبي فأخذنا مقاعدنا حيث أخذوا مقاعدهم . كل ذلك والفتاة على حال من الحزن والكرب لا يَجُمل معها الصبر ، ولا يُحمَد دونها الصمت . سألت الشيخ ما خطبه ، وما أمر الفتاة ؟ فقال وقد أشرقه الدمع وقطع صوته الأسى :

انني رجل اسبانى ، وتلك ابنتى ، عرض لها منذ حين ما لم أعلمه ، فصحوت ذات صباح على صوتها تصلى صلاة المرأة المسلمة ! ومنذ ذلك اليوم احتجزت ثيابها لتتولى أمر غسلها ، وأرسلت خمارها الأبيض على صفحتى وجهها ، ومكشوف صدرها . ثم أخذت تُنفِدُ وقتها فى صلاة وصيام ، وسجود وهجود . وكانت تدعى «روز» فأبت إلا أن تسمى فاطمة . وما لبثت أن تبعتها أختها الصغرى فصارت أشبه بها من القطرة بالقطرة ، والزهرة بالزهرة .

فزعت لهول ذلك الأمر ، وقصدتُ أحد أساقفتنا ، فأخذ يعانى رياضتها فلم يجد الا شِماسا وامتناعا . وعزّت على الرجل خيبته فكتب الى معتمد الدولة الاسبانية بأمر الأسرة الخارجة على دينها . وهنالك آمر المعتمد حكومة مصر فساقت اليه الفتاة كما ترى برغمها ورغم ذويها ليقذف بها بين جوانب دير تسترد فيه دينها القديم ! . . .

قلت : أو أرضاك أن تساق ابنتك سوق الآثمات المجرمات على غير اثم ولا جريمة ؟ ! فزفر الرجل زفرة كاد يتصدّع لها قلبه واحناء ضلوعه ثم قال : أما لقد خُدِعت ودُوهمت وغلب أمر الحكومتين أمرى فما عسانى أفعل ؟

على أثر ذلك انثنيت الى الفتاة وهى تعالج من أهوال الحزن وأثقاله ما تخشع الراسيات دون احتماله فقلت : مابالك يافاطمة ؟ — وكأنها أنست مني مالم تأنسه ممن حولها — فأجابتني بصوت يتعثر من الضنى : لنا جيرة مسلمون ، أغدو اليهم فأستمع أمر دينهم . حتى اذا أخذني النوم ذات ليلة رأيت النبى محمداً صلى الله عليه وسلم في هالة من النور يخطف سناها الأبصار ، يقول وهو يلوّح الىّ

بيده : « اقتربى يافاطمة » . ولو أنك أبصرتها وهي تنطق باسم النبى محمد لرأيت رِعْدَة تتمشى بين أعطافها وأطرافها حتى تنتهى الى أسنانها فتخالف بينها ، والى لسانها فتعقله ، والى وجهها فتحيل لونه . فلم تكد تستتم جملتها حتى أخذتها رجفة فهوت على مقعدها كأنها بناء منتقض ! الى ذلك الحدّ غشى النّاس ما غشيهم من الحزن . وأبصرت بشيخ يتمشى فى ردهة القطار فطلبت اليه أن يؤذن في أذنها ، فلما انتهى الى قوله « أشهد أن محمداً رسول الله » تنفست الصُّعَدَاء ، وأمعنت في البكاء ، وعاودتها سيرتها الأولى . فلما أفاقت قلت لها : ومِمَّ تخافين وتفزعين ؟ قالت : انه سيؤمر بى الى دير . . . حيث ينهلون السياط من دمى . ولست من ذلك أخاف . ألا ان أخوف ما أخاف يومئذ أن يحال بين صلاتى ونسكى ! قلت لها : يا فاطمة أوَلا أدلك على خير من ذلك ؟ قالت : أجل . قلت ان حكم الاسلام على القلوب . فما عليك لو أقررت بين يدي المعتمد بدينك القديم ، وأودعت الاسلام بين شغاف قلبك ، حتى لا يفوتك أن تقيمي شعائره حيث تشاءين ؟ . هنالك نظرت الىّ نظرة تضاءلتُ دونها حتى خفيتُ على نفسى ثم قالت : « دون ذلك حزّ الأعناق وتفصيل المفاصل ! دعنى ! فانى ان أطعت نفسى عصانى لسانى » . وكان ضلالاً ما توسلت به أنا وأبوها ومَن حولها .

كان ذلك حتى أوفينا على القاهرة فحيل دونها .

لم أعلم بعد ذلك شيئاً من أمر فاطمة لأنى لم أستطع أن أعلم . . .

رحمة الله وبركاته عليك يا فاطمة ، فما أنت أولى شهيدات الرأى الحر ، والايمان الوثيق .

ذلك ما رأيته ، ولا والله ما غيّرت منه شيئاً الا أن يكون اللفظ بمرادفه . فان يكن الوقوف دون الحقيقة تغييراً فذلك مالي العذر فيه .

مِثْلُ ذلك التصديق العميق من شأن المرأة وطبيعتها ، وسبيله ما أسلفنا من خلالها وسجاياها . واذا كان جمهور النساء يقدسن أجداث الموتى ، ويؤمنّ بنوافر العادات فلا يتحولن عن ذلك الايمان المقدس مهما خانتهن التجارب وأخلفت منهن الظنون ، فكيف بهن لو وجهت وجوههن الى الله العزيز القهار ، وعلمن حق العلم انه وحده بارئ النسم ، ومبيد الأمم ، وانه وحده العليم بخفيات السرائر ، ونزعات الضمائر ؟

لذلك كان دين المرأة — اذا طُبعت عليه — أكثرَ وضحاً ، وأوضح سناً ، وأرسخ أصولاً ، وأبعد عن عثرات الحيرة ونزغات الشيطان — من دين الرجل . ولذلك كانت — اذا أُخذت به ، ونشأت على حبه — أشد الناس عصمة في السر والعلانية ، وأطهرهم صحيفة في المشهد والمغيب ، وأبعدهم عن اقتراف المآثم ، واجتراح المحارم ، اذا سكنت ألسنة الزواجر ، وهدأت عيون الرقباء .

ان ضلالاً ان تعمد الى الصبيّة فتعصبها بالشدة ، وتقنعها بالهوان . فانك ان فعلت هوّنت نفسها ، وثلمت حسها ، فلا تشعر بعدئذ بأوزار العار ، ولا تبتئس بانثلام الشرف . وخيرٌ للعالَم يومئذ ان تطوى صفحتها ، وتودى بحياتها من أن تقذفه بها داء دويا ، وجرثومة وبيئة .

وان محالاً أن تعمد الى الأخلاق النظرية فتسوقها اليها قواعدَ يزحم بعضها بعضاً ، وعظاتٍ ينهال بعضها على بعض . فان ذلك مما يَكِدُّ ذهنها ،

ويثقل خاطرها . وربما شق عليها استظهارها ، فابغضتها وأبغضت ماحوتها .

ليس الا الدين . فهو وحده الذى يملك زمام نفسها ، وقوام أمرها ، بما فيه من ذكر الله ، ووصف جلاله وعظمته ، وملكوته وجبروته ، وعجيب صنعه وبديع آياته ، وقدرته ورحمته ، وناره وجنته ، وأشباه ذلك مما يوافق سجيتها ويثير عاطفتها ، ويزيد غرسها زكاء ، ونفسها صفاء .

وليس بفائتنا أن نقص عليك قَصَصاً مما يسوقه بعض كتب التربية الفرنسية دعماً لذلك الرأى واعزازاً له :

قالوا : ان صبيّة في التاسعة من عمرها مَرِنت على الإساءة الى أُمها ، ولم تزدها الا جفوة وعنادا ، حتى لقد رمتها ذات عشية بقطعة من الخبز كانت في يدها ! ذُهلت الأم لذلك واضطربت . وخرجت لساعتها الى مربية ابنتها بالمدرسة تشكو اليها بثها ، وسوء صنيع ابنتها بها . فهدأت ثائرتها ، وقالت لها : دعينى واياها .

استهل الصباح ، فدرجت الصبية الى مدرستها . ودق ناقوس الكنيسة فغدا اليها التلميذات وهى معهن ، ثم أخذت كل واحدة مكانها . واقبلت المربية فجلست مطرقة صامتة ، لا تقول شيئاً ، ولا تفعل شيئا . تطاول الوقت حتى أوشك أن ينتهى . ونشرت السكينة رواقها على البنات جميعاً ، وأبى عليهن جلال المكان وهيبة المربية أن يكلمنها . ثم اعتزمت الكلام فكن جميعاً عيوناً شواخص اليها وقلوباً حوائم عليها . فانطلقت تقول :

ينكن صبية أغضبت الله !. . . وأخشى أن يشملنا جميعاً غضبه لوجودها فينا . أو تعلمن أىّ اثم اقترفت ، والى أىّ هاوية من الخطيئة سقطت ؟ انها

أهانت أمها ! ! فأما حديثها ووصف اهاتها فأتتن في غنى عنه ، لأنه موجع مؤلم، وليس لمثلي أن يفوه به . فأنا أخجل أن أُقرَن بين يدى الله الى صبية آثمة

هنالك أخذت كل واحدة تفتش في ثوبها هل تجد بين حواشيه تلك الفتاة الآثمة ؟ فأما من ذكرت لأمها قبلة ، أو اعتناقة ، أو دعوة بخير ، فتلك الظافرة المبتهجة .

أما صبيتنا فقد ودَّت لو انفرجت الأرض فوارتها بين أحشائها . ولو وفقت الى ذلك لتامست المهرب من غضب الله ، وايلام الضمير فلا تجده .

أقامت الصبية نهارها ، ولو أقامته على أنياب الأفاعى لكان أهون عليها وأروح لها مما لقيت . حتى اذا آذنت للمدرسة بالانصراف ، خرجت وهي تتلفت في كل ناحية . فما كادت تنتهى الى أمها حتى ارتمت مُكِبَّةً عليها ، تقبلها وتبلها بدموعها . ومنذ ذلك الحين أصبحت أسمى البنات أدباً ، وأسمحهن خلقاً

فيأيها الماضون فى تعليم البنت : وَطِّنوا أنفسكم قبل أن تبدأوا أعمالكم ، أن تجعلوا الدين علمها الخفاق على رأسها ، واكليلها المشرق فوق جبينها ، وكوكبها المتألق في ظلمات الدهر ، ومدلهمات الخطوب . والا فقَدْتُم خلقها ، وهو أعزّ ما ملكت يمينها . وهنالك لا تجدون العلم الا مدرجة الشر ، وسبيل الفساد ؟

المرأة العربية

في ظل الاسلام

دور العظمة

أسفر نور الاسلام فافترَّ ثغر الدهر لنساء العرب عن جوّ مُشرق ، وأمل بعيد ، وأسلوب من الحياة جديد

لقد كان للمرأة العربية في عهد جاهليتها فضائلها المكسوبة ، ومواهبها الموروثة ، وحقوقها التى تمَّ لها بعضها ، وسلب الجهل وسوء نظام الاجتماع بقيَّتها فأما وقد رسخت أصول الاسلام ، ووَرِفت ظلاله ، وخفقت على الخافقين أعلامه ، ونَعِمَتْ هي تحت ظله بوثوق الايمان ، وتقلبت بين أعطاف الملك ، ونهلت من معين العلم ، وضربت بسهم في التشريع ، وشُرِع لها من الحقوق ما لم يُشرَع لأمة من الأُمم فى عصر من العصور — فقد أمعنت في سبيل الكمال طَلْقة العنان ، حتى أخجلت مَن بين يديها ، وأعجزت من خلفها ، فلم تشبهها امرأة من نساء العالمين في جلال حياتها ، وسناء منزلتها .

ذلك حكم للحقيقة وللتاريخ لا لعاطفة الدين، ولا لآصِرَة الرحم، ولا لحسن نسق اللفظ. له عِلَله وحِكَمه، وأسبابه ودواعيه، ومقدماته ونتائجه. وإنا لماضون بعون الله في الوفاء بذلك كله. بادئين بما منع الاسلام عنها من حيف، وما شرع لها من حق. معتمدين فيما نقول على كتاب الله، وسنة رسوله وسيرة البررة الأخيار من آله وصحابته. فذلك كله مرجع أمرنا، ومنار بصائرنا

المرأة العربية

بين العهدين

على الرغم مما لقيت المرأة العربية في عهد جاهليتها من كرامة لا تمارَى، ومكانة لا تُسامَى، ومجالات درجت فيها الى موطن الملك ملك الجوارح والقلوب — على الرغم من ذلك كله تعثر بها الدهر عثرات، وقَرَتْ في بعض المواطن عظمها، وانتظمت قلبها، وتغشَّتها بظُلَل من الفزع، وظامات من الأهوال

كذلك لبثت المرأة العربية تتعثر حتى استبان وضح الاسلام فأقالتها يد الله وهأنذا أبسط القول فيما رفع الاسلام عنها من غواشي الظلم في عامة أحوالها، ومختلف أطوارها.

— ١ —

الوليدة المسلمة

من العرب مَن كان يرى البنت حملاً فادحاً يضعف دونه احتماله، وتتخاذل قواه لفرط مايُشفق من وصمة الذل، ووسم العار، اذا وهنت نفسها، أو ذهب

السباء بها ، فكان بين أن يستبقيها على كره لها ، ومضض منها ، وترقب لموتها ، أو يفزع الى الحُفَر فيقذفها في جوفها ، ويُهيل التراب على غَضَارة عُودها ، ونضارة وجهها . فما أشدَّ ما عاب الله أمر ذلك عليهم ، ونقمه منهم ، ودلَّ على سفه رأيهم وسوء صنيعهم في مواطن كثيرة من كتابه الكريم فقال جل ذكره :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِٱلْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

وقال تباركت آيته : « وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[2] »

وقال تعالت حِكمته : « قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »

وفي القرآن الكريم كثير من مثل ذلك أليم شديد .

وكان قيس بن عاصم المِنقَرِى يُحَدِّث بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم عن ضحاياه الموءودات وانه ذهب باثنتى عشرة منهن . فقال عليه الصلاة والسلام « مَن لا يَرحم لا يُرحم » وأمره أن يعتق بكل واحدة جارية مؤمنة[3]

---

١ الكظيم الممتلئ غيظاً وأصل الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه اذا أخذ بمخرج نفسه ومنه كظم الغيظ لاخفائه وحبسه عن الوصول الى مخرجه ٢ انما صرف الله سبحانه السؤال الى الموءودة ولم يوجهه الى الوائد اظهارا لفرط السخط عليه والاحتقار له كأنه لهوان شأنه وشناع جرمه لايستحق أن يوجه السؤال اليه ٣ محاضرات الادباء ج ١ ص ١٥٧ وتفسير الطبرى ج ٣٠ ص ٤٠ : وكان قيس من سادات تميم وممن عقدت عليهم الخناصر في البسالة والفصاحة والكرم والحلم . وكان الاحنف بن قيس يقول انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم .

وكان العرب يأنفون أن يداعب الرجل وليدته ، أو يسمح لها أن تمرح بين يديه . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نقض تلك السنة السيئة ، فلم يكن يضنّ بوقته الأعزّ أن يداعب فيه الولائد من بناته أو بنات صحابته .

فقد حدَّث البخارى عن أبى قتادة قال : خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فاذا ركع وضعها واذا رفع رفعها[1]

حضرته يوما وهو محتب « أى ضام ساقيه الى صدره » يحدث اذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له موثق فقالوا ان هذا قد قتل ابنك هذا فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى اذا فرغ من الحديث التفت اليهم فقال رعبتم الفتى وأقبل عليه وقال يابنى نقصت عددك وأوهنت ركنك وفتت عضدك واشمت عدوك وأسأت بقومك ثم قال أين ابنى فلان فجاءه فقال يابنى قم الى ابن عمك فأطلقه والى أخيك فادفنه والى أم القتيل فاعطها مائة ناقة فانها غريبة لعلها تسلو ثم اتكأ على شقه الأيسر وأنشأ يقول

انى امرؤ لا يعترى خلقى ... دنس يفنده ولا أفن
من منقر من بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحسن جواره فطن

وقد وفد قيس على رسول الله في وفد بنى تميم ودعاه صلى الله عليه وسلم سيد أهل الوبر — أى سيد أهل البادية — وفيه يقول عبيدة بن الطبيب — وقد وقف على قبره —

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ماشاء أن يترحما
سلام امرئ جلته منك نعمة ... اذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ومما قالوا في حديث هذا الوأد ان النعمان بن المنذر أوقع ببنى تميم لنعمهم الاتاوة عنه فاستاق نعمهم وسبى نساءهم — وفيهن بنت لقيس — فوفدت وفودهم على النعمان ضارعين اليه أن يرد عليه نساءهم فحكم النعمان أن يجعل الخيار الى النساء فأية امرأة آثرت زوجها ردت اليه فكلهن اخترن أزواجهن الا ابنة قيس فأنها اختارت سابيها فنذر قيس أن يئد كل ابنة تولد له ١ صحيح البخارى ج ٨ ص ٧ — طبع بولاق — وفي رواية ابن سعد

وحدثت أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي وعليّ قميص أصفر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سنه سنه » – وهي بالحبشية حَسَنة – قالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة فانتهرني أبي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَبْلِي وأَخْلِقي ثم أبلي وأخلقي » فعمَّرت بعد ذلك ما شاء الله أن تعمر[1] .

عن أبي قتادة [بينا نحن على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع — وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهي صبية قال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على عاتقه يضعها اذا ركع ويعيدها على عاتقه اذا قام حتى قضى صلاته يفعل ذلك بها]

وكانت أمامة من أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حديث ابن سعد انه صلى الله عليه وسلم دخل على أهله ومعه قلادة جزع فقال لأعطينها أحبكن الى فقلن يدفعها الى ابنة أبي بكر فدعا بابنة أبي العاص فعقدها بيده

وقد زوجت أمامة من على بن أبى طالب عليه السلام بعد موت خالتها فاطمة صلوات الله عليها

١ ام خالد : هى أمة — بفتح الهمزة والميم — بنت خالد بن سعيد بن العاص ابن عبد شمس . وكان خالد بن سعيد قد هاجر الى الحبشة ومعه امرأته هيمنة بنت خلف فولدت له هناك أمة وهنالك قضت شطرا من عهد طفولتها وآبت الى المدينة وقد بدأت تدرك ما يحيط بها . ومما قالت : سمعت النجاشى يوم خرجنا يقول لاصحاب السفينتين أقرئوا جميعا رسول الله منى السلام فكنت أنا فيمن بلغ رسول الله

وهى من اللواتي روين كثيرا عن رسول الله

وفي رواية ابن سعد عن اسحاق بن سعيد عن أبيه عن أم خالد قالت أتى رسول الله بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة — الخميصة كساء أسود مربع له علمان — فقال من ترون أكسو هذه الخميصة قالت فأسكت القوم فقال ائتونى بأم خالد قالت فأتى بى رسول الله أحمل فألبسنيها بيده وقال أبلي وأخلقي — يقولها مرتين أو ثلاثا — وجعل ينظر الى علم في الخميصة

ومن حديث عنايته صلى الله عليه وسلم بهن ، وأمره ببذل الرحمة ، واسداء المعونة لهن ، ما حدثت عائشة أم المؤمنين قالت : جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة . فأعطيتها . فقسمتْها بين ابنتيها . ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته . فقال : « من ابتُلِي من هذه البنات بشىء كنَّ له سِتْرًا من النار[1] » .

***

أما حبه عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة ، وشغفه بها ، وحنانه عليها ، فما لا يحيط به وصف ولا يناله بيان . وهي التى يقول فيها : فاطمة بضعة منى يسوءني ما يسوءها ، ويسرني ما يسرها .

أبصر المسلمون كل ذلك ، ورأوا أن الله لم يختص فاطمة بنت محمد بذرية رسوله الا ليُشيد بالمرأة ، وينهض بأمرها ، ويرفع من شأنها ، ويأخذ العرب بحبها ، والابتهاج بها . فغدوا من بعده يحبون بناتهم ويُكرِمونهن ، ويرون الخير كله معقوداً بنواصيهن . وقد استخلص وهب بن مُنَبِّه من تقديمه سبحانه الإناث في قوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ » ان من يُمن المرأة أن تلد الأنثى قبل الذكر .

أصفر أو أحمر فقال هذا سنا يا أم خالد هذا سنا يا أم خالد — ويشير بأصبعه الى العلم — والسنا باسان الحبش الحسن

وتزوجت أمة بالزبير بن العوام فولدت له عمرا وخالدا . وعمرت من بعده أمدا طويلا وخاتم النبوة سمة مستديرة من الشعر بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم

١ ج ارشاد الساري ٣ ص ٢٢ طبع بولاق

وكان لمعن بن أوس[1] ثمان بنات، ويقول : ما أُحب أن يكون لى بهن رجال . وفيهن قال :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا نُكذَب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملانه ونوائح

وحدّثوا ان عمرو بن العاص دخل على معاوية بن أبي سفيان وعنده بنت له يلاعبها . فقال له : انبذها عنك يا أمير المؤمنين ! فوالله انهن يلدن الأعداء ، ويقرّبن البعداء ، ويؤدّين الضغائن . فقال معاوية : لا تقل ، فما ندب الموتى ، ولا تفقّدَ المرضى ، ولا أعان على الحزن مثلهن .

وقال الزهرى : كانوا — يريد أصحاب رسول الله — لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة ، ولا جهاداً ، لحاجتهن اليه ، وشغله بهن ، والعناية بتربيتهن[2]

وكأن أبا خالد القناني[3] — وكان من غُلاة الخوارج — يشير الى ذلك ، وكان قد طُلب اليه العُدُوّ الى القتال فقال :

---

١ كان معن سيدا من سادات مزينة وعلماً من أعلام التابعين ورأساً من رؤوس الشعراء حدث أبو على القالى عن أبى عبيدة قال كان عبد الملك بن مروان ذات ليلة في سمره مع ولده وأهل بيته وخاصته فقال لهم : ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل في الشعر وليفضل من رأى تفضيله فأنشدوا وفضلوا فقال بعضهم امرؤ القيس وقال بعضهم النابغة وقال بعضهم الاعشى فلما فرغوا قال أشعر والله من هؤلاء جميعاً عندى الذى يقول

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وليس له حلم
يحاول رغمى لا يحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به الرغم

الى آخر القصيدة — أمالى القالى ج ٢ ص ١٠٣ — ١٠٥ فقيل له يا أمير المؤمنين من قائل هذه الابيات قال معن بن أوس المزنى ٢ محاضرات الادباء ج ١ ص ١٥٥

٣ كان أبو خالد من زعماء الخوارج وعلمائهم وكان من القعدة — الذين لا يرون

لقد زاد الحياة الىَّ حبًّا بناتى انهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى وأن يشربن رنقاً بعد صاف
وأن يعرين ان كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سوّمت مُهرى وفى الرحمن للضعفاء كاف
أبانا من لنا ان غبت عنا وجدّ الحي بعدك في اختلاف

— ٢ —

فوارق النساء

مزّق الاسلام حجب الفوارق بين النساء ، كما مزّقها بين الرجال . فتطامنت الرؤوس ، وتساوت النفوس ، فلم يكن بين المرأة والمرأة الا الخير تتقدّم به ، أو العمل الصالح تسبق اليه . فامّا أن تُدِلَّ بعَرَض طارف ، أو تعتزّ بحسب قديم فذلك ما لا يقدّمها أُنملة ، ولا يُغنى عنها من الله شيئا .

لقد شرع الله للمؤمنين شِرعة الإخاء بقوله جلّ شأنه : « انما المؤمنون إخوة » فلم يكن يَفْرِق بين المسلمة والمسلم ، ولا بين المسلم والمسلمة ، الا شريف الخلق وخسيسه . فذلك حيث يقول الله تبارك حكمته فى كتابه الكريم :

خوض الحروب — وسبيله في ذلك ما أوضحه في أبياته . وكان قطرى بن الفجاءة كبير الخوارج قد كتب اليه :

أبا خالد انفر فلست بخالد وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجي على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد

فأجابه بما أسلفنا من شعره — الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢١ مطبعة التقدم

« اَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ » . وكذلك استنَّ رسوله صلى الله عليه وسلم سنة المساواة بقوله : « ألا وإن المسلم أخو المسلم فلا يحلُّ لمسلم من أخيه إلا ما أحلَّ من نفسه » . وهو الذى يقول صلى الله عليه وسلم : « كل نسب وسبب يوم القيامة مقطوع الا نسبي وسببي » . ولا أدلَّ على ما نقول من حديث فاطمة بنت الأسود المخزومية — وهى امرأة من ذوات الشرف والحَسَب من قريش — وَهَنت نفسها فسرقت ، فقامت عليها البينة ، فوجب عليها الحد . فأهَمَّ ذلك قريشاً . فقالوا : من يُكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أتشفع في حدّ من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : يأيها الناس انما ضلَّ مَنْ قبلكم أنهم اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها[1] .

---

١ ارشاد الساري ج ٩ ص ٥٠٤—٥٠٥ طبع بولاق

فاطمة بنت الاسود : هى فاطمة بنت الاسود بن عبد الاسود المخزومية . وعمها أبو سلمة ابن عبد الأسد الزوج الاول لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها . وكانت قد سرقت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حلياً في قطيفة . وقيل كانت تستعير المتاع وتجحده . وقد ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من قريش فعرضوا عليه أن يفتدوا فاطمة بأربعين أوقية من الذهب . فقال : تطهر — أى يقام عليها الحد — خير لها . ففرهم ذلك الاسلوب من نبي الله . فكلموا أسامة . فكان ما أسلفنا في الحديث الشريف . وقد تولى بلال قطع يدها . أقول : وقد أحسنت فاطمة الانابة الى الله بعد ذلك

أما أسامة فهو حب رسول الله ، وابن مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنهما . وكان

أرأيت لو ذهبت صبيَّة جارية بقطيع من الغنم ، فعدا الذئب على واحدة فأكلها ، فنهض مولى الصبية اليها يضربها ، أكان ذلك غريباً على الناس ، بعيداً عن مواقع أسماعهم وأبصارهم ؟ لقد حَدَث ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وغدا الرجل على رسول الله يخبره بما أصاب به جاريته . فاشتدَّ بالنبي الغضب حتى احمرَّ وجهه ، وهاب أصحابه أن يكلموه . ووقف الرجل واجماً لاحراك به . وقال عليه الصلاة والسلام عند ذلك : وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ! وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ! . وما زال يكررها . ثم قال : ان خدمكم اخوانكم جعل الله لكم الولاية عليهم . فلم يجد الرجل مساغا من موقفه إلا بعتق جاريته[1] .

رسول الله يقرنه في الحب بالحسن بن علىّ عليهما السلام . ومن حديث البخارى عن أسامة أن رسول الله كان يضعه على فخذه والحسن على فخذه الاخرى ثم يضمهما ويقول : اللهم ارحمهما فانى أرحمهما . وقد قتل أبوه في غزوة مؤتة وكان قائد القوم . وأسامة يومئذ صبى . وقد جهز رسول الله أسامة في جيش عظيم الى أبنى — بالشام — وهو على رأس الثامنة عشرة . ومات رسول الله قبل مسيره . فلما استخلف أبو بكر كان بدء عمله انفاذ الجيش وسار هو وعمر في ركاب أسامة . وكان ظفر الجيش بالروم عظيما . ومات أسامة سنة ثلاث وخمسين . رضى الله عنه

١ وفي رواية أبى حنيفة : ان عبد الله بن رواحة كانت له راعية تتعاهد غنمه وانه أمرها أن تتعاهد شاة . فتعاهدتها حتى سمنت الشاة . واشتغلت الراعية ببعض الغنم . فجاء الذئب فاختلس الشاة وقتلها . فجاء عبد الله وفقد الشاة ، فأخبرته الراعية بأمرها . فلطمها ثم ندم على ذلك . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال ضربت وجه مؤمنة ! فقال انها سوداء لا علم لها فأرسل اليها النبي صلى الله عليه سلم فسألها أين الله فقالت في السماء قال فمن أنا قالت رسول الله قال : انها مؤمنة فأعتقها . فأعتقها مسند الامام ابي حنيفة ص ٣

ولقد ورث عليه الصلاة والسلام فيما ورث عن أبيه جارية عَسْراء اللسان لا تكاد تُبين : هي أم أيمن . فكان صلى الله عليه وسلم يدعوها أُمّه . وكان اذا نظر اليها قال : هذه بقية أهل بيتي[1]

وكان من أشد ما يؤلم نفسه الكريمة ، أن يسمع الرجل يعيّر الرجل بأمه . وآية ذلك ما حَدَّث المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذَرّ الغِفَارى وعليه حُلة وعلى غلامه حُلة . فسألناه عن ذلك فقال : انى سابيت رجلاً فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أعيَّرته بأمه ! انك امرؤ

١ كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص ١٦٢ طبع ليدن

ام أيمن : هى حاضنة رسول الله ومربيته . ورثها رسول الله فيما ورث عن أبيه وقد أعتقها حين تزوج خديجة عليها السلام فتزوجها عبيد بن زيد الانصارى فولدت له أيمن . وكان أيمن موفور الدين . قتل شهيدا يوم حنين رضي الله عنه . ولما مات عبيد خلفه عليها زيد بن حارثة فولدت له أسامة . وكان مما عظمها في عين زيد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن

وهى من اللواتى أكرمهن الله وأحسن مثوبتهن في الدنيا والآخرة : حدث ابن سعد عن عثمان بن القاسم قال : لما هاجرت أم أيمن امست بالمنصرف دون الروحاء فعطشت وليس معها ماء وهى صائمة فجهدها العطش فدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فأخذته فشربت منه حتى رويت فكانت تقول ما أصابنى بعد ذلك عطش ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة وان كنت لأصوم في اليوم الحار فما أعطش

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأنس بها ويمازحها . وكانت عسراء اللسان ومن عسر لسانها انها كانت تقول اذا دخلت على رسول الله : سلام لا عليكم — تريد سلام الله عليكم — فرخص لها عليه الصلاة والسلام أن تقول : السلام . ومن حديثها انها قالت لرسول الله وهو خارج في جيشه الى حنين " سبت الله أقدامكم " — بالسين — تريد ثبت — بالثاء — ومعنى سبت قطع — فقال صلى الله عليه وسلم اسكتى يا أم أيمن فانك عسراء اللسان وقد حضرت أم أيمن أحداً مع رسول الله فكانت تسقى الماء وتداوى الجرحى

فيك جاهلية . ثم قال : ان خدمكم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يَغْلِبُهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم[1] .

١ ارشاد السارى ج ٣ ص ٣٦١

أبو ذر هو جندب بن جنادة بن سكن الغفارى — وغفار بطن من كنانة — أحد السابقين الاولين من المؤمنين . أسلم والاسلام فى مستهل أمره والنبي غريب فى قومه فكان قوة صادعه وعضدا قويا . وحديث اسلامه حديث بديع وهو فيما رواه البخارى قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأخيه : اركب الى هذا الوادى — يريد وادى مكة — فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم انه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتنى فانطلق الاخ حتى قدمه وسمع من قوله ثم رجع الى أبي ذر فقال رأيته يأمر بمكارم الاخلاق وبقول كلاما ماهو بالشعر فقال ماشفيتنى مما أردت فتزود وحمل شنة له فيها ماء — والشنة القربة الخلقة — حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه فأدركه بعض الليل فرآه على بن أبي طالب فعرف انه غريب فلما رآه تبعه فلم يسأل واحدا منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ثم احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسى فعاد الى مضجعه فمر به على فقال أما آن للرجل أن يعلم منزله — وذلك أسلوب بديع للدعوة الى الضيافة — فأقامه فذهب معه لايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى كان يوم الثالث فعاد على على مثل ذلك ثم قال ألا تحدثنى ما الذى أقدمك . قال ان أعطيتنى عهدا وميثاقا لترشدنى فعلت ففعل فأخبره فقال فانه حق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أصبحت فاتبعني فاني ان رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء فان مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى قال والذى نفسى بيده لأصرخن بها — يريد كلمة التوحيد — بين ظهرانيهم — يريد قريشاً — فخرج حتى أتى المسجد — يريد الكعبة — فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول ثم قام القوم — من قريش — فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ألستم تعلمون انه من غفار ؟ وان طريق تجاركم الى الشام عليهم ؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكب العباس عليه فأنقذه منهم ورجع الى قومه فأسلم

ذلك الإخاء الشامل هو الذى حمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يزوّج ابنه عاصما — وهو أحب أبنائه اليه — من ابنة امرأة تبيع اللبن في الطريق ، وهو لو شاء زَفَّ اليه أكرم وأعزّ امرأة في العالم . ولكنه آثر الخلق العظيم على البيت الكريم ، والمجد القديم . وتفصيل ذلك فيما رواه الميدانى أن عمر رضى الله عنه مرّ بسوق الليل — وهى من أسواق المدينة — فرأى امرأة معها لبن تبيعه ، ومعها بنت لها شابة . وقد همت العجوز أن تمْذِق لبنها — تخلطه بالماء — فجعلت الشابة تقول : يا أُمَّه لا تمذقيه ولا تَغُشّيه . فوقف عليها عمر فقال : مَن هذه منك ؟ قالت : ابنتى . فأمر عاصما فتزوجها .

أقول : وقد أنجبت هذه المرأة — فيمن أنجبت — أورع الملوك وأعدلهم وأجلّهم عمر بن عبد العزيز ، فهي جدّته لأمه . رضي الله عنهم أجمعين[1] .

— ٣ —

بوائق الغيرة

الغيرة ضرب من ضروب الأَثَرة ، لا بد منه لحياطة الشرف ، وصيانة العرض وهي مثار الحمية والحفيظة فيمن لا حمية ولا حفيظة له . وانما تقبل — بل تجب —

أخوه وأسلمت أمه وتابعتهم غفار بعد ذلك . وكان رضي الله عنه من أحب الناس الى الله ورسوله وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر . ومات رضي الله عنه بالربذة سنة احدى وثلاثين

الاصابة ج ٧ ص ٦٢ المطبعة الشرفية

١ الميداني ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ المطبعة الخيرية

اذا خاف المرء على شرفه أن ينثلم ، وعرضه أن يهان . فاما أن تقتاد الرجل في كل آنة ، وتُفزعه في كل موطن ، فهي خَبْل ووسواس ، وأولى بها أن تدنى اليه الشر من حيث يتقيه .

ولقد مُنِيَ العرب فى جاهليتهم باتقاد الغيرة حتى جاوزوا بها طورها ، وحتى قادت فريقاً منهم الى قذف زوجته في عرضها ، لهاجس اعتاده ، أو خلجة من الشك نفذت اليه . فرفعوا خصومتهم ، واحتكموا في أعراضهم الى فريق الكهان والكواهن ، وهم بَشَر يقذفون الغيب برجم الظنون ، فيخطئون ويصيبون

وان من أشد ضروب الوهم ، وأفدح أثقال الظلم ، أن ترى العربى يريد السفر ، فيعمد الى شجرة فيعقد بين غصنين منها ، فان عاد وكان الغصنان على حالهما ، زعم أنها لم تخنه ، وإلا فقد خانته . وذلك ما يسمونه بالرَّتِيمة[1] . كأن عرض المرأة ، بل عرض الأسرة ، بل عرض الحي الذى نشأت المرأة بين ربوعه ، ودرجت بين مدارجه مُرْتَهَن بغصنين ، تعصف بهما الريح ، أو تعبث بهما الأيدى ، فتفرق بينهما .

أما أسباب تلك الغيرة الموبقة ، فقد قطعها الاسلام ، إلا أن تكون عن علم وبينة . فأما حكم الرِّيب ، واحتكام الشبهات فذلك ما ليس من الدين في شىء

وقد فرض الله جل ذكره على من رمى امرأته في عرضها أن يشهد أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، فيما قال وادعى . والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين . فان لم يصدع بتلك الشهادات الخمس ، فعقوبته عقوبة

١ لسان العرب ج ١٥ ص ١١٦ طبع بولاق

قاذف المحصنات يُجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهادة أبداً ، وهو عند الله من الفاسقين .

***

وهنالك حديثان حدَّث بهما البخارى عن نبى الله صلى الله عليه وسلم يكشفان عن مواطن الغيرة حقها وباطلها ، وما ورد من حكم الله ورسوله فيها .

فالاول حديث المغيرة قال :

قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مُصْفَح — أى غير مائل عرضاً — فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغيرُ مني ، ومن أجل غَيْرَة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن[1] .

وأما الثانى فحديثه عن أبى هريرة قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه أعرابى فقال : يا رسول الله ان امرأتى ولدت غلاماً أسود . فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : ما ألوانها ؟ قال : حُمْر . قال : أفيها أوْرَق ؟ قال :

١ ارشاد السارى ج ٨ ص ١٢٢ — ١٢٣

سعد بن عبادة : هو السيد البطل الكريم سعد بن عبادة بن دليم الانصارى سيد الخزرج وأحد النقباء الذين قال لهم رسول الله في بيعة العقبة أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء كـكفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي . فقالوا : نعم . وكان سعد من أندى الرجل يداً وأعرفهم بالرمى والسباحة ولذلك كانوا يسمونه الكامل . وكان مناديه ينادى كل يوم : من أراد شحماً ولحماً فليأت سعداً . وكانت مائدته تدور مع النبى صلى الله عليه وسلم في بيوت أزواجه . وكان يضيف كل ليلة ثمانين من أهل الصفة — المنقطعين للعبادة — ومن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . ومات رضى الله عنه بحوران سنة خمس عشرة

نعم . قال : فأنَّى كان ذلك ؟ قال : أراه عِرْقٌ نزعه . قال : فلعل ابنك هذا نزعه العرق[1]

فانظر كيف شرع النبى صلى الله عليه وسلم شرعة الغيرة وَضّاحة صافية لا مجال فيها لنزعات الوهم ، وعثرات الوساوس ، وكيف اتّقاها ووَقى الناس شرها من التباس الشك ، واحتكام الظنون .

ان في دفع النبى صلى الله عليه وسلم شر التهمة عن امرأة الأعرابى لدليلاً لا يقبل الشك على براءتها ، وطهارة عرضها . فما كان الرجل فاعلاً لو كان في عهد جاهليته ولم يهتد بقَبَس من نور النبوة ؟ ليس بين يديه إلا أن يفتك بها ويروى غليل نفسه بنقيع دمها ، أو أن يتامس العرّافين والمُنَجّمين ليُلقوا اليه بالكلمة الحمقاء فيكون لها ما بعدها . وليس وراء الحالتين إلا عار الدهر ، وذلّ الأبد .

لذلك تحامى المسلمون مواطن الظُّنَن ، ومداحض التهم ، حتى عدُّوا الاعتساف في الغيرة سِمَةً من الحمق ، لا يستحقُّ صاحبها أن يُسَوَّد أو يطاع . ومن ذلك ما قال معاوية بن أبى سفيان : ثلاث من السؤدد ، الصلع ، واندحاق البطن ، وترك الافراط في الغيرة[2] .

١ ارشاد السارى ج ١٠ ص ٣٨ طبع بولاق

واسم ذلك الاعرابي ضمضم بن قتادة . والبعير الاورق الذى جمع بين السواد والبياض وقول الاعرابي « أراه عرق نزعه » أى ان أصلا من أصول نسبه جذبه اليه . قال صاحب الاصابة — ج ٣ ص ٢٧٤ — وقد قدم بعد ذلك عجائز من عجل — قبيلة المرأة — فشهدن بأن كان للمرأة جدة سوداء

٢ عيون الاخبار ج ١ ص ٣٦١ طبع كوتنكن واندحاق البطن اتساعها

وقد ظهر في المسلمين كثيرون ذمُّوا التورُّط في الغيرة ، وتوكيل الريب والظنون بالمرأة . ومما سار من القول في ذلك ، وحفل بوضح الرأى فيه ، قول مسكين الدارمي[1] :

واني امرؤ لا آلفُ البيت قاعداً ... الى جنب عِرسى لأفرطها شبرا
ولا مقسم لا أبرح الدهر بيتها ... لأجعله قبل الممات لها قبرا
اذا هي لم تُحْصِن أمام قِبابها ... فليس بمنجيها بنائى لها قصرا
ولا حاملى ظني ولا قيلُ قائل ... على حائط حتى أحيط بها خبرا
فهبني امرأ راعيت مادمت شاهداً ... فكيف اذا ماسرت من بيتها شهرا

وقوله :

ألا أيها الغائر المستشيط ... علام تغار اذا لم تُغَر
فما خير عرس اذا خفتها ... وما خير بيت اذا لم يُزَر
تغار على الناس أن ينظروا ... وهل يفتن الصالحات النظر

---

١ امالى المرتضى ج ٢ ص ١٢٣ — ١٢٥

مسكين الدارمى : هو ربيعة بن عامر . ومسكين لقب غلب عليه كان يصف نفسه به في مواطن وفى سبيله يقول

ان أدع مسكينا فلست بمنكر ... وهل ينكرن الشمس ذر شعاعها
لعمرك ما الاسماء الا علامة ... منار ومن خير المنار ارتفاعها

ومسكين فى الشرف الصميم من تميم . وكان صبيح الوجه فصيح اللسان ندى الكف عف السريرة . لذلك لم يأخذ فيما أخذ فيه شعراء عصره كجرير والفرزدق والاخطل من الهجاء وهو فى شعره فخور حكيم وهو الذى يقول

أخاك أخاك ان من لا أخا له ... كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح

فانى سأخلى لها بيتها ... فتحفظ لى نفسها أو تذر
اذا الله لم يعطه ودها ... فلن يعطى الود سوط مُمَرّ
ومن ذا يراعى له عرسه ... اذا ضمه والمطى السفر

وقوله :

ما أحسن الغيرة في حينها ... وأقبح الغيرة في غير حين
من لم يزل متهماً عرسه ... مناصباً فيها بوهم الظنون
يوشك أن يغريها بالذى ... يخاف أو ينصبها للعيون
حسبك من تحصينها ضمها ... منك الى خلق كريم ودين
لا تظهرَن منك على عورة ... فيتبع المقرون حبل القرين

ولعمرك ما كان مسكين في شىء من سُقُوط الهمة ، وفتور العزيمة ، ولؤم الحسب ، حتى يقال ضعف أن يملك امرأته فقال ما قال ، فاللهم لا . فانه هو السيد البطل ، الحكيم الكريم . وحسبك منه قوله :

اذا قصرت أيدى الرجال عن العلا ... مددت لها باعاً عليا فنلتها
ومكرمة كانت رعاية والدى ... فعلَّمنيها والدى فنقلتها
وانى سألقى الله لم أرم حرة ... ولم تأتمنى يوم سر فخنتها
ولا قاذف نفسى ونفسى بريئة ... وكيف اعتذارى بعد ماقد قذفتها

بل حسبك منه قوله :

نارى ونار الجار واحدة ... واليه قبلى ينزل القدر
ما ضر جارى اذ أجاوره ... ألا يكون لبيته ستر

أعمى اذا ما جارتى خرجت حتى يواري جارتى الخدر
ويصم عما كان بينهما سمعي وما بى غيره وقر

— ٤ —

السباء

كانت الحرب تعصف بالعرب ما شاءت أن تعصف ، ثم تنكشف عنهم وهم بين قاهر محتكم ، ومقهور ذليل . ثم لا تسكن نأمتها ، ولا يخفت هديرها حتى يستبيح القاهر حمى المقهور ، ويستاق نساءه حواسر الرؤوس ، بين ذل الغربة ، وعار السباء . وهو بعد ذلك إما مجمل يعتقهن فيتزوجهن ، وإما بغيض منتقم يتخذ منهن رعاة الإبل ، وجواري الخسف ، ما شاءت له ثائرة نفسه ، وسموم حقده ، وبين هذا وذاك يحال بينهن وبين ذويهن فلا يلقون بعدهن إلا الهوان .

وأى نكبة تمرّ بالمرأة أشد عليها من أن تكون ناعمة في دارها ، آمنة في سربها ، مبتهجة بين لداتها وعشيرتها ، ثم تمسى وقد سلّها القاهر المستبيح من ذلك كله ، وقادها الى امرأته سَبية أسيرة ، تطلب رحمتها ، وتسأل انصافها .

كان ذلك أشد مواطن الرَّوع والفزع في حياة المرأة العربية . فلما دخل العرب في دين الله أفواجا ، وأصبحوا بنعمته اخوانا ، حرم عليهم السباء . فلا يحل للمسلم أن يسبي المسلمة ، مهما عصفت بالقوم عواصف الفتن ، وفرّقتهم شُعَب الأهواء .

ولما سار خالد بن الوليد الى حرب المرتدين في عهد أبي بكر رضى الله عنه غدا على مالك بن نويرة وكان قد منع الزكاة وجحدها بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان أبو بكر قد أمره اذا سمع صوت المؤذن في قوم أن يكف عن قتالهم — فأذّن مؤذن مالك ، وخشى خالد خدعة الحرب ، فقاتل مالكا وقتله ، وانتزع زوجه ، واتخذها زوجا له ، فأثار ذلك حفيظة عمر بن الخطاب ، وهاج غضبه ، وقال لأبي بكر : اقتل خالداً ، فقد قتل مسلماً ، وزنى بمسلمة . فقال أبو بكر : ان خالداً تأول فأخطأ ولا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين فلولا ثقة أبي بكر بايمان خالد ، وايمانه بصفاء دينه ، وقوة يقينه ، وان رسول الله قال فيه : انه سيف من سيوف الله . لولا ذلك كله لما حمل عمله على خطأ الاجتهاد ولما جاوز فيه رأى صاحبه[1] .

***

ولقد ذاع الاسلام وبين أيدى العرب جوار من سباء الجاهلية ، فأولئك أقرهم الله سبحانه وتعالى عليهن بمثل قوله : « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ[2] » .

---

١ كان مالك بن نويرة من أشرف تميم حسبا وأصدقهم لقاء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاه هو وأربعة من هامات القوم امرة تميم . فلما قبض عليه الصلاة والسلام ، ارتدت تميم فيمن ارتد من العرب ، فرماهم أبو بكر بخالد بن الوليد وأوصاه ألا يقاتل قوماً حتى يدعوهم الى الاسلام ، فان أجابوه فلا سبيل له عليهم ، وآية طاعتهم أن يؤذن مؤذنهم . فلما قصد خالد مالكا وجده قد انبث هو وجنده في شعاب الصحراء ومسايل الماء ، فأحاط بهم وأتي بمالك فأمر ضرار بن الازور فقتله صبرا بين يديه . وشهد قوم عند أبي بكر انهم سمعوا أذان مالك وانه أقر بالاسلام بين يدى خالد ٢ سورة النساء

على انه جل ذكره حبب اليهم تحرير الرقاب ، ورغبهم ترغيباً شديداً في افتكاكها ، ورفع رقها ، بطرق ثلاث :

الأولى :- انه جعل ذلك أسمى ما يتقرب به الانسان اليه ، شكراً له على جليل نعمه ، وجزيل احسانه ، فذلك حيث يقول جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ[1] » .

الثانية :- انه تبارك آلاؤه ، اختص تحرير الرقاب بسهم من ثمانية أسهم من الزكاة . أعنى ان الإمام اذا اجتمعت له أموال الزكاة أفرد منها جزءاً لفك الرق عن الأرقاء ، فذلك حيث يقول سبحانه : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

الثالثة :- انه جعل تحرير الرقاب فى مقدمة كفارات كثيرة ، عن جرائم تجترم . فقال في كفارة الظِّهار[2] : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ

١ سورة البلد . والمراد بالنجدين طريق الخير والشر ، أو الثديان . والاصل في النجد المرتفع من الارض . والمسغبة الجوع . والمقربة القرابة . والمتربة الفقر

٢ كان من سنن العرب اذا غضب الرجل على امرأته أو مل عشرتها قال لها : أنت على كظهر أمى . فتحرم عليه ، ثم ربما عاودها بعد ذلك . وذلك ما يدعونه " الظهار " . فهو عند العرب ضرب من الفرقة دون الطلاق ، وربما استمر فكان طلاقا . فأما الاسلام فقد كشف القرآن الحكيم عن حكمه فيه في مستهل سورة المجادلة وذلك قوله جل آيته « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما

يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » .

وقال في كفارة اليمين : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ[1] » .

كذلك أوسع رسول الله صلى الله عليه وسلم القول في فضل تحرير الرقاب وانه خير ما يقرب العبد الى الله ويفيض نعمته عليه . ومن قوله صلى الله عليه وسلم في ذلك : أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران[2] . وقال عليه الصلاة والسلام : أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار[3] .

ان الله سميع بصير الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وان الله لعفو غفور والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » ... الى آخر الآيات البينات ، وقد نزلت في خويلة بنت ثعلبة ، وهى التى جادلت رسول الله . وحديث ذلك : ان أوس بن الصامت الانصارى غاضب امرأته خويلة — وكان رجلا طولا ضيق الصدر — فقال لها : أنت على كظهر أمي . ثم اخذه الندم وقال : ما اظنك الا قد حرمت على ! فقالت : لا تقل ذلك فوالله ما احب الله طلاقا ، ثم قالت : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله . فقال : اني اجدني استحى منه أن أسأله عن هذا . فقالت : فدعنى ان اسأله . فقال لها : سليه . فجاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا نبي الله ، ان اوس بن الصامت ابو ولدى ، وأحب الناس الى ، قد قال كلمة والذى انزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا ، قال انت على كظهر امى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما اراك الا قد حرمت عليه . قالت : لا تقل ذلك يا نبي الله ، والله ما ذكر طلاقا . فرادت النبي صلى الله عليه وسلم مرارا . ثم قالت : اللهم اني اشكو اليك شدة حالى ، ووحدتي ، وما يشق على من فراقه . فلم ترم - تبرح - مكانها حتى انزل الله « قد سمع » ...

١ سورة المائدة . ولغو اليمين ما يبدر من المرء بلا قصد ، كقول الرجل لا والله ، او بلى والله . وتعقيد اليمين توثيقه بالقصد والنية ٢ القسطلاني ج ١ ص ٢٢٦ وج ٤ ص ٣٦٢ طبع بولاق

٣ القسطلاني ج ٤ ص ٣٣٨

على ذلك تتابع المسلمون وهم ينخلعون عما ملكت أيديهم بعضه أو جميعه تقرباً الى الله ، وشكراً له ، ومجلبة لرحمته ، واستدفاعاً لسخطه . ومنهم من كان يطوف على غلاظ الاكباد من السراة يشترى منهم عبيدهم وإماءهم ليحررهم ويرفع رقهم فى سبيل الله . ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه . ومنهم من خرج عن عبيده وإمائه جميعاً ، مؤثراً إطاعة الله ورضاه ، على نعيم دنياه .

ولئن سارع رجال المسلمين الى تحرير الرقاب ، لقد كان نساؤهم أطول بذلك يداً ، وأسخى نفساً ، وأروح قلباً . فما جَدَّت نعمة ، أو تكشفت حادثة أو عارضهن ريب الأمر ، أو نزعن الى رحمة من الله ، إلا وعتق الرقاب بادرة خواطرهن ، وسابقة إيمانهن . فقد تحللت عائشة أم المؤمنين من يمين أقسمتها بعشر من الجوارى أعتقتهن .

وكانت أسماء بنت أبى بكر اذا أحست بدبيب المرض خرجت عن امائها جميعاً[1] .

وان من ابتغاء الشطط أن يأتى القلم على اجمال ما أطلق المسلمات من إمائهن تأنقاً في الشكر ، وتفريجاً للضر ، وزلفى الى الله .

كذلك كان تحرير الرقاب أسمى مظاهر البر ، وأوضح مواطن الخير عند الموسرين من المسلمين . وكذلك أخذ الدين جماعة المؤمنين بالنزول عما ملكت أيديهم راضين مطمئنين . فان لم يكن عتق ، فرحمة ، وإخاء ، ورعاية حق ، وبذل معونة .

---

١ كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص ١٢٣ طبع ليدن

وما رأينا النبي الكريم تعاهد برحمته ووَصاته جماعة من المسلمين بمثل ما تعاهد جماعة الغلمان والجوارى ، حتى كان آخر ما أوصى به : « الصلاة وما ملكت أيمانكم[1] .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يجعل عتق الجارية فداءها من لطمة تصيبها[2] . وهل تجد في قديم الأمم وحديثها من منع عسف الرق ، ورفع شأن الأرقاء مثل رسول الله محمد بن عبد الله في قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله في خولكم ، فانهم أشقاؤكم ، لم ينحتوا من جبل ، ولم ينشروا من خشب . أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، واستعينوا بهم في أعمالكم ، فان عجزوا فأعينوهم ، فان كرهتموهم فبيعوهم ، ولا تعذبوا خلق الله[3] » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « اذا أتى أحدَكم خادمه بطعامه فان لم يجلسه معه فليطعمه أُكلة أو أُكلتين فانه ولى علاجه » . وقوله صلى الله عليه وسلم : لا يقُلْ أحدكم عبدى ، أمتى ، وليقل فتاى وفتاتي[4] .

وأى مولاة قوم أو مولى لهم يسمع قوله صلى الله عليه وسلم : للمملوك الصالح — اذا نصح سيده وأخلص عبادة ربه — أجران[5] . ثم لا يخفق قلبه غبطة وابتهاجاً بما سيضاعف له الله من أجر السراة الأحرار في الآخرة[6] ؟

---

١ محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٣٤ مطبعة المواسم ٢ تيسير الوصول ج ٣ ص ١٢

٣ محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٣٣ ٤ صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٠ المطبعة الخيرية

٥ صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٠ — ٦ ومن أجل ذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه — وهو راوى الحديث السالف — أما والله لولا الحج والجهاد وبر أمي لتمنيت أن أموت وأنا عبد مملوك — وقد روى هذا القول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— ٥ —

توريث البنات

سُنَّة من سنن العرب أن النساء لا يؤول اليهن من ميراث الرجال شيء . وكانوا يقولون في ذلك : لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمى البيضة . فاذا مات الرجل ورثه ابنه ، فان لم يكن فأقرب من وجد من أوليائه ، أبًا كان ، أو أخًا أو عمًا . على حين يضم بناته ونساءه الى بنات الوارث ونسائه . فيكون لهن ما لهن ، وعليهن ما عليهن . حتى جاء الاسلام فصدَع ذلك الضرب من الظلم ، واختص النساء بنصيب مما ترك الرجال . فذلك قوله جل ذكره : ,, لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضًا ،، .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرّ وأرحم بالبنت من أبيها . وان فيما حدّث البخارى عن سعد بن أبى وقّاص لبلاغًا لقوم يعقلون[1] .

---

١ سعد بن أبى وقاص : هو البطل الكريم والفاتح العظيم سعد بن مالك بن أهيب خال رسول الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة من أصحابه

صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته جميعاً ووقف ينزع بالسهم من دونه في أحد . وهو أول رجل رمى بسهم في سبيل الله

وبعد موت رسول الله سيره عمر الى القادسية فنال عرش الفرس في أعظم وقائع الاسلام وافتتح على أثرها المدائن واختط بعد ذلك مدينة الكوفة

وكانت وفاته رضى الله عنه في خلافة معاوية سنة ٥٥

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير اليه ويقول هذا خالى فليرنى امرؤ خاله

قال سعد : مرضت بمكة مرضا أشفيت منه على الموت ، فأتانى النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى . فقلت : يا رسول الله ، ان لى مالاً كثيراً ، وليس يرثنى إلا ابنتى ، أفأتصدّق بثلثي مالى ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت : الثلث ؟ قال : الثلث كبير . انك ان تركت ولدك أغنياء ، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . وانك لن تنفق نفقة إلا أُجرت عليها ، حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك[1] ،، .

فأية امرأة تلك التى اذا مات أبوها تنتقل الى بيت عمها ، وقد صفرت يدها مما كانت تتمتع به من عز ومال ، ثم تصبح فتجد من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم تلك الرعاية العالية ، وتستظل من قوله بتلك الظلة السابغة ؟ .

ذلك مجمل ما اهتضمه العرب في عهد جاهليتهم من حقوق المرأة ، على وفر نبلها ، وسماحة فضلها يومذاك . أسبغه الاسلام عليها ، فأزال شكاتها ، وأنصف مظلمتها .

والى هذه الحقوق حقوق كانت لها ، فزادها الاسلام تأييداً وتعزيزاً ، ونفث فيها من روحه فأصبحت ديناً راسخاً ، وحكماً نافذاً ، ويقينا مكيناً . وتلك التى نبدأ فنفي بها .

---

١ القسطلانى ج ٤ ص ٤٧٢

— ٢ —

حقوق المرأة في الاسلام

— ١ —

هى والرجل

المرأة بين يدى الاسلام قسيمة الرجل ، لها من الحق ما له ، وعليها ماعليه ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوة الجَلَد ، وبسطة اليد ، واتساع الحيلة ، فيلى رياستها . فهو بذلك وليها ، يحوطها بقوته ، ويذود عنها بدمه ، وينفق عليها من كسب يده . فأما فيما سوى ذلك ، فهما في السراء والبأساء على سواء .

ذلك ما أجمله الله ، وضم أطرافه ، وجمع حواشيه ، بقوله تباركت آيته : « وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

تلك هي درجة الرعاية والحياطة لا يتجاوزها الى قهر النفس ، وجحود الحق

وفي سبيل تلك التسوية الشاملة ، جعل الله الخبيثات أكفاء الخبيثين ، والطيبات أكفاء الطيبين . فاذا تم للناس أن يكونوا كذلك فلا نزاع بين زوجين . لأن شر الخبيثين يدفع بعضه بعضا ، ويطمس بعضه آثار بعض ، فيكون كل على حَذَر من صاحبه .

فانى رأيت الشر للشر ماحيا كما خطّ في القرطاس سطر على سطر

أما الطيبان فأين للشر أن يدب بينهما ، أو يجد السبيل اليهما ؟

وكما قرن الله سبحانه بينهما فى شؤون الحياة ، كذلك قرن بينهما في حسن المثوبة ، وادّخار الأجر ، وارتقاء الدرجات العلى في الآخرة .

فاذا احتمل الرجل نار الهجير ، واصطلى جمرة الحرب ، وتناثرت أوصاله تحت ظلال السيوف ، فليس ذلك بزائده مثقال حبة عن المرأة اذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها ، وأحسنت القيام على بنيها . وفي حديث مسلم عن أسماء بنت يزيد الانصارية ما ينبئك أن بعض ما قلنا يعدل عمل الرجل كله . قال[1] :

ان أسماء أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت : بأبى وأمي أنت يا رسول الله . أنا وافدة النساء اليك . ان الله عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة ، فآمنّا بك وبالهك . إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وانكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجُمَع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج . وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل . وان أحدكم اذا خرج حاجا ، أو معتمراً ، أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم في هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى أصحابه

---

١ أسماء بنت يزيد : هى أم سلمة أسماء بنت يزيد بن السكن الانصارية خطيبة نساء العرب ورسولهن الى رسول الله . بايعت النبي عليه الصلاة والسلام عند مقدمه الى المدينة وتلقت عنه كثيراً من العلم وتخرج عليها كثير من التابعين . وكانت رضي الله عنها من أبين الناس بيانا وأجرئهم في موطن الحق حتى دعيت خطيبة النساء . عمرت بعد رسول الله دهراً طويلا . وحضرت موقعة اليرموك تسقي الظماء وتداوى الجرحى فلما جد جد المسلمين أخذت عمود خيمتها وانغمرت في الصفوف فصرعت به تسعة من الروم

النووى والاصابة وابن سعد

بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسئلة امرأة قط أحسن من مسئلتها فى أمر دينها من هذه ؟ فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى الى مثل هذا ! . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم اليها فقال : افهمى أيتها المرأة وأعلمى مَنْ خلفك من النساء ، ان حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله .

فانصرفت المرأة وهي تُهلِّل ، حتى وصلت الى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحن وآمنّ جميعهن[1]

وقد عزّ على النساء أن يكون وقت النبي صلي الله عليه وسلم للرجال دونهن فسألنه أن يختصهن بيوم من كل أسبوع . فأجابهن صلى الله عليه وسلم الى ما طلبن . فاذا كان يومهن غدون على رسول الله ، فجلسن اليه ، فأقبل عليهن ، يجيب السائلة ، ويهدى الحائرة ، ويأخذ بأيديهن جميعاً الى النهج القويم ، والصراط المستقيم[2] .

وكان صلى الله عليه وسلم في مجلسه هذا على أتمّ ما يكون من الرحمة والرفق فلا يشق عليهن ، ولا يكلفهن فوق ما تحتمل نفوسهن .

أخذ عليهن عند مبايعته لهن ذات مرة ألا ينُحْنَ على الموتى . فقالت عجوز ممن حضرن : يا رسول الله ان ناساً أسعدونى على مصيبة أصابتني ، وانهم أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أسعدهم . قال : انطلقى فاسعديهم . فذهبت ثم عادت فبايعته[3] .

---

١ صحيح مسلم ٢ القسطلانى ج ١ ص ٢٢٩—٢٣٠ ٣ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٢—٧

واستأذن عليه عمر بن الخطاب وهن بين يديه . فابتدرن الحجاب . فلما دخل عمر تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : بابي وأمى أنت يا رسول الله ما يضحكك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رآك النساء فتبادرن الحجاب . فالتفت عمر اليهن فقال : يا عدوات أنفسهن تَهَبْنَنِي ولا تهبن رسول الله ؟ قلن : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله[1] .

ومن أبدع مظاهر رفق الله ورسوله بالنساء ، انه صلى الله عليه وسلم وقف بينهن وقد جئن يبايعنه على أن يأتمرن بأوامر الله ويجتنبن نواهيه . فقال عليه الصلاة والسلام : فيما استطعتن وأطقتن . فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا[2] .

أما حياته صلى الله عليه وسلم في بيته بين نسائه فقد كانت المثل الأعلى في الموادة ، والموادعة ، والمواتاة ، وترك الكلفة ، وبذل المعونة ، واجتناب هُجر الكلام ومره . وهو الذي يقول : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى .

وسئلت عائشة ما كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ فقالت : كان في مهنة أهله حتى يخرج الى الصلاة . تريد بذلك انه يعاونهن ويعمل معهن .

وكان من التبسط ورفع الكلفة الى حد أن يستبق هو وامرأته . كما حدثوا عن عائشة رضى الله عنها .

وكانت فاطمة بنت رسول الله تتولى الطحين والعجين بينما على رضى الله عنه ينزع الماء ويحتمله ويهيئه .

---

١ القسطلاني ج ٥—٥ ٢ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٤—٦

وكما كان الرجل يجاذب المرأة أمرَ العمل ، وتدبير المنزل ، كذلك كانت تجاذبه شؤون العالم ، وجد الحياة .

ففي ساحات الوغى ، وبين مشتجر القنا ، وتحت ظلال السيوف ، كانت المرأة تسير مع الرجل جنباً لجنب ، تروى ظمأه ، وتأسو جرحه ، وتجبر كسره وترقأ دمه ، وتثير حميته ، وتهيج حفيظته . وربما غشيت حَر القتال ، واصطلت جمرة الحرب ، وصالت بين الصفوف ، وعرضت نحرها للحتوف ، وصدرها للسيوف . فكانت لها مواطن صادقات ، ومواقع صالحات ، سنخصها بشيء من القول في موطن آخر ان شاء الله .

وقد طويت صحف السِّيَر والسُّنَن والتاريخ على كثير من فضليات النساء خرجن في رفقة رسول الله الى غزواته ليداوين المرضى ، ويأسون الجرحى ، ويسقين الماء ، ورحن بأجر المجاهدين في سبيل الله . واليك طائفة من أسمائهن وأعمالهن :-

١ — فمنهنّ أُمَيَّة بنت قيس الغِفَارِية . قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار ، فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن

١ أميه بنت قيس : فتاة خاض الاسلام قلبها وهى لم تعد بعد طور الطفولة . قدمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعه — على بعد الشقة — ولهفا أربعة عشر عاما ، وخرجت على زعامة الآسيات — الطبيبات — من قومها الى خيبر ولم تبلغ السابعة عشرة . وأردفها رسول الله خلفه في مسيره . وقد أحسنت أمية القيام بما تقدمت به . وقلدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الموقعة قلادة لم تفادر صدرها حتى ماتت . وأوصت حين موتها أن تدفن معها

نخرج معك الى وجهك هذا — وهو يسير الى خيبر — فنداوي الجرحى ، ونُعينُ المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله .

٢ — أم سنان الأسلمية جاءت الى رسول الله وهو خارج الى خيبر فقالت : يا رسول الله أخرج معك في وجهك هذا ، أخرز السِّقاء ، وأداوى المريض والجريح ان كانت جراح — ولا تكون — وأبصر الرَّحْل . فقال رسول الله : اخرجي على بركة الله ، فان لك صواحب قد كلمني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فان شئت فمع قومك ، وان شئت فمعنا . قلت : معك . قال : فكوني مع أم سلمة زوجتي . قالت : فكنت معها[1] .

٣ — حَمْنَة بنت جحش : أخت أم المؤمنين زينب . حضرت أحداً . وكانت تروى الظِّماء ، وتأسو الجراح[2] .

١ أم سنان الاسلمية : امرأة من عمار أسلم — وأسلم بطن من خزاعة — قدمت من باديتها الى المدينة حين مقدم رسول الله اليها فبايعته . ورافقت رسول الله الى خيبر وهى التى مشطت صفية بنت حيي أم المؤمنين وأعدتها لتزف على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى من اللواتى روين عن رسول الله كثيرا من العلم وابنتها بثينة احدى الثقات الفضليات من راويات الحديث .

٢ حمنة بنت جحش : هى ابنة عمة رسول الله وأخت زوجه أم المؤمنين زينب رضى الله عنهما . وأمهما أميمة بنت عبد المطلب . حضرت مع رسول الله أحدا فكان موقفها مما نزل دونه أقدام الرجال فقد كانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح وتعود به حيث تأسو جراحه . وأصيبت في هذه الموقعة بزوجها مصعب بن عمير ومن بعده تزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له السيد التقى العالم العظيم محمد بن طلحة المعروف بالسجاد .

٤ — أم أيمن : مولاة رسول الله وحاضنته . حضرت أُحُداً . وكانت تسقى العطشى ، وتداوى الجرحى .

٥ — كُعَيْبة بنت سعد الأسلمية : كانت تقام لها خيمة في المسجد ، تداوى فيها المرضى ، وتأسو الجرحى . وكان سعد بن معاذ حين رُمى يوم الخندق عندها تداوى جراحه ، حتى مات رضى الله عنه[1] .

٦ — الرُّبَيِّع بنت معوذ . قالت : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسقى القوم ونخدمهم ، ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى والجرحى الى المدينة[2] .

وأشباه أولئك ونظائرهن كثير .

كذلك كان أمرها فيما سوى الحرب من العظائم . فقلما رأينا عظيما من عظماء المسلمين لم يصدر في كثير من المواطن عن رأي امرأة .

---

١ كعيبة بنت سعد : هى احدى النجيبات المعدودات من طبيبات العرب . لم يكن عملها الشريف وقفا على مواقف الحروب بل كانت تداوى من ألم به المرض في كل آن . وقد أعطاها رسول الله في خيبر سهم الرجل المجاهد رضوان الله عليها

٢ القسطلانى ج ٥ ص ٩٥ والاصابة ج ٨ ص ٨

الربيع بنت معوذ : هى احدى السابقات الى الاسلام . بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الشجرة — شجرة الرضوان — فوجبت لها كلمة الله جلت كلمته « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » وقد صحبت النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته . وكان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يغشى بيتها فيتوضأ ويصلى ويطعم عندها . ولما تزوجت حضر رسول الله زواجها وجلس على مقربة منها وسمع الغناء في بيتها . وعاشت رضي الله عنها حتى عهد معاوية

فكثيراً ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدر عن رأي زوجه خديجة رضي الله عنها . وكمثل ذلك صدور عبد الله ابن الزبير عن رأي أمه أسماء ، وصدور الوليد بن عبد الملك عن رأي زوجه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وصدور السفاح عن رأي زوجه أمّ سَلَمة ، وصدور الرشيد عن رأي زوجه زبيدة وأمثال هؤلاء في الاسلام جمّ كثير .

***

وإنا لذاكرون في هذا الموطن موقف الحجاج من أم البنين حين أشار على الوليد بن عبد الملك بالامتناع عن مجاذبة النساء سياسة الملك وتدبير الحروب .

قال ابن عبد ربه :

قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك وعليه درع ، وعمامة سوداء ، وقوس عربية ، وكنانة . فبعثت اليه أم البنين : مَن هذا الاعرابى المستلئم في السلاح عندك وأنت فى غلالة ؟ فبعث اليها : هذا الحجاج بن يوسف . فأعادت الرسول اليه تقول : والله لأَن يخلو بك ملك الموت أحب إليَّ من أن يخلو بك الحجاج . فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه . فقال : يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة[1] . فلا تطلعها على سرك ، ومكايدة عدوك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها بمقالة الحجاج . فقالت : حاجتى أن تأمره غداً يأتيني مسلّماً . ففعل ذلك . فأتاها الحجاج ، فحجبته ، فلم يزل قائماً . ثم قالت له : إيه يا حجاج ! أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك

---

١ القهرمان المسيطر الحفيظ على من تحت يديه

عبد الله بن الزبير وابن الأشعث[1] ؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ، ما ابتلاك برمي الكعبة ، وقتل ابن ذات النطاقين ، أول مولود في الاسلام وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء ، وبلوغ أوطاره منهن ، فان كنّ ينفرجن عن مثلك ، فما أحقه بالأخذ عنك . وان كنّ ينفرجن عن مثله ، فغير قابل لقولك . أما والله لقد نَفَضَ كساء أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن . بعثك في أعطية أهل الشام حتى كنت في أضيق من الفرق ، قد أظلّتك رماحهم وأمختك صفاحهم ، وحتى كان أمير المؤمنين أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم . فما نجاك الله من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه .

ولله درّ القائل إذ نظر اليك ، وسنان غزالة بين كتفيك :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر

هلاّ برزت الى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحَيْ طائر

صدعت غزالة جمعه بعساكر ... تركت كتائبه كأمس الدابر

---

١ سنفرد لابن الزبير فصلاً خاصاً نسوقه فيما بعد . أما ابن الاشعث فهو عبد الرحمن ابن محمد بن الاشعث . وكان قائداً معدوداً من قواد عبد الملك بن مروان وكان تحت امرة الحجاج بالعراق . انفذه الحجاج الى قتال رتبيل ملك الترك فلم يمعن في الغزو كثيرا فأرسل اليه الحجاج يستحثه ويعنفه فأثار ابن الاشعث الجند على الحجاج وخرج عليه وانحدر اليه وأمعن في قتاله وانضم اليه أشراف العراق وقراؤه ثم خرج على عبد الملك بن مروان وهزم جند الحجاج في مواطن كثيرة حتى كانت موقعة (دير الجماجم) وكان نجمه صاعدا في أولها ثم غلب على أمره ففر الى ملك الترك ونزع اليه فأقطعه بلدا من بلاده وهنالك أنفذ الحجاج عمارة بن تميم اللخمي فما زال برتبيل بالوعود تارة وبالوعيد أخرى حتى رضي بتسليم عبد الرحمن ويقولون ان عبد الرحمن رمى بنفسه من قمة الحصن فسقط قتيلاً ويقولون ان رتبيل هو الذي قتله وبعث برأسه الى الحجاج فأرسل به الى عبد الملك

ثم قالت : اخرج . فخرج مذموماً مدحورا ! . . .

على أن للمرأة حالتين أَبَرّتْ فيهما — بحكم الاسلام وشهادته — على الرجل وهاتان هما حالتا الأمومة والزوجية ، وهما أمثل حالات المرأة ، وأظهرها لكرم خلالها ، وجلال سجاياها ، وأنهضها ببناء الكون ، وأتمها لنعمة الله على الانسان .

فأما أولى الحالتين ، فشاهدها ما حدث البخارى عن أبى هريرة قال :

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك[1] .

فانظر كيف ان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم آثرها بتقديم القول ، ثم لم يكفه ذلك في بيان ما لها من فضل السبق ، وشرف المنزلة ، فاختصها من قلب ولدها بثلاثة أضعاف نصيب أبيه منه .

وأما الثانية فشاهدها ما ذكره ابن سعد في حديث حَمْنة بنت جحش قال :

قام النساء حين رجع رسول الله من أُحُد يسألن الناس عن أهلهن فلم يُخبَرْنَ حتى أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تسأله واحدة إلا أخبرها . فجاءته حَمنة بنت جحش . فقال : يا حمنة ، احتسبي أخاك عبد الله بن جحش . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمه الله وغفر له . ثم قال : يا حمنة احتسبي خالك حمزة ابن عبد المطلب . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمه الله وغفر له . ثم قال : يا حمنة احتسبي زوجك مُصعب بن عمير . فقالت : يا حَرَباه . فقال النبى صلى الله عليه

---

١ صحيح البخارى ج ٨ ص ٢ طبع بولاق

وسلم : إن للمرأة لَشُعبة من الرجل ما هى له في شيء[1] .

ولعمرك ان في قول رسول الله لبلاغا لما أوثرت المرأة به وأبرّت فيه من فرط الحنو على زوجها ، وفضل الوفاء له بعد موته .

ذلك موقف الرجل والمرأة من الشريعة الاسلامية . وهو شهيد بأنهما قسيمان في تدبير المنزل وشئون الحياة وعند الله وبين يدى رسول الله .

- ٢ -
كرامتها

لئن قرن الاسلام بين الرجل والمرأة في عامة المواطن لقد عرف لها نصيبها من رقة القلب ، ودقة الوجدان . وأنها مناط شرف الرجل ، وموطن عرضه ، فاختصها بنصيب من الحرمة والكرامة لم يظفر بمثله نظراؤها من الرجال

ان كرامة المرأة بين الاسلام تتناول شخصها وسيرتها ، وتشمل مشهدها ومغيبها . فمن حقها أن تكون هي في موطن الرعاية والعناية ، وأن يكون اسمها بمنجاة من لغو القول ، ومَنَال اللسان .

لقد كانت المرأة في عهد الاسلام – كما كانت في الجاهلية – تجير الخائف وتفك العانى ، وذلك كله الى تَجِلّة واحترام ، بلغت منهما غايتهما .

فقد أجارت أم هانئ بنت أبى طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل ، وذلك بمجمل حديثها في سبيل ذلك . قالت :

---

١ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٧٥

لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فرّ الىّ رجلان من أحمائي من بنيّ مخزوم . فدخل علىّ علىّ بن أبى طالب أخى . فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانئ ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علىّ . فقال : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ ، وأمّنّا مَن أمّنت فلا يقتلهما[1] .

وافتكّت زينب بنت رسول الله إسار زوجها في الجاهلية أبى العاص بن الربيع – وكان من أسرى بدر – فأطلق بغير فداء ورُدّ عليه ماله . على أن صِلَتها به ، وزواجها منه ، قد فصلهما الاسلام قبل ذلك[2] .

---

١ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٢٠ والبخارى ج ٨ ص ٣٧
أم هانئ : هى ابنة عم رسول الله فاختة بنت أبى طالب بن عبد المطلب . وأمها فاطمة بنت أسد بن هاشم وهى احدى ذوات الرأى الجزل والأدب الجم من قريش . خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية وكان أبوها قد وعد بها هبيرة بن أبى وهب فظفر بها . وفي مستهل الاسلام أسلمت أم هانئ ففرق بينها وبين زوجها بحكم الاسلام — وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين — فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله لأنت أحب الىّ من سمعى ومن بصرى وحق الزوج عظيم فأخشى ان أقبلت على زوجى أن أضيع بعض شأني وولدى وان أقبلت على ولدى أن أضيع حق زوجى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان خير نساء ركبن الابل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على بعل في ذات يده
وقد روى أصحاب الصحاح الستة جميعاً عن أم هانئ . وعاشت حتى جاوزت عهد أخيها علىّ عليه السلام ٢ الاصابة ج ٨ ص ٩١ — ٩٢ المطبعة الشرفية
زينب بنت رسول الله هى كبرى بناته صلى الله عليه وسلم وأولى من تزوج منهن . ولدت قبل البعثة بعشر سنين وزوجت من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع فولدت له عليا — وقد مات في حياة جده صلوات الله عليه — وأمامة — وقد أسلفنا سيرتها — وكان أبو العاص

وكانت فاطمة بنت رسول الله اذا أهلّت مُقْبلة على أبيها قام لها عن مجلسه وأخذ بيدها فقبّلها .

أما كرامة سيرتها ، وصيانة اسمها ، فذلك مالا نحسب شريعة من الشرائع حاطتهما بمثل حياطة الاسلام لهما . وحسبك ان الله سبحانه وتعالى اشتدّ في كتابه الكريم على قاذفي النساء في أعراضهن بأشد مما اشتدّ على القَتَلة وقُطّاع الطريق . فقد قال الله سبحانه في سورة النور : « وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ » .

يؤثر زينب بحبه وكرامته على ان الاسلام فرق بينهما فأسلمت هي وهاجرت وبقي هو بمكة كافراً وقال فيها :

ذكرت زينب لما ورّكت ارما ... فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الامين جزاها الله صالحة ... وكل بعل سيثنى بالذى علما

— وورّكت أي ثنت رجلها على ناقتها لتستريح وارم اسم ناقتها —

وبعد هجرة زينب خرج أبو العاص الى الشام في تجارة لقريش فعرض للقافلة زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم فشدوا على المال والرجال فلم يدعوا شيئاً الا غنموه ولا رجلاً الا أسروه واستاقوا ذلك كله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما أبو العاص فاستجار بزينب فوعدته خيرا وانتظرت حتى صلى رسول الله الفجر بالمسلمين ثم وقفت على بابها — في المسجد — فنادت بأعلى صوتها انى قد أجرت أبا العاص ابن الربيع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايها الناس هل سمعتم ما سمعت قالوا نعم قال فوالذى نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت الذى سمعتم . المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم الى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ففعل .

عاود أبو العاص بعد ذلك مكة فأدى الحقوق الى أهلها ثم آب الى المدينة مسلماً فرد عليه رسول الله زوجه .

وتوفيت زينب سنة ثمان من الهجرة رضي الله عنها

فجعل سبحانه للقاذف عقوبة ثمانين جلدة ، ثم دعم هذه العقوبة بأخرى أشد وأخزى ، وهي اتهامه أبد الدهر في ذمته ، واطّراح شهادته ، فلا تقبل له شهادة أبداً . ثم وَسَمه بعد ذلك بسِمَةٍ هي شر الثلاثة جميعاً ، وهي سِمَة الفسق ، ووصمة الفجور .

لم يكن كل ذلك عقاب أولئك الأئمة الجناة ، فقد عاود الله أمرهم بعد ذلك بما هو أشد وأهول من تمزيق ألسنتهم فقال :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ » .

وان في حديث الإفك ، وما أفاض الله في شأنه ، لموعظة وذكرى لقوم يعقلون .

فان ناساً لم يبرأوا بعد من وضر الجاهلية نالوا من اسم عائشة أم المؤمنين بألسنتهم ، وأعقبهم جماعة المنافقين فذهبوا بالقول كل مذهب ، واحتجز بقية المؤمنين أنفسهم عن الخوض حيث يخوض الناس . فأنزل الله في سبيل ذلك تلك الآيات الكريمة ، تبرئة للمرأة الطاهرة . وفيها أهال سخطه ولعنته على المرجفين وأرسل لومه وتأنيبه لمن سواهم ممن سمعوا قولهم فلم يردوهم ، ولا برأوا الى الله منهم . قال جلت آياته :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ

هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي
تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ
اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

ذلك قول الله وحكمه فى طَعَمَة الأفاكين المرجفين، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس ، فلا يزالون يلهثون ، يبتغون بألسنتهم ما أكنته البيوت من أعراض الحرائر. فهل يسمع حفدتهم وورثتهم وهم قوم شَجِى بهم حلق هذا البلد ، وضاق صدره ، وأظلم المُشرق من جوّه ؟! يَنْفُسُ الرجل منهم على الرجل عامةُ ، أو ينقم منه رأيه ، أو يحقد عليه ظهور أمره ، ونباهة شأنه ، فلا يجد وسيلة للنيل منه ، إلا أن يَلغَ فى عرضه ، ويعيث في كرامة أهله . وربما أبصر

الرجل منهم عرضه مصدوعا ، وشرفه مشدوها ، فلا سبيل له إلا أن يتخذ لسانه كشباة العقرب ، يصيب به يميناً وشمالاً ، عساه يدرأ عنه العيون المحدقة ويكف دونه غرب الألسنة المتوثبة . وسواء أحقت تلك الأراجيف أم أفكت ، فان ذيوعها في أمة من الأمم مما يؤول الى سوء القدوة ، وضعف النخوة وإغضاء العين على القذى ، وتوطين النفس على المهانة ، أسوة بمن قيل فيهم ، وتعلّة بمن سمع عنهم .

***

﴿ وبعد ﴾ فقد درج المسلمون بعد أن سمعوا من آيات الله ما سمعوا على تنزيه المرأة ، وتكرمة اسمها ، وصيانة سيرتها ، واتهام أنفسهم دون اتهامها فقد مرّ عمر بن الخطاب في هَدأة من الليل ، بدار إحدى نساء المدينة ، فسمعها تتغنى بقولها :

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج

فلم يعمد — وهو أمضى المسلمين في ذات الله — إلا الى نصر بن حجاج — وكان كأجمل الناس وجهاً — فنفاه الى البصرة حتى لا تتمناه امرأة غير هذه .

وكانت في رجال قريش صرامة على نسائهم . ومنهم من كان يعمد اليهن بالأذى فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ضرب في حياته امرأة ولا خادماً . وهو الذى يقول : « اتقوا الله في النساء » و « استوصوا بالنساء خيراً » . وكان كأغضب ما يكون اذا سمع بامرأة يضربها زوجها .

وقد حدّث ابن سعد فى طبقاته قال : جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه

وسلم قد ضربها زوجها ضرباً شديداً . فقام رسول الله فأنكر ذلك وقال : يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحى . وحدّث هو أيضاً فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب النساء . فقيل : يا رسول الله انهن قد فسدن . فقال : اضربوهن ولا يَضْرِبْ إلا شرارُكم[1] . وتلك لعمرى أشد وأوكد من المنع . ومن ذا الذى يرضى أن يحتسب عند الله ورسوله من الأشرار ؟

على أثر ذلك انقطعت تلك السنة الموبقة من قريش ، فلم يقترفها إلا رجل لا يأبه بشرع ، ولا يركن الى دين . أما أهل المدينة من الأوس والخزرج فكأنهم قد خلقوا من طبع رسول الله ومودته ورحمته . فكانوا من أشد الناس تكرمة لنسائهم ورفقاً بهن . بل لقد كانت لهن بينهم صولة لا تقهر ، وسلطان لا يرام . وقد تأثرت طباع المسلمين جميعاً بطباع أنصار رسول الله ، لمنزلتهم من الدين ، ومكانهم من عاصمة الاسلام . كما ريضت نفوسهم بقول نبيهم الكريم ، صلى الله عليه وسلم . فتجملوا بمواتاة زوجاتهن ، وموادعتهن ، وكف الأذى عنهن . وفي ذلك يقول شُرَيح صاحب قضاء المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ومَن أعقبه من الخلفاء :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ... فشُلَّت يمينى حين أضرب زينبا

ولم يقف الاسلام من كرامة المرأة ورعايتها موقف المكتفي بكف الأذى عنها فحسب ، بل كان مما سنه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترفيهها ، والحرص على

١ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٤٨

سرورها ، واجتلاب ما يفرحها ، ويشرح صدرها . فقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتيان الحبشة فلعبوا بحرابهم بين يديه في المسجد ، ودعا عائشة رضى الله عنها فوطأ لها عاتقه ، وحاط وجهها بيده[1] ، وأشهدها ذلك المنظر البهيج فلا تزال ترقبه حتى تسأم ، فتتركه ، ثم تعود اليه .

وحدثت عائشة أن أبا بكر دخل عليها و بين يديها قينتان تغنيان وتلعبان بالدف يوم العيد ، وعلى مقربة منها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانتهرها أبو بكر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعها يا أبا بكر ، فان لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا[2] .

وروي ابن عبد ربه عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال : أهديتم الفتاة الى بعلها ؟ قالت : نعم . قال : فبعثتم معها من يغنى ؟ قالت : لا . قال : أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغَزَل ؟ ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم

ولولا الحبة السمرا ... لم نحلل بواديكم[3]

وحدث البخاري عن الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ بن عفراء قالت : جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُنِيَ علىَّ . فجلس على فراش . فجعلت جويريات لنا

١ تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٧٠ — ٢٨٠
٢ تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٨٠
٣ العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣١

يضربن بالدف ، حتى قالت احداهن : وفينا نبي يعلم ما في غد . فقال : دعي هذا وقولي بالذي تقولين[1] .

وحدث هو أيضاً عن أنس بن مالك قال : أبصر النبي صلى الله عليه وسلم نساء وصبيانا مقبلين من عُرس . فقام ممتنًا فقال : اللهم أنتم من أحبّ الناس إليّ[2] .

١ القسطلاني ج ٨ ص ٦٦ ويريد صلى الله عليه وسلم بقوله " دعي هذا وقولي بالذي تقولين " ألا تتغني بمدحه بل تسير في غنائها على نحو ما كانت فيه

٢ القسطلاني ج ٨ ص ٨٥ والامتنان المبادرة الى الامر بارتياح

- ٣ -

حريتها وحرمة رأيها

لا تجد قوماً أبعد مدى في الضلال ، ولا أقصر يداً عن الحقيقة ، من أناس أجازوا لأنفسهم الحكم على الاسلام وليسوا منه في قليل ولا كثير . أولئك قوم من عامة كتاب الفرنج . اذا كتبوا عن النساء في الاسلام زعموهن قعائد بيوت ، لا رأي يُبدينه ، ولا نصيب من الحرية يعتززن به . وتلك إحدى سخائم أنفسهم ، ونزعات أهوائهم ، تتكشف كل يوم عن ذلك الإيقاع المبتذل ، والأسلوب المرذول ، فأما الدليل فلا دليل ! .

ما شرع الإسلام للمرأة أن تكون رهينة البيت ، أو سجينته . بل هي رَبَّتُهُ ، والقائمة بأمره ، والمسؤولة عنه . يعاونها الرجل فيه ، وتعاونه هي فيما سواه . وقد أسلفنا القول في ذلك ، ولعلنا عائدون اليه في تفاريق هذا الكتاب إن شاء الله .

أما حريتها ، وحرمة رأيها ، فلهما في الاسلام مظهران ، لا تطمع المرأة الى أعزّ وأسمى منهما : هما حرية الزواج ، وحرية المجالس والمحافل تغشاها ، وتظهر رأيها فيها .

أما أمر الزواج فذلك شأنها وحقها ، وليس لأحد أن يغصبها فيه رأيها أو يعدُو اذنها . وحريتها فيه أبعد مدى ، وأتم شأنا من الرجل . فهو اذا عقد عليها ، ثم لم يَرْضَها ، فتركها قبل أن يبني بها ، نزل عن نصف مهرها لها . وان

تركها بعد ذلك فلها المهر كاملاً . وليس له أن يقول هي دوني نسباً أو منزلة ، فكل النساء أكفاء للرجل ، وليس كل الرجال أكفاء للمرأة .

أما هي فلها أن تفصم عقدة الزواج اذا خُدِعت فيه ، أو أُكرهت عليه ، مهما أُنفق في سبيلها . وليس لامرئ أن يقودها قسراً الى من لا تريد . فلقد فصم رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج خنساء بنت خُذَام الأنصارية ، لأن أباها زوَّجها وهي كارهة[1] .

وهل هناك ما هو أدل على احترام رأى المرأة في هذا الموطن وهو أدق مواقفها ، وأمسها بحياتها ، من حديث أُم هانئ بنت أبي طالب ، وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من سمعي ومن بصري ، وانى امرأه مُؤْتَمَة ، وبَنِيَّ صغار ، وحق الزوج عظيم . فأخشى ان أقبلت على زوجي أن أُضيع بعض شأني وولدي ، وان أقبلت على ولدي أن أُضيع حق زوجي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان خير نساء

١ صحيح البخاري ج ٧ ص ١٨ والاصابة ج ٨ ص ٦٥

خنساء بنت خذام : هي من بني عمرو بن عوف بن الاوس . لقيت النبي صلى الله عليه وسلم عند مقدمه الى المدينة وهي صبية حدثة وسمعت عنه . وكان قد خطبها اثنان أحدهما أبو لبابة بن المنذر أحد الابطال النابهين من أصحاب رسول الله والثاني رجل من بني عمرو بن عوف عشيرتها فآثرت أبا لبابة وآثر أبوها ابن عمها ثم أمضى منه زواجها غير آبه برضاها فأما هي فغدت على رسول الله فقالت ان أبي قد تعدى عليّ فزوجني ولم يشعر بي فقال لها لانكاح له أنكحي من شئت فتزوجت أبا لبابة .

واختلف المحدثون في أمرها حين زواجها ففي رواية الموطأ والثوري انها كانت بكرا وفي رواية البخاري وابن سعد انها كانت أيما وانها قالت يارسول الله ان عم ولدي أحب اليّ فجعل أمرها بيدها

ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على بعل في ذات يده ، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت الإبل ما فضلت عليها أحداً[1] .

تلك امرأة أبدت صفحة العذر عن بلوغ أقدس منزلة تبلغها المرأة المسلمة وهي منزلة أُمومة المؤمنين ، فأكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيها اكباراً قلَّدَ قريشاً بأسرها تلك الشهادة العالية الكريمة .

وقد عبَرَ النساء بعد ذلك وهن مستمسكات بهذا الحق ، معتصمات به ، لا يستجزن لآبائهن ولا أوليائهن أن يغصبوه أو ينقصوه .

وكيف بالرجل يسوم المرأة نفسها ، أو ينازعها فضل رأيها ، وتلك فتاة تقوم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقى كلمة لا تدع للرجل من بعدها الى قهرها من سبيل .

ونحن لكيما نورد تلك الكلمة الرائعة الصادعة ، نعود الى حديث خنساء بنت خذام ، فنرويه بما رواه صاحب المبسوط[2] في كتابه . قال :

قالت الخنساء : ان أبي زوجني من ابن أخيه وأنا لذلك كارهة . فقال صلى الله عليه وسلم : أجيزي ما صنع أبوك . فقلت : مالي رغبة فيما صنع أبي . فقال

١ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٣٢ والاصابة ج ٨ ص ٢٨٧

٢ صاحب المبسوط : هو شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي أحد أئمة الحنفية وأعلام القضاة . وكتابه المبسوط من أشمل كتب التشريع الاسلامي وأحفلها . يقع في عشرين مجلدا . ومن عجيب أمره انه أملاه املاء وهو رهين السجن بأوزجند وأوزجند بلد من بلاد فرغانة في أقصى حدود الدولة الاسلامية الى الشرق والشمال . وكانت وفاته سنة ٤٨٣ رحمه الله

صلى الله عليه وسلم : اذهبي فلا نكاح له ، انكحي من شئت . فقالت : أجزت ما صنع أبي ، ولكني أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم شيء . قال صاحب المبسوط : ولم ينكر عليه الصلاة والسلام مقالتها [1] .

وبريرة ! ومَن بريرة ؟ هي جارية من جواري الحبشة ، ملكها عتبة بن أبي لهب ، وزوجها عبداً من عبيد المغيرة ما كانت لترضاه لو كان لها أمرها . فأشفقت عليها عائشة أم المؤمنين فاشترتها وأعتقتها . فقال لها رسول الله : ملكت نفسك فاختاري .

وكان زوجها يمشي خلفها ويبكي ، وهي تأباه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها ، وبغضها له ؟ ثم قال لها : اتقي الله فانه زوجك وأبو ولدك . فقالت : أتأمرني ؟ فقال : لا ، انما أنا شافع . فقالت : إذاً فلا حاجة لي اليه [2] .

فهل يعجب الناس بعد ذلك أن يقف فتيات العرب دون عسف آبائهن وأوليائهن ؟ فان اتهزوا منهن غِرَّة الصبي ، وخجل الحداثة ، وزوجوهن ممن لا يدانيهن في طبع ، ولا يواتيهن في خلق ، رجعن عليهم باللوم والخصومة بعد ذلك . ومثل ذلك ما كتبت امرأة من هؤلاء الى أبيها ، وكان زوَّجها وهي حَدَثة بغير إذنها .

أيا أبتا عنَّيتني وابتليتني ... وصيَّرت نفسي في يدي مَن يُهينها
أيا أبتا لولا التحرُّج قد دعا ... عليك مجابا دعوة يستدينها

وقالت امرأة أخرى أُوثِرَ بها ابن عمها :

١ المبسوط ج ٥ ص ٢ ٢ المبسوط ج ٥ ص ٩٩

أيا عجبا للخَود يجري وشاحها ... تزف الى شيخ من القوم تنبال
دعاها اليه أنه ذو قرابة ... فويل الغواني من بني العم والخال

وكان عبد الله بن جعفر قد زوَّج ابنته من الحجاج بن يوسف على كره منها لأنه ليس في شيء من سناء نسبها ، ولا كرم سجاياها ، وما حمله على ذلك إلا ضيق ذات يده ، وألف ألف درهم حُملت مهراً اليه . فلما زُفّت نظر الحجاج الى عبرتها تجول في عينيها . فقال : بأبي أنت وأمي مم تبكين ؟ فقالت : أبكي من شرف اتضع ، ومن ضَعة شُرفت . حتى اذا علم عبد الملك بن مروان بأمرها كتب الى الحجاج بطلاقها . فقال لها : ان أمير المؤمنين كتب إليَّ بطلاقك . فقالت : هو والله أبَرّ بي ممن زوَّجَنيك [1]

١ بلاغات النساء ص ١٨٦ نسخة خطية بدار الكتب السلطانية

عبد الله بن جعفر : هو قطب السخاء أبو محمد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . وأمه اسماء بنت عميس اخت ام المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأمها . هاجر أبواه الى الحبشة وهنالك كان مولده قبل هجرة رسول الله بثلاث سنين . ووافى به أبواه المدينة وله سبع سنين وفي هذه السن بايع عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوفي أبوه في غزوة مؤتة وكان أمير القوم فيها فكفله عليه الصلاة والسلام ودعا له بقوله اللهم اخلف جعفرا في ولده ثم انتقل الى كفالة أبي بكر ثم الى كفالة عمه عليّ عليه السلام وكان أحد امراء جنده يوم صفين وزوجه عليه السلام بابنته زينب رضي الله عنها فولدت له عليا وعونا وعباسا ومحمدا وأم كلثوم . وكان عبد الله علماً من أعلام الجود حتى لقب بقطب السخاء . ومما قالوا ان امرأة سألته فأعطاها مالاً عظيما فقيل له انها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير فقال ان كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي . وسأله سائل بينا يتم بركوب ناقته فنزل له عنها وعما فوقها وكان عليها أربعة آلاف درهم وسيف من سيوف عليّ بن أبي طالب عليه السلام . وفيه يقول القائل :

وما كنت الا كالأغر بن حاتم ... رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكراً

وقد ذهب امام العراق ابن شُبْرُمة الى أن زواج البنت باطل ما لم تبلغ وتصارح برأيها فيمن يريدها[1].

وكان من سنن فريق من العرب في جاهليتهم أن الرجل اذا مات عمد أخص أوليائه وأقرب ورثته فوضع ثوبه على امرأته وقال أنا أحق بها! ثم ان شاء تزوجها، وان شاء زوجها غيره، وأخذ صداقها، وان شاء عضلها لتفتدى نفسها بما ورثت عن زوجها. فذلك ما حرمه الله جل ذكره إنصافا للمرأة، واطلاقا لحريتها فقال: « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ».

كذلك عمد الله سبحانه الى عقدة أخرى من عُقَد الاسر والاكراه فحلها عن المرأة وذلك حيث يقول للأزواج :

وفي سبيل جوده احتمل الدين والمثربة حتى رضي أن يزوج ابنته من الحجاج بن يوسف لانه وفى عنه دينه وأعطاه ألف ألف درهم. أما ابنته هذه فاسمها ام أبيها وكانت كأوضأ النساء وجها وأبينهن بيانا وأسمحهن يدا. وهى صغرى بناته. ولم تكشف عن عقب. رضى الله عنها.

وكانت وفاة عبد الله سنة سبع وثمانين وله من العمر تسعون سنة. رضي الله عنه

١ المبسوط ج ٤ ص ٢١٢

وقد أورد صاحب المبسوط لابن شبرمة وشيعته أدلتهم ومنها الناقد الذى يتطامن اليه العقل ويطمئن.

فمن ذلك ما أوردوه من قول الله جلت حكمته : ٠٠ وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ٠٠ فالتعبير عن بلوغ الرشد ببلوغ النكاح دليل لا يقبل النقض على أن زواج القاصر لا نفاذ له.

ومن أدلتهم أن الله ما شرع الزواج الا للنسل والصغر ينافيه.

ومما قالوا : ان الزواج وثاق الحياة. وليس لأحد أن يقيدها به حتى يبلغا ويكشفا عن صريح رأيهما

« وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ[1] ». فأصبح حراماً على الرجل أن يستبقيها على كره منها، وإعنات منه، حتى تفتدى نفسها بما بقى من صداقها. إلا اذا أتت بفاحشة مبينة. فتلك لاحق لها تطلبه، أو تنزل عنه.

أما توارد القول الكريم من الله ورسوله في محاسنة الزوجات ومواددتهن ولُبْسِهن على بعض ما فيهن، فما يفيض رفقاً ورحمة، ورعاية وعناية. وحسبك أن الله جعل المرأة من آيات الله ومنته على الرجل. وجعل المودة والرحمة والألفة عقدة الصلة بينهما. فذلك حيث يقول جلت آيته : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[2] ».

ومن ذا الذى يستمع قوله تعالى : « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا[3] » ثم يجفو امرأته، أو يتسخطها بعد ذلك ؟

قلّب بين أعطاف هذه الآية بصرك، واملأ منها يدك، وروِّ من مَعين بيانها قلبك، ثم انظر هل تقيم على وجْدانك، أو تقر على عاطفتك، فيما تكره من أمر امرأتك ؟ وما ظنك بأمر تكرهه ثم تظل على لجاجك فيه بعد أن مناك الله بالخير الكثير من ورائه ؟ وأين ذلك من حسن الثقة وتمام الايمان بالله ؟

ومما يرمي الى ذلك الغرض الجليل، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

١ سورة النساء ٢ سورة الروم ٣ سورة النساء

لا يَفرُك مؤمن مؤمنة ان سخط منها خلقاً رضى عن خُلُق[1].

ومما يرد هذا المورد ما حدثوا ان عمر رضى الله عنه قال لرجل طلّق امرأته : لِم طلقتها ؟ قال : لا أحبها . فقال : أكل البيوت بنيت على الحب ؟ أَيْن الرعاية والذمم ؟؟ .

***

ولنأخذ بالقول في مسألتين مما لعلهما يرهقان سعادة المرأة ، ويكدران صفوها ويشعرانها بالحزن والموجدة . وهاتان هما :—

« تعدد الزوجات » و « الطلاق »

١ محاضرات الأدباء ج ٢ ص ١٣٠

— ١ —

﴿ تعدُّد الزوجات ﴾

ما كان تعدد الزوجات في شيء من مظاهر الاسلام ولا شعائره . بل لقد ضرب الله حوله نطاقاً محكماً ، وقيده بقيود ثقال ، ففرض فيه العدل الشامل ، واجتناب الانسياق مع النفس في ميلها وهواها ، واتقاء ما من شأنه أن يثير الحقد والضغينة بين زوجاته . وكم في الناس من يقوى على ذلك ، وأى امرئ يغلب نفسه ، ويمحو فضل عاطفته ، ويبدل نظام طبيعته ؟

يقول الله جل ذكره : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » فجعل البقاء على واحدة فرضاً محتوما عند توقع الجور ، والاشفاق من الانحراف ، والخوف من إيثار واحدة على واحدة . وأى الناس لا يخاف ذلك ، ولا يشفق منه ، والله سبحانه يقول : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .

وكان تعدد الزوجات معروفاً عند العرب ، ولم يكن هناك حدٌّ يقف دونه الرجل . فقد يجمع بين عشر نساء — وإن غَنِيَ أكثرهم بواحدة — فلما جاء الاسلام قصرهم على أربع .

ومن بين هؤلاء غَيْلان بن سلمة ، كان بين يديه عشرٌ . فقال له رسول الله أمسك عليك أربعاً[2].

١ سورة النساء ٢ القسطلانى ج ٨ ص ٣١

وانما نظر الاسلام في تلك الإباحة الى أحد أمرين :—

الأول : الاحتفاظ بكيان الأمة ، لأن الرجال مدفوعون في كثير من المواطن الى اغتمار القتال ، واقتحام الأخطار ، مما عساه يُنْضِب عددهم ، ويذهب بالكثير منهم . فان لم يُبَح لرجال أن يتجاوزوا الواحدة قصر كثير من النساء عن منازل الأمومة ، فتَضْؤُل الأمة ، وتلين قناتها ، ويقل عددها ، وربما أسرع الفساد اليها .

واليوم وقد تخطى الاسلام تيفاً وثلاثة عشر قرناً ، يقوم جمع من فلاسفة الفرنج ومشرعيهم ، فيقولون بتعداد الزوجات استكثاراً للنسل ، حتى يسدوا بذلك ما أصاب أممهم من الفراغ العظيم ، بفقد بضعة عشر ألف ألف رجل في حربهم العظمى .

الثانى : هنالك أناس لا تمكنهم طبائعهم ، ولا تكوين جسومهم ، من البقاء على واحدة . فأولئك روعى أمرهم حتى لا يفزعوا الى ما هو أدهى وأمر من تعدد الزوجات .

على أن الاسلام — رغم ذلك كله — أحاط تلك الإباحة بما رأيت من القيود حتى لا يصاب تكوين الأسر بما لا يجبر صدعه ، ولا يدرك فائته .

وعلى ذكر الفرنج وآرائهم نسوق اليك رأي الكاتب الفيلسوف المؤرخ العظيم جوستاف لوبون ، في تعدد الزوجات ، وهو ما أودعه كتابه الكريم : حضارة العرب (La civilisation des Arabes) قال :

ليس بالهيّن اليسير أن تدرك أسلوبا من الحياة لأمة من الأمم حتى تفترض

كونك في هذه الأمة ، يحيط بك ما يحيط بها ، ويحتكم بذات نفسك ما يحتكم بذوات نفوسها . فأما أن تحكم — وأنت متأثر بطبائع قومك وعاداتهم ، وما يحيط بهم من وسط وجوّ وبيئة — على نظام قوم لا يشاكلونك في شيء مما أنت فيه ، فذلك ليس من الرأى في شيء .

ذلك ما يراد بالناقد أن يأخذ به وينهجه اذا شاء أن يتولى بنقده نظاماً كنظام تعدد الزوجات ، قبل أن تصل الأمم غير المسلمة الى أعماقه . وكثيراً ما تُذيع الزراية به ، والسخط عليه . بل لا تجد نظاماً أجمع الناس في أوربا على النيل منه ، وتوكيل الظنون والأوهام به ، كاجماعهم بذلك على ذلك النظام .

فالمؤرخون الأوربيون — وفيهم من عُرف بالدقة والنفاذ في استقصاء الحقائق وتمحيص الحوادث — يرون ذلك النظام دعامة الاسلام ، ومدعاة انتشار القرآن ، والهاوية البعيدة القرار ، في سبيل نهوض المسلمين .

يقولون ذلك ، ثم يُتبعون ما يقولون بنوافر الكلم عن حجاب المسلمات البائسات فى كسور دورهن ، يقوم بحراستهن ، ويتولى رتاج أبوابهن جماعة من الحرس والخصيان غلاظ شداد ، وقد يقتلن على غير اثم ولا جريرة ، بغير هوادة ولا مرحمة ، اذا صُرِف عنهن أزواجهن الى مُن سِوَاهن .

ان تصوير المرأة المسلمة بهذه الألوان القاتمة برىء من الحق . وسيعلم القارئ — اذا شاء أن يطرح عنه ظنونه وأوهامه قبل تلاوة ذلك البحث — ان تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الاسلام من أفضل الأنظمة ، وأنهضها بأدب الأمة التى تذهب اليه ، وتعتصم به ، وأوثقها للأسرة عقداً ، وأشدها

لآصرتها أزرا . وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالاً ، وأوجه شأنا، وأحق باحترام الرجل من اختها الغربية .

وقبل سياق الدليل على تلك الحقيقة الناطقة الناصعة أذكر للقارئ أن تعدد الزوجات لم يكن من مُحْدَثات الاسلام . بل لقد كان ذائعاً بين أمم الشرق من فرس وعرب ويهود ومَن سواهم . فاذا كانت الشعوب التى رضيت الاسلام ديناً قد أخذت به فلم يك ذلك بريح جديد نالته من ذلك الدين الجديد . وانما هو أثر من تأثير البيئة وضرورة من ضرورات الجنس ونتيجة من نتائج احتكام الأحوال والاوساط عند الشرقيين .

وتأثير البيئة والجنس من الوضح والبيان بحيث لانجهَد في افاضة القول فيه فان النظام العضوى للمرأة ، وما يصيبها من الحمل والولادة ، وما ينالها في سبيل ذلك من أوجاع وآلام ، كل أولئك يضطرها الى اعتزال فراش الزوج أمداً غير محدود. ولما كان سبيل ذلك الاعتزال أن يعيش الرجل على قدره عيشة الاعزب — وهى عيشة لا يسيغها الشرقيون لما يحيط بهم من تأثير الاقليم وغلبة الامزجة — أصبح تعدد الزوجات أمراً لا محيد عنه .

أما في الغرب ، فان حكم الوسط ، وتأثير الأمزجة ، وغلبة الحالة ، مما يفعل فعله بالرجل . ورغم ذلك نجد البقاء على الواحدة نصاً من نصوص القانون ، لا أمراً واقعاً ، ولا حكماً نافذاً . وليس في قدرة أحد أن يعترض ما أقول ، أو ينكر أن الوقوف دون ذلك السياج — سياج الزوجة الواحدة — أمر لا يستمسك به إلا الأقلون .

ولست أدرى على أى قاعدة يبني الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام — نظام تعدد الزوجات — عن نظام التفرد المشوب بين الأوربيين بالكذب والنفاق ؟! . على حين أرى هنالك أسباباً تحملنى على إيثار نظام التعدد على ما سواه . وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون الينا ، ويتنقلون بين مدائننا ، يحارون من قسوتنا في الحكم على نظام تعدد الزوجات فيهم .

وان يسيراً على المرء أن يعرف السبب في إقرار الشريعة الاسلامية لذلك النظام ، بعد ما أسلفنا من الدواعى النفسية للقوم . وأن رغبة الشرقيين في خلود الذكر بالأبناء ، وغرامهم بتكوين الأسر ، والحياة السعيدة بينها ، وما فطروا عليه من العدل والانصاف — كل ذلك لا يجيز لهم إغفال الزوجة التى لا يتحول حبها عن صميم قلوبهم على مثال ما نراه فى أوربا .

ثم ان هناك أسباباً — سأعود الى بيانها — تدعو الى إقرار الشرائع للعادات التى أصبحت من خلق الأمة وتقاليدها . وان يكن ذلك فان نظام تعدد الزوجات الذي ندَّ عن حدود الشريعة عند الأوربيين ، سينتهى الأمر بقوانيننا الى إقراره ، والاعتراف به .

وهنالك — فوق ما أسلفت — أسباب تؤيد ذلك النظام ، وتدعو اليه ، وهى على اختصاصها بطبقات معينة ، لا يخلو الوفاء بها من الفائدة ، لتعلم أن بعض البلدان أحوج ما يكون الى الأخذ به . على أن بين أشد الناس استمساكاً بعروة الدين من الأوربيين من هم مسوقون بغلبة الضرورة الى الاعتراف

بالحاجة اليه . وخاصة اذا أمعنوا فى أحوال الشعوب الآخذة به .

ومن قبيل ذلك ما ذكره المسيو لا بلاى صاحب كتاب «العمال في الشرق» فقد انتهى به القول الى الضرورة التى تدعو كبير الأسرة من القرويين الى الاستكثار من الزوجات ، وكيف ان النساء أنفسهن هن اللواتي يطلبن الى أزواجهن ابتغاء سواهن غير هائبات ولا آسفات على مافعلن . وذلك بعض قوله :

يحرص الشرقيون على أن يزوجوا بكر الأسرة فى بواكر أيامه . لذلك ترى امرأته بعد تتابع الوضع بعد الوضع ، تسرع اليها الكهولة ، بينما يكون زوجها نضراً فتيًا . فلا بدع أن يعوزه الزواج بغيرها ، وهو اذا همَّ بذلك فانما يصدر في أكثر المواطن عن رأى زوجته .

وقد يعجب الباحث من أن تغرى المرأة زوجها بالانصراف الى سواها . على أنه لا عجب فى ذلك . فان ربات المنازل في الجماعات الزراعية الاسلامية ، عماد البيوت ، وقوام أمرها . فاذا شُغِلت المرأة بتربية أبنائها ، والانصراف الى شؤونهم ، فليس هناك من يشد أزرها في مهمة بيتها ، إلا الجوارى ، أو بعض بنات عشيرتها . وقد لا توجد المؤازرة من بنات العشيرة ، كما قد تضيق اليد دون شراء الجوارى ، فليس لها يومئذ إلا أن تشير عليه بالزواج ، حتى تؤدى حق الأمومة .

وقد ذكر المؤلف ألَّا أثر للغيرة ، ولا للخصومة بين زوجات الزوج الواحد ولا شك اننا بما وقر فى نفوسنا من الأوهام الباطلة ، نقول باستحالة ذلك .

والحق أنا لم نقل بالاستحالة إلا لأننا نرجع فى حكمنا الى حِسِّنا وعواطفنا . فأما عواطف غيرنا فلسنا بآبهين بها ، ولا مقيمين لها وزنا [1] » .

---

1 La civilisation des Arabes 422—443

-٢-

﴿ الطلاق ﴾

تلك هى قاعدة الحياة الزوجية فى الاسلام « إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » فان محيت آية المعروف فدبت النفرة ، وساءت العشرة ، واتسع الصدع وامتنع التوفيق — سواء أكان سبيل ذلك الزوجَ ، أو الزوجةَ ، أو هما معاً — فما خير تلك الحياة ، وما فضل البقاء عليها ؟ وقد جعل الله الزواج مبعث الود والرحمة ، لا سبيل التَّعَس ، وبؤس الحياة . لذلك أبيح الطلاق .

ولقد يكون الطلاق من حق المرأة اذا اشترطته فى عقد زواجها . فأما اذا لم تَقُله فهو حق الرجل وحده . وانما أطلق هذا الحق للرجل دونها لأنه يملك من كظم الغيظ ، وطول الأناة ، ما لا تملك .

على ان الاسلام لم يدع ذلك الحق دون أن يُضَيِّق مذاهبه ، ويأخذ على النفس سبل الوصول اليه . وقد هيأ لذلك من الوسائل ما نحن سائقون لك شيئاً منه وذلك هو :

١ — الترغيب في محاسنة الزوجات ، والرضا منهن بخير ما فيهن ، وضمان الخير الكثير فيما عساه يكره منهن . وقد أسلفنا من ذلك ما فيه الغناء .

٢ — نعى الطلاق على المطلقين ونقمته منهن . ومن ذلك ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من حلال أبغض الى الله من الطلاق . ويقول : ما خلق الله شيئاً أبغض اليه من الطلاق . ويقول : لا تطلّقوا النساء إلا من ريبة فان الله لا يحب الذواقين والذواقات .

٣ — التحكيم في الخصومة بين الزوجين اذا بدر النزاع ، وبدأ الشقاق .
وفي ذلك يقول الله جل ذكره : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا » وذلك أمر للمسلمين جميعاً يقوم به أولياؤهم ، والقائمون بالأمر فيهم .

٤ — جعل الله للمرأة بعد الطلاق عِدَّة تعتدُّها في بيته وهي وفاء الحمل للحامل حتى تضع ، وثلاثة اشهر لمن سواها ، وبين أثناء تلك المدة يراجع الرجل نفسه ، وتفيء المرأة الى عقلها ، فان نزعا الى عهدهما القديم في هذا العهد القصير ، راجع الرجل زوجته ، وكان ذلك خيراً وأبقى .
وفي ذلك يقول الله جلت آياته : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَنْ يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا » .

أما الأمر الذي لعل الله يحدثه ، فمعاودة الرأى ، ومراجعة النفس بعد رياضتها ، ورد جماحها ، واسلاس قيادها ، بعد ذلك الهجر القصير الأمد .
فاذا استكملت العدة فله أن يعيدها الى فيئه ، أو أن يبتَّ فراقها ، ان لم يكن الى التوفيق سبيل . فذلك حيث يقول جل ذكره : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ » .

وللرجل أن يعاود زوجته بعد أن يطلقها مرتين ، فان عاد الى الثالثة حيل بينه وبينها فلا يعود اليها حتى يخلفه غيره عليها ، تأديباً له ، وإذلالاً لنفسه .

وقد أمر الله الرجال بمجاملة زوجاتهم ، والرفق بهن ، وبذل كل ما يستطيعون بذله في سبيل مرضاتهن في أيام عدتهن ، فذلك حيث يقول : « أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » .

ثم لقد فرض الله على الرجل أن يردّ اليها بقية ماسماه من مهرها حين طلاقها وحرّم عليه أن يسترد شيئاً مما اجتاب لها كائنا ما كان ذاك المجتلَب . وفي ذلك يقول الله جلت آياته : « وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا » .

من ذلك كله تعلم أن نظام الطلاق في الاسلام ، لا يدانيه نظام غيره دقة وإبداعا . فلا هو بالمغلق المحظور حتى يكون أحد الزوجين شجا في حلق صاحبه وغُلاً في عنقه ، وكَبلاً في يديه ، وقيداً في قدميه . ولا هو بالسهل الهيّن فيتخذه من لا عهد لهم ، ولا رعى ، ولا ذمام ، مرتعا خصيبا ، يتنقلون فيه كما شاءت أهواؤهم ، وشهوات أنفسهم .

﴿ وبعد ﴾ فلنعد الى المظهر الثانى من مظاهر حرية المرأة في الاسلام وهو :—

— ٢ —

حريتها العامة

اذا كانت المرأة المسلمة عماد البيت بحكم الاسلام ، فهي أيضاً دعامة الحياة العامة بحكم الاسلام . فهى لم تدع موطناً عظيما ، ولا مشهداً حافلاً ، ولا عملاً خالداً إلا وكانت فقار ظهره ، وعماد أمره . فقد جلست الى رسول الله متحدثة متعلمة ، ورافقت جيشه آسية مداوية ، وجالت بين يديه مقاتلة مستبسلة وهاجرت بدينها الى المدينة والحبشة مع السابقين الأولين من المهاجرين . فأجزل الله في كل ذلك مثوبتها ، وأحسن النبي مآبها ، وأكبر المسلمون مواقفها .

لقد كانت المرأة العربية في عهد جاهليتها تزن الرجل في ذكاء قلبه ، ومضاء نفسه ، وسناء خلائقه . فاما عمها الاسلام لم تقصر عن مداه في علم أو دين أوفضيلة . فمن أين للرجل أن يأنف من مجالستها ، ومساجلتها ، واستماع حديثها ، وذلك شأنها معه ، ومكانها منه ؟

ولم يكن الحجاب مما تألفه المرأة العربية كثيراً في عهد جاهليتها ، فقد كانت تغشى المحافل ، وتخوض الجحافل ، وتخطب في الأندية ، وتمشى في الاسواق ، فلما انبسط ظل الاسلام تأثر الحجاب بمؤثرين متعارضين :

أما أولهما فأمر الله زوجات رسوله بالقرار في بيوتهن ، والابتعاد عن منال العيون . لأن موطنهن من رسول الله ، ومكانهن من أمومة المؤمنين ، لا يجعلهن كأحد من النساء . وذلك حيث يقول جل ذكره :

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

ومهما يكن نظرنا الى الحجاب ورأينا فيه ، فليس لنا متأول في أن الله اختص به نساء النبي دون سواهن . ولنا في الحديث التالى كفيل بما نقول :

ذلك ان النعمان بن أبي الجون الكندى لما عرض على رسول الله ابنته أسماء[1]

---

١ اسماء بنت النعمان : هى احدى فرائد العرب ومعدوداتهن جمالاً وشرفاً . وينتهى نسبها الى آكل المرار ملك كندة وسيدها . وكان مقامها بنجد . ولما شبت زوجت من ابن عم لها فاخترمه الموت عنها . وفي ذلك العهد ذاع الاسلام في نجد فقدم النعمان الى رسول الله مبايعاً له وهنالك عرض ابنته عليه صلى الله عليه وسلم فارتضاها لمكان ابيها وأمهرها مهر نسائه اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقية من الذهب . وأرسل اليها أبا أسيد الساعدى فأتى بها . على ان بناءه بها لم يتم وفي سبب ذلك خلاف شديد . ومما قالوا انها أظهرت شيئاً من الكبرياء على النبي صلى الله عليه وسلم فقد دعاها فقالت أقبل أنت وأبت أن تقبل اليه . وقالوا انها حين قدمت الى المدينة لم ترضها فسألت رسول الله أن يعيدها الى أهلها . وقالوا ان رسول الله سألها أن تهب له نفسها فقالت : هل تهب الملكة نفسها للسوقة ؟ وقالوا ان داخلة دخلت عليها حين قدمت المدينة فامتلأ قلبها غيرة مما أبصرت من جمالها فأسرت اليها أن تقول — اذا دخل عليها رسول الله — أعوذ بالله منك ، فذلك أحب شيء اليه . فلما سمع منها رسول الله ذلك القول غطى وجهه وقال استعذت بمعاذ ثم ألحقها بأهلها على ان هذا

وارتضاها النبي زوجاً له ، قال له النعمان : فابعث يا رسول الله الى أهلك من يحملهم اليك ، فأنا خارج مع رسولك فمُرْسِلُهم معه . فبعث رسول الله معه أبا أسيد الساعدى . فلما قدما عليها جلست في بيتها وأذنت له أن يدخل . فقال أبو أسيد : ان نساء رسول الله لا يراهن أحد من الرجال . فأرسلت اليه : فَيَسِّرنى لأمرى . قال: حجاب بينك وبين من تكلمين من الرجال الا ذا محرم منك . ففعلت . فلما حملت الى رسول الله صرفه الله عنها فلم يَبْنِ بها . فأقامت بالمدينة لا تبرحها .

حتى اذا كانت في عهد عمر تزوجها المهاجر بن ابي أُميَّة فأفزع عمرَ ان احدى أمهات المؤمنين تتزوج بعد رسول الله . فأرسلت اليه : والله ما ضُرِب علىّ الحجاب ، ولا سمّيت أم المؤمنين .[1]

ذلك الى ان مساق الآيتين الكريمتين لنساء النبى ، وانهن لسن كأحد من النساء .

على أن ذلك التشريع الخاص بنساء النبي من شأنه أن يحبب ذوات الشرف والسناء من النساء ، ان لم يكن في القرار الدائم ، ففي ايثار القرار ، تشبها بأكرم نساء المسلمين على الله ورسوله ، لولا أن هناك مؤثراً آخر ، وازنه فعارضه .

القول بعيد الاحتمال ، وكان ألم قومها من هذه الخيبة كأشد ما يكون . ونال منها الالم بعد ذلك فقالت لأبي أسيد — وكان قد أمر بأن يعود بها — ماذا أصنع ؟ فقال أقيمى في بيتك واحتجبي الا من ذى رحم محرم ولا يطمع فيك أحد فأنت أم المؤمنين . فبقيت كذلك حتى ماتت في عهد عثمان . ويقولون انها زوجت في عهد عمر من المهاجر بن ابى أمية فجرى بينها وبين أمير المؤمنين ما أسلفنا في أصل الكتاب

١ الاصابة ج ٨ ص ١٠ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٠٢ — ١٠٥

ذلك مادعته وثبة الاسلام ، وجدُّ حياته ، الى خروج المرأة عن دارها طلبا للدين ، ودراسة للعلم ، واشتراكا في مناسك الحج ، واسعاداً في معاناة الجهاد ، وصدعا بما وقر في نفسها من حق أضيع ، وحرمة أبيحت ، وانها لتعلم أن لها فى ابتناء عظمة الاسلام شأنا لا يستهان بخطره ، ولا أثره .

هذان هما المؤثران اللذان تأثر بهما حجاب المرأة العربية في الاسلام ، وهما على تعارضهما لا يتكافآن قوة ورجحانا . لأن للثانى أثراً واقعاً ، ووضحاً فى الدين ظاهراً ، ومثوبة من عند الله مكفولة ، فلم يكن بد من غلبته .

بل ان عائشة رضى الله عنها — وهى احدى أمهات المؤمنين ، وأجمعهن للمأثور من حديث رسول الله — لما رأت تدافع الواجبين — وهي احدى اللواتى نزل فيهن صريح الأمر بالحجاب — آثرت الثاني فخرجت تخطب فى المسلمين وتستنفرهم — بل وتقودهم — الى قتال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، لأنها رأت فى قومتها — ان صوابا وان خطأ — قياما بالواجب ، وثأرا للخليفة المظلوم . وليس بفائتنا أن نذكر لك شيئا من اجابتها على لُوّامها .

فقد كتبت اليها أم المؤمنين « أم سَلَمَة » رضى الله عنها تقول لها : ما كنتِ قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّةً قعوداً من منهل الى منهل وغداً تزدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجابا ضربهُ عليك ؟.. » فأجابتها عائشة :

من عائشة أم المؤمنين ، الى أم سلمة ، سلام عليك ، فاني أحمد الله اليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد فما أقبلنى لوعْظك ، وأعرفنى لحق نصيحتك ، وما

أنا بمعتمرة بعد تعريج . ولنعم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين . فان أقعد فعن غير حرج . وان أمض فإلى ما لا غنى بي عن الازدياد منه والسلام[1] .

---

١ العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٦—٢٨٧ طبع بولاق

سنفرد أم المؤمنين عائشة عليها السلام بفصل من هذا الكتاب . أما أم سلمة فهى أم المؤمنين هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية وأبوها أحد الذين انطلقت أيديهم بالجود حتى استفاض به ذكرهم . وكان اذا سار في ركب فعليه اطعامهم ما دام فيهم ومن أجل ذلك سموه زاد الراكب . وأمها من بنى فراس بن غنم رهط ربيعة بن مكدم . وأول ما زوجت من ابن عمها أبى سلمة بن عبد الاسد . وهو أحد السابقين الأولين من المهاجرين . وقد صحبته في هجرته الى الحبشة ثم تبعته الى المدينة فكانت أسبق النساء جميعاً الى الهجرتين ومات عنها أبو سلمة سنة ثلاث من الهجرة وقد انحسرت منه عن أربعة من الولد هم عمر وسلمة ودرة وزينب . وكان آخر ما أوصاها به أن تبتغى الزوج الصالح من بعده .

وكان من دعائه لها : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيرا منى لا يحزنها ولا يؤذيها . ومما حدثها به انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع الى ما أمره الله به من قول انا لله وانا اليه راجعون اللهم آجرني في مصيبتى وعوضنى خيراً منها الا آجره الله في مصيبته وكان قمنا أن يعوضه خيرا منها . قالت أم سلمة : فلما مات ابو سلمة ذكرت الذى حدثنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلته ثم قلت انى أعاض خيراً من أبى سلمة ؟ قالت فقد عاضنى الله خيرا من أبى سلمة وأنا أرجو أن يكون الله قد آجرني في مصيبتى

ولما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ثم خطبها عمر فردته ثم أقبل عليها رسول الله فخطبها وبينها وبينه حجاب فقالت أى رسول الله وما تريد الىّ ؟ ما أقول هذا الا رغبة لك عن نفسي انى امرأة قد أدبر منى سنى وانى أم أيتام وانى شديدة الغيرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يمنعك ذلك . أما ماذكرت من غيرتك فيذهبها الله وأما ماذكرت من سنك فأنا أكبر منك سناً وأما ماذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله . فأذنت له فتزوجها

وكانت رضي الله عنها من أكمل النساء نفساً ورأيا . فرج الله بها عن رسول الله موقفاً من أشد المواقف وقعا عليه . واجمال ذلك أن رسول الله خرج بالمهاجرين والانصار

فانظر الى حسن وصفها لموقفها ، وتبيّن قولها : وان أمض فإلى ما لا غنى بي عن الازدياد منه . ترَها — على امتلاء حجة صاحبتها وقوتها — لا تنثنى عن داعية قلبها ، ولا تتراجع عما رأت الخير فيه ، وعقدت العزم عليه ، بل هى تطلب المزيد منه ، وتسير قُدُماً اليه .

***

ذلك شأن عائشة أم المؤمنين . فأما جندها فلم يكونوا من السوّام الذين يتبعون أول صائح ، بل كان مدعوم الصفوف بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وليس واحد منهم بمتّهم فى دينه ، ولا مفرّط فى كتاب الله ، وهم جزء من جماعة المسلمين الذين يُؤتسى برأيهم ، ويهتدى بحجّتهم .

ذلك ما فعلته عائشة أم المؤمنين وما كانت فيه بدعا من أزواج رسول الله

الى مكة معتمراً — زائراً البيت الحرام — فلما دنا من مكة عرضت له قريش وقالوا لا يسمع العرب أنك دخلت ديارنا عنوة . وهنالك بايع رسول الله أصحابه على الموت . ثم توسلت اليه قريش أن يعود الى المدينة على أن يفسحوا له طريق الحج في العام الذى يليه فرضي رسول الله ذلك اجلالا للمدينة المقدسة أن تخضب بالدماء وأمر المسلمين أن ينحروا أضاحيهم ويحلقوا رؤسهم تحللاً من احرامهم وايذانا لهم بالانثناء عن الاعتمار فعز على المسلمين أن يصرفوا عن وجههم بعد أن تعاقدوا على الموت في سبيل الله وكفوا عما أمر رسول الله به فدخل على أم سلمة حزينا مغضبا فقالت مالك يا رسول الله — مراراً — وهو لا يجيبها ثم ذكر لها ما لقى الناس وقال لها : هلك المسلمون ! أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا وهم يسمعون كلامى ويرون وجهى . فقالت : يا رسول الله لا تلمهم فانهم قد دخلهم أمر أعظم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحدا وينحر ويحلق رأسه فخرج رسول الله ففعل ما أشارت به أم سلمة فلم يبق مسلم الا نحر وحلق

وعمرت أم سلمة بعد رسول الله حتى ماتت في عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ رضى الله عنها

فقد شركتها أم المؤمنين صَفِية بنت حُيَي يوم حوصر عثمان ، فخرجت على بغلتها لتدفع غارة المغيرين عنه[1] .

أما مَن سوى أمهات المؤمنين فلم يكنّ يتحرجن من مجاذبة الرجال كل شئون الدنيا والآخرة . وسيمر بك فى مواطن خاصة من هذا الكتاب ما أسفر عنه رأى أولئك النساء فى مجالس العلم ، ومحافل الأدب ، ومشاهد الرأى ، وساحات العمل ، وما قرّ لهن فى مواطن كثيرة من زعامة المسلمين وقيادتهم ،

---

١ الاصابة ج ٨ ص ١٢٧

صفية : هى أم المؤمنين صفية بنت حي بن أخطب سيد بنى النضير . وتنزع بنسبها الى رسول الله هرون ابن عمران أخى رسول الله موسى بن عمران صلوات الله عليهما . كانت قبل أن تكون لرسول الله زوجا لكنانة بن الربيع فقتل عنها يوم خيبر . وكانت قد رأت في منامها ان قمراً هبط من يثرب —المدينة— فسقط في حجرها . فقصت رؤياها على قومها فردوها اليها وقالوا لها قولا شديداً فلما غزا رسول الله خيبر وأمكنه الله من أهلها جيء اليه بصفية فقال لها لم يزل أبوك من أشد يهود لى عداوة حتى قتله الله فقالت يارسول الله ان الله يقول في كتابه ولا تزر وازرة وزر أخرى فقال لها رسول الله اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك فقالت يارسول الله لقد هويت الاسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى ومالى في اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ وخيرتنى الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق وأن أرجع الى قومي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله قوموا عن أمكم وكان ذلك ايذانا بتشريفها عليها السلام بزواجه ولها يومئذ سبعة عشر عاما . وكانت رضي الله عنها من أوضأ نساء النبي وجها وارضاهن له معاشرة وأدناهن من قلبه ورحمته . فاخرتها عائشة بأبيها الصديق وفاخرها أخريات من أزواج النبي باآبائهن من قريش فشكت ذلك الى رسول الله فقال لها ان عدن فقولى أنا خير منكن أبى هرون وعمي موسى وزوجي محمد فلما عاودنها الفخر قالت لهن مقال رسول الله فما فاخرتها واحدة بعد ذلك . وعاشت عليها السلام بعد وفاة رسول الله حتى أدركت خلافة معاوية . وكانت وفاتها سنة خمسين رضي الله عنها

وتصريف سياستهم ، وتكوين رجالهم . وما شيء من ذلك بالهيّن اليسير .

والآن وقد أخذنا بالقول في حرية المرأة فيما عدا دارها ، فان حقًا علينا أن نقول فى أمر نِقْبَتِها ، وما عليه هيئتها ، اذا انكشفت عن بيتها .

أول ما امرت به المرأة اذا خرجت لبعض شأنها ، أن تضرب بخمارها على صدرها ، فذلك حيث يقول الله جل ذكره : «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» وذلك كي لا يظهر شيء من مكشوف صدرها ، ولا زينة نحرها . وكان نساء الانصار لا يتخذن الخُمُرَ فاتخذنها لذلك . ثم زاد الله سبحانه ذلك الأمر بيانًا وتوكيداً فقال : « يَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »

فأُمرت المرأة اذا سارت فى مذاهب الرجال ، أن تُرْخى بعض ثيابها على بعض وجهها بأن تستره ببعض خمارها حتى لا تعرف بانها من إماء المدينة وبغاياها اللواتى يخرجن سوافر متبرجات فلا يؤذينها أرقّاء الدين وفتيان المنافقين بتتبعها ، أو التحرش بها . على ذلك عَبَر جمهور نساء المسلمين . فكن يغدون لحاجاتهن ، ويغشين المجالس ، ويتصدرن الأندية ، ويتناولن شتات أعمالهن ، متنقبات غير متبرجات .

ومن النساء من فهمن الأمر على خصوصه فجلسن الى الرجال سوافر محتشمات ، لبعدهن عن منال الأذى ومجال الشبهات .

ومن فضليات هؤلاء سُكَيْنَةُ بنت الحسين بن علىّ رضى الله عنهم . فقد كانت بَرْزَةً تجلس الى العلماء والأدباء والشعراء ولا تكاد تحتجب منهم[1] .

---

١ الأغانى ج ١٤ ص ١٥٩

ومنهن عائشة بنت طلحة فكانت لا تستر وجهها من أحد. وقد عاتبها في ذلك زوجها مصعب بن الزبير فقالت: ان الله وسمنى بميسَم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم، فما كنت لأستره. ووالله ما فيّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد[1].

على ان الاسلام حيال ذلك النصيب البالغ من الحرية أخذ على المرأة الا تتشبه بالرجل فيما هو من خاصة أمره ولِزام شأنه كزيه وهيئته وتبذله بين صحابته وخاصته. فقد لعن نبي الله المترجلات من النساء كما لعن المُخَنَّثين من الرجال. أما تشبهها به فى رأيه وعلمه فممدوح ومحمود. فقد كانت عائشة أم المؤمنين رَجْلة الرأى والعلم[2].

﴿ أما بعد ﴾ فذلك رأى الاسلام والمسلمين فى المرأة المسلمة وحريتها أتينا عليه، ولم نُفرط فيه، انصافاً للتاريخ في قوم لهم من وضح دينهم، وسناء خلقهم، وشرف نفوسهم، ورجاحة عقولهم، وجِدّ حياتهم، حُجُبٌ لا تنالها الأوهام، ولا تهتكها الأيام، وعصمة لا تقى الحجب المضاعفة وِقاءها، ولا تبلغ البروج المشيدة أدنى مداها.

---

١ الأغانى ج ١٠ ص ٥١ طبع بولاق
وسنفرد كلا من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بفصل من هذا الكتاب

٢ لسان العرب ج ١٣ ص ٢٨٣

المرأة العربية

بين التأثر بالاسلام والتأثير في نهضته

-١-

تأثرها بالاسلام

اذا كانت المرأة العربية في عهد جاهليتها قد خضعت لدين، فانما ذلك دين مضطرب لا أثر له، ولا خير فيه.

وان هي نزعت الى خلق فاضل، وخليقة كريمة، فقد عَلِقَتْ بهما شوائب الجهل، وفوضى الجماعة، فقنعت في بعض المواطن جمالها، وجاوزت بهما قصد السبيل

وان هى أفاضت على القوم روح الحمية، وحب التضحية، ووحى القول، وجمال الخيال، فقد كان لهم من وجودها، ونفاذ قولها، حروب فرقت جماعتهم وأطالت بلاءهم، ومزقت أوصالهم.

وان هي جاذبت الرجل حبل العمل، وساجلته جد الحياة، فقد احتملت من العبء أثقله، ونالت من النصيب أقله. وربما تناولتها المصائب من كل جانب، فلا تجد من حسن العزاء مايطمئن بمثله ذوات الدين من النساء.

لذلك كله كانت المرأة العربية أحوج ماتكون الى دين سمح متين، يعمد

الى تلك الفضائل المودعة فيجلو صدأها ، ويثير كامنها ، وينهج بها الخير كله ، ويَجْنُبُها مداحض الزلل ، وعثرات الطريق .

لقد هيأ الاسلام للمرأة تلك الوسائل ، ورفعها الى أبعد مما يطمح خيالها ، ويصبو أملها ، وساق لها من آى الذكر الحكيم ، مابهر سناه بصرها ، وملكت محجته نفسها ، واستقادت بلاغته وحسن مساقه قلبها ، وأنصتت لما وصف به الله رحمته وعزته ، وناره وجنته ، وما أعد للصابرات والمحسنات من جزيل الاجر وسَنِيّ المنزلة ، فأنار ذلك عاطفتها ، وأفاض وجدانها ، وأنار بصيرتها . فكان حقاً لذلك أن يصيب حبة قلبها ، ويحُول فى مجال دمها ، ويتأشب بين أحناء ضلوعها . وأن يكون خَلجة شفتيها ، وظُلّة رأسها ، وسُنّةَ وجهها ، ومَرَاد طرفها ، وكُلَّ شيء بين يديها .

كذلك كان أمر نساء العرب . فان أول قلب خفق بالاسلام وتألق بنوره ، قلب امرأة منهن . وما كانت تلك المرأة في سواء النساء ، بل لقد هيأ لها من جلال الحكمة ، وبعد الرأى ، الى زكاء الحسب ، وذكاء القلب ، ما عز على الأكثرين من الرجال . فلم تأخذ الدين مشايعة ، ولم تتلقه مجاملة ، بل أخذته عن تأثر به ، وظمأ اليه .

أجل . لقد تأثرت خديجة بنت خويلد زوج النبي وأم المؤمنين بهذا الدين تأثراً نفذ الى قلبه صلى الله عليه وسلم ، فكان مبعث الغبطة والسكينة عند تدافع النوب ، واشتداد الخطوب . ثم أعقبها جمهور النساء فتأثرن بهذا الدين تأثراً هان وراءه كل شيء .

وأول من سبق اليه فريق الضعاف اللواتى فقدن النَّصَفة ، وعثر بجدهن الزمان . فابتدرن ورده ، وتفيان ظله ، واستهن بما أصابهن في سبيله ، من ظلم وذل وآلام .

وكانت لقريش صولة وانبساط بالأذى على من آمن من أولئك الضعاف حتى لقد تجاوزوا به حدَّ التعذيب والإيلام ، الى الافتنان في التمثيل ، والتأنق في التنكيل .

ومن أولئك اللواتى استعذبن العذاب : سُمَيّة أم عمار بن ياسر . كان بنو مخزوم اذا اشتدت الظهيرة ، والتهبت الرمضاء ، خرجوا بها هي وابنها وزوجها الى الصحراء ، وألبسوهم دروع الحديد ، وأهالوا عليهم الرمال المتقدة ، وأخذوا يرضخونهم بالحجارة ، حتى تفادى الرجلان ذلك العذاب المُرَّ بظاهرة من الكفر . وفيهما وفي أمثالهما أنزل الله قوله : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » . فاما المرأة فاعتصمت بالصبر ، وقرت على العذاب ، وأبت أن تعطى القوم ما سألوا من الكفر بعد الإيمان . فذهبوا بروحها ، وأفظعوا قِتلتها[1] .

---

١ انسان العيون ج ١ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

سمية : هى سمية بنت خياط — بضم الخاء وتشديد الباء — أول الشهداء في الاسلام .

نشأت سمية فى رق أبى حذيفة بن المغيرة المخزومي فزوجها من ياسر بن مالك حليف بنى مخزوم فولدت له عمارا . ومنها ومن زوجها وولدها ارتفعت ثلاث دعائم للاسلام نهضت والدين غض جديد . وهى احدى ثمانية ظهروا بالاسلام في أول أمره وأولئك هم رسول الله وأبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار وياسر وسمية فأما رسول الله وأبو بكر فقد منعهما من العذاب قومهما وأما الباقون فقد ألبسوا دروع الحديد والقوا في حفائر الصحراء حتى يتقد الحديد عليهم . وكل أولئك تفادوا العذاب أخيراً بما أجروه على ألسنتهم من كلمة

وغير سمية كثيرات احتملن فوق ما احتملت .

فمنهن من كانوا يلقونها ، ويحمون لها مكاوى الحديد ، ثم يضعونها بين أعطاف جلدها ، ويدعون الأطفال يعبثون بعينها حتى يذهب بصرها [١] .

ومنهن من كانوا يسقونها العسل ، ويوثقونها بالأغلال ، ثم يلقونها بين الرمال ، ولها حرٌّ يذيب اللحم ، ويصهر العظم ، حتى يقتلها الظمأ [٢]

وكان عمر بن الخطاب وهو على دينه القديم ، يتولى تعذيب جارية مسلمة لبنى المؤمل ، فلا يزال يضربها بالسياط ، حتى اذا ملَّ قال لها : انى أعتذر اليك انى لم أتركك إلا ملالة ! فتقول له : كذلك فعل الله بك [٣] .

الى ذلك الحد احتمل أولئك النساء مظالم الرجال صابرات راضيات مطمئنات لا يسألن رحمة ، ولا يفزعن الى حيلة . حتى لقد ذكر رواة السير أن المستضعفين

الكفر الا بلالا وسمية فأما بلال فاشتراه أبو بكر وأعتقه وأما سمية فقد أنفذ فيها الشريف النذل أبو جهل بن هشام حربته فماتت رضى الله عنها . وكان رسول الله يمر على آل عمار وهم يعذبون بالصحراء فيقول صبراً يا آل ياسر موعدكم الجنة

١ سيرة بن هشام ج ١ ص ١٢٦ والآثار المحمدية لدحلان ج ١ ص ٢٦٤

وممن عذب بهذا العذاب زنيرة جارية عمر بن الخطاب . وكان هو وجماعة من قريش يتولون تعذيبها على مثال ماقدمنا في أصل الكتاب ولما ذهب بصرها قال المشركون ما أصاب بصرها الا اللات والعزى فقالت لهم والله ما هو كذلك وما تدرى اللات ولا العزى من يعبدها ولكن هذا أمر من السماء والله قادر على أن يرد علىّ بصرى . قيل فرد عليها بصرها فقالت قريش هذا من سحر محمد . وقد اشتراها أبو بكر وأعتقها رضي الله عنها

٢ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١١١ — ١١٢

وممن فعلوا بهن ذلك أم شريك بنت جابر بن حكيم وسيمر بك بعد قليل حديثها

٣ سيرة بن هشام ج ١ ص ١٢٦

من الرجال – إلا بلالاً رحمه الله – استنقذوا أنفسهم من الموت بذكر وثن من أوثانهم . على حين لم يذكروا عن امرأة شيئاً من ذلك .

لم يقف النساء حيال ذلك الأمد السحيق من العذاب موقف الواهن الضعيف . بل لقد استعذبنه ، واستهنّ به ، حتى عَرَضْنَ له ، ونزعن اليه ، اعلاء لكلمة الله ، واعزازاً لدينه . فكُنَّ يَنْبَثِثْنَ في البيوت لدعوة مَنْ بها من النساء الى الاسلام . وفى حديث أم شريك القرشية العامرية ما يضرب لك المثل الأتمّ مما نقول .

قال ابن عباس : وقع في قلب أم شريك الاسلام وهى بمكة فأسلمت . ثم جعلت تدخل على نساء قريش سراً فتدعوهن وترغبهن فى الاسلام ، حتى ظهر أمرها لأهل مكة ، فأخذوها وقالوا لها : لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا ، ولكنا سنردك اليهم . قالت : فحملوني على بعير ليس تحتى شيء موطأ ولا غيره ، ثم تركوني ثلاثاً لا يطعموني ولا يسقوني . قالت : فما أتت علىّ ثلاث حتى مافى الارض شيء . فنزلوا منزلا . وكانوا اذا نزلوا وتفونى في الشمس واستظلوا ، وحبسوا عني الطعام والشراب حتى يرتحلوا . فبينما أنا كذلك اذ بأثر شيء بارد وقع علىّ منه ، ثم عاد ، فتناولته ، فاذا هو دلو ماء ، فشربت منه قليلاً ، ثم نزع منى ، ثم عاد ، فتناولته ، فشربت منه قليلا ، ثم رفع ، ثم عاد أيضاً . فصنع ذلك مرارا حتى رويت ثم أفضت سائره على جسدى وثيابي . فلما استيقظوا اذا هم بأثر الماء ، ورأوني حسنة الهيئة . فقالوا لى : انحلات فأخذت سقاءنا فشربت منه ؟ فقلت : لا والله ما فعلت ذلك . كان من الأمر كذا وكذا . فقالوا : لئن كنت صادقة فدينك

خير من ديننا. فنظروا الى الاسقية فوجدوها كما تركوها. فأسلموا لساعتهم.

ذاك صنيع المستضعفات اللواتي لم يعتصمن إلا بشرف النفس، ولم يأوين إلا الى قوة الأيمان[1].

على أن ذوات الشرف والمكانة لم يقصرن عن اللحاق بهؤلاء. وان كان أكثرهن قد آمن مع من آمن من ذويهن وأزواجهن، فمنهن اللواتي انفردن بالاسلام دونهم، واحتملن وحدهن آلام الهجرة، واعتساف الطريق.

فقد آمنت أم كلثوم بنت عُقْبة دون رجال بيتها، وفارقت خدرها، ومستقر أمنها ودعتها، تحت جنح الليل، فريدة شريدة، تطوى بها قدماها ثنايا الجبال، وأغوار التهائم بين مكة والمدينة، الى مفزع دينها، ودار هجرتها، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أعقبتها بعد ذلك أمها، فاتخذت سُنتها، وهاجرت هجرتها، وتركت شباب أهل بيتها وكُهولهم، وهم في ضلال يعمهون[2].

---

١ الاصابة ج ٨ ص ٢٤٨

أم شريك: هي غزية — بضم الغين وتشديد الياء — بنت جابر بن حكيم القرشية العامرية. تنتهي بنسبها الى عامر بن لؤى. نشأت في بني عامر بن لؤى قريباً من مكة ثم تزوجها أبو العسكر الدوسي فنقلها الى مكة حتى اذا ظهر النبي بدين الله كانت من أسبق الناس الى اجابته وهي التي وهبت نفسها بعد الهجرة لرسول الله وسماها الله جل ذكره بالمرأة المؤمنة في قوله جلت آياته: «يا أيها النبيّ انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي».

٢ الاصابة ج ٨ ص ٢٧٥

أم كلثوم: هي ابنة عقبة بن أبي معيط الاموية وتنتهي بنسبها الى أمية بن عبد شمس وكان أبوها سيداً من سادات قريش. وأمها أروى بنت كريز وهي أم عثمان بن عفان.

وما كان ثبات المرأة وقوة نفسها، وسبوغ يقينها، واستهانتها بالموت في سبيل دينها، وقفاً على عهد رسول الله. بل لقد صحبها كل ذلك، وخامر لحمها ودمها في كل أدوار عظمتها، وظهور شأنها. وانما نريد بعهد عظمة المرأة العربية ذلك العهد الذى احتفظ العرب فيه بعصبيتهم العربية، وذلك عهد الراشدين والعهد الأموي، وأوائل أيام العباسيين بالعراق، والفاطميين بمصر، وبنى مروان بالأندلس.

فى هذه الايام كان تأثر المرأة بدينها شبيهاً بما كان على عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم. ولما انشعبت الآراء، وتباينت المذاهب في تلكم الأيام، كان ثباتها على رأيها شبيهاً بثباتها على دينها. فلم يحولها عنه تحول الزمان، وتداول الدول.

هذا معاوية بن أبي سفيان باقعة قريش وسائسها، رِيضت له الدنيا وقر لأمره الامر، فتطامنت له رؤوس القوم، وخشعت نفوسهم، ونطقت بما يحب ألسنتهم على حين أن خصومه اللواتى انضوين الى علىّ رضي الله عنه وحرضْنَ عليه هو بين صفوف صفين، لم تأخذهن صولته، ولم يذهب برأيهن وميض سيفه، ولم

أسلمت بمكة وبايعت قبل الهجرة ثم تبعت رسول الله الى المدينة وهنالك تزوجها زيد بن حارثة ثم قتل عنها فتزوجها الزبير بن العوام فكرهته لشدة غيه على النساء فسألته طلاقها فطلقها ثم خلفته على عبد الرحمن بن عوف فمات عنها ثم أعقبته على عمرو بن العاص فماتت عنه لشهر من زواجها

وكانت رضي الله عنها من أوفر النساء عقلاً وأقواهن ايماناً وهي أول امرأة هاجرت الى المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ينثنين بين يدى وعيده وتهديده . بل كان يستقدم خطيباتهن وشواعرهن ، والزعيمات بالرأى فيهن ، فكن حياله وهو أمير المؤمنين ، كما كن يوم صفين . وسيمر بك من مقالاتهن ومقاماتهن بين يديه . عند كلامنا على أدب المرأة المسلمة ما فيه غناء .

كذلك كان ايمان نساء الخوارج وثبات قلوبهن ، ورَباطة نفوسهن حين يؤتى بهن في صفَد الإسار بين أيدى الخلفاء والأمراء ، وسيوفهم مُصْلتَة ، يلتمع شررها بين أعينهن ، فلا خوف ولا وهَن .

فقد أُتى عبيد الله بن زياد بامرأة من هؤلاء كان لها في قتاله والإغراء به شأن عظيم . فبدأ يقطع رجلها وقال لها : كيف ترين ؟ فقالت : ان فى الفكر فى هول المطلع لشغلا عن حديثكم هذه .

وأتي الحجاج بأخرى منهن فجعل يكلمها وهي لا تلتفت اليه . فقيل لها : الامير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه ؟ فقالت : اني لأستحي أن أنظر الى من لا ينظر الله اليه . فأمر بها فقتلت .

وقيدت اليه أخرى فقال : والله لأعدنكم عدًّا ، ولأحصدنكم حصدا . فقالت له : الله يزرع وأنت تحصد ؟ فان قدرة المخلوق من الخالق[1] ؟

وقد أورد الجاحظ والمبرد حديث البَلْجاء وأفاضاه . وهى امرأة خارجية من بنى تميم نهضت تثير الخوارج فى العراق ، وتؤلبهم على عبيد الله بن زياد . فنذر بها عبيد الله . قالوا : وذهب الى شيخ الخوارج أبي بلال بن حُدَير ذاهب ، فقال

١ بلاغات النساء ص ١٣٤ — ١٤٣

له : يا أبا بلال اني سمعت الامير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء وأحسبها ستؤخذ . فمضى اليها أبو بلال فقال لها : ان الله قد وسع على المؤمنين في التَّقيَّة فاستتري ، فان هذا المسرف على نفسه ، الجبار العنيد ، قد ذكرَك . فقالت : ان يأخذني فهو أشقى بي ، فأما أنا فما أحب أن يُعْنَتَ انسان بسببي . فوجه اليها عبيد الله . فأُتى بها . فقطع يديها ورجليها ، ورمى بها فى السوق . فمر أبو بلال والناس مجتمعون فقال : ماهذا ؟ فقالوا : البلجاء . فمرج اليها . فنظر ، ثم عض على لحيته ، وقال لنفسه : لهَذه أطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس .

قالوا : ولبثت ماشاء الله أن تلبث ، ولم تسمع لها آهة ولا أنة ، الا أن تذكر الله وتشكره[1] .

ذلك قليل من كثير ، مما يشهد للمرأة العربية في عهد اسلامها باحتكام الدين فى ذات نفسها ، واستهانتها بالدم والروح فى سبيله .

ولقد كان سبيل ذلك أن تأثرت كذلك بأدب الاسلام ، وخرجت عما احتكم بها في الجاهلية من عادة نافرة ، وتقليد ذميم .

وأول مالُقنّت المرأة من أدب الله ورسوله ، الاعتصام بالصبر ، اذا دجا الخطب ، وجل المصاب . وهى وان وسمت فى الجاهلية بالصبر عند اشتداد الدهر وجهد البلاء ، إنها لتعافه وتأباه اذا ذهب الموت بعزيز كريم من آلها وعشيرتها فهنالك يجتمع نساء الحى للمأتم ، حواسر الرؤوس سوافر الوجوه ، يشققن الجيوب ، ويلطمن الوجوه ، ويهجن الباكيات ، بما يثير الحزن الرابض ، والشجو

١ البيان والتبيين والكامل ج ٢ ص ١٥٩

المميت . وعادة للمناحة على السيد الشريف أن تظل سنة كاملة

* ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر *

ذلك ما حال دونه الاسلام ، ومنع المرأة أن تفعله ، أو تقرب شيئاً منه . فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ، وبايعه الرجال على الاسلام ، قدم عليه النساء . فقلن : يا رسول الله ان رجالنا قد بايعوك ، وإنا نحب أن نبايعك فمدّ رسول الله يده اليهن . فبايعنه . وكان مما أخذ عليهن في بيعتهن : ألا ينحن ، ولا يخمشن وجهاً ، ولا يشققن جيباً ، ولا يَدَّعين ويلاً ، ولا ينشرن شعراً ، ولا يقلن هجراً . وبذلك كان رسول الله يبايع كل من بايعته[1] .

تلك بيعة طوقت بها أعناق المؤمنات جميعاً ، فأصبحت من أركان دينهن ، وعمد ايمانهن . ثم أصغين الى ما كتب الله للصابرين والصابرات من جليل الأجر وجميل المثوبة ، ورأينه خلة الأنبياء ، وسنة الصديقين ، وآية المقربين ، وقرأن قول الله تباركت حكمته : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » وقوله جلت آيته في الصابرين : « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ » . وسمعن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحدّث عن الله عز وجل : اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً[2] . وقوله عليه الصلاة والسلام : يقول الله عز وجل ما لعبدى المؤمن جزاء اذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة[3] . وقوله صلى الله عليه

١ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص٣-٦ ٢ عدة الصابرين ص ١٠٢ ٣ عدة الصابرين ص ٨٨

وسلم لجماعة النساء : يا معشر النساء ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار . فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : واثنين[1] .

كل ذلك وأشباهه – وكثير ما هو – سمعنه ووعينه . فكان مسلاة نفوسهن ، وراحة قلوبهن ، وبرد أكبادهن .

أو لم تر الى الخنساء وما ذهب به الدهر من حديث جزعها ، وتصدع قلبها وازدهاف لبها ، واضطرام حشاها ، على أخويها صخر ومعاوية ، مما نطقت به أشعارها ، وذاعت بحرّه أخبارها ؟ لقد استحال كل ذلك الى صبر أساغه الايمان ، وجمّله التقى . فلم تأس على فائت من متاع الحياة الدنيا .

أولئك أبناؤها ، وهم أشطار كبدها ، ونياط قلبها ، خرجوا الى القادسية وكانوا أربعة ، فكان مما أوصتهم به قولها : يا بنى انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو ، انكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما هجّنت حسبكم ، وما غيرت نسبكم : واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، وجللت ناراً على أرواقها ، فيمموا وطيسها[2] ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة .

فلما كشرت الحرب عن نابها ، تدافعوا اليها ، وتواقعوا عليها ، وكانوا عند ظن أمهم بهم ، حتى قتلوا واحداً في أثر واحد[3] .

١ ارشاد الساري ج ١ ص ١٩٧ ٢ الوطيس المعركة أو الضرب فيها
٣ الرئيس الاسل

ولما وافتها النعاة بخبرهم ، لم تزد على أن قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقرّ الرحمة [1] .

ذلك أبعد مدى تبلغه المرأة من جلال الصبر ، وقوة الايمان . ولعل أبعد منه ما حدّث أنس بن مالك ، عن أمه أم سُلَيم بنت مَلْحان الأنصارية زوج أبي طلحة زيد بن سهل قال : مرض أخ لى من أبي طلحة يدعى أبا عمير . فبينا أبو طلحة في المسجد مات الصبي . فهيأت أم سليم أمره ، وقالت : لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه . فرجع من المسجد وقد تطيبت له وتصنعت . فقال : ما فعل ابنى ؟ قالت : هو أسكن مما كان . وقدمت له عشاءه . فتعشى هو وأصحابه الذين قدموا معه . ثم أتمّا ليلتهما على أتمّ وأوفق ما يكون الزوجان . فلما كان آخر الليل قالت : يا أبا طلحة ، ألم تر الى آل فلان ، استعاروا عارية ، فتمتعوا بها ، فلما طلبت اليهم شقّ عليهم ؟ قال : ما أنصفوا . قالت : فان ابنك فلانا كان عارية من الله فقبضه اليه . . . فاسترجع وحمد الله وقال : والله لا أدعك تغلبيننى على الصبر . حتى اذا أصبح غدا على رسول الله . فلما رآه قال : بارك الله لكما فى ليلتكما . فاشتملت منذ تلك الليلة على عبد الله بن أبى طلحة .

ولم يمت عبد الله حتى رزق عشر بنين كلهم حفظ القرآن وأبلى في سبيل الله [2] .

---

١ الاصابة ج ٨ ص ٦٦ـ٦٧

٢ صحيح البخارى — الاصابة ج ٨ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ وابن سعد ج ٧ ص ٣١٥ — ٣١٨

أم سليم : هي سهلة بنت ملحان بن خالد الانصارية احدى السابقات الى الاسلام والغازيات في سبيله . أسلمت ورسول الله بمكة وبايعته حين مقدمه الى المدينة . وكان اسلامها مراغمة لزوجها مالك بن النضر . وكان ولدها أنس بن مالك يومئذ طفلا رضيعاً فكانت تقول له قل لااله الا الله قل أشهد أن محمداً رسول الله فجعل

ذلك مثل الكمال في أسمى فضائله . على أن الاسلام قد أباح للناس أن يشتفوا بالدمع ، ويستريحوا الى البكاء . فقد حدث البخارى أن رسول الله حمل ابناً لابنته زينب قد حُضِرَ ونفسه تقعقع في صدره . ففاضت عيناه . فقال له سعد بن معاذ : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء . أما ما سوى البكاء ، فقد لعن رسول الله الصالقة والحالقة والشاقة [1] .

بل لقد أُمرت المرأة اذا مَرّ على أعز موتاها — إلا زوجها — ثلاثة أيام أن تعود الى سابق عهدها من زينة وطيب .

ينطق بذلك أول ما ينطق فكان ذلك مما يثير الغضب في نفس مالك فيقول لها لاتفسدى علىّ ولدى ثم أيأسه أمرها فخرج عنها الى الشام وهنالك كان مقتله فلما بلغها قتله قالت لاجرم لا أفطم أنساً حتى يدع الندى ولا أتزوج حتى يجلس في المجالس ويأمرني فكان يعرف لها تلك المنة فيقول جزى الله أمى عنى خيراً لقد أحسنت ولايتى . حتى اذا شب أنس تقدم لخطبتها أبو طلحة زيد بن سهل — وكان مشركا — فأبت ثم قالت له يوماً فيما تقول أرأيت حجرا تعبده لا يضرك ولا ينفعك أو خشبة نأتي بها النجار فينجرها لك هل يضرك ؟ هل ينفعك ؟ وأكثرت من أشباه ذلك الكلام فوقع في قلبه الذى قالت فأتاها فقال : لقد وقع في قلبي الذى قلت وآمن بين يديها قالت فاني أتزوجك ولا أريد منك صداقا غير الاسلام

وكانت أم سليم تصحب رسول الله في غزواته فتداوى الجرحى وتسقى العطاش وربما جاوزت ذلك فانغمرت في الجيش غازية ولها في الحرب حديث مفاض وكانت يوم حنين حاملا فرآها أبو طلحة متقلدة خنجراً مشهورا فشكاها الى رسول الله فقالت يارسول الله أتخذه ان دنا أحد من المشركين بقرت بطنه . أقتل الطلقاء واضرب أعناقهم ان انهزموا بك فتبسم رسول الله وقل يا أم سليم ان الله كفى فأحسن

وكان لأنس حين قدم الى المدينة عشر سنوات فذهبت به اليه فقالت يا رسول الله هذا أنس يخدمك فأقام على خدمته صلى الله عليه وسلم عشر سنوات حتى لحق رسول الله بالرفيق الاعلى

وأم سليم من اللواتي أكرمهن رسول الله بزيارتها وربما طعم وبات فى دارها رضي الله عنها

١ الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١٦٣ـ١٦٥

فقد روى البخارى عن زينب ابنة أبى سلمة انها دخلت على زينب بنت جحش زوج رسول الله حين توفي أخوها . فدعت بطِيب فمست منه . ثم قالت : أما والله ما لى بالطيب من حاجة ، غير انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحِدَّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً [1] .

---

١ ارشاد الساري ج ٨ ص ١٨٧ـ١٨٨

زينب : هى أم المؤمنين زينب بنت جحش بن رياب الاسدية أندى نساء النبي يدا وأقربهن منه رحماً وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله . هاجرت الى المدينة فيمن هاجر مع رسول الله وكانت جميلة واضحة الجمال فخطبها صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بن حارثة فقالت يارسول الله لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش قال فاني قد رضيته لك فتزوجها زيد فكان يأخذها أحيانا ما يأخذ المرأة اذا زوجت ممن دونها وكان زيد يشكوها لرسول الله حتى هم أن يطلقها . وكانت لزينب خلال من الكمال لم تشتمل على مثلها امرأة من النساء فكانت في صلاتها وصيامها وحنانها واحسانها مضرب المثل وكانت صناع اليدين تصنع الشيء الكثير وتتصدق بثمنه على الفقراء لذلك كله قذف الله فى قلب نبيه الرغبة فيها حتى يرحمها من مظنة الضعة ومظهر الاستكانة وكان رسول الله يدافع عن نفسه تلك الرغبة ويأمر زيداً بامساك زوجته حتى أنزل الله قوله : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا » فآذنها بأمر الله . ولما سمعت آية الله فيها سجدت شكراً لله ونذرت صوم شهرين لان الله تولى زواجها من رسوله وكان ذلك معقد فخرها بل فخر بنى أسد قومها

وكانت رضى الله عنها آية الله في الجود والكرم . ومما روى البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله قال لنسائه أسرعكن لحاقاً بى أطولكن يدا قالت عائشة فكنا اذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله نمد أيدينا فى الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة فعرفنا حينئذ ان النبي صلى الله عليه وسلم انما أراد طول اليد بالصدقة . وسيمر بك من حديث جودها عند قولنا فى احسان النساء ما فيه غناء

ولما حضرتها الوفاة قالت لمن حولها اني قد أعددت كفنى ولعل عمر سيبعث الى بكفن فان بعث بكفن

كذلك عمد الاسلام الى قلب المرأة العربية فاستل سخيمته ، وأخرج ضغينته ، وطهره من غلّ التأثر ، ونزعة الانتقام . وقد كان ذلك من أشد ما يجيش به صدرها ، وتهتف به نفسها ، ويقذف حممه فمها ولسانها . فاليوم وقد شرع الله القصاص في الدنيا والآخرة ، واستنقذ العرب من مفارق الفُرق ، ومنازع الفِتن ، وألف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمته اخوانا ، فقد تبدل الحقد وُدّا ، واستحالت البغضاء ولاء .

وأنى يكون لسخائم النفوس ، وتطلب الأوتار ، من أثر في صدر المرأة العربية المسلمة . وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الداعين بدعوة الجاهلية وقال : ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية . وما دعوة الجاهلية إلا أن يقول الرجل أو المرأة يا لَفلان . فتعقد الألوية ، وتجاش الجيوش ، وتنتضى السيوف وتخاض الدماء ، إن ظالما وإن مظلوما .

وهل طُوِى قلب على أشدّ وأهول مما طوى عليه قلب هند ابنة عتبة ، من سموم الموجدة ، ونيران العداوة لرسول الله ، وآل بيته ؟ فهم الذين قتلوا آلها يوم بدر ، واستقادوا زوجها يوم زحفهم على مكة . وهي التى أهدر نبى الله دمها يوم فتح مكة جزاء تمثيلها بجُثْمان عمه حمزة يوم أحد ، فجاءته مقنعة تبايعه فقالت :

« يا رسول الله الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتنفعنى رحمك . يا محمد اني امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة برسوله » ثم كشفت عن نقابها فقالت :

فتصدقوا بأحدهما ان استطعتم اذا دليتموني أن تصدقوا بحقوى — والحقو معقد الازار — فافعلوا

وماتت عليها السلام سنة عشرين ولها من العمر خمسون عاما

أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله : مرحباً بك . فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب الىّ أن يذلوا من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب الىّ أن يعزوا من خبائك[1] » .

---

١ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٧١

هند : هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس احدى فرائد قريش رأيا ، وحزما ، وبعد همة ، وحسن بيان . وأبوها عتبة سيد من سادات قريش وذوى آرائهم . وكانت هند قد زوجت من حفص بن المغيرة أحد فتيان قريش . فعانت من سوء رأيه ما حملها على فراقه ثم قالت لأبيها انى امرأة قد ملكت أمرى فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على فقال لها ذلك لك ثم قال لها يوماً انه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحدا منهما حتى أصفه لك أما الاول ففى الشرف الصميم والحسب الكريم تخالين به هوجا من غفلته وذلك اسجاح من شيمته حسن الصحابة حسن الاجابة ان تابعته تابعك وان ملت كان معك تقضين عليه فى ماله وتستكفين برأيك فى ضعفه وأما الآخر ففى الحسب الحسيب والرأى الأريب بدر أرومته وعزعشيرته يؤدب أهله ولا يؤدبونه ان اتبعوه أسهل بهم وان جانبوه توعر بهم شديد الغيرة سريع الطيرة شديد حجاب القبة ان جاع فغير مذرور وان توزع ففير مقهور قد بينت لك حالهما . قالت أما الاول فسيد مضياع لكريمته مؤات لها فيما عسى — ان لم تعصم — أن تلين بعد اباتها وتضيع تحت جنائها ان جاءت له بولد أحمقت وان أنجبت فعن خطأ ما أنجبت . اطو ذكر هذا عنى فلا تسمه لى . وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة انى لاخلاق هذا لوامقة واني له لموافقة واني لآخذة بأدب البعل مع لزومى قبتى وقلة تلفتى وان السليل يبنى وبينه لحرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته الزائد عن كتيبتها المحامي عن حقيقتها الزائن لارومتها غير مواكل ولا زميل — بضم الزاى الجبان — عند ضعضعة الحوادث فمن هو ؟ قال أبو سفيان بن حرب قالت فزوجه ولا تلقنى اليه القاء المتلمس السلس ولا تسمه سوم المواطس — المثير الشر — الفرس — كشرس وزنا ومعنى — استخر الله في النساء يخر لك بعلمه فى القضاء .

وحديث هند فى رثاء أهلها يوم بدر واستثارة قومها يوم أحد حديث مفاض مشهور أوردناه في تفاريق الجزء الاول من هذا الكتاب

وكان حمزة بن عبد المطلب قد قتل رجال عشيرتها في بدر فلما اشتبكت قريش بالمسلمين فى أحد أغرت به من أنفذ فيه حربته حتى اذا صرع حمزة بقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها ثم لفظتها وتلك شر نزعات الجاهلية وقد أدركتها من ذلك وصمة مندية لازمت أبناءها وأحفادها وكان سبيل فعلتها أن أهدر رسول الله دمها على ان الاسلام محا ما بينها وبين رسول الله كما أسلفنا في أصل هذا الكتاب

فى سبيل الله ، وفي سبيل دينه ، ما غسل الدم ، وزالت الوحشة ، وأتلفت نوافر القلوب .

وكما أن الله طهر نفس المرأة من نزعة الحقد ، وأبرأ قلبها من قرحة الغل ، كذلك حسر عن عقلها حجاب الجهل ، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل . فلم تخضع لعقيدة فاسدة ، ولم ترضخ لوهم مموّه . وعلمت أن الله قد أسدل حجُبَ الغيب دون أوليائه وأصفيائه ، فلم تطلبه ، أو تحاول كشفه . فطويت بذلك صحف الكهان والعرافين ، وزواجر الطير ، وطوارق الحصى . وأمثال كل أولئك ، من كل ذى لغو مموّه ، وظن مُرَجَّم ، وضلالة باطلة . وتبيَّنت أن الأمر كله بيد الله ، وأنه وحده مقلب القلوب ، ومحوّل الحالات . فلم تَحْتَلْ على الحُبّ واللقاء ، والبُرْء والشفاء ، ومدّ حبل العُمُر ، وردّ سهم القَدَر ، بتعليق الخرزات ، والاستقاء بمائها ، ولا بقول الرُّقَى ، وعقد التمائم . فلم يكن مفزعها فى الأمر كله إلا الدعوة الصالحة ، والرجاء الطيب في الله وحده . وبطل ما كانت تعتقد في المعاني التى ألبسها الخيال لَبوساً من الاشباح المترائية . فلم تعد تعتقد في صور الهواتف ، ولا أصداء الارواح

ولما أسلمت عادت الى بيتها وعمدت الى صنم لها فانحت عليه بالقدوم تحطيما حتى فلذته فلذة فلذة وهى تقول كنا منك فى غرور

ومما يؤثر من حديث مروءتها فى جاهليتها انها — رغم ما كان بينها وبين رسول الله — لما علمت اهبة زينب بنت رسول الله لهجرة ذهبت اليها فى هدأة من الليل فقالت يا ابنة محمد بلغنى عزمك على الرحيل فتلجلج لسان زينب بالانكار فقالت هند لاتكذبينى فان مابين الرجال لايتعداهم الى النساء فان أحوجتك معونة من مال أول عمل فان أولى باسعادك ابنة عمك — تريد نفسها —

ولما علمت ان قريشاً عرضوا لزينب فى هجرتها قالت تهجوهم

أفي السلم أعياراً جناء وغلظة ... وفى الحرب أمثال النساء العوارك

وكانت وفاتها رضى الله عنها في خلافة عثمان رضي الله عنه

كل أولئك محاه الدين ، ومحقه العلم الصحيح . وقد علمت مبلغ ايمانها بالأول ، وستعلم مبلغ نفاذها في الثانى .

***

ولم يقف الاسلام بالمرأة عند حد صلاح لبها ، وخفيات قلبها . بل نظر الى وجهها ، وظواهر هيئتها . فحرم عليها تمويه خَلْقها ، وتلوين وجهها ، وتوصيل شعرها ، وكشف صدرها ، والتبرج فى ثيابها ، وإبداء زينتها ، إلا ماظهر منها [1] وأشباه ذلك ، مما يبدل فطرة الله ، ويغرى مرضى القلوب ، ويحول بينها وبين جد العمل ، وسموّ الحياة .

على أن الاسلام أباح للمرأة فيما سوى ذلك أن تتخذ من الثياب أدقها وأرقها ، ومن الحلى أنفسها وأضواها ، وأن تدّهن ، وتكتحل ، وتختضب ، وتتطيب ، وتتجمل ماشاءت أن تتجمل . فقد خطب علىٌّ كرم الله وجهه فاطمة بنت رسول الله ، فباع بعيراً له بثمانين وأربعمائة درهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوا ثُلثين في الطيب وثُلثا في الثياب .

وكانت عائشة أم المؤمنين تلبس المُعَصْفَر ، والمُضَرَّج من الثياب ، وفيها الخزُّ والحرير ، وتتحلى بالذهب . وربما حجَّت فى بعض ذلك . وكذلك كان يفعل نساء رسول الله .

---

١ الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١٧٠ واقرأ فى سورة النور قوله تبارك آيته : « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » والمراد بما ظهر منها ما لا سبيل الى اخفائه عند معاناة العمل كالخواتم والثياب وكمحاسن وجهها وجمال شكلها فان في ستر كل ذلك حرجا

البيضاوى ص ٤٦٧ طبع الاستانة

ودخلت عليها امرأة وهى معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . وسألتها عن الخفاف فقالت لها : ان كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلى [1] .

﴿ وبعد ﴾ فذلك مجمل ما أحدث الاسلام من الأثر فى قلب المرأة ولبها وعادتها وهيئتها . فأما فضائلها التى جملها الله بها فى عهد جاهليتها ، فقد ازدادت رسوخا وتمكيناً في عهد اسلامها ، حتى بلغت بها غاية جلالها وكمالها .

فقد حدث البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلمهن فى الصدقة ، فأخذن ينزعن الفتخ والقِرَطة والعقود والاطواق والخواتيم والخلاخيل ويلقينها في ثوب بلال — وكان بلال قد بَسَط ثوبه ليضع فيه النساء صدقاتهن

وبذلك رقأت عبرة اليتيم ، وبردت لوعة المسكين

وكذلك فعل النساء حين نزلت آية الصدقة : « إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ [2] »

وكان كثير من الاحسان في الجاهلية مما تثيره المنافسة ، وحسن الأُحدوثة فأصبح بالاسلام مما تفيض به الرحمة ، ويبعثه ابتغاء مرضاة الله

فقد حدث ابن سعد عن عروة قال : رأيت عائشة تَصَّدق بسبعين ألفاً ، وانها لترقع جانب درعها

---

١ طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٣ و ٤٧ طبع ألمانيا

٢ القسطلاني ج ١ ص ٢٢٦

وحدث عن أم ذرة : بعث ابن الزبير الى عائشة بمال في غرارتين يبلغ مائة ألف ، فدعت بطبق — وهى يومئذ صائمة — فجعلت تقسم فى الناس . فلما أمست قالت : يا جارية ، هاتي فطري . فقالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تُعَنِّفيني ! لو كنت أذكرتنى لفعلت .

وحدثت برزة بنت رافع قالت : لما خرج العطاء أرسل عمر الى زينب بنت جحش بالذى لها . فلما أُدخل عليها قالت : غفر الله لعمر ! غيرى من أخواتي « أمهات المؤمنين » كان أقوى على قَسْم هذا منى . قالوا : هذا كله لك . فاستترت منه بثوب وقالت : صُبُّوه واطرحوا عليه ثوباً . ثم قالت لى : أدخلي يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبي به الى بنى فلان وبنى فلان — من أهل رحمها وأيتامها — حتى بقيت بقية تحت الثوب . فقالت لها برزة : غفر الله لك يا أم المؤمنين ، والله لقد كان لنا في هذا حق . فقالت : فلَكُمْ ما تحت الثوب .

وحدث محمد بن كعب قال : كان عطاء زينب اثنى عشر ألف درهم حمل اليها فقسمته في أهل رحمها ، وفي أهل الحاجة ، حتى أتت عليه . فبلغ عمر فقال : هذه امرأة يراد بها خير . فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال : قد بلغنى ما فرقت ، فأرسل اليها بألف درهم لتنفقها ، فسلكت بها طريق ذلك المال .

وقالت زينب حين حضرتها الوفاة : انى قد أعددت كفنى . ولعل عمر سيبعث إلىّ بكفن ، فان بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما . ان استطعتم اذا دليتمونى أن تصدقوا بحَقوي فافعلوا[1] .

١ الاصابة ج ٨ ص ٩٢—٩٣

وكانت سُكَينة بنت الحسين تجود بكل ماتجد من مال . فان لم يكن مال فبدملج تنزعه ، أو سوار .

وخرجت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عن مالها كله لفقراء آل أبى سفيان[1] .

وما استبقت المرأة والرجل في سبيل الكرم إلا وكانت هي أبعد مدى ، وأطول يدا ، وأصدق ندى . لأنها تفقدت باحسانها مواطن البؤس ، وتتبعت مواقع الشقاء . فحسمت الجرح الدامى ، وسترت الجسد العارى ، وراشت الجناح المهيض . على حين تعمد الرجل بِبُرِّ احسانه قالةَ الشعر ، ورواة الأخبار ، فأذاعوا ذكره ، وأنبهوا قدره ، وأكبروا أمره ، وعمدوا الى موفور ما أكسبهم فصرعوه فى مصارع المال ، من سرف ولهو وضلال .

وأى رجل ذلك الذى يهب على البيت من الشعر ألف دينار ، وجاراته طاويات الحشى ، باديات الضنى ، قاحمات الظما ، زغب الحواصل لا ماء ولا شجر ؟

وإن فيما أتم الله على المرأة المسلمة من نعمة الصبر ، وحبّ الاحسان ، لآية مما بلغته من شتات الفضائل التى أخذ بعضها بحُجُزات بعض ، فبلغت منهن المقام الأوفى ، والمكان المكين

١ بلاغات النساء ص ١٢٩

سنفرد عاتكة بفصل من هذا الكتاب فى باب العلم والادب أما حديث خروجها عن كل مالها فما رواه ابن أبي طالب فى بلاغات النساء قال : لما كبر يزيد ومروان ابنا عبد الملك من عاتكة بنت يزيد بن معاوية قال لها عبد الملك ان ابنيك قد بلغا فلو أشهدت لهما ميراثك من أبيك كانت لهما فضيلة على سائر اخوتهما فقالت اجمع لى شهودا من موالى ومواليك قل لجمعهم فدخلوا وأدخل معهم روح بن زنباع — وكانت بنو أمية تدخله على نسائها مدخل مشايخها وأهلها — وقل له رغبها فيما صنعت وحسنه لها وأخبرها برضائى عنها فدخل عليها فتكلم ثم قال ما قاله عبد الملك فقالت يا روح أترانى أخشى على ابنى العيلة وهما ابنا أمير المؤمنين ؟ اشهدتك أني

ففى الوفاء لبيتها وزوجها وبنيها ، كانت بحكم الاسلام وتأثيره المثل الاعلى والقدوة الصالحة . وقد علمت من حديث أسماء بنت يزيد أن الوفاء لذلك كله يعدل عند الله مايعانيه الرجل من الجهاد في سبيل الله ، وما فوقه ، وما دونه . وفى حديث البخارى أن المرأة راعية على بيتها ، مسئولة عنه ..

وكما أن الله حبب الى الرجال مصابرة أزواجهم ، وايلاف قلوبهن ، وبذل الود ، والرفق لهن ، كذلك حبب الى النساء مثل ذلك في أزواجهن .

فقد حدث ابن سعد عن عمرو بن سعيد قال : كان فى علىّ رضى الله عنه على فاطمة شدة . فقالت : والله لَأَشْكُوَنَّكَ الى رسول الله . فانطلقَتْ . وانطلق علىٌّ بِأَثَرها . فقام حيث يسمع كلامهما . فشكت الى رسول الله غلظ علىّ ، وشدته عليها . فقال : يا بنية ! اسمعى واستمعى واعقلى : انه لا امرة لامرأة لاتأتي هوى زوجها وهو ساكت . قال علىٌّ : فكففت عما كنت أصنع وقلت : والله لا آتى شيئاً تكرهينه أبداً [1] .

كذلك درجت المرأة المسلمة على مواتاة زوجها ومصافاته ، واستخلاص نفسها له ، واحتمال نبوة الطبع منه . وأكثر ماكان صفاء نفسها ، وسماح خلقها وعذوبة طبعها ، اذا استحال الدهر بالرجل فرزأه في ماله ، أونكبه في قوّته ، أو

تصدقت بمالى على فقراء آل بنى سفيان قال فخرج القوم وأقبل روح يجر رجليه فلما نظر عبد الملك قال أما أنا فأشهد أنك قد أقبلت بغير الوجه الذى أدبرت به قال يا أمير المؤمنين اني تركت معاوية بن ابي سفيان في الديوان جالساً ! واخبره الخبر فغضب عليها عبد الملك وتوعدها فقال له روح مهلا يا امير المؤمنين فوالله لهذا الفعل فى ابنيها خير لك من مالها قال فكف عنها

١ طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٦ .

بَذَّله بكرم المنصب ، وروعة السلطان ، أعرافاً من السجن ، وأصفاداً من الحديد

بل لقد كان وفاؤها له بعد عفاء أثره ، وامّحاء خبره ، عديل وفائها له وهي بين أفياء نعمته ، وأكناف داره . وكان إيثار الاسلام له بمَدّ حدادها عليه أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا تتجمل في أثنائها ، ولا تزدان ، ولا تفارق داره الى دار أبيها — سُنّة من سنن هذا الوفاء ، وآية من آياته .

لذلك كانت المرأة المسلمة ترى الوفاء لزوجها بعد الموت ، آثر مما تراه لأبيها وأمها وذوي قرابتها . فكانت تؤثر فضائله ، وتذكر شمائله في كل موطن ومقام . بل ربما عرض ذكره وهي بين خَليفته من بعده ، فلا تتحرج في ذكر فضائله وتفضيله إن كانت ترى الفضل له .

ومن حديث ذلك : أن أسماء بنت عُمَيْس كانت لجعفر بن أبى طالب ، ثم لأبى بكر من بعده ، ثم خلفهما علىٌّ كرم الله وجهه ورضى عنه . فتفاخر مرة ولداها محمد بن جعفر ، ومحمد بن أبي بكر ، كل يقول أنا أكرم منك ، وأبى خير من أبيك . فقال لها علىٌّ : اقضى بينهما يا أسماء . قالت : ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر ، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر . فقال علىٌّ : ماتركت لنا شيئاً ، ولو قلت غير الذي قلت لمقتُّك ! . . فقالت أسماء : ان ثلاثة أنت أقلهم لخيار [1]

١ كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

اسماء : هي اسماء بنت عميس بن معد — يوزن سعد — الخثعمية احدى الاخوات المؤمنات والسابقات المهاجرات والكريمات المنجبات والنافذات بالراى الجزل والقول الفصل والعلم المكين . وامها خولة بنت عوف بن زهير وهي أم ست عشرة امراة ممن صحبن رسول الله وروين عنه وظفرن برضاه . ومنهن

ذلك عليُّ بن أبي طالب فتى المسلمين ، وأحبهم الى رسول الله ، وأعلمهم بدين الله ، وأشدهم بلاء في سبيل الله ، آثرت عليه امرأته زوجيها السالفين ، ولو جعلته خير الثلاثة لاعتقدت بكفها لواء أنصاره وشيعته ، وهم جمهور عظيم من المسلمين . ثم انظر الى عليّ رضى الله عنه كيف أكبر رأي امرأته وأعظم وفاءها في قوله : لو قلت غير الذي قلت لمقتك .

وأشد من ذلك وأجل وأعظم ، أن تفى المرأة لزوجها بعد موته . وفي وفائها الموت النافذ ، والبلاء المحيق .

ومثال ذلك ماحدثوا أن مُصْعَب بن الزبير لما غَلَبَ على المختار بن أبي عبيد الثقفي ثائر العراق وسفّاحها المُنيح وقتله ، عرض آله وشيعته . فمن لم يقر بكفره ويبرأ منه ، ألحقه به . فلم يبق على عهده ، والوفاء له ، إلا امرأته عمرة بنت النعمان بن بشير ، فقد قالت حين سئلت : أشهد لقد كان عبداً من عباده الصالحين فأمر بها فقتلت . ولم تفتد نفسها حين ضربت بالسيف بكلمة واحدة تُبَرِّئها منه

ميمونة بنت الحارث ام المؤمنين وام الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب وام الكملة من ابنائه والعصماء بنت الحارث زوج الوليد بن المغيرة وام خالد بن الوليد . وكان رسول الله يدعوهن بالاخوات المؤمنات . وكانت أسماء من أسبق النساء الى الاسلام . تزوجها جعفر بن أبي طالب وهاجر بها فيمن هاجروا الى الحبشة وهناك ولدت له عبد الله ومحمدا وعونا ثم قتل عنها فخلفه عليها ابو بكر الصديق رضى الله عنه فولدت له محمدا ثم مات عنها فأعقبه على عليه السلام فولدت له عونا ويحيى

وكانت رضى الله عنها من انجب النساء واسناهن رايا وانتدهن في دين الله . روى عنها كثيرون من اعلام الدين ومنهم عبد الله بن جعفر والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير . وكان عمر بن الخطاب يغدو اليها فيسألها تأويل رؤياه . وكانت رضى الله عنها من املك الناس لنفسها عند الخطب اذا جل والقضاء اذا حل وهي التي غسلت زوجها ابا بكر بوصية منه . ولما بلغها قتل ولدها محمد بن ابي بكر بمصر دخلت مسجد بيتها وكظمت حزنها حتى فاض ثدياها دما

مع أنها ضربت ثلاث مرات دون القتل . وتلك إحدى عثرات مصعب وسيئاته[1]

وفي عمرة وما حدث لها يقول عمر بن أبي ربيعة :

إن من أكبر الكبائر عندى ... قتل حسناء غادة عُطْبُول[2]

قتلت باطلاً على غير ذنب ... إن لله دَرها من قتيل

كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

ومع أن رغبة الأيّم عن الزواج ، وكراهيتها له ، واعتكافها دونه ، لم يكن من مبادئ الاسلام في شيء — فان كثيراً من الأيامى أنِفن أن يتبدّلن ببعولتهن زوجاً آخر ، وفاء لهم ، وبقيا على ذكراهم . فقد روى صاحب أخبار النساء[3] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب الى امرأة يخطبها فقالت : يا رسول الله اني عاهدت زوجي ألا أتزوج بعده . فقال : ان كان ذلك في الاسلام فلي له[3] .

بل لقد ظهر فيهن من عمدت الى مواطن الجمال من وجهها فشوهته حتى لا يرتغبها الناس ولا يبتغونها .

ومن أولئك نائلة بنت الفُرافِصَة زوج عثمان رضى الله عنه . فقد تكاثر عليها خطابها بعد قتل زوجها فأبتهم جميعاً .

ولما خطبها معاوية بن أبي سفيان قالت : وما أعجب أمير المؤمنين مني ؟ قيل لها : حسن ثغرك . وكانت كأحسن النساء ثغراً . فدقت ثناياها وقالت : أذات ثغر ترانى بعد عثمان[4] ؟ .

---

١ العقد الفريد ج ٢ ... ٢ العطبول المرأة الفتية الجميلة

٣ أخبار النساء ص ٨٧ ... ٤ بلاغات النساء ص ١٣٨ — ١٣٩

وسنختص نائلة رضى الله عنها بكلمة في فصل آت

وقد صنعت خَوْلة بنت منظور بن زَبَّان صنيع نائلة حين خطبها عبد الملك ابن مروان بعد مقتل زوجها عبد الله بن الزبير . فقد أنحت على أسنانها تحطيما لتشوه أجمل ثغر أبدعه الله [١] .

ومنهن زوج هُدْبة بن الخَشْرَم العُذرى . أخذ عليها زوجها حين قِيد الى القتل ، وأبصر طلعةَ الموت ، ألا تتزوج بعده أحمق ، أو لئيما . فعمدت الى سكين فقطعت أنفها ، وقالت : أفيَّ مطمع لما تقول بعد ذلك ؟ فقال : الآن طاب ورود الموت [٢] .

---

١ اخبار النساء ص٧٣ ٢ ورد حديث هدبة في عامة كتب الأدب العربي . وكان هدبة بطلاً جلداً وشاعرا فحلا وخطيباً جزلا ومحدثا بديع السمر عذب الحديث وكان قد قتل رجلا من أبناء عمومته يدعى زيادة بن زيد وله صبي لم يجاوز الثامنة فطلب سعيد ابن العاص — والى المدينة من قبل معاوية — هدبة فاعتقله حتى يبلغ الصبي ثم ان شاء قتله بأبيه وان شاء رضى بالدية بديلا منه فلما بلغ الصبي ذهب اليه كثيرون من هامات المسلمين يرغبونه في العفو ويتقدمون اليه بالديات حتى بلغ ما تقدموا به عشر ديات . وكان ممن تقدموا بالدية الحسن بن على وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم . على ان الصبي ابى الا أن يقتل قاتل أبيه . فلما أبصر أولئك الجد من أمر الفتى ورأوا ألا محيد من القصاص بكروا الى هدبة بالسجن وفي أيديهم حقائبهم مطوية على الحنوط والأكفان وكان هدبة حينذاك يلعب بالنرد . فلما رآهم أقبل عليهم يحدثهم ثم أبصر فاذا بطرف من بعض الاكفان قد خرج من بعض الحقائب فقال كأن قد فرغ من أمرنا ؟ فقالوا أجل فقام فاغتسل ثم رجع اليهم فأخذ من كل واحد منهم ثوبا ورد ما بقى وخرج ليقاد منه وكان في طول طريقه يقابل الناس فيحادثهم وينشدهم شعره كأن لم يكن من الامر شيء . وكان ممن عرض له حسان بن ثابت فاستنشده شيئاً من شعره فقال

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب

ومما حدّث الأصمعى قال : رأيت بالبادية أعرابية لا تتكلم ، فقلت : أخرساء هى ؟ فقيل لى : لا ، ولكن كان زوجها مُعْجَباً بنغمتها ، فلما توفى أطبقت فمها فلا تتكلم بعده أبدا [١] .

على ان الاسلام وان لم يحمد من المرأة كراهيتها للزواج بعد زوجها ، ولم يعتدَّ ذلك وفاء منها ، لقد شكره لها ، وأجزل عليه مثوبتها ، ان اعتزمته ، وأقدمت عليه ، وفاء لابنائها ، ورعياً عليهم ، وضنًّا بهم أن يضيعو عند غير أبيهم .

فقد علمت من أمر أم هانئ بنت أبي طالب كيف أبت على نفسها شرف الزواج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفاء لأبنائها ، وقضاء لحق الله ، وحق التربية فيهم ، وكيف امتدحها النَّبىّ ، وشكر لها ذلك .

وكان ذلك بعض عذر أم سَلَمة حين خطبها رسول الله فأرسلت تقول له : انّى مُصْبِية . فأرسل اليها : أما ماذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله . فقالت عند ذلك : مرحباً برسول الله .

ومات مالك بن النضر وابنه أنسٌ رضيع ، وزوجه أم سليم شابة حَدَثة . فكثر خطابها فقالت : لا أتزوج حتى يأمرني أنَس . فوفت بعهدها وبرت . وكان ذلك مما أرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها .

وقالت امرأة من نساء اليمامة تدعى أم أثال ـ وكانت كأحسن النساء وجهاً فلما مات زوجها ، تدافع الخطاب على بابها . فردت كل خاطب ، وفاء لابنها أُثال [٢] :

لعمر أُثال لا أفدى بعينه وان كان في بعض المعاش جفاء

---

١ أخبار النساء ص ٧٧ ٢ بلاغات النساء ص ١٣٢ ـ ١٣٣

اذا استجمعت أم الفتى غضّ طرفه وشاعرَه دون الدِّثار بلاءُ

ذلك بعض حديث المرأة المسلمة في الوفاء لخير ماخلقت له ، ووكلت به . وان لنا لعودة اليه فى الكلام على تأثير المسلمة فى الرجل ، وتكوينها له ، ان شاء الله تعالى .

﴿ وبعد ﴾ فان نساء العرب في الاسلام لم يدعْن لرجالهن خَلة يستأثرون بها دونهن ، ولم يتركن سبيلاً من سبل العظائم ، ولا مشرفاً من مشارف المكارم إلا وكن السابقات اليه ، الواثبات الى غايته . حتى لقد جاذبن الرجال حبل البطولة ، واصطلين نيران الحروب ، فأملَنَ ميزانها ، وأَرَنَ نيرانها ، وعَقَدْن دخانها ، وملكن عنانها .

وهن وان غشين الحرب لما دون القتال من إفاضة الرحمة ، وبذل المعونة ، لايجدن بدًّا من انتضاء السيوف اذا أجفل الرجال ، ورجفت قلوبهم ، ورأين من لوائح الهزيمة ما لا خير في الحياة بعده . ولعل من الناس من يقول : وما عسى المرأة أن تفعل يومذاك ؟ ألا انها لتَدع الرجل يقول : وما عسى الرجل يفعل يوم ذاك ؟ .

وهل تجد الشَّجاعة إلا قوة تفيض من اليقين الثَّبْت ، والصبر المكين ، فتصدع ركن الدهر ، وتفل غرب الحادثات .

فانظر كيف تجد المرأة من جلال الصبر ، وقوة الايمان ، ثم تبيّن مبلغ غَنائها وكفايتها ، اذا أحرج صدرها ، واشتملت الحرب العوان عليها ؟

ونحن بعون الله سائقون لك شيئاً من مواقف النساء ، في مخاضات الدماء وتلك هى أسماء بعضهن ، وأثارة من أثرهن ، ووصف فعالهن :—

﴿ نَسيبَةُ بنت كعب المازنية ﴾

لكل بطل موقف عرف به ، وأثر عنه ، وكان مهبط الشرف من حياته ، ومعقد الفخر من سيرته .

وليس هناك موقف أملأ للقلب ، وأملك للنفس ، وآثر في التاريخ ، من موقف نسيبة بنت كعب .

خرجت نسيبة فى جيش المسلمين يوم أُحد ، تسقى الظماء ، وتأسو الجرحى وكانت غرة الحرب وطلعتها للمسلمين . ثم أشاحت بوجهها عنهم ، فتناولتهم سيوف المشركين ، تنهل من نحورهم ، وتطعَن في ظهورهم ، فانكشفوا وولوا مدبرين ، إلا عشرة أو نحوهم ، وقفوا يدرأون عن رسول الله ، ويحولون دون الوصول اليه .

هنالك جاء دور نسيبة ، فانتضت سيفها ، واحتملت قوسها ، وذهبت تصول وتجول بين يدى رسول الله : تنزع عن القوس ، وتضرب بالسيف ، وحولها من الغُرّ المذاويد علىٌّ وأبو بكر وعمر وسعد وطلحة والزبير والعباس ، وولداها وزوجها . فكانت من أظهر القوم أثراً ، وأعظمهم موقفاً .

وكانت لاترى الخطر يدنو من رسول الله حتى تكون سداده وملء لهوته حتى قال صلى الله عليه وسلم : ما التفتّ يمينا وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى .

ومما حدث به ابنها عمارة قال :

جُرِحْتُ يومئذ جرحا في عضدى اليسرى . ضربنى رجل كأنه الرَّقَل[1]، ومضى عنى، ولم يُعَرِّجْ علىّ، وجعل الدم لا يرقأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعصب جرحك . فأقبلت أمى الىّ، ومعها عصائب في حَقْوَيْها ، قد أعدَّتها للجراح . فربطت جرحى ، والنبي واقف ينظر الىّ . ثم قالت : انهض بُنَيَّ، فضارب القوم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ومن يُطِيق ماتطيقين يا أم عمارة ؟ قالت : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى ، فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك . قالت : فاعترضت له ، فضربت ساقه ، فبرك . قالت : فرأيت رسول الله يتبسَّم حتى رأيت نواجذه ، وقال : استَقَدت يا أُم عمارة . ثم أقبلنا نَعُلُّه[2] بالسلاح ، حتى أتينا على نفسه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى ظفَّرك وأقرّ عينك من عدوّك ، وأراك ثأرك بعينك .

وأُصيبت نسيبة في هذا اليوم بثلاثة عشر جرحا ، وَاحد منها غار في عاتقها فنزف الدم منه ، وهي رغم ذلك كالصاعقة الساحقة . تضرب في نحور العدو ، وترتمى بين صفوفهم ، غير آبهة ولا دارية بالدم الناعر من جسمها . فقال رسول الله أُمّك أُمّك . اعصب جرحها . بارك الله عليكم من أهل بيت . مقام أمك خير من مقام فلان وفلان . فلما سمعت أمه قالت : أدع الله أن نرافقك في الجنة . فقال : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة . فقالت : ما أُبالى ما أصابنى في الدنيا[3] .

١ الرقل جمع رقلة وهى النخلة العالية ٢ عل الضارب المضروب تابع عليه الضرب

٣ أخرج هذا الحديث من سيرة ابن هشام وانسان العيون والآثار المحمدية وطبقات ابن سعد والاصابة وأسد الغابة . ونسيبة من بنى مازن بن النجار أحد بطون الانصار وزوجها الذى ثبت في أحد معها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله ابنا زيد . وكان

﴿ خَوْلَة بنت الأَزْوَر ﴾

أخت القائد العظيم ضرار بن الأزور الكندى .

وهي احدى عقائل العرب ، وبقية بنات الملوك . وبيتها بيت رسخت دعائمه على القوة والمضاء، في الجاهلية والاسلام . قتل أبوها بين يدى رسول الله دفاعا عنه . وأخوها ضرار من القادة الذين لا يغنى غناءهم أحد . وكان يُقَاسُ اذا اشتملت عليه الوقائع بألف رجل .

أما هي ، فقد أوتيت من جمال الوجه ، ومضاء القلب ، ورباطة الجأش ، والاستبسال فى القتال ، مالم يتح لكثير من الناس . ولها مواطن غرٌّ صالحات ، شفت قلوبا ، وروعت قلوبا . منها مانحن ذاكروه لك ، مماحدث به الواقدى قال :

لما أُسر ضرار بن الأزور فى وقعة أجنادين ، سار خالد بن الوليد في طليعة من جنده لاستنقاذه . فبينا هو فى الطريق ، مرّ به فارس معتقل رمحه ، لا يبين منه الحَدَق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوى على ما وراءه . فلما نظره خالد قال : ليت شعرى من هذا الفارس ؟ وايم الله انه لفارس . ثم اتبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك جند الروم . فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم . فلم تكن غير جولة جائل ،

حبيب قد سار في رفقة خالد بن الوليد لقتال مسيلمة فقتل فأقسمت نسيبة أن تقاتل مسيلمة حتى يقتل أو تقتل فذهبت الى اليمامة واشتركت في الموقعة التى قتل فيها مسيلمة وفيها قطعت يدها رضى الله عنها

حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء . وقد قتل رجالا ، وجندل أبطالا . ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وخامر المسلمين من من القلق والاشفاق عليه شيء كثير . وظنه أناس خالدا . حتى اذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : مَن الفارس الذى تقدم أمامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ، فقال خالد : والله لأنا أشد انكاراً واعجابا لما ظهر من خلاله وشمائله . وبينا القوم فى حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو في أثره . وكلما اقترب أحد منه ألوى عليه ، فأنهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ، ورفع لثامه ، وناشده ذلك خالد ، وهو أمير القوم وقائدهم . فلم يحر جوابا . فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم فقال : أيها الامير اني لم أعرض عنك إلاحياء منك ، لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور . وانما حملنى على ذلك أني مُحْرَقة الكبد ، زائدة الكمد فقال خالد : من أنت ؟ قالت : أنا خولة بنت الأزور . كنت مع نساء قومى ، فأتاني آت بأن أخى أسير . فركبت ، وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة ، وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم . وكانت تجول فى كل مكان علّها تعرف أين ذهب القوم بأخيها ، فلم تر له أثراً ، ولا وقفت له على خبر .

على انها لم تزل على جهادها ، حتى استنقذ لها أخوها .

ومن مواقفها الرائعة ، موقفها يوم أسر النساء في موقعة صحورا . فقد وقفت في النساء وكانت قد أسرت معهن ، فأخذت تثير نخوتهن ، وتضرم نار

الحمية في قلوبهن ، ولم يكن من السلاح شيء معهن . فقالت : خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، ونحمل بها على هؤلاء اللئام ، فلعل الله ينصرنا عليهم . فقالت عَفْرَاء بنت عَفَار : والله ما دعوت الى ما هو أحب الينا مما ذكرت . ثم تناولت كل واحدة عموداً من عمد الخيام ، وصحن صيحة واحدة ، وألقت خولة على عاتقها عمودها ، وتتابع النساء وراءها . فقالت لهن خولة : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكُنَّ كالحلقة الدائرة ، ولا تتفرقن فتُملكن ، فيقع بكن التشتيت ، واحطمن رماح القوم ، واكسرن سيوفهم . وهجمت خولة ، وهجم النساء وراءها ، وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت ، حتى استنقذتهن من أيدي الروم ، وخرجت وهي تقول :

نحن بنات تُبَّعٍ وحِمْيَر ... وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تُسْعَر ... اليوم تُسْقَوْن العذاب الاكبر[1]

﴿ صفية بنت عبد المطلب ﴾

هى عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم الزبير بن العوام أحد القادة العظام في الاسلام . وكان من حديثها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — لما ثار عليه الاحزاب من قريش وحلفائهم وذهبت جموعهم الى المدينة تريد القضاء على المسلمين جميعاً — جمع النساء والصبيان في حصن بنى حارثة ، حتى لا يمسهم

١ فتوح الشام للواقدى ص ٢٨—٢٩ طبع مصر

السوء . واعتصم بالحصن يومئذ حسان بن ثابت ، وكان ضعيفاً واهن القلب . وكانت صفية يومئذ بين النساء . فبينا هى مشرفة من الحصن ، بصرت بفارس يهودى يطيف بالحصن . فخشيت أن يقتحمه ، أو يدل عليه . فقالت لحسان : إن هذا اليهودى يطيف بالحصن ، وانى والله ما آمنه أن يدل علينا مَن وراءنا من يهود وقد شُغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله . قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . حتى اذا يئست منه ، احتجزت بثوبها ، واحتملت عموداً ، ونزلت اليه ، وهو ملتمع السلاح . فنازلته فقتلته . ثم قالت : ياحسان ، انزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل قال : مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[1] .

﴿ ليلى بنت طريف ﴾

أخت القائد البطل الثائر الوليد بن طريف الشيباني .

كان أخوها الوليد بقية أبطال الخوارج الذين خرجوا على الخلفاء ، وروّعوا جندهم ، وحطموا كتائبهم .

خرج الوليد على الرشيد فأمعن في جنده فتكا وقتلا . وكلما ساق اليه الرشيد فريقاً ، كان كهشيم الحلأ فى ضرام النّار . فرماه بعد أن أعياه بقائده يزيدبن مزْيد الشيباني . فظهر يزيد عليه فقتله . فخلفته على قيادة جنده أخته ليلى . فأطبقت بهم

١ الأغانى ج ٤ ص ١٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٤٣ طبع بولاق

على جند الرشيد ، حتى خلعت قلوبهم ، ومزقت أوصالهم ، وقالوا : لا تكون هذه إلا أخت الوليد ، لأن فعلها بفعله أشبه . حتى اذا أبصر يزيد الوهن في جنده ، قال : دعوها . ثم خرج اليها ، وضرب بالرمح قطاة فرسها ، وقال : اعزبي ، عزب الله عليك ، فقد فضحت العشيرة ، فاستحيت وانصرفت . وأقامت بعد ذلك بنجوة عن العيون ، تبكى أخاها ، بمراث تستنزف العبرات ، وتستثير الزفرات[1] .

﴿ غزالة الحَرورية ﴾

زوج القائد البطل المخوف شبيب بن يزيد ، قائد الخوارج وبطلهم ، والقائم بالأمر فيهم .

وهى إحدى القادة الكفاة ، الذين دوخوا البلاد ، وروعوا الجيوش ، وملأوا القلوب أثراً ، والأفواه خبراً ، والأرض عبراً .

وكانت هى وزوجها يليان قيادة الخوارج . وكان الحجاج بن يوسف مبيد العراق ، وسفاك بنى أمية ، يستمع خبرها ، فيمتلئ قلبه رعباً ووَهلا .

وقد حدثوا : انه خرج في جنده ، وكلهم شاكي السلاح ، مستكمل العدة ، مرهوب الصولة . فعرضت له غزالة في أربعين ، وهو فى أربعة آلاف . فما لبث أن اختلط عليه الامر ، وخلع قلبه الفزع ، وولّى هاربا يخلط فى قوله ، وهو

١ الأغانى ج ١١ ص ٩ وابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٧ طبع المطبعة الميمنية

أعرف الناس بمواطن القول ، وأرفقهم بأساليب الكلام . ولكنه عُقل قلبه ، فعُقِلَ لسانه . وفي ذلك كتب عمران بن حطان الى الحجاج ، وكان الحجاج قد لجّ فى طلبه[1] :

أسد علىّ وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحى طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر ... تركت كتائبه كأمس الدابر

وبلغ من جسارتها ، وقوة قلبها ، أنها أقسمت لتُصَلّيَنَ في مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ في الأولى سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران . والكوفة يومئذ معقل الحجاج ، ودار إمرته ، ومجتمع قوّته .

وقد برّت غزالة بقسمها . ودخلت مسجد الكوفة هى وزوجها . ولبثت تصلى ركعتين تستنفدان نصف النهار . ولما أنبئ الحجاج بها ، تحصن في قصره واستوثق من رتاج بيته .

وقد رمى الحجاج غزالة بخمسة جيوش ، وهي تلتهمهم التهاما ، حتى أصبحت طِباق العراق ترتجف لاسمها . وفي ذلك يقول أيمن بن خُرَيم[2] :

أتينا بهم مائتى فارس ... من السافكين الحرام العبيطا
وهم مائتا ألف ذى قَوْنَسٍ ... يئط العراقان منهم أطيطا[3]
رأيت غزالة ان طَرَّحَتْ ... بمكة هودجها والغبيطا[4]

١ الأغاني ج ١٦ ص ١٨ ٢ الاغاني ج ٢١ ص ٨
٣ القونس أعلى بيضة الحديد والأطيط الصياح أو المزوج بالأنين منه ٤ العبيط الرحل

سمت للعراقين في جمعها ... فلاقى العراقان منها بطيطا[1]
ألا يستحى الله أهل العرا ... ق ان قلدوا الغانيات السموطا
وخيل غزالة تسبى النسا ... ء وتحوى النهاب وتحوى النبيطا[2]

وقتلت غزالة خدعة في موقعة الكوفة بين شبيب وبين الحجاج . غافلتها فرقة من جند الحجاج من ورائها بينما كانت تخوض في صدور جنده . ومن بعدها قُوِّض جند شبيب وعفا أثره[3] .

***

﴿ وبعد ﴾ فذلك شىء من حديث النساء فى الحروب أفضنا فيه بعض القول لتعلم أن المرأة لم تدع للرجل فضيله يَثْنِي عِطفه بها . وما كان شىء من ذلك لجفوة فى الخُلُق ، ولا نَبْوَة في الطبع ، وهن الخِفَرات اللواتى يَفْرِرن من المُندية ويرتمين على الموت . وما كانت شجاعتهن أثراً من الغلظة ، وظمأ الى الدماء ، ولكنها كما أسلفنا قوة فاضت بها وَفْرَة الصبر ، وابتعثتها قوة اليقين . واذا كانت أثبت من الرجل ايماناً ، وأصبر منه على ريب الزمان ، فما لها لا تكون في ساعة المحنة أبسل منه وأشد ؟

واذا كان العرب يقولون : « الشجاعة صبر ساعة » فلم لا تكون أشجع الناس عند البلاء ، وهى أصبرهم على اللأواء ؟

ونحن لا ندع القول في شجاعة النساء يمر ، حتى نختمه بحديثين . ومنهما

١ البطيط العجب أو الداهية ٢ النهاب — جمع نهب — الغنائم والنبيط جيل من الناس يسكنون البطائح بين العراقين ٣ ابن جرير ج ٨ ص ٨٥٣—٩٦٨ طبع أوربا

تعلم الى أى حدّ بلغ ثبات المرأة ، ووفور ثقتها بنفسها ، واستمكانها من موقفها .

أما أولهما فما حدّث ابن سعد عن أنس بن مالك قال :

شهدت أم سليم « حُنينا » مع رسول الله ، ومعها خنجر قد حزمتـه على وسطها ، وإنّها يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة . فقال أبوطلحة : يارسول الله ان أم سليم معها خنجر . فقالت : يا رسول الله أتخـذه ان دنا منى أحد من المشركين بقرت بطنه ، أقتل به الطلقاء ، وأضرب أعناقهم ان انهزموا بك .

فتبسم رسول الله وقال : يا أم سُلَيم ، ان الله قد كفى وأحسن[1] .

وأما الثانى فما رواه الجاحظ في البيان والتبيين قال :

كان حبيب بن مَسْلمة الفهرى رجلاً غزّاء للترك . فخرج ذات مرة الى بعض غزواته ، فقالت له امرأته : أين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية ، أو الجنة ان شاء الله تعالى . قالت : انى لأرجو أن أسبقك الى أى الموضعين كنت به . فجاء ، فوجدها فى سرادق الطاغية ، تقاتل الترك[2] .

---

١ طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣١٠—٣١٧

٢ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٣

تأثير

المرأة العربية

في نهضة الاسلام وحضارته

ليس بدعا من المرأة التى وثب بها الاسلام الى أبعد غاية من كمال النفس ، وسموّ الحياة ، أن تكون العضد الأقوى ، والساعد الأشد ، في نشر آيته ، وبلوغ غايته .

لقد وضح صبح الاسلام فظهرت المرأة العربية في مشرق نوره ، ملأى اليدين من حق موفور ، وفضل مأثور . فياضة النفس ، بما شئت من وجدان وايمان . ثم أبصرت فاذا مجال القول متسع ، ومُستبق العمل فسيح . فانطلقت تَستنّ ملء عِنانها ، وهنالك ، في أبعد شأو الفضيلة ركزت لواءها ، واعتمدت بناءها ، فتساقطت الألوية ، وانتقضت الأبنية دونها .

فى تصريف الحوادث ، وفي تكوين الرجال ، وفي نشر مطارف العلم ، ونثر طرائف الأدب ، تجد أثرها أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفياض ، في زهر الرياض .

ونحن أولاء مُرسلو القول فى كل آثارها ، مستعينين بمعونة الله ، وحسن توفيقه ، فهو وحده مرجع الأمر ، وولىّ التوفيق .

— ١ —

﴿ أثرها في تصريف الحوادث ﴾

تتابعت فى الاسلام حوادث عظام ، وتناوبته شدائد ثقال . وهى على عظمتها ، وفداحة أمرها ، لم تقع بمنجاة عن المرأة ، ولا بمعزل عن تصريف زمامها وتدبير الرأى فيها .

وهى ان تُنوولت بالنقد في بعض تلك المواطن ، فتلك سنة التاريخ في كل عمل عظيم ، من عامل عظيم .

ونحن مجملون لك القول في تلك الحوداث ، ومبلغ رأي النساء فيها ، واستمكان أثرها منها .

***

حديث النبوة

﴿ خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت أسد ﴾

لئن أصيب رسول الله من رجال قريش بكل فادحة موقرة ، لقد لقى من امرأتين منهم ماهوّن عليه أمرهم ، وذهب بالشديد المؤلم من نوائبهم .

هاتان هما خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت أسد .

أما خديجة ، فكانت له صلى الله عليه وسلم منذ أوّل ساعات النبوة .

لقد نزل عليه الروح الأمين أول مانزل فى غار فى الجبل ، فلم يكن مارآه بشراً من الناس ، ولا خلقاً مما يتخيله المتخيلون . فأقرأه ما شاء الله أن يُقرئه

من آى الكتاب الكريم . ثم أخذ يترااى له في طريقه بين السماء والارض ، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه ، فيقف لا يتقدم ولا يتأخر .

كل ذلك ورسول الله بين شعاب الجبال ، وفي وحشة الطريق ، فلا أنيس ولا سمير ، ولا معين ولا نصير .

لم يزل النبى في موقفه هذا ، حتى انصرف المَلَك عنه ، فانصرف هو الى زوجه خديجة فزعا مرعُوبا مما سمع ورأى . فلما بصرت به قالت : أين كنت يا أبا القاسم ؟ فوالله لقد بعثت رسلى في طلبك حتى بلَغُوا مكة ، ثم رجعوا الىّ . فحدثها رسول الله حديثه . فقالت : أبْشِر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة في يده ، اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ثم قالت له : أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذى يأتيك اذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فاذا جاءك فاخبرنى به . فجاءه جبريل مترائياً بين أقطار الغرفة فقال رسول الله لخديجة : هذا جبريل قد جاءني . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام رسول الله فجلس . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : قم فاجلس على اليمين . فقام . فتحوّل عليها . فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . ثم تحسّرت ، وألقت خمارها ، وقالت له : هل تراه ؟ قال : لا . قالت : اثبُت وأبشر ، فوالله إنه لَمَلَك ، وما هو بشيطان .

بعد ذلك قامت ، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت الى ابن عمها وَرَقة بن نوفل — وكان رجلاً عليما نافذ العلم فى التوراة والانجيل ودقائقها وأخبار النبوة الاولى — فأخبرته خبر رسول الله . فقال ورقة : قدُّوس قدُّوس ! والذى نفس

ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتي موسى ، وانه لنبي هذه الأمة ، فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت آية البِشر والبُشرى له .

على ذلك النسق البديع الفريد ، سارت خديجة أم المؤمنين فى تثبيت قلب النبى ، وترويح نفسه ، وتأييد أمره . فلم ير شيئاً يحزنه ، من ردٍّ عليه ، وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه ، إلا فرجت صدره ، وأذهبت حزنه ، وأثلجت قلبه ، وهونت الأمر عليه .

تلك هى خديجة التى بعث الله اليها تحيته ، فنزل بها جبريل على رسول الله فقال له : أقرئ خديجة السلام من ربها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك . فقالت : لله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

ولعمرك انها لمثوبة من الله ماظفر بها أحد من السابقين الأولين ، والخلفاء الراشدين . ذلك لأن موقفها يومئذ أبرُّ برسول الله ، وآثر فى بسط دعوته ، وتأييد أمره ، من مواقف الأبطال المُعْلِمَةِ ، على الخيل المُسَوَّمَةِ .

وفى السنة التاسعة من ذلك الجهاد العظيم ، ماتت خديجة . فاشتد حزن رسول الله على أعز نصرائه ، وأصدق وزرائه .

ماتت خديجة ولكن عظمة المرأة لم تمت . فقد خلفتها على رعاية النبى وتأييده وتثبيته وتدبيره ، امرأة لم تكن دونها رأيا ، ولا عطفاً ولا حقلا ، ولا جاهاً ولا منصبا ، وتلك هي فاطمة بنت أسد ، زوج أبي طالب بن عبد المطلب ، عم

النبي ، وأم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، قائد المسلمين ، وصهر النبى الأمين .

لم تكن فاطمة رضى الله عنها خلفاً من خديجة فحسب ، بل كانت كذلك خلفاً من أبي طالب فى الذود عن النبي ، والانتصار له ، ورفع الصوت حرّا نديّا في سبيله . ولم يزل ذلك شأنها ، حتى هاجر رسول الله الى مهبط أمنه ، ومستقر أنصاره ، فتبعته في هجرته . فكان بيتها في المدينة ، كما كان في مكة ، مآباً طيباً ، ومقيلاً كريماً .

وكما كانت فاطمة فى نصرة الله ، وتأييد رسوله ، منقطعة القرين — كذلك كان لها رسول الله يوم لحقت بربها . فقد كفنها في ثوبه ، ونزل فى قبرها ، واضطجع فيه . فكان حقًّا على القبر أن يشرق بنور الله ، ويَعبِق برَوحه ، ويفيض برحمته .

وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعته بهذه فقال : انه لم يكن بعد أبي طالب أبَرّ بى منها[1] .

ذلك فضل الله يختص به من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

١ ابن جرير ج ٤ ص ١١٣٧ — ١١٥٦ طبع أوربا وكتاب الطبقات ج ٧ ص ١٢ — ١٤ والاصابة ج ٨ ص ١٦٠ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٠ — ٨٣

حديث الهجرة

﴿ رُقَيَّة بنت صيفيّ وأسماء بنت أبي بكر ﴾

تتصل رُقَيقة برسول الله في هاشم بن عبد مناف . فهو جدها وجد أبيه . وكانت أسنَ من عمها عبد المطلب . فلما أدركها الاسلام كانت قد تطاول عليها القِدَم ، وجاوزت حد الهَرَم .

تلك هى المرأة التى استَشَفَّتْ خبر قريش يوم ائتمَرُوا بالنبي ليقتلوه ليلاً في كِسْر داره . فذهبت تدرُج حتى انتهت الى رسول الله ، فحذرته مبيتـه في داره ، وأشارت عليه بالنقلة والرحيل ، وحدثته حديث القوم . ففارق لساعته وطنه الأعزّ ، مدرج طفولته ، ومعقد أُلفته ، ومهبط نبوته ، ومُرتقى مناجاته وعبادته — الى دار هجرته ، وموطن أنصاره وشيعته . واتخذ صاحبه الصِّدّيق رضى الله عنه رفيقاً له ، وتَرَك ربيبـه وابن عمه عليًا عليه السلام . فنـام على فِرَاشه ، وتسجى ببردته ، وشغل بنومه جماعة المتآمِرين المترصدين المتهامسين على رسول الله، الضاربين النطاق حول داره ، عن تأثّره ، واغتياله في عُرض الطريق[1]

ولعل هناك من يقول : وأى عظمة تجدها فى امرأة سمعت خبراً فألقته كما سمعته ؟ ذلك قول مَن لم يستبطن الأمر ، ويتبين دخيلته . فان فئة قليلة العدد خطيرة الغَرَض ، من هامات القوم ، وأشداء فتيانهم ، بيّتوا أمرهم ، واحتجَزُوا

١ ابن سعد ج ٧ ص ٣٥ والاصابة ج ٨ ص ٨٣

خبرهم عن بقيّتهم ، والممالئين لهم ، وتعـاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا ألا يذيعوه ، حتى يمضوه — فئة ذلك شأنها ، وتلك غايتها ، ليس بالهيّن اليسير كشف أمرها ، والوقوف على ذوات نفوسها ، واستنقاذ رسول الله من كيدها ، وشر غائلتها .

ذاك حديث خفيَ عن الناس جميعاً ، مسالميهم ومشركيهم . فأي جُهد من التدبير ، ونفاذ من الحيلة ، بذلته تلك التى أنافت على المائة ، وأشرفت على ثنية الوداع ، حتى حسرت الحجُبَ عنه ، فنقلته ولم تأمن على نقله ابنها مَخْرمة ابن نوفل ، وهو من لُحمة النبي ، وذوى صحبته ؟ .

أمَا لقد اتخذ الله المرأة يوم ذاك كما اتخذها مِنْ قبله آية لطفه الخفي ، ووحى إرادته البالغة فى أعظم حوادث الاسلام خطراً ، وأبقاها أثراً ، وأدومها على مَرّ الدهور ذِكراً ، وأقومها ببناء الاسلام ، وأكفلها بوضَح محجته ، واستطارة دعوته .

تنقلت العظائم من يد طاهرة ، الى يد طاهرة . فبعـد أن دعمت العجوز الفانية رُقَيقة بنت صيفى أثرها ، أقامت الفتاة الحَدَثة أسماء بنت أبى بكر أثرها .

لقد أعجل النبي وصاحبه عن ابتغاء الزاد ، وشغلهما الغرض الأسمى عن العَرَض الأدنى . فسارا خفيفين الى غار في الذروة العلياء من جبل ثور ، إخفاء لأمرهما ، وإعياء للذاهبين في أثرهما . فكانت أسماء تُمَسّيهما كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون قد سمعته ، أو رأته ، من حديث القوم وخبرهم[1] .

ثلاثة أميـال إلا قليلاً كانت تقطعها الصبية الناشئة في جوف الليل ،

١ سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧١ طبع بولاق

ووحشة الطريق ، بين أسنة الصخر ، ومساخات الرمال ، ماشية متخفية ، حذرة مترقبة ، حتى تصعد الى هامة الجبل ، ثم تنحدر في جوفه ، فتوافي رسول الله وصاحبه ، بما قصدت له .

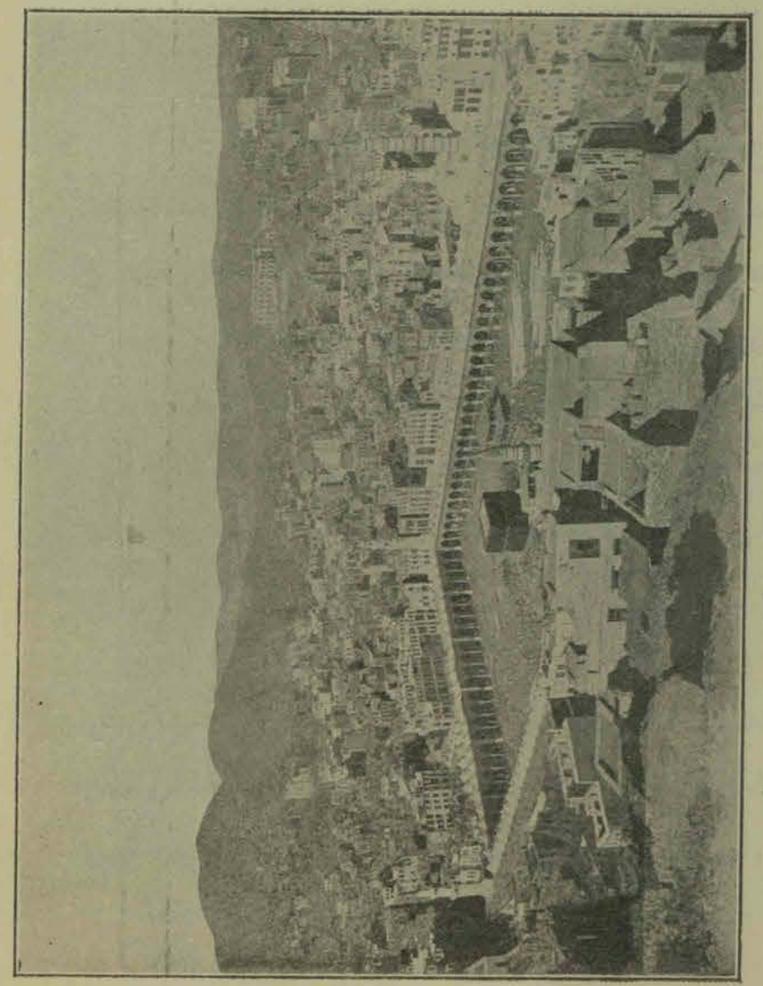
تلك هي الصبية التى تركت الوِلْدان والوَلائد من لِدَاتها وأترابها يغدون الى ملاعبهم ، ويأوون الى صدور أمهاتهم ، وذهبت الى حيث يعجز أشداء الرجال وأبطالهم . فأى قوّة تلك التى أمدها الله بها ؟ وأى قلب ذلك الذى أودعه الله بين ضلوعها ؟ وأية عَزْمة تلك التى خفقت فى نفسها ، والْتاعت بين جوانبها ؟ .

ذلك مثلٌ من تلك النفوس التى استخلصها الله لدينه ، واصطنعها لدعوته ، ونفث فيها من رُوحه ، فكانت مستقر الكمال ، ومجتمع أشتات الفضائل .

ولعمرى لئن سامت أسماء من عثرات الطريق ، لقد محنت بالشديد المؤلم من بلاء قريش وأذاهم ، وهي وادعة فى كسر دارها . فلقد أحاط بها رجال القوم ذات صباح ليتعرفوا منها أمر أبيها . فأنكرت أمره ، وتجاهَلت خبره . ثم أمعنوا في محنتها ، واشتدوا في أذاها . حتى لقد لطمها الشريف النذل أبو جهل ابن هشام لطمة طار لها قرطها ، فلم يوهِن ذلك شيئاً من عَزِيمتها ، ولا عبث بمكنون سرها[1] .

كذلك اقتحمت أسماء ذلك الطريق الرائع المخوف ثلاث ليال متواليات . وفي الليلة الثالثة — وهي ليلة الزماع على مفارقة الغار الى عرين الأنصار — وافتهما بزاد السفر كله . فلما آذن رسول الله بالرحيل ، نهضت لتُعَلّق سفرة

١ سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٢ طبع بولاق



أم القرى (ص ١٣٠)

الزاد ، فاذا ليس لها عصام ، فلم تجد ما تعصمها به إلا نطاقها ، خرجت عنه فشقته نصفين . فعصمت السفرة بنصفه ، ووكأت السقاء بباقيه . فأبدلها الله بنطاقها ذلك نطاقين في الجنة .

كذلك وعدها رسول الله فسُمّيت منذ ذلك اليوم بذات النطاقين .

ونذكر من شجون الحديث حديثاً لأسماء ، يتصل بطَرَف من الهجرة ، قالت :—

لما خرج رسول الله وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله . خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف . فانطلق بها . قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره . فقال : والله إنى لَأُراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت : قلت كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوّة في البيت ، كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبتى ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه فقال : لا بأس اذا ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك[1] .

***

﴿ وبعد ﴾ فكل ما أوردناه من حديث تينك المرأتين ، لم يكن كل حديث النساء في الهجرة . بل لقد هاجر العدد الموفور منهن فى رفقة أزواجهن الى الحبشة ، والى المدينة . فلم يكُنّ فى مهنة العمل وتهيئة الطعام فحسب — فليس

---

١ ابن جرير ج ٤ ص ١٢٣٥ — ١٢٤٠ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٢

من عادة العرب ، ولا سنة الاسلام ، اذا غدا الرجل الى قطر سحيق كالحبشة أن يُحَتِّم امرأته ذل الغربة ، وأوعار الطريق . ولكنهن خرجن — كما خرج الرجال — في طاعة الله . وهاجرن — كما هاجروا — فراراً بدينهن . وذهبن في أزر أزواجهن ، مشيرات مؤتمنات ، ومعينات صادقات . فابْنَ مآبَ الرجال فضل زكى ، وأجر غير منقوص .

ومما يجمل ذكره في هذا الموطن ، ما رواه ابن سعد عن أبي حمزة قال :

لما قدمت أسماء بنت عُميس من أرض الحبشة ، قال لها عمر بن الخطاب : ياحبشية ، سبقناكم بالهجرة — وأحسبه قالها فاكِهاً — فقالت : إى لعمرى لقد صدقت ! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعلم جاهِلكم ، وكنا البعداء الطرداء . أما والله لآتينّ رسول الله فلأذكرن ذلك له . فأتت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ان رجالاً يغمزون علينا ، ويزعمون أنّا لسنا من المهاجرين الأولين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل لكم هِجرتان ، هاجرتم الى أرض الحبشة ونحن مُرْهَنون بمكة ، ثم هاجرتم بعد ذلك إلىّ [1] .

ألم تر الى الذين هَبطوا من الحبشة كيف قامت المرأة بحجتهم ، وفيهم أربعة وثمانون رجلاً ، كلهم مُشَيّع القلب ، مصقول اللسان ، فلا دفع منهم ولا استكراه . وهل رأيت الى المرأة كيف فاءت بأمرها الى رسول الله ، ولم تعرج به على زوجها ، أو تطلب الاذن منه في خصومتها . ذلك لأن الأمر بينها وبين الله ورسوله ، فلا إمرة لأحد عليها ، أيّا كان مكانه منها .

---

١ كتاب الطبقات الكبير ج ٧

وكانت هِجرة رسول الله قد سبقت ببيعة العقبة ، وهى البيعة التى اتّعَدَ فيها رسول الله مع الأنصار خفية . فتوافدوا تحت جنح الليل بالعقبة . وكان وفد الأنصار ثلاثة وسبعين رجلاً ومعهم من نسائهم وذوات آرائهم اثنتان هما نسيبة بنت كعب المازنية — وقد عقدنا لها فصلاً خاصّاً — وأم منيع أسماء بنت عمر السّلَميّة ، وهي من أتم القوم عقلاً ، وأحكمهم رأيا . وقد شهدت مع رسول الله خيبر . فكان لها فيها المشهد الأروع ، والمقام المحمود [1] .

---

١ سيرة ابن هشام ج ٢١ ص ١٥٥ طبع مصر

أمر العقبة : — لما بسطت قريش أيديها وألسنتها بالسوء لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يعرض نفسه على القبائل عله يجد من بينها ناصراً أو ظهيرا فلم يجد منها جميعاً أذنا صاغية ولا قلباً واعياً حتى لقي في موسم الحج نفراً من الخزرج فعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فصدقوه وآمنوا به وقالوا انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك . ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله اليه فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله وقد بايعوه فلما عادوا المدينة أذاعوا بها الاسلام فأجاب داعيتهم خلق كثير . حتى اذا كان موسم الحج من قابل ذلك العام خرج من المدينة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان الى رسول الله ليبايعوه ويؤتوه عهدهم وذمامهم أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم فتوافوا جميعاً بالعقبة اخفاء لأمرهم وكان مع رسول الله عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما استقر المقام بهم قال العباس يامعشر الخزرج — وكانت قريش تطلق الخزرج على الانصار جميعاً — انّ محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وانه قد أبى الا الانحياز اليكم والحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده . فقال الانصار قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول الله صلى الله

وقد أعطى القومُ رسول الله ذمتهم أن يذودوا عنه ذيادهم عن أعراضهم . وأعطاهم ذمته ألا يعود فيقيم مع قومه ، اذا دانت له أرضهم ، وقرت لحكمه نواصيهم .

فهل رأيت مثلاً أدل على سمو المرأة ، وعظم منزلتها ، ورعاية حقها ، مما ترى ؟.

عهد سياسى حربي عظيم أُسدل عليه ستر من السر ، وأُلقى دونه حجاب من الليل . أترى القوم أنفوا أن يكون للمرأة فيه شأن ؟. ولِمَ لا يكون لها ذلك الشأن وتلك مواقفها ومشاهدها ملء المسامع والأبصار ؟.

وقد علمت في جملة ما مر بك أن رسول الله يوم وافى المدينة ، بسط يده للنساء فبايعن ، كما بسطها للرجال فبايعهم .

عليه وسلم فتلا القرآن ورغب في الاسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ان بيننا وبين الرجال — يريد اليهود — حبالاً ونحن قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » :

ويقال الهدم الهدم أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

أقول وقد أسلفنا القول فى نسيبة بنت كعب . أما أم متيع فهي أسماء بنت عمرو بن عدى الانصارية السلمية احدى ذوات المكانة والرأى من نسوة الانصار . أسلمت حين تنفس صبح الاسلام بالمدينة وصحبت رسول الله الى خيبر . وهى أم معاذ بن جبل أحد الائمة المعدودين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

من ذلك كله تعلم أن الهجرة بيد المرأة مُهِّدَت واختمرت ، وعلى يدها تكونت وتكاملت ، وبرأيها وعزمها أثمرت وأينعت .

حديث الخرافة

أو

﴿ المرأة المسلمة بين الحرب والسياسة ﴾

ما زال المسلمون منذ لحق النبي بربه وهم من أمر خليفته ، والقائم بالأمر من بعده ، في فتنة غاشية ، تعصف بهم تارة ، وتقِرُّ دونهم ، رابضة مترصّدة متحفزة تارة أخرى . فهى يومئذ غافية غفوة الذئب ، نائمة هاجعة ، ساكنة مستجمعة .

كذلك تدافعَت الحِقَب على الخلافة ، والدم يَنْعَر من حروفها ، والمهج تسيل على أطرافها ، وشِفار السيوف تصِلّ من أقطارها ، ورسل الموت رائحة بأسود الغاب ، وفتيان الضراب ، من كل معتزم لو جرّد فى سبيل الله عزمته ، لفَلّ بها الصفوف ، وجندل الألوف .

ولقد كان للمرأة فى كل تلك الأدوار رأى ماثل ، وصوت مسموع ، وفي بعضها يد أيِّدَة ، وبطش شديد . وذلك ما نحن آخذون بالقول فيه .

﴿ فاطمة[1] وأبو بكر ﴾

ترك رسول الله للمسلمين أن يختاروا بعده من يرتضونه لدينهم ودنياهم . ففى اليوم الذى رجفت الأرض لموته صلى الله عليه وسلم ، سعت رجالات من المهاجرين والأنصار الى سقيفة بنى ساعدة ، وهناك — بعد جدال وحوار — بسطوا أيديهم الى أبي بكر يبايعونه .

---

١ فاطمة الزهراء : هى سيدة نساء العالمين وبنت امام المتقين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم

ولدت صلوات الله عليها قبل النبوة بخمس سنين . وهى صغرى بنات رسول الله وأحبهن الى قلبه وأشبههن به في خلق وخلق . وكان رسول الله يدعوها بأم أبيها وكانت في نشأتها الاولى مضرب المثل في أشتات الكمال ولها يقول صلى الله عليه وسلم ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك وفيها يقول : فاطمة مني يؤذينى ما آذاها ويريبنى ما رابها .

ولما سمت الى الثامنة عشرة من عمرها خطبها أبو بكر الى أبيها صلى الله عليه وعلى آله فقال يا أبا بكر انتظر بها القضاء ثم خطبها عمر فقال له مقاله لأبى بكر ثم اجتمع الى علىّ جماعة من أهله ورهط من الأنصار فقالوا له اخطب فاطمة فقال بعد أبي بكر وعمر ؟ فذكروا له قرابته من رسول الله فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما حاجة ابن أبى طالب قال ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي مرحبا وأهلا لم يزده عليهما فخرج علىّ على أولئك الرهط فقالوا ما وراءك قال ما أدرى غير أنه قال لى مرحباً وأهلاً قالوا يكفيك من رسول الله احداهما . وقد تم له ذلك الشرف الاسمى حين عاد الى رسول الله بالقول فقال له ياعلىّ ليست دجالا أعدك وأكذبك . وكانت خطبتها بعد مقدم رسول الله الى المدينة بخمسة أشهر وبناؤها بعد يوم بدر بشهرين . ولما كانت ليلة بنائها دعا رسول الله باناء فيه ماء فأخذ منه ومج فيه ثم دعا عليا فتضح منه على كتفيه وصدره وذراعيه ودعا فاطمة فأقبلت تعثر في ثوبها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل بها مثل ذلك وقال لها يافاطمة والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلى .

وقد اختصها الله بذرية رسوله الطاهرة فلم يكن له عقب في غيرها

على أن فاطمة بنت رسول الله أقامت في عهدها القصير بعد رسول الله مجافية أبا بكر ، واجدة عليه .

وسواء أكانت تلك الموجدة لِما رأت من انتزاع الخلافة من آل بيت النبى — وكانت تراها حقاً لهم لا يُطاولون فيه ، ولا يغالبون عليه — أو لحرمانها ميراث أبيها في فدك ، وسهمه في خيبر — سواء أكانت موجدتها لهذا أو لذلك فقد كفّ عن البيعة كرامة لها زوجُها علىّ عليه السلام ، وانحاز بجانبه بنو هاشم جميعاً . وانضم اليهم أبو سفيان بن حرب رأس بنى أمية ، والزبير بن العوام بطل قريش وحواريّ رسول الله . وأقام علىّ والزبير بدار فاطمة لا يبرحانها .

كذلك لبثوا وبعض المسلمين لبعض رَصَد ، حتى لحقت الزهراء بربها . فانكشف بموتها ستر من ستور الهيبة الرائعة في بنى هاشم . حتى لقد سعى عمر ابن الخطاب بقبس من النار الى بيت علىّ كرّم الله وجهه ليحرقه . وهناك خرج له الزبير والسيف مُصْلَت بيمينه ، يريد أن يصدع به رأس عمر ، لولا ان عثرت قدمه بحجر في الطريق فوقع ووقع السيف من يده فأخذ . ولولا تلك العثرة المباركة لَخُضّب بالدم رأس من أرفع رؤوس المسلمين .

وان القلم ليتعثر عيا ومعجزة حين يعرض لتلك الفضائل الملكية المقدسة التى كل الله بها سيدة نساء العالمين . وحسبك أن تسمع قول عائشة : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها .

أما علمها فهو فيض من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنها روى ابناها الكريمان وأبوهما وعائشة وأم سلمة وسلمى أم رافع وأنس بن مالك

وكانت وفاتها عليها السلام بعد ستة أشهر من موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . صلوات الله على تلك النفس الزكية والشمائل الملكية

ولقد كادت الحرب تعود جذعة لولا حكمة من علىّ حسمت الجرح ، ورأبت الصدع ، وجمعت الشمل . فخطب المسلمين خطبة ردّت صغيرهم على كبيرهم ، وجمعت قَصِيهم وعَصِيّهم ، ثم بايع أبا بكر . فلم يبق بعد ذلك مخالف عليه[1] .

﴿ عائشة وعُثمان وعَلِيّ ﴾

تقضّتْ أيام أبى بكر وعمر والمسلمين في أَمَنة من الفُرقة . وقد فرَغوا للجليل العظيم من أمرهم . فردوا المرتدين ، الى حظيرة الدين . ثم فتحوا العراق وفارس والشام ومصر وما وراءهن . حتى أصبحت الدولة الاسلامية يومئذ أورف الدول ظلا ، وأسمقها بناء . ثم أعقبتها أيام عثمان ، فبدأت الأرض تمور بالفتنة

لقد كان عمر صُلباً شديداً لا يبالى أن يُقنع بدِرّته وجه الشريف العظيم اذا مال به القصد ، وحاد عن الطريق . وكان عُثمان حيياً خجولاً . يبتدر الرجل الهفوة بين يديه فيندى جبينه ، ويحمرّ وجهه . ومحال أن يروض الناس هذا بعد ذاك .

وكانت من عثمان الى المسلمين هفوات ساقها الضعف ، فأسخطتهم وأحفظت قلوبهم : منها انه استعان على عمله بالأحداث من بنى أمية ، فأخذوا يخسفون بعامة المسلمين ، ويضربونهم بالسياط ، ويعذبونهم بالمَساحى المُكْواة .

---

١. العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٩ وابن جرير ج ٤ ص ١٨٣٥ — ١٢٣٧ وبلاغات النساء ص ٢٤

حتى دوى الصوت من الحجاز الى العراق الى مصر بأن عثمان خليفة مستضعف وأن سواه أولى منه بخلافة المسلمين .

وكان مصدر هذا الصوت من سُدَّة عائشة أم المؤمنين . فتجاوبت أصداؤه وانشعبت جِواؤه .

ضاعف الثائرون ذلك الصوت وجوّفوه ، فكلٌّ يقول : قالت عائشة ، وكتبت عائشة . حتى اتخذوا اسمها سبيلاً الى الإغراء بدم الخليفة المظلوم ، كما اتخذوا اسم علىّ في ذلك بهتاناً واثماً مبينا . على أن كليهما أراد النَّصَفة للمسلمين باستصلاح الخليفة ، أو اعتزاله . فكان ما جرى به القضاء ، وقتل عثمان في بيته مظلوماً مخذولا . واستَحَلَّ الثائرون منه الحُرم الثلاث : حرمة الخلافة ، وحرمة البلد الحرام ، وحرمة الشهر الحرام .

أبصرت أم المؤمنين ذلك ، وأبصرت قَتَلة عثمان يذهبون الى ديارهم موفورين ، وحسبت الهوادة فى القصاص ، فانصدع قلبها ، وذابت حشاشتها .

وان يك عثمان قد مات مظلوما ، فقد عاش من بعده علىٌّ مظلوما . ومن أشدّ مظالمته أن تُؤَلِّبَ أم المؤمنين عليه المسلمين . وأن تقود الجنود الى قتاله فى وقعة الجمل ، لأنها اتهمته بالمالأة على عثمان ، كما اتهمها الناس بذلك .

وفي موقعة الجمل ترامى جند عائشة على الموت كأن لهم فيه أرَباً ، حياطة لحرم رسول الله ، وذياداً عنها ، حتى لقد قتل حولها عشرون ألفاً ، وقطعت على زمام هودجها سبعمائة يد ، وكلما نُزِعت عنه كف نَزَعت اليه أخرى . وكانت خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال ، وما أصاب قوائمه من السيوف . ثم احتمل الهودج الى دار عبد الله بن بُدَيل ، وهو أقرب الدور الى ساحة القتال

ومن هنالك آبت الى المدينة بعد أن أحسن أمير المؤمنين مآبها ، وبعث في رفقتها سبعين من نساء صحابته .

رحم الله أم المؤمنين لقد اشتفت من الداء بالداء . أما والله ما نفست على ابن عم رسول الله خلافته ، ولا وجدت عليه قديم أمره . ولقد كانت تدعو الناس اليه يوم قتل عثمان ، لأنها تعلمه أحق الناس بالأمر ، وأقربهم قرابة من رسول الله . ولكنها رأت حقاً ضائعاً ، ودماً مطلولاً ، وألسنة مرجفة ، ووسطاء سوء ، فتعجلت ما رأته واجبا ، ولو صبرت لكان خيراً وأبقى . ولعمري لهي آثر عند الله وأبرّ ممن رأى وضح الحق في زمرة على ثم قعد عنه ، ونكل عن نصرته ، وانما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى[1] .

﴿ نائلة بنت الفُرَافِصَة[2] وعليّ بن أبي طالب ﴾

على أن أمير المؤمنين لم يطمئنّ به الأمر ، ولم تصف له الحياة ، بعد أم المؤمنين . فقد عرَض له من النساء خصم جديد ، ومن الرجال خصم جديد ، وكلاهما اشتد أزره ، وقوى أمرُه بصاحبه . أما الرجل فمعاوية بن أبي سفيان .

١ العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٥—٢٨٣ وابن جرير ج ٥ ص ٣٠٢٥—٣٠٢٦

٢ نائلة : هي نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية صاحبة عائشة وزوج عثمان . وأبوها سيد بني كلب . وهي احدى اللواتي ذهب الدهر بمة لاتين ومقاماتين . وكان سعيد ابن العاص قد تزوج اختها فكتب اليه عثمان أما بعد فانه بلغني أنك تزوجت امرأة من بني كلب فاكتب اليّ بنسبها وجمالها فكتب اليه سعيد «أما بعد فان نسبها أنها بنت الفرافصة ابن الأحوص وجمالها أنها بيضاء مديدة » فطلب اليه عثمان أن يخطب أختا عليه

وأما المرأة فنائلة بنت الفرافصة ، زوج الشهيد المظلوم عثمان بن عفان .

كانت نائلة من أعذب النساء قولاً ، وأذكاهن قلباً ، وأكملهن خلقا

ولما تسوَّر الثائرون على عثمان ، وتبادروه بالسيوف ، ألقت بنفسها عليه حتى تكون له وقاء من الموت . فلم يَرْع القتلة الاثمة حُرْمتها ، وضربوه بالسيف ضربة انتظمت أصابعها ، ففصلتهن عن يدها ، ونفذت اليه فجندلته ، ثم ذبحوه كما يذبح الحمل الذلول ! رحمه الله ورضى عنه .

أرادت نائلة أن تنتقم . وحُقّ لها أن تنتقم . ولكن ممن ؟ لم تجد أمامها إلا عليّا ، فهو أمير الناس بعد زوجها ، وولىّ الدم المضيعُه في نظرها . ولم تجد إلا رجال الشام ، وجند الشام ، وأمير الشام . فهم أولى بأن تثير ثائرتهم ، وتضرم نار الثأر فيهم .

أرسلت نائلة الى معاوية بأصابعها الممزقة ، وقميص عثمان المُخَضَّب ، وأوحت اليه أن يعلق كل أولئك في المسجد الجامع في دمشق ، وأن يقرأ على المجتمعين جميعاً ذلك الكتاب :—

من نائلة بنت الفرافصة ، الى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد ، فاني أدعوكم الى الله الذى أنعم عليكم ، وعلمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ، ونصركم على العدوّ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فانه قال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ ٱللَّهِ » فان أمير المؤمنين بُغِي عليه ، ولو لم

يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية ، لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدمه في الاسلام ، وحسن بلائه ، وأنه أجاب الله ، وصدق كتابه ، واتبع رسوله ، والله أعلم به اذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا ، وشرف الآخرة . وإني أقص عليكم خبره — اني شاهدة أمره كله : — إن أهل المدينة حصروه في داره ، وحرسوه ليلهم ونهارهم ، قياماً على أبوابه بالسلاح ، يمنعونه من كل شيء قدروا عليه ، حتى منعوه الماء ، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة ، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم الى علىّ ، ومحمد بن أبى بكر ، وعمار بن ياسر ، وطلحة ، والزبير ، فأمروهم بقتله ! وكان معهم من القبائل خُزَاعة ، وسعد بن بكر وهُذيل ، وطوائف من جُهَينة ، ومُزَينة ، وأنباط يثرب . فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه . ثم انه حُصِرَ ، فرشق بالنبل والحجارة ، فخرج ممن كان فى الدار ثلاثة نفر معه . فأتاه الناس يصرخون اليه ، ليأذن لهم فى القتال ، فنهاهم وأمرهم أن يردوا اليهم نبلهم ، فردوها عليهم ، فما زادهم ذلك في القتل إلا جرأة ، وفي الأمر إلا إعراقا . فأحرقوا باب الدار ! ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا إن ناساً يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل ، فاخرج الى المسجد يأتوك . فانطلق فجلس فيه ساعة ، وأسلحة القوم مصلتة عليه من كل ناحية . فقال : ما أرى اليوم أحداً يعدل ! فدخل الدار . وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح ، فلبس درعه ، وقال لاصحابه : لولا أنتم ما لبست اليوم درعى . فوثب عليه القوم . فكلمهم ابن الزبير ، وأخذ عليهم ميثاقا في صحيفة بعث بها الى عثمان : عليكم عهد الله وميثاقه ألّا تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا . فوضع السلاح ، فلم يكن إلّا وضعه . ودخل

عليه القوم يَقْدُمهم محمد بن أبي بكر ، فأخذ بلحيته ، ودعوه باللقب . فقال : أنا عبد الله وخليفته عثمان . فضربوه على رأسه ثلاث ضربات ، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات ، وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم . فسَقَطْتُ عليه ، وقد أثخنوه وبه حياة ، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه ، فيذهبوا به ، فأتتنى ابنة شيبة بن ربيعة فالقت بنفسها معى ، فَوُطئنا وطئاً شديدا ، وعرينا من حُلِيّنا ، وحُرْمةُ أمير المؤمنين أعظم ، فقتلوا أمير المؤمنين مقهوراً على فراشه ! . . .

وقد أرسلت اليكم بثوبه عليه دمه ، فأنه والله إن كان أثِم مَن قتله ، فما سَلِمَ من خذله . فانظروا أين أنتم من الله ، وأنا أشتكى كل ما مسنّا الى الله عز وجل ، وأستصرخ بصالحى عباده . فرحم الله عثمان ، ولعن قتلته ، وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة ، وشفى منهم الصدور .

***

ذلك هو الكتاب الذي اجتمع لسماعه خمسون ألف شيخ من شيوخ الشأم يصيحون ويعجون بالبكاء تحت قميص عثمان ، وأصابع نائلة ، ويتقاسمون فيما بينهم ألا يمسوا غسلاً حتى يقتلوا علياً ، أو تفنى أرواحهم[1]

١ العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٢

﴿ نصراء عليّ من النساء ﴾

وبرغم خصومة تينك المرأتين لعلىّ كرم الله وجهه ، كان جنده أحفل الأجناد بذوات القول الفصل ، والرأى الجزل ، من النساء . ولهن في صفين مقامات ومواقف ، أشجت حلوق العدوّ ، وصكّت أسماعهم ، وروّعت نفوسهم

ومن هؤلاء بكّارة الهلالية ، وسودة ابنة عمارة ، وآمنة بنت الشريد ، وأم سنان بنت خيثمة ، وكثيرات من نظائرهن وأشباههن ، ممن أوتين جوامع الكلم ، وجمعن أشتات الحِكَم . ولنا اليهن عودة عند الكلام على مقالاتهن ، بين ازدحام الصفوف ، وتحت ظلال السيوف .

ولما تبدلت الأيام بعهد علىّ عهدَ معاوية ، كانت بلاد العراق مجالات الشيعة ، ومباءات الفتن ، ومواطن الانتقاض عليه . فرماها بداهيتى العرب ، المغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبى سفيان ، واحداً بعد واحد ، وأوصاهما أن يلعنا عليًا على المنابر ، وأن يتخذا السيف حَكَماً بينهما وبين الناس . فقام في وجههما حُجْرُ بن عَدِى الكندى ، وانضم اليه شباب أهل العراق ، وجمهور من نسائهم . وبدأت المجامع تُعْقَدُ بنجوة من أعين الرقباء . وما زال أمر حجر يستطير ، وصوته يعلو ، حتى انتزعه زياد من العراق ، وقاده الى معاوية ، فقتله .

وكانت هند بنت يزيد الأنصارية ممن شايعنه وناصَرْنه وأَعَنَّهُ . وهى امرأة قَلَّ أن تدانيها امرأة ، في بُعد الرأى ، وقوة البيان .

ومن قولها ترثى حُجراً :

ترَفّع أيها القمر المنير ... تبصَّر هل ترَي حُجْرًا يسير
يسير الى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخَوَرْنَقُ والسَّدِير
وأصبحت البلاد لها مُحُولا ... كأن لم يُحْيها بَرْق مطير
ألا يا حُجْرُ حُجْرَ بنى عدىّ ... تلقّتك السلامة والسُّرور
أخاف عليك ما أردى عديًّا ... وشيخاً فى دمشق له زئير
يَرَى قتل الخيار عليه حقًّا ... له من شر أُمتـه وزير
فان يهلك فكل زعيم قوم ... من الدنيا الى هُلك يصير[1]

ثم لما اقترف الخليفة المجرم الطاغية يزيد بن معاوية فَعلته ، بحَفَدَة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام المختار بن أبي عُبَيد الثقفى للانتقام له ، والاشتفاء بالثأر من قَتَلَته ، كان النساء في عونه ورفقته . وبهن وبمن اليهن من الرجال أوقع وقعته القاضية بالبغاة المعتدين . على أنه أخذ بالشبهة ، وأسرف فى الدماء . فقصده مصعب بن الزبير ، وغلبه على أمره . حتى ضرب عليه النطاق حول قصره بالكوفة . وفي تلك الساعة الضائقة المرهقة ، خلاّه رفاقه ، فلم يبق إلا الأوفياء المخلصون ، وقليل ماهم . على أن النساء بَدَأن فِعالهُنَّ كعادتهن فى كل خطب فدح وجَدّ نبا . فلقد كانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام واللّطَف والماء قد ائتزرت عليه ، والتفعت فوقه ، وأرسلت خمارها على وجهها وصدرها ، كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة ، أو تقصد النُّقلة لذوات قرباها ، فاذا دنت من

---

١ ابن جرير ج ٧ ص ١٤٦

القصر فتح لها الباب ، فدخلت فتركت مامعها ، ثم خرجت لِطِيَّتِها[1] .

وكان في الكوفة يبتان لامرأتين يأوى اليهما غلاة الشيعة ، فيتسامرون ويتآمرون . وهاتان المرأتان هما هند بنت المتكافة الناعطية ، وليلى بنت قُمَامة المدَنية .

وكانت ليلى لاتَليق شيئاً من مالها في سبيل نشر دعوتها ، وبث مبدئها . وكانت تبغض أخاها رفاعة بن قمامة لاقتصاده وفتور أرْيَحيته[2] .

ومن هنالك خفقت نسمة التشيع ، فانتظمت نَغْمَتُها بلاد فارس وخراسان وما وراءهما . وكان ذلك مما هيأ لآل رسول الله تنظيم دعوتهم ، وإقامة دعامتهم حتى اقتادوا الجيوش من صوب خراسان ، فصدعوا بها ملك بنى مروان . على أن يد المرأة لم تترك مقادة تلك الثورة المُبيحة المُنيحة .

فان أبا العباس السفاح ثائر بنى هاشم ، ووارث بنى أمية ، كان — على وفر فضله ، وعراقة مجده ، وسموّ فضائله — فقيراً مُقْتِرًا . ومحال أن تنهض الثورات ويتاح لها الظفر — إلا بالمال .

هنالك قيض الله لعظيم بنى هاشم من ملأت قلبه عزماً ، ويده مالا ، ونهجه وضحا ونوراً ، وتلك هي زوجه أم سَلَمَة ابنة يعقوب بن سَلَمَة .

كانت أم سَلَمة قبل أن تصير الى السفاح زوجا لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . فكانت لذلك أعرف الناس بسِرّ بنى أمية ، وأوقعهم على خبيئة أمورهم فلما هلك عنها اجتمع لديها ثرات زوجها وأبيها ، وكلاهما كان غنيًّا موفور الغنى .

١ ابن جرير ج ٨ ص ٧٣٤ ٢ ابن جرير ج ٨ ص ٧٣٦

فأما ما ملكت من سماحة الرأى ، ورجاحة العقل ، فكان أوفر من مالها وأتم .

أرسلت أم سلمة مولاتها الى السفاح تخطبه ، وحمّلتها سبعمائة دينار تقدمها اليه إن شكا الفاقة اليها . فلما عرضت الجارية أمر مولاتها ، قال : أنا مملق لا مال عندى . فقدمت اليه هدية سيدتها . وهنالك سارع السفاح الى الزوجة المواتية بمالها . وكان ما لقيه من نفاذ رأيها وإحكام تدبيرها ، أتمّ وأوفى . فلم يكن يصدر إلا عن رأيها ومشورتها ، وبها عرف مواطن الداء من أعدائه ، واليها كانت إفاءته في خلافته[1] .

﴿ المرأة والخوارج ﴾

الخوارج قوم يبتغون الكمال في الخلافة . فهم يريدون الامام العادل النَّبْت ، الذى يقوم باجماع المسلمين ، وينزل من الأمر على شورى المسلمين . ذلك مبدؤهم الذى خرجوا به ، وقاتلوا الناس عليه . على أنهم أسرفوا فيه ، وغلوا غلوًّا كبيراً ، حتى حسبوا كل وزر كفراً يُقاتَلُ مقترفه ، ويُقتل عليه . وكانوا في أول أمرهم قطعة من جند علىّ . فلما رضى بالتحكيم في خلافته ، قالوا : علامَ يقتتل المسلمون وأمراؤهم في شك من أمرهم ؟ ! ومنذ ذلك اليوم انفصلوا عن علىّ ، واستجازوا قتاله ، وقتال من بعده من الخلفاء .

وحجتهم في الخروج على علىّ داحضة . فقد يكون التحكيم مما يبعثه اليقين بالحق ، والثقة بالعناية . كذلك شرع الخوارج لأنفسهم قتال كل خليفة

١ الدر المنثور ص ٥٨

لأنه اتخذ خلافة رسول الله تراثاً عن أبيه . وحسبَ المسلمين سواه هملا ، فساقهم بغير عهد منهم ولا رضى . ذلك ما يقوله الخوارج . ومهما يكن من أمرهم فقد استبسلوا فى سبيل غايتهم ، حتى أصبحوا مضارب الأمثال في البسالة والجسارة .

وأوضح ظاهرة تراها في فريق الخوارج ، نباهة ذكر المرأة ، ونزوعها منازع القادة الكفاة ، وقيامها فى الطرف القصى ، من تفدية الغرض ، والتضحية في سبيله .

وكم احتمل نساء الخوارج من ولاة العراق وسفاحيه من نكال ووبال ، وتمزيق أوصال . فلم يك شيء من ذلك يروعهن ، ولا يَثلم غرضهن ، أو يحول غايتهن ، حتى تقاد المرأة منهن الى القتل ، صابرة راضية .

ولقد ظهر من الخوارج رجلان عظيمان ، قاما واحداً بعد واحد . كلاهما اجتمع عليه القوم ، وكلاهما لقب بامرة المؤمنين . وكلاهما استمد من امرأته الجليلَ من رأيه ، والشديد من قوته .

أما أولهما فقَطَرِيّ بن الفُجَاءة . كانت زوجه أم حكيم من أتمّ النساء ذكاء ومضاء ، وجمال وجه ، ونفاذ رأى ، وقوة بيان . ومن قوله فيها[1] :

لعمرك اني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
مِنَ الخَفِرَات البيض لم يُرَ مثلها ... شفاء لذى بَثّ ولا لسقيم
لعمْرُك إني يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جِد لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم

حتى يقول :

١ الكامل ج ٢ ص ١٣٦

فلو شَهِدَتْنَا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الأله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وأما الثانى فشبيب بن يزيد ، وزوجه غزالة الحرورية . وقد أسلفنا ذكرها وأفردنا خبرها

وكانت أمه « جَهيزة » بالمكان الأوفى من الشجاعة . وكانت هى وغزالة لا تُرَيان إلاّ فى أخطر المواقف من الموقعة

وقالوا ان عِمران بن حِطّان كان رجلا من أهل السُّنة ، فتزوج امرأة من الشُّرَاة [1] من عشيرته وقال أردها عن مذهبها فذهبت هى به [2]

وكان أخطر ماقام به الخوارج قتلهم عليًّا عليه السلام ، قتله عبد الله ابن مُلْجِم ، وما أغراه بذلك إلا أمه وإلا زوجه قَطَامِ ابنة علقمة التى طلبت صداقا لها [3]

(ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علىٍّ بالحسام المسمم)

ولعلك ذاكر ما فصّلنا من حديث « ليلى بنت طريف » فى عهد الرشيد مما يبين لك هو وأشباهه أن المرأة والرجل فى تلكم الأيّام كانا عودى سرحة واحدة ، وشبلى عرين واحد

(١) الشراة جماعة الخوارج كان الرجل منهم يسمي نفسه شاريا أى بائعاً نفسه من الله وهو ينظر في ذلك إلى قوله تباركت آياته « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

(٢) الاغانى ج ١٦ ص ١٤٦ — ١٤٧

(٣) الكامل ج ٢ ص ١٣٦

- ٢ -

﴿ أثرها فى تكوين الرجال ﴾

أو

الأم العربية المسلمة

فى قرن وبعض قرن ، وثب المسلمون وثبة ملأوا بها الأرض قوة وبأساً وحكمة وعلماً ، فراضوا الأمم ، وهاضوا الممالك ، وركزوا ألويتهم فى قلب آسيا وهامات أفريقية ، وأطراف أوربا ، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب وتتقلب بها الألسنة بعد أن كانوا فرائق بَدَدًا لا نظام ، ولا قوام ولا علم ، ولا شريعة

فى أى المدارس درجوا ، ومن أى المعاهد خرجوا ؟

لقد قطع العرب تلك المرحلة التى سَهَّمَ لها الدهر ، ووجَم لروعتها التاريخ ولم يقيموا معهداً أو ينشئوا جامعة ، استغفر الله ! بل لقد كانت خِصاصهم وخيامهم ودورهم وقصورهم معاهد ومدارس وما شئت من مغارس حكمة ومغاوص آداب ولِىَ أمرها أمهات صدق ، أقامهن الله على نشئه ، واستخلفهن على صنائعه ، وأرعاهن أشبال غابه ، وأتمنهن على بُناة ملكه وحُماة حقه ورعاة خلقه فكن أقوم خلفائه بواجبه وأثبتهن على عهده وأنهضهن بالفادح الشديد من أمره

لقد كان الله أبر بهؤلاء القوم من أن يخرجهم مُخرَجا سيئاً ، أو ينبتهم منبتاً فاسداً ، أو يضمهم إلى صدور واهية وقلوب سقيمة ، ثم يسومهم أشرف مطالب الحياة ، ويوردهم أسمى مقاصدها . ولو فعل لكان قد كلفهم شططاً وجشمهم محالا

لأن الأم من الأمة بمثابة القلب من الجسد ، فهى غذاء أرواحها ، ومِرَان أعوادها ومفيض مدارکها ، ومبعث عواطفها . فان وهنت كان كل أولئك واهنا ضعيفاً

لذلك كله عَمَد الاسلام الى المرأة أول ما عمد ، فرد مظلمتها وأتم نصفتها ورفع شأنها ، وأطلق عنانها ، وثبت ايمانها

لقد كانت نهضة المسلمين غريبة فريدة لأن المرأة كذلك كانت غريبة فريدة . ولو لم تكن كذلك لكانوا فى عظيم أمرهم ككل الناس بين جد وانتظار واقبال وأدبار . وإذا كانت المرأة الحديثة قد أنصتت لِلِنكُولن زعيم الجمهورية الأمريكية وهو يقول لمهنئيه باسمى مناصب العالم « لا تهنئونى وهنئوا أمى فهى التى رفعتنى إلى مقامى هذا » إذا كانت قد انصتت لذلك فازدهت وأشرقت وتطاولت واستشرفت - فان المرأة العربية المسلمة كانت تستمع لأشباه هذا الكلام من أشباه لنكولن فلا ينثنى جيدها ولا يهتز عِطفها لطول ما سمعته وألفته حتى لقد أصبح من بدائهِ العرب الظاهرة وعقائدهم الراسخة أن الهُجَنَاء - وهم الذين لم تنجبهم نساء العرب - لا يُغْنُون في المهم ، ولا يكفون فى الملم ، مهما أمعن آباؤهم فى شرف المنبت ، ونبل الشمائل

وما ظنك برجل من رجال البادية كعُقَيل بن عُلفة المُرِّى يخطب اليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ابنته لبعض بنيه فيقول له « جنِّبنى هجناء ولدك »[1]

وشبيه بذلك ما حدثوا أن هشام بن عبد الملك قال لزيد بن على بن الحسين بلغنى أنك تحدث نفسك بالخلافة . ولا تصلح لها لانك ابن أَمَة [2]

أو تدرى من تلك الامه ؟ انها ابنة ملك الفرس الذى كان العرب

(١) العقد الفريد ج ٢ ٢٥٦

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٨ طبع بولاق

يذكرون بين رعيته فلا يأبه بهم. أما أبوه فخفيد على بن أبى طالب وسليل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذلك هو الذى قصّر به عن مدى الخلافة فى رأى هشام بل وفى رأى العرب يومئذ — أن أمه فارسية لم يجر الدم العربى بين نياط قلبها ، وحَنِيَّات صدرها

بل لقد كان الرجل يرجع إلى الامهات مايراه بين الاخوين من الفوارق التى لا تظهر صلتها بهن. ومثل ذلك ما قالوا أن عبد الملك بن مروان سابق بين سليمان ومَسْلَمَةَ ابنيه — وكان مسلمة هجينا — فسبق سليمان. فقال عبد الملك [1]

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرِّهان فتدرك

أرأيته كيف جعل فوز الفتيان بالسبق أثراً من جهد المرأة ونزعة من روحها وثمرة من تنشئتها وتربيتها مع أن الأُمَّين أمرأتاه والفتيين ولداه ؟

وأى غريبة تجدها فى ذلك؟ أولم يكن ركوب الخيل، وادِّراع الليل، واقتحام الهول نوازع من عزمة متقِدَه وقوة غالبة ونفس حمية؟ وهل فى كل أولئك شىء لم يرضعه فى دَرِّها ، أو يسمعه من ثغرها، أو يقرأه على صدرها، أو يَتَنَسَّمه من بين سَحرها ونحرها ؟

ولعل أوضح من ذلك علمهم بأن لها الاثر كله فى قوة بيان الرجل وتقويم لسانه

وما رأينا أمراً أجمع عليه قالَةُ العرب وَمَنْ اليهم من أئمة اللغة ورواة الأَدب وأعيان البيان كإجماعهم على أن أول لوثة أصابت اللغة العربية لم يقذف بها إلا ألسنة الهجناء

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٨ طبع بولاق

وليس ذلك بالامر الذى يحوجه الدليل ويعوزه البيان . فان أمهات العرب لم يَكُنَّ يناغين أبناءهن وهن زهر غَض وصحائف بيض إلا بكل مورق مثمر من القول فينشأ ناشئهن عذب البيان غدق اللسان

فأما بنو الاماء فما عساهم يسمعون إلا كل لفظ دعى من كل لسان عى

وإن يكن الخضوع لذلك الحق — حق تفرد المرأة بتكوين الرجل والتأثير فيه — مما أفاض عليها قوتها وشد عزيمتها على المضى فى عملها والبلوغ بواجبها ان مما ضاعف ذلك كله احترامهم لها احتراماً لم ينله أحد سواها

لقد كان احترام الام فى الجاهلية طبعاً مألوفاً فأصبح بالاسلام فوق ذلك فرضاً محتوماً ولعلنا أوردنا الكفاية من بيان ذلك فى تفاريق كتابنا

وكل مافى الكتاب والسنة من أشادة بالابوين واكبار لامرهما وتعريف بحقهما يؤثر الأُم ويرجح بفضلها ويفيض فى القول عنها

واليك مثلا من ذلك قول الله جل ذكره « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً » فانظر كيف أجمل سبحانه الأب ثم اختص الام بفضل البيان ووضح الاقناع بأنها حملته مؤلمة ووضعته مؤلمة وليس الاب فى شىء من ذلك

وشبيه بذلك ما أسلفنا أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله من أحق بحسن صحابتى؟ قال أُمُّك. قال ثم من؟ قال أُمُّك. قال ثم من ؟ قال أمك. قال ثم من ؟ قال أبوك

وجاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال إن لى أُمّاً أنا مطيعها ، أفعدها

على ظهرى ، ولا أصرف عنها وجهى، وأرد اليها كسبى . فهل جزيتها ؟ قال لا ولا بزفرة واحدة

وهل أتاك نبأ أويس بن عامر الْقَرَنى ؟ ذاك رجل أنبأ النبى بظهوره وكشف عن سناء منزلته عند الله ورسوله وأخذ البررة الاخيار من آله وصحابته بالتماس دعوته وابتغاء القربى الى الله به وما كانت آيته إلا بره بأمه. وذلك حديث مسلم عنه : كان عمر رضى الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس بن عامر فقال أنت أويس بن عامر ؟ قال نعم .قال من مُرَاد ؟ قال نعم قال كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال نعم قال لك والدة ؟ قال نعم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بَارٌّ بها ، لو أقسم على الله لَأَبَره فان استطعت أن يستغفر لك فافعل » فاستَغْفِرْ لِى. فاستغفر له، فقال له عمر أين تريد ؟ قال الكوفه. قال ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال أكون فى غبراء الناس أحب إلىّ [1]

كل ذلك وأشباهه مما جعل للأُم المقام الأَوفى والمنزلة التى ليس فوقها إلا الله ورسوله . وفى سبيل ذلك الاحترام نذكر ذلك الحديث الموجز

لما كانت بموقعة أُحُد أغرَتْ هند ابنة عُتبة بحمزة بن عبد المطلب من خالسه فصرعه – وكان قد قتل آلها يوم بدر – ثم نفذت اليه فَبَقَرت بطنه

(١) صحيح مسلم شرح النوى ج ٥ ص ٢٢٣

ونزعت كبده.وجدعت أنفه، وصلَّمت أذنيه،وجاء بعدها أبوسفيان فأخذ يطعنه بالرمح فى فمه حتى مزقه

انقضت الموقعة وجثمان حمزة تكاد تَحِيل معالمه لفرط ما مثل به. فلما وقف به رسول الله اشتد حزنه لما أصاب عمه البطل الكريم ، ووقف بنجوة منه ثم أبصر فوجد عمته صفيّة بنت عبد المطلب مقبلة لتنظر مافعل القوم بأخيها فقال رسول الله لابنها الزبير دونك أمَّك فامنعها.وأكبرهمه ألا يَجدّ بها الجزع لما ترى. فلما وقف ابنها يعترضها قالت « دونك لا أرض لك لا أم لك ! »وهنالك رجفت أحناء بطل قريش وزلزلت قدماه واعتقل لسانه وكر راجعاً إلى رسول الله فحدثه حديث أمه فقال خل سبيلها

كذلك انفرجت صفوف الناس لعمة رسول الله فسارت حتى أتت أخاها فنظرت اليه فصلت عليه،واسترجعت ، واستغفرت له، وقالت لابنها قل لرسول الله ما أرضانا بما كان فى سبيل الله:لاحتسبنَّ ولأصبرن إن شاء الله [1]

فانظر إلى موقف البطل العربى حيال أمه وقد أمره رسول الله أن يقف دونها فيعترضها ! ولو سامه النبى أن يعترض الجيش اللهام لوقف فى سبيله غير هائب ولا مدفوع

وماله لا يعنو وجهه ولا ترتجف أضالعه لعظمة الامومة وعظمة الخُلق ! وهل رأت الامم قديمها وحديثها من سمو المرأة وجلال خلالها ما رأته من مثل صفية ! امرأة يمثل بأخيها كذلك التمثيل ثم تقف على جثمانه فلا تجاوز الصلاة

(١) انساب البيوق ج ٢ ص وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٥ طبع أوربا

له والاسترجاع عليه لان جسده أنما مزق فى سبيل واجبه وحياطة دينه ! أن هذا لهو الخلق العظيم

ولقد كان الرجل وما يجاوز رأى أمه ولا يستشعر الغَناء عن مشورتها ونهج سبيلها مهما تطاول به العمر وأمعنت برأيه التجارب وحديث عبد الله ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر آية بالغة ودليل كفيل بما نقول

ذلك أن عبدالله لبث على إمرة المؤمنين ، ودانت له العراق والحجاز واليمن ثمانى سنين ثم أخذ عبد الملك بن مروان يقارعه فانتقص منه العراق ورماه بعد ذلك بالحجاج بن يوسف فأخذ يطوى بلاده عنه حتى انتهى إلى مكة فطوقها ونصب المجانيق على الكعبة وأهوى بالحجارة عليها وفى الكعبة يومئذ أسماء بنت أبى بكر . وكان عبد الله يقاتل جند الحجاج مسنداً ظهره إلى الكعبة فيعيث فيهم ويَروع ابطالهم وليس حوله إلا القوم الاقلون عدداً والحجاج بين ذلك كله يرسل اليه يمنّيه الخير ويعده بالامارة فى ظل بنى أُميّه لو أغمد سيفه وبسط للبيعة يده

دخل عبد الله على أثر ذلك على أمه فقال يا أمّه ! خذلنى الناس حتى أهلى وولدى . ولم يبق معى إلا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيكِ ؟ فقالت الله الله يابنى ! إن كنت تعلم إنك على حق تدعو اليه فامض عليه ولا تُمكّن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك . وان كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . وأن قلت أنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس

هذا فعل الأحرار ولا مَن فيه خير ، كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير . والله لَضربة بالسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة السوط فى ذل . فقال : ياأماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى ، قالت : يا بنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبّل رأسها وقال لها هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعياً الى الله . والله ما دعانى الى الخروج الا الغضب لله عز وجل أن تُهتَك محارمه ، ولكني أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدنى قوة وبصيرة مع قوتى وبصيرتى ، والله ما تعمدت إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم أجُر فى حكم ، ولم أغدِر في أمان ، ولم يبلغنى عن عمالى حيف فرضيت به ، بل أنكرت ذلك ، ولم يكن شئ عندى آثر من رضاء ربى . اللهم إنى لا أقول ذلك تزكية لنفسى ، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى . فقالت والله إنى لارجو أن يكون عزائى فيك جميلاً ، إن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك ، أخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك . ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأمه ، اللهم إنى قد سامت فيه لأمرك ورضيت فيه بقضائك فأثبنى فى عبد الله ثواب الشاكرين . قال : يا أُمّه لا تَدَعى الدعاء لى قبل قتلى ولا بعده . فقالت : لن أدعه . فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق . فتناول يدها ليقبلها فقالت : هذا وداع فلا تبعد . فقال لها جئت مودعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى من الدنيا . قالت : امض على بصيرتك وادن منى حتى أودعك . فدنا

منها فعانقته وقبلته ، فوقعت يدها على الدّرع فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد ! فقال ما لبستها إلا لأشد متنك ، قالت : إنها لا تشد متنى ، فنزعها ثم درج لِمَّته ، وشد قميصه وجبته ، وخرج وهو يقول :

أبى لابن سلمى أن يُعير خالداً ... ملاقي المنايا أىَّ صرف تيمَّما

فلست بمتاع الحياة بِسُبَّة ... ولا مرتق من خشية الموت سلَّما

وقال لأصحابه احملوا على بركة الله ، وليشغل كل منكم رجلا ، ولا يُلهِيَنَّكم السؤال عني ، فانى على الرعيل الأول . ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون وهنالك رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه ، فأخذته منه رعدة ، فدخل شعباً من شعاب مكة يستدى . فبصرت به مولاة له فقالت : وا أمير المؤمنينا ! فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه ، وصلبه الحجاج ، فأقام جثمانه على الجذع عاماً كاملا . حتى إذا أمر عبد الملك بانزاله أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه ، وذهب البلى بأوصاله . ثم كفَّنته ، وصلت عليه ، ودفنته[1]

ذلك أمر ابن الزبير ومقامه من أمه وعكوفه على رأيها ونزوله عند مشورتها حتى آخر ساعة من ساعاته وقد طعن يومئذ فى السبعين . وماله لا يكون كذلك ؟ وهل ترى فيما رأيت خطلا فى الرأى ، أو زللا فى القصد ، أو حياداً عن النهج ، أو عثرة فى الواجب ؟ وهل أعانت امرأة ولدها على التضحية فى نصرة الحق ، وبذل النفس فى حومة الشرف بمثل ما أعانت أسماء ولدها ؟

اللهم إن ذلك سر عظمة القوم ، وسبيل نهضتهم ، ومُنْبَعَث قوتهم . وإليه

(١) بلاغات النساء ص ١٣٠ — ١٣٢

مرجع استبسالهم واستماتتهم

ولعمرى لقد عمد عبد الله إلى أبيه فحوّله عن رأيه ووجهه ومبدئه فى أدق مواقفه وأخطر مشاهده وهو دون الأربعين وأثرت فيه أمه برأيها وقولها فى أحرج أمره وأهول ساعِهِ وقد أطل على السبعين

أما موقفه حيال أمه فقد علمته ، وأما موقفه حيال أبيه فذلك بعد أن بايع عَلِيًّا عليه السلام وعقد له من عهده وذمته على السمع والطاعة له ، فما زال عبدالله به حتى نقض بيعة أمير المؤمنين ، وخلع طاعته ، وشرع السيف فى وجهه بعد أن شايعه نيفا وثلاثين عاما . وفى ذلك يقول على كرم الله وجهه : ما زال الزبير رجلا منا أهل البيت حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا[1]

وبعد فقد علمت مما سلف من القول أن المرأة المسلمة اجتمع لها من وسائل التربية ومجالات العمل مالم يجتمع لأخرى ممن سواها ، من أقرار بحقها وامعان فى احترامها ، ومماشاة فى الرأى والعمل لها الى غير مدى ولا غاية فى ذلك كله . كل أولئك إلى ماعلمت من رجاحة فى العقل ، وسماحة فى الرأى ، واستمكان من الفضيلة ، وبلوغ إلى الغاية القصوى من جلال الدين وفرط اليقين ، مما جعلهن أعرف خلق الله بتكوين الرجال ، والتأثير فيهم ، والنفاذ إلى قلوبهم ، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم ، وفى مسارب دمائهم . ومن أجل ذلك كان أبناء النابهات الممتازات من النساء أنبل وأفضل وأمثل من أبناء النابهين الممتازين من الرجال . حتى لا تكاد تقف على عظيم ممن راضوا شماس الدهر وذلت لهم نواصى الحادثات إلا وهو ينزع بِعِرْقِهِ وخلقه إلى أم عظيمة . فالزبير بن العوام

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٦

قامت بأمره أمه صفية بنت عبد المطلب فنشأ على طبعها وسجيتها . والكملة العظماء عبد الله والمنذر وعروة أبناء الزبير ثمرات أمهم أسماء بنت أبى بكر وما منهم إلا له الأثر الخالد والمقام المحمود

وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه تنقل فى تربيته بين صدرين من أملا صدور العالمين حكمة واحفلها بجلال الخلال ، فكان مغداه على أمه فاطمة بنت أسد ، ومراحه على خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ، ومكانهما من الفضل وبعد الرأى ما علمت . وعبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم تركه أبوه صغيراً فتعاهدته أمه اسماء بنت عُمَيس ، ولها من الفضل والنبل مالها ومعاوية بن أبى سفيان أريب العرب وأَلْمَعِيُّهَا ورث عن أمه هند ابنة عتبة مالم يرث عن أبي سفيان . وهى القائلة — وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها أن عاش معاوية ساد قومه — ثكلته ان لم يسد إلا قومه . ولما نعى اليها ولدها يزيد بن أبي سفيان قال لها بعض المعزين أنا نرجو أن يكون فى معاوية خلف منه فقالت أو مثل معاوية يكون خلفاً من أحد ؟ والله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمى به فيها لخرج من أيها شاء

وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدرة وجوذب المباهاة بالرأى انتسب الى امه فصدع بذلك أسماع خصمه . ومن قوله فى سجال الفخر لابن الزبير أنا ابن هند ، أطلقت عقال الحرب فأَكَلَتْ السَّنَام وشربت عنفوان المَكْرَع ، وليس للآكل إلا الْفَلْذَة ، ولا للشارب إلا الرَّنَق [1]

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٥ مطبعة الفتوح . وكان سبيل تلك المساجلة ان عبد الله قال لمعاوية :

وعجيب أن معاوية لم يعرف كيف يودع يزيد ابنه وخليفته ، رأيه وحامه وسياسته . ذلك لانه أمه امرأة أعرابية لا شأن لها ، خطبها معاوية على الجمال واتخذها مقادة لقبيلتها ومرتقى لعشيرتها

وشبيه بمعاوية أخوه زياد بن أبى سفيان . فهو مساق المثل فى ذكاء القلب وفرط الدهاء ، الى وفور فى العلم ، وقوة فى البيان . وبرغم ذلك كان ابنه عبيدالله أبعد الناس عن خُلُقه ، وأنباهم عن طبعه . كان أحمق ، أخرق ، واهن العقدة ، مضطرب الفطنة ، عيياً . سفاكا . ذلك لأن أمه « مَرجانة » امرأة فارسية من فلول تلك الأمة المتهدمة المتحطمة ، فهى ضعيفة ذليلة ، لا تصلح أن تكون أما لعزيز عظيم .

ولقد انحسر ملك بنى مروان عن رجلين ، ذهب أحدهما بما أوتى من حَوْل وطَوْل ، وما انتضى من حزم وعزم ، وضُربت الأمثال بما نهج ثانيهما من سَنَن العدل ، وما أفاء على الناس من ظلل الخيرات ، وكلاهما مهبط وحى المرأة العظيمة

أما أولهما فعبد الملك بن مروان ، وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبى العاص بن أمية ، وكان لها من مضاء العزم ، وذكاء القلب ، ونفاذ الرأى — ما لم يكن

يامعاوية لاتدع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه ويضرب صفاتهم بمعاوله ولولا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشه وأقل في نفوسنا من حشاشة ولئن ملك أعنة خيل تنقاد له ليركن منك طبقا تخافه فقال معاوية : إن يطلب هذا الامر فقد طمع فيه من هو دون ، وأن يتركه يتركه لمن هو فوقه وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله اليكم من لايعطف عليكم بقرابة ولا يذكركم عند ملمة يسومكم خسفا ويوردكم تلفاً . فقال ابن الزبير اذن والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد حاقتها الأسل لها دوى كدوى الريح تتبع غطريفا من قريش لم تكن أمه براعية ثله . فقال معاوية أنا ابن هند

شرح الغريب : المشاقص — جمع مشقص — النصال العريضة . الصفاة الحجر . الصلد الضخم . الحشاشة — مثلثة الحاء حشرة الارض ، الطبق العظم الفاصل بين فقار الظهر . الرجل — بكسر الراء — القطعة العظيمة من الجراد المكرع المشرب وعنفوانه صافيه . الرنق الماء المكدر

مروان فى شئ منه . وهى التى يعنيها ابن قيس الرُّقَيَّات فى قوله لعبد الملك [1]

أنت ابن عائشة التى فَضَلَت أُرُوم نسائها
لم تلتفت لِلداتِها ومشت على غُلَوائها
ولدت أغر مباركاً كالشمس وسط سمائها

وأما الثانى فأبو حفص عمر بن عبد العزيز . وأمه أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب أكمل أهل دهرها كمالا وأكرمهن خلالا — وأمها تلك التى اتخذها عمر لابنه عاصم وليس لها ما تعتز به من نشب ونسب إلا ما جرى على لسانها قول الصدق فى نصيحتها لأمها — وهى التى نزعت به الى خلائق جده الفاروق رضى الله عنه

فاذا نحن انتقلنا بك من مُلك بنى مروان بالمشرق الى مُلكهم بالمغرب ، وجدنا العظمة الرائعة ، والهمة القصية ، والأمل البعيد ، والبأس الشديد ، والأثر الخالد ، والمجد المكين ، لم يجتمع شئ منها لرجل ما اجتمع لأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر . ذلك الذى ولى الاندلس وهو ولاية تميد بالفتن ، وتَشرَق بالدماء ، فما لبثت أن قرت له وسكنت لخشيته ، ثم خرج فى طليعة جنده ، فافتتح سبعين حصناً فى غزوة واحدة ، ثم أمعن بعد ذلك فى قلب فرنسا ، وتغلغل فى أحشاء سويسرا ، وضم أطراف ايطاليا ، حتى ريض كل أولئك له ، ورجف لبأسه . وبعد أن كانت قرطبة دار امارة يذكر الخليفة العباسى على منابرها وتُمضى باسمه أحكامها ، أصبحت مقر خلافة يحتكم إليها عواهل أوربا وملوكها ويختلف الى معاهدها علماء الامم وفلاسفتها

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣١٦ طبع بولاق

أو أحدثك عن سر هذه العظمة ومهبط وحيها ؟ هى المرأة وحدها : فقد نشأ عبد الرحمن يتيما قَتَل عمُّه أباه ، فتفردت أمه بتربيته وإيداع سر الكمال وروح السمو فى ذات نفسه ، فكان من أمره ما علمت

ثم إذا نحن نشرنا صفحة العهد العباسى ، بل صفحة العهد الاسلامى لانجد فى تضاعيفها أمرأ دنت له قطوف العلم والحكمة ، ودانت له نواصى البلاغة والفصاحة كمحمد بن ادريس الشافعى . فهو الشهاب الثاقب الذى انتظم حواشى الأرض فملأ أقطارها علماً وتشريعاً

ذلك أيضاً ثمرة الأم العظيمة

فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع ، فتولته أمه بعنايتها ، وأشرقت عليه بحكمتها ، وكانت امرأة من فضليات عقائل الأزد [1] . وهى التى تنقلت به من (غزة) مهبطه الى (مكة) مستقر أخواله فربته بينهم هنالك

وكان جعفر بن يحيى وزير الرشيد أرفق الناس برياضة القول ، وأعرفهم بفنون الكلام . وكان إذا عقب وسالة أو وقع تحت كتاب فاليه مباءة البلاغة ونهاية الايجاز حتى لقد يتدافع الكتاب على بابه فيشترون من حجابه كل توقيع بدينار .

كل ذلك ورثه جعفر عن أمه لا عن أبيه [2]

كذلك كان النساء فى ذلك العهد الكريم مبعث كل شئ فى نفوس أبنائهن والأمر فى ذلك ما قال رافع بن هُريم

فلو كنتم لِمُكيسَةٍ لكاست وَكَيْسُ الام يعرف فى البنينا

(١) طبقات الادباء ج ٦ ص ٣٦٨ مطبعة هندية
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ مطبعة الفتوح

أما بعد فأولئك هن الامهات اللواتى انبلج عنهم فجر الاسلام وسمت بهن عظمته ، وصدعت بقوتهن قوته ، وعنهن وحدهن ذاعت مكارمه ورسخت قوائمه فان كان مما يذل الرجل فى عصرنا هذا أن يقال له « تربية أمه » فقد كان ذلك فى عصور الاسلام الزاهية ، وأيامه الخالية ، مهبط الشرف الحر ، والعز المؤثل والمجد المكين .

— ٣ —

﴿ أثرها فى العلم والأدب ﴾

تصدت المرأة لفنون العلم وشئون الأدب جميعاً وأمعنت فى كل ذلك إمعاناً أعيا على الرجل دركه فى مواطن كثيرة

وبرغم مامهد للرجل من مشاكل المسائل وهيأ له من وسائل الكشف والاستنباط فقد كان للمرأة — على لحاقها بالرجل فى كل ما أسلفنا — مظهر خلق كريم فى العلم والتعليم

أجل : لقد امتازت « العالمة المسلمة » بالصدق فى العلم ، والأمانة فى الرواية والحيدة عن مواقع التهم ومساقط الظُّنن مما لم يوفق إليه كثيرون من الرجال

ومعاذ الله أن نقول ذلك محاباة أو مشايعة لموضوع كتابنا . فنحن أولاء ضاربون لك مثلا من إقرار عظماء العلماء بما نقول

الحافظ الذهبى المتوفى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ثقة من ثقات المسلمين وعظيم من عظماء المحدِّثين ، ألَّف كتابه « ميزان الاعتدال » فى نقد رجال الحديث ، خرّج فيه أربعة آلاف متَّهم من المحدثين ، ثم أتبع قوله بتلك الجملة التى كتبها بخطه الواضح وقلمه العريض فقال « وماعلمت من النساء من اتُّهمت ولا من تركوها »[1] ولعل قائلا يقول وما للنساء ورواية الحديث ؟ وهل تركهن الذهبى إلا من قلة أو ذلة ؟

(١) ميز الاعتدال ج ٣ ص ٣٩٥

ونقول نحن أن حديث رسول الله منذ عهد عائشة أم المؤمنين حتى عهد الذهبي ما حفظ ولا روى بمثل ما حفظ فى قلوب النساء وروى على ألسنتهن

ذلكم الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، أوثق رواة الحديث عقدة ، وأصدقهم حديثاً — حتى لقبوه بحافظ الأمة — كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء [1]

فهل سمع الناس فى عصر من العصور ، وأمة من الامم أن عالماً واحداً يتلقى عن بضع وثمانين امرأة علماً واحداً ؟ فكم ترى منهن من لم يلقها أو يأخذ عنها والرجل لم يجاوز الجزء الشرقي من الدولة الاسلامية ، فلم تطأ قدماه أرض مصر ، ولا بلاد المغرب ، ولا الأندلس ، وهى أحفل ما تكون بذوات العلم والرأى من النساء

والحق الذى لا مراء فيه أن مزالّ النفس ، ومنازع التهم ، ونزعات الريب لا تجد مسرباً إلا فى صدور الرجال ، فان دواعيها موفورة فيهم ، مؤتشبة بين جوانبهم . فلهم من منازعة السياسة ، ومجاذبة الرياسة ، ومناصرة الآراء ومؤازرة الأهواء ، والزلفى عند الملوك ومساومة قلوب العامة ، مالا سبيل له الى نفس المرأة . وكل ذلك مما يميل بالرأى ويصدع ركن العقيدة

ولم تقف التهمة بالرجل عند حد الدين وحده . بل لقد طمس أناس من الرجال معالمَ الشعر والأدب والتاريخ ووصف الأمم والمواطن وأسرار الكون ومظاهر الطبيعة . وإذا هان على المرء أن يكذب على الله . فأهون ما يكون أن يكذب على كل شىء سواه

(١) طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٧٣

وإذا كان الصدق فى النقل والعصمة من الهوى مما دعم قواعد الأثر العلمى للمرأة المسلمة وشاد جوانبه ، فقد كان لها من صفاء فطرتها وقوة فطنتها عماد وقوة

إن الذين يقولون بالفوارق فى المقدرة بين الرجل والمرأة لينتقض رأيهم إذا هم استمعوا حديث النهضة العلمية الاسلامية

لقد لحق النبى بربه وعائشة أم المؤمنين لم تَخْطُ الى التاسعة عشرة . على أنها ملأت أرجاء الارض علما . فهى فى رواية الحديث نسيج وحدها — ولم يكن بين أصحاب رسول الله من كان أروى منها ومن أبى هريرة ، على أنها كانت أدق منه وأوثق

وكانت من أنفذ الناس رأياً فى أصول الدين ودقائق الكتاب المبين . وكان زعماء الصحابة إذا أشكلت عليهم الفرائض فزعوا إليها فحسرت حجبها وكشفت سحبها

ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة كفتها وقفاً على الدين وحده . فكذلك كان أمرها فى رواية الشعر والأدب والتاريخ ، وكذلك كان نفاذها فى الطب وعلم الكواكب والأنواء والأنساب وما إلى كل ذلك ، وذلك عروة بن الزبير فقيه المسلمين يقول « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة » [1]

وإليك فاسمع هذا الحديث ثم انظر الى أى مدى بلغت عائشة من الاحاطة بحوادث الأمم ومشكلات التاريخ

لما وفد المسلمون الى الحبشة مهاجرين أوطنهم النجاشى موطناً كريماً

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣٩—٥٦

فأوفدت اليه قريش عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بأعز ما لديهم من طرائف وتلاد. وفى أنفسهم أن يبرأ من ذمة اللاجئين اليه ويعيدهم على أعقابهم فرد النجاشى على القوم هداياهم وقال « لا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع النّاس فىّ فأطيعهم فيه » فحفظ الناس ذلك القول من ملك الحبشة ولم يعرفوا معناه حتى كانت عائشة هى التى حدثتهم خبره مما تعلم من تاريخ الحبشة فقالت : ان أبا النجاشى كان ملك قومه ولم يكن له ولد سواه . وكان للنجاشى عم له اثنا عشر رجلا كلهم من صلبه . فقالت الحبشة : لو أنا قتلنا الملك وولينا أخاه لَأَمِنَّا على المُلْكِ أن يضيع وعلى المَلِكِ أن ينقطع عَقِبه . فعدوا على ملكهم فقتلوه وملّكوا أخاه فمكثوا على ذلك حيناً . وكان ولد القتيل فتى أيِّدًا حازماً ، لبيباً ، أديباً ، فغلب عمه على الملك ، وأوجس القوم أن يثب على الملك فيأخذهم بأبيه ، فحملوا الملك على بيعه من تاجر بستمائة درهم ، فقذفه التاجر فى سفينة وانطلق به ، حتى إذا كان العَشِىّ من ذلك القوم هاجت سحابة من سحب الخريف فخرج الملك يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته ، ففزعت الحبشة إلى ولده فاذا هو مُحْمَقٌ لا خير فى ولده ، ثم علموا أن لا مفزع لهم إلا إلى ابن ملكهم القتيل ، فخرجوا يطلبونه ، فجاؤوا به من صاحبه ، فعقدوا عليه التاج . وعز على التاجر أن يضيع ماله وتذهب صفقته فاقتضى القوم حقه فجحدوه إياه ، فشكا أمره الى الملك فقال : لَتُعْطُنَّهُ ماله أو لَيَضَعَنَّ غلامُه يده فى يده فليذهبن به حيث شاء ، فقالوا بل نعطه ماله . قالت فلذلك يقول ما أخذ الله منى رشوة حين رد علىّ ملكى فآخذ

الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه [1]

ذاك هو الحديث الذى خفى عن ثلاثة وثمانين رجلا ، وابتدرته عائشة حين سئلت عنه

وكانت رضى الله عنها تحسن أن تقرأ ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله

وكان زوجات رسول الله جميعاً قسيمات عائشة فى اذاعة العلم وافاضة الدين على المسلمين

وكما كانت عائشة أم المؤمنين تجيد القراءة كانت حَفْصَةُ أم المؤمنين تحسن الكتابة ، وكانت الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية هى التى علمتها إياها [2]

ولم يكن أمهات المؤمنين بدعاً من نساء هذا العصر . فقد عقد محمد بن سعد جزءاً من كتاب الطبقات الكبير لروايات الحديث من النساء أتى فيه على

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ طبع بولاق

(٢) الاصابة ج ٧ ص ١٢٠ — ١٢١

حفصة : هي أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية زوج رسول الله وإحدى الصائمات القائمات القانتات من المسلمات

ولدت رضي الله عنها قبل مبعث النبي بخمس سنوات وزوجت من خنيس بن حذافة السهمي أحد السابقين الاولين فهاجر بها إلى المدينة وأقامت معه حتى مات عنها بعد مآبه من بدر سنة ثلاث حتى إذا انقضت عدتها عرضها عمر على أبي بكر فسكت ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجه رقيه بنت رسول الله فقال مالى في النساء من حاجة فذكر عمر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله ألا تعجب من عثمان إني عرضت عليه حفصة فأعرض عني فقال رسول الله قد زوج الله عثمان خيراً من ابنتك وزوج الله ابنتك خيراً من عثمان فتزوج رسول الله حفصة وزوج أم كلثوم ابنته من عثمان

وكان رسول الله قد هم بطلاق حفصة فنزل جبريل فقال يامحمد لاتطلق حفصة فانها صوامه قوامة وانها من نسائك في الجنة .

وعاشت حفصة بعد رسول الله حتى ماتت في عهد معاوية سنة خمس وأربعين

أما الشفاء بنت عبد الله فاحدى ذوات الرأى الجزل والقول الفصل من بني عدى بن كعب . وهي ممن سبقن إلى بيعة النبي بمكة وهاجرت معه إلى المدينة وكان صلى الله عليه وسلم يؤثرها بغشيان دارها والمقيل فيها وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه اذا أوى اليها وقد بقى الفراش والازار مذخورين في دارها بعد موت رسول الله حتى أخذه مروان حين ولايته على المدينة . وكان عمر يقدمها في الرأى ويؤثرها بالجميل

نَيِّف وسبعمائة امرأة روين عن رسول الله ، أو عن الثقات من أصحابه ، وروى عنهن أعلام الدين وأئمة المسلمين

وهل نجد موطنا أوثق، ومرتقي أسمق ، ومنزلة أوثق ، من أن على بن أبى طالب وهو العَلَم الأشمّ الذى لا يدانيه أحد فى علمه وحكمته ، وقربه من رسول الله وقرابته يتلقى الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته ، هى ميمونة بنت سعد[1] فكيف بمن دون على ، وما أحد من أعلام الاسلام الا دونه

على أن رواية الحديث ومعاناة التشريع لم تكونا كل ما للنساء من همّ ، فقد كان لهن فى الادب العربى شأن لا يدرك وغاية لا ترام

ومما حدثوا أن عائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك فقال الها ما أوفدك ؟ قالت حبست السماء المطر، ومنع السلطان الحق. قال انى سأعرفه حقك . ثم بعث الى مشايخ بنى أمية فقال : ان عائشة عندى فاسمروا عندى الليلة للليلة ، فحضروا، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها الا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أغار الا سمته فقال لها هشام أما الأول فلا أنكره وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتي عائشة . فأمر لها بمائة ألف درهم وردها الى المدينة[2]

(١) الاصابة ج ٧ ص ١٧٣
(٢) الاغانى ج ١٠ ص ٥٧

عائشة بنت طلحة هي أم عمران عائشة بنت طلحة بن عبيد الله جميلة قريش وعقيلتها . وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر . وكانت أشبه الناس بخالتها عائشة أم المؤمنين وأحبهم اليها وأطبعهم على علمها وأدبها ومن أجل ذلك زوجتها من ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر فولدت له عمران وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة . وكان ابنها طلحة أجود قرشي في عهده . ولما مات عنها عبد الله تزوجها مصعب بن الزبير وساق اليها ألف ألف درهم حتى أذا قتل عنها حلف عليها عمر بن عبيد الله بن معمر وساق اليها ألف ألف درهم فأقامت معه ثمان سنين ثم مات عنها فتأيمت بعده ودفعت عنها كل خاطب . وكانت عائشة أجل نساء قريش وادلهن على أزواجها وأحظاهن عندهم . أما علمها وأدبها وأجزال مثوبتها للشعراء والمغنين فما لاشبيه لها فيه إلا سكينة بنت الحسين .

ودونك فاستمع حديث الحجاج عن نسائه قال :

عندى أربع نسوة : هند بنت المهلّب . وهند بنت أسماء بن خارجة ، وأم الجُلاس بنت عبد الرحمن بن أُسَيد وأَمَة الرحمن بنت جرير بن عبد الله البُجَلى فأما ليلتى عند المهلب فليلة فتى بين فتيان ، يلعب ويلعبون ، وأما ليلتى عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك ، وأما ليلتى عند أم الجلاس فليلة اعرابى مع اعراب فى حديثهم وأشعارهم ، وأما ليلتى عند أمة الرحمن بنت جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء[1]

ومن الحديث الذى نورده الآن عليك تعلم الى أى مدى بلغت المرأة من رواية الشعر ، والوقوف على مراميه، ونفاذ البديهة فى اجتلابه وقت الحاجة اليه

قالوا ان رجلا من العرب نزل بامرأة من بنى عامر فأكرمته وأحسنت قِراه ، فلما هم بالرحيل أنشد ذلك البيت — وهو مما هجى به بنو عامر —

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر ... من اللؤم مادامت عليها جلودها

حتى إذا سمعته قالت لجاريتها قولى له ألم نحسن إليك ونفعل ونفعل ؟ هل رأيت تقصيراً ؟ قال لا . قالت فما حملك على البيت ؟ قال جرى على لسانى . فخرجت اليه جارية من بعض الاخبية فحدثته حتى أنس واطمأن ثم قالت له ممن أنت يا ابن عم قال رجل من تميم . قالت أتعرف الذى يقول

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضَلّتِ
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى ... خلال المخازى عن تميم تَجَلَّتِ

قال والله ما أنا من تميم . ما أقبح هذا الكذب بأهله ! فممن أنت ؟

قال من بنى عِجل . قالت أفتعرف القائل ؟

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٣ — ٢٨٤

أرى الناس يعطون الجزيل وإنما عطاء بنى عجل ثلاث وأربع
إذا مات عجلىّ بأرض فانما يخط له فيها ذراع وأصبع

قال لا والله ما أنا من بنى عجل ، قالت فمن ؟ قال من بنى عبس . قالت أفتعرف القائل ؟

اذا عبسية ولدت غلاماً فبشرها بلؤم مستفاد

قال لا والله ، ما أنا من بنى عبس ، قالت فمن ؟ قال من بُجَيْلة قالت أفتعرف القائل ؟

سألنا عن بُجَيْلةَ حين جاءت لتخبر أين قرَّ بها القرار
فما تدرى بجيلة اذ سألنا أقحطان أبوها أم نزار
فقد وقعت بُجَيْلةُ بَيْنَ بَيْنٍ وقد خُلِعت كما خلع العذار

قال لا والله ما أنا من بجيلة . قالت فمن ؟ قال من بنى نمير . قالت أفتعرف القائل ؟

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

قال لا والله ما أنا من بنى نمير ، قالت فمن ؟ قال من بنى باهلة . قالت أفتعرف القائل

إذا نصّ الكرام إلى المعالى تنحى الباهلى عن الزحام
اذا ولدت حليلة باهلىّ غلاماً زيد فى عدد اللئام
ولو كان الخليفة باهلياً لقصر عن مساماة الكرام
وعرض الباهلىّ وإن تَوَقَّى عليه مثل منديل الطعام

قال لا والله ما أنا من باهله. قالت فمن ؟ قال من خزاعة. قالت أفتعرف القائل

إذا فخرت خزاعة فى ندىّ وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهلا بزِقّ بئس مفتخر الفخور

قال لا والله ما أنا من خزاعه . قالت فمن ؟ قال من بنى أمية . قالت أفتعرف القائل

وَهى من أمية بنيانها فهان على الناس فِقدانها
وكانت أمية فيما مضى جَرِيًّا على الله سلطانها
فلا آل حرب أطاعوا الاله ولم يتق الله مروانها

قال لا والله ما أنا من بنى أمية . قالت فمن ؟ قال من هَمْدان . قالت أفتعرف القائل

إذا همدان دارت يوم حرب رماها فوق هامات الرجال
رأيتهم يحتون المطايا سراعاً هاربين من القتال

قال لا والله ما أنا من همدان . قالت فمن ؟ قال من النَّخَع . قالت أفتعرف القائل

إذا النخع اللئام عدوا جميعاً تدكدكت الجبال من الزحام
وما تغنى إذا صدقت فتيلا ولا هى فى الصميم من الكرم

قال لا والله ما أنا من النخع . قالت فمن ؟ قال من لَخْم قالت أفتعرف القائل ؟

إذا ما اجتبى قوم الفضل قديمهم تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا

قال لا والله ما أنا من لخم . قالت فمن ؟ قال من كلب . قالت أفتعرف القائل ؟

فلا تقربن كلباً ولا باب دارها ولا يطمعن ساري ضوء نارها

قال لا والله ما أنا من كلب . قالت فمن ؟ قال من سُلَيْم . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا ما سُلَيْمٌ جئتها فى مامة رجعت كما قد جئت خزيان نادماً

قال لا والله ما أنا من سليم . قالت فمن ؟ قال من الموالى . قالت أفتعرف القائل ؟

إلا من أراد اللؤم والفحش والخنا فعند الموالى الجيدُ والكتفان

قال لا والله ما أنا من الموالى . قالت فمن ؟ قال رجل من الشيطان الرجيم قالت أفتعرف القائل ؟

ألا ياعباد الله هذا عدوكم وذا ابن عدو الله ابليس خاسئاً

حتى إذا ضاقت بالرجل مناسبه ، وأعيت عليه مذاهبه ، قال لها الله الله أقيلينى العثرة فوالله ما ابتليت بمثلك قط . ثم خرج خاسئاً وهو حسير [1]

ذاك حديث الصبية العربية التى لم تَعْدُ بعد طور الحداثة، وتلك قوة بديهتها ودقة فطنتها، وحضور جوابها، وأخذها المآخذ على خصمها . وفى الحديث كما رواه المسعودى هنات للقبائل ومغامز ضربنا الذكر صفحاً عنها

(١) المسعودي ج٢ ص١٧٥ — ١١٨٠ وطبقات الشافعية ج١ ص١٤٢ — ١٤٦

ولقد أثمرت رواية الشعر فى تلك النفوس الصافية النقية ثمراً حلواً جَنِيًّا فكانت المرأة ناقدة لا تبارى ، وشاعرة لا تجارى ، وبنقدها وصوغها تبوأ الشعر العربي تلك المنزلة التى لا تطاول روعة وجمالا

ولئن أثار الخلائف من بنى أمية فى نفوس الشعراء روحاً خبيثة من التنابز والأحقاد فأثابوهم على المخزيات المنديات يترامون بها ، ويتهالكون عليها — لقد دافع عقائل العرب تلك الروح بنفاذ نقدهن ، ولطف مآخذهن ، واجمال مثوبتهن ، فكن ينظرن فى نقدهن الى نبل الغرض ، وشرف اللفظ ، وجلال المعنى فحسب

وكانت سيدة الناقدين سُكينة بنت الحسين . فهى حَكَمُ الشعراء الذى لا يرد حكمه ، ولا يَفيل رأيه ، ولا تبدو مزلته ، وكانوا يفدون على دارها من كل صوب وحدب وكلهم قد عقد يده على خير ما قال ، وليس بينهم إلا من كان حديثه طول طريقه عما عسى السيدة أن تقوله وتحكم به ، لأنه سيكون بين المتأدبين وبغاة الشعر يقيناً لا شك فيه .

اجتمع إليها ذات مره جرير والفرزدق وكُثَيِّر وجميل ونُصَيْب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مآخذه ، ثم أثابت كلا بألف دينار فخرجوا بخمسة آلاف دينار [1] وما كان الخليفة ليظفرهم بما دونها حتى يجمعوا فيه من الفضائل ما تفرق فى الأبرار والمقربين . والكرام الكاتبين ، والقادة الفاتحين .

كذلك كانت مثوبتها للمغنين . وكان بصرها بمذاهب الغناء وضروب الايقاع كبصرها بأعطاف الشعر وقطاف الأدب

وكانت عائشة بنت طلحة تتأثر خطوات سُكَيْنَة فى نقد الشعر والغناء،

(١) الاغانى ج ١٤ ص ١٦٧

والاجتماع بالمغنين والشعراء، والرواة والأدباء، وذوى الرأى والسناء، فتحدث كلا بما عنى به، وخلق له حتى لا تدع له مجالا يقول فيه

وكانت عَمْرَة الجُمَحِيَّة — من سَرَاة بنى جُمَح — يجتمع اليها الشعراء والرواة فى دارها فتستمع لكل وتقارن كلا بكل [1]

وكثير من غير هؤلاء خصصن بنقد الشعر ليثرن فيه قوة الخيال، وروعة الجمال، ومن عيون هؤلاء أسماء وعُلَيَّة ابنتا المهدى وأختا الرشيد — فى الدولة العباسية، وحفصة بنت الحاج الركونية — من شريفات غرناطة وحسيباتها — وَوَلَّادَة بنت الخليفة المستكفى فى الاندلس

ونحن أولئك مرسلو القول فى تبسط العقائل للشعراء وتأثير رأيهن وحكمهن فى أنفسهم

كان أبو مِحْجَن نُصَيب بن رَبَاح مولًى أسود حالك السواد، فاضت به عاطفة الشعر فظهر له فيه أثر حميد. وهو الذى نسوق عنه ذلك الحديث:

قال: أنه خرج هو وكُثَيِّر والأحوص غب يوم أمطرت فيه السماء، فقال هل لكم فى أن نركب جميعاً فنسير حتى نأتي العقيق فنمتع فيه أبصارنا؟ فقالوا نعم. فركبوا أفضل ما يقدرون عليه من الدواب، ولبسوا أحسن ما يقدرون عليه من الثياب، وتنكروا. ثم ساروا حتى أتوا العقيق، فجعلوا يتصفحون ويرون بعض ما يشتهون، حتى رفع لهم سواد عظيم فأموه، حتى أتوه، فاذا وصائف ورجال من الموالى ونساء بارزات، فسألنهم أن ينزلوا فاستحيوا أن يجيبوهم من أول وهلة، فقالوا لا نستطيع أن نمضى فى حاجة لنا، فخلفنهم أن يرجعوا إليهن ففعلوا، وأتوهم فسألنهم النزول فنزلوا، ودخلت امرأة من النساء فاستأذنت

الاغانى ج٦ ص١٥٠

لهم فم تلبث أن جاءت المرأة فقالت ادخلوا، فدخلنا على امرأة جميلة بَرْزة على فرش لها، فرحبت وحيت، وإذا كراسى موضوعة، فجلسنا جميعاً فى صف واحد كل انسان على كرسى، فقالت إن أحببتم أن ندعو بصبى لنا فنصيحه ونعرك أذنه فعلنا — كناية عن ضرب العود — وإن شئتم بدأنا بالغداء، فقلنا بل تَدْعين بالصبي ولن يفوتنا الغداء، فأومأت بيدها الى بعض الخدم فلم يكن إلا كلا ولا حتى جاءت جارية جميلة فرحبت بهم وحيتهم، فقالت لها مولاتها خذى ويحك من قول نصيب عافى الله أبا محجن

ألا هل من البين المفرق من بُدّ ... وهل مثل أيام بمنقطع السعد
تمنيت أيامى أولئك والمنى ... على عهد عاد ما تعيد ولا تبدى

قال نصيب فغنته فجاءت به كأحسن ما سمعته، بأحلى لفظ وأشجى صوت

ثم قالت لها خذى أيضاً من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

أرق المحب وعاده سُهُدُه ... لطوارق الهم التى ترده
وذكرت من رقت له كبدى ... وأَبَى فليس ترق لى كبده
لا قومه قومى ولا بلدي ... فنكون حيناً جيرة — بلده
ووجدت وجداً لم يكن أحد ... من أجله بصبابة يجده

قال فجاءت به أحسن من الأول فكدت أطير سروراً، ثم قالت لها خذى من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

فيالك من ليل تمتعت طوله ... وهل طائف من نائم متمتع
نعم إن ذا شجو متى يلق شجوه ... ولو نائماً مستعتب أو مودع
له حاجة قد طالما قد أسرها ... من الناس فى صدر بها يتصدع

تحملها طول الزمان لعلها يكون لها يوماً من الدهر منزع

قال فجاءنى والله شئ حيرنى وأذهلنى طرباً لحسن الغناء وسروراً باختيارها الغناء فى شعرى وما سمعت فيه من حسن الصنعة وجودتها واحكامها . ثم قالت لها خذى أيضاً من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

يأيها الركب إنى غير تابعكم حتى تاموا وأنتم بى ملمونا
فما أرى مثلكم ركباً كشكلكم يدعوهموذو هوى الايعوجونا
أم خبرونى عن داء بعلمكم وأعلم الناس بالداء الأطبونا

قال نصيب فوالله لقدزهوت بما سمعت زهواً خيل إلىأنى من قريش ، وأن الخلافة لى ، ثم قالت حسبك يابنية . هات الطعام ياغلام . فوثب الاحوص وكُثَيِّر وقالا والله لا نطعم لك طعاماً ، ولا نجلس لك فى مجلس ، فقد اسأت عشرتنا واستخففت بنا ، وقدمت شعر هذا على أشعارنا ، وأسمعت الغناء فيه ، وان فى أشعارنا لما يفضل شعره ، وفيها من الغناء ماهو أحسن من هذا فقالت : فأى شعر كما أفضل من شعره ؟ أقولك ياأحوص كذا وكذا ، وقولك يا كثير كذا وكذا ، وذكرت لهما أبياتاً أساآفيها إلى النساء فخرجا مغضبين ! واحتبستنى فتغديت عندها ، وأمرت لى بثلثمائة دينار وحُلتين وطيب ، ثم دفعت إلى مائتى دينار ، وقالت ادفعها إلى صاحبيك فان قبلاها وإلا فهي لك . فأتيتهما منازلهما فأخبرتهما القصة . فأما الاحوص فقبلها وأما كثير فلم يقبلها ، فأخذتها وانصرفت . قال عبد الله بن اسماعيل فسألت نصيباً ممن المرأة ؟ فقال من بنى أمية ولا أذكر اسمها ماحييت [1]

(١) الاغانى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٩

وإذا نحن وازنا بين الثلاثة الشعراء وجدنا الاحوص وكُثَيِّراً قد ذهبا من رقة القول ، ودقة النسج كل مذهب . على أن الحق الذى لايماريان فيه أن شاعر حديثنا أشرفهم غرضاً ، وأكرمهم خلقاً ، وأنبلهم عن هجر الكلام . ومن أجل ذلك آثرته المرأة وأثابته وأنبهت شعره وذكره .

كل ذلك بينا تجد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى يضع خمسمائة دينار بين يديه وعنده من الشعراء جرير والفرزدق والاخطل لتكون مثوبة لمن يكون أشد مدحا لنفسه وهجوا فيمن سواه [1]

وعلى ذكر كثير ونقد شعره نقول أنه خرج ذات مرة إلى البادية فدفع به طريقه إلى خباء لقطام ابنة علقمة فنزل بها وعرفها بنفسه فقالت له أنت كثير ؟ أنت الذى تقول ؟

ثم روضة بالحَزن باكرها الندى يمج الندى جَثجاثُها وعَرارها [2]
بأطيب من أردان عزة مَوْهِناً إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها [3]

قالت نعم . قالت وهل أبقيت لعزة من الفضل فوق ما لهذه اللبنة الملقاة ؟ أولا تراها إذا أوقد المندل الرطب فوقها عبق منها مايعبق من عزة ؟ هلا قلت كما امرؤ القيس

ألم تريانى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وان لم تَطَيَّبِ [4]

فخرج كثير واستحيا بعد أن ملأ فاه فخراً بنفسه

(١) ديوان الاخطل ج ٤ طبع بيروت
(٢) الحزن الارض الصلبة والجثجاث نبت اصفر طيب الرائحة تصيبوا اليه العرب والعرار البهار
(٣) الاردان — جمع ردن بضم الراء — الاكمام وموهنا أى عند انتصاف الليل والمندل العود
(٤) الاغانى ج ١٤ ص ٥٧ والمحاسن والاضداد ص ١٣٩ — ١٤٠

وأن من أعجب الاشياء أن تضع زوج أحد الشاعرين المتكافئين قوة وشيعة رأيها فى كفة خصمه وتلك هى النوار بنت أعين زوج الفرزدق همام بن غالب . سألها زوجها رأيها فيه وفى جرير فقالت أن جريراً شاركك فى مره وانفرد دونك فى حلوه [1]

وما ظنك بأمرأة تستمع بيوتاً من الشعر فتهب نفسها لقائلها بعد أن تكون قد سخرت منه وامتنعت عليه ؛ ذلك ما كان من إحدى أديبات العرب وجميلاتهم مع نُصَيب بن رباح. فقد رامها نصيب فعزت عليه ، بل لقد سخرت منه حين كلمها ودلف اليها فقالت له ما أظرفك يا أسود ! وأغضب ذلك نصيباً فانصرف عنها فقال

فان أكُ حالكا فالمسك أحوى ... وما لسواد جلدى من دواء
ولى كرم عن الفحشاء ناء . ... كبعد الأرض عن جو السماء
فان ترضى فردى قول راض ... وان تأبى فنحن على السواء

فلم تقرأ الأبيات حتى كانت هى التى طلبته فتزوجته [2]

تلك شواهد موجزة مجملة عما كان للمرأة العربية المسلمة فى الأدب من نفاذ وبراعة ، ورجاحة وسماحة ، وصفاء فطرة ، ومضاء بديهة ، وكرم مثوبة ، وقوة عارضة ، وصولة واستبسال ، فى حياطة مواطن الشرف والجمال من الشعر . وكان بودنا لو ملأنا للقارئ أيدينا من ذلك الثمر الحلو الجنى لولا خشية التيات القصد وترامى الطريق

ولئن نضرت جوانب الأدب العربى بموقف المرأة ، وضاءت مذاهبه ،

(١) تريد أن جريرا وزن الفرزدق في الهجاء وانفرد دونه فيمارق من القول كالغزل والنسيج
(٢) الاغانى ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧

ورقت مشاربه ، لقد فاضت مشارعه ، وتدفقت متالعه ، وزكت فنونه ، وتهدلت غصونه بما أثمرت قريحتها ، وانحسر عنه لبها من نثر الكلام وشعره

لقد وردت المرأة مناهل القول جميعاً . على أنها لم تجاوز الصافى الفرات منها ، فكان قولها قِطعاً من قلبها ومشاعرها . فهى إذا خطبت ، أو كتبت ، أو شافهت ، أو نظمت ، لم تَعْدُ ماتؤمن به ، وتهفو اليه . أما سفاسف القول من أغراق فى المدح ، وأقذاع فى الهجاء ، ومجون فى الغزل ، وذهاب فى الخمر ، وسخف فى الدين ، فذلك ما تركت الرجل يستأثر به ويتسكع فيه

لا نكذب الحق فقد ظهر من الشواعر جماعة أخذن بطرف من ذلك اللغو . على أن هؤلاء لسن فى شىء من موضوع كتابنا . فهن نوازح من الجوارى جئ بهن إلى مدن العراق والشام والأندلس مما وليهن من الاقطار فتصدين لرجال العرب بما شئن من دعابة وتأنق ، فظهر كثير من السرف والتهتك على مقالهن ، حتى لقد سترن بذلك الانحسار تلك الملاحة الروحية المعنوية فى المرأة العربية ، فتضاءلت وتراجعت وقذف بها ذلك السيل الآتى إلى مكان سحيق وسنفرد القول فى ذلك فى الجزء الثالث من كتابنا إن شاء الله

وإذا كانت المرأة العربية قد استمدت وحى البلاغة وسحر البيان من صبيب قلبها وخطرات سرائرها فان الرجل لم يستمد ذلك كله إلا من المرأة نفسها .

وهل رأيت شاعراً ممن طار شعرهم كل مطار . وسار ذكرهم كل مسار يستمد خواطر شعره ، أو يصطفى الحر السنى من معناه وخياله إلا من المرأة ؟

ولم قصيدة من تلك التى قيلت فى العظائم وقدمت إلى العظماء لم تكن المرأة مطلع أمرها ومنبلج فجرها ؟

نقف الآن إلى ذلك الحد من منزلة المرأة فى الأدب العربى وأنا لعائدون اليه إن شاء الله فيما نختاره لها من شئون القول وفنونه ، ونأخذ ببقية القول فى أثرها العلمى فنقول

لم تقف بالمرأة العربية قريحتها عند حد النبوغ فى التشريع الاسلامى ، والأدب العربى . فقد أخذت بنصيب موفور من النهضة التى استحدثها المسلمون عمن سواهم من الامم ذوات التاريخ الحافل والمجد القديم

وأخص ما عنين به الطب فهنّ فوق ما ورثته عن أمهاتهن من أسو الجراح ، وجبر العظام ، برعن إلى غير حد فى بقية فروع الطب مما نقلوه عن اليونان والسريان والهند ، حتى كانت بغداد وقرطبة وماسواهما من مدن العراق والاندلس مسارح للكثيرات منهن ممن خصصن بعلاج الاجسام ماظهر منها وما بطن

ومن هؤلاء أخت الحفيد بن زهر الاندلسى وابنتها . فقد حدث صاحب طبقات الاطباء عن نفاذهن فى فروع الطب جميعاً وفى أمراض النساء خاصة وكان المنصور بن أبى عامر وارث الخلافة الاموية بالاندلس لا يدعو لنسائه وعامة أهله غيرهما

ومنهن زينب طبيبة بنى أود وكان أخص مابرعت علاج العين بالجراحة أو أجراء العمليات الجراحية للعين[1]

وغير أولئك كثيرات

(١) طبقات الاطباء

ولا يفوتنا أن نختم حديثنا بشىء مما كتبه الكاتب الفيلسوف العظيم جوستاف لوبون ، فى كتابه حضارة العرب La Civilisation des Arabes عن المرأة المسلمة وأثرها العلمى قال :

« أما نباهة شأن المرأة وسمو مكانها فى عصور العرب الزاهية فما ينبىء عنه عدد اللواتى امتزن بنفاذهن فى العلوم والآداب من نساء العرب

ولقد نبغ منهن عدد موفور فى العهد الاموى بالاندلس والعباسى ببلاد المشرق . ولنذكر من بين أولئك « وَلاَّدَة » بنت المستكفى بالله أمير المؤمنين بالاندلس

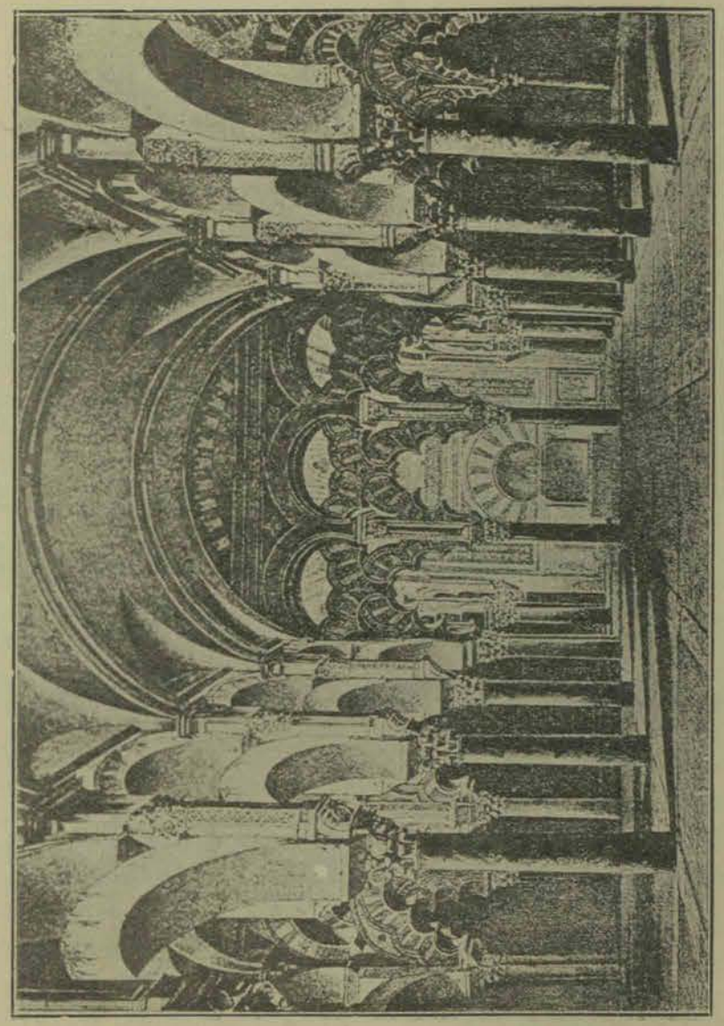
كتب « كوند » مجملا ممن كتب من مؤرخي العرب عن الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر قال . كان هذا الخليفة وسط مايحيط به من بدائع « الزهراء » وعجائبها يسره أن يستمع الغناء مما كانت تصوغه جاريته وصاحبة سره « مُزْنة » من الاناشيد العذبة الرقيقة . ومن أولئك الناهضات النابهات « عائشة » إحدى بنات السَّراة بقرطبة . وهى التى يقول ابن حيان عنها أنها أجمل وأعقل وأعلم نساء عصرها و « صفية » وكانت من أفتن النساء بجمالها وأدراهن بفنون الشعر

ومما قال بعض المؤرخين عن الْحَكَم بن الناصر « فى ذلك العهد الذى أولع فيه أهل الاندلس بالشعر وجنوا قطاف الفنون والعلوم — كان النساء فى عزلتهن يقبلن على الدرس وينصرفن اليه وأكثرهن قد امتاز بمضاء الذكاء وانفساح مدى العلم . وكان فى قصر الخليفة بين نسائه « لُبنى » تلك التى جمعت إلى جمالها الساحر أحاطتها بالنحو والشعر والرياضة وما سوى ذلك من علوم وفنون .

وكانت تكتب رسائل الخليفة بأسلوب يملأ النفس روعة وخطا يملأ العين جمالا ، فهى كاتبة قصره ، ومنشئة رسائله . ولم يكن بين نساء القصر من يساميها عقلا وفطنة ورشاقة لفظ ، وسماحة قافية ، و« فاطمة » ومثلها فى رجاحة العقل وسماحة القول مثل لبنى . وكان شعرها كفاء نثرها . وفى كليهما أمعنت حتى بلغت غاية لا تنال وكان العلماء والشعراء يطربون لشعرها وما فيه من انق وابداع . ولها مكتبة جمعت أجل الكتب وأنفسها

ومنهن « خديجة » وهى التى جمعت إلى عذوبة المنطق وروعة الشعر ، رخامة الصوت والذهاب فى فنون الغناء و « مريم » التى كانت تغدو على بنات سادات اشبيلية فتعلمهن القريض . وكان لها فى التعليم ذكر نابه وشهرة ذائعة . وقد تخرج في مدرستها طائفة عظيمة من شهيرات النساء . و« راضيه » ويدعونها الكوكب الزاهى . وهى التى وهبها الناصر لابنه الحكم . وكانت آية ذلك العصر فى الأدب والتاريخ . وقد تنقلت فى بلاد المشرق أثر موت الحكم فكانت موطن الاجلال والاكبار من العلماء جميعاً »

أما بعد : فذاك حديث النهضة العلمية الاسلامية وتلك آثار المرأة فيها وما آثرها عليها ، فهل رأيت ما رأيت فى أمة من الأمة قديمها وحديثها ؟ اللهم انها حكمة الله ملأ بها احناء تلك الصدور ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً



جامع قرطبة — أحفل المعاهد الاسلامية بأولى العلم من الرجال والنساء أنشأه عبد الرحمن الناصر (ص ١٨٤)

اثارة من قولها

نثار من النثر

١ – حفيدة رسول الله

تفحم أهل العراق

حدث ابن أبي طاهر عن خِذَام الأسدى قال :

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين . وهى السنة التى قتل فيها الحسين ابن على عليهما السلام – فرأيت نساء الكوفة قياماً يَلْتَدِمْن [1] ورأيت على بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضئيل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة انكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟ وسمعت أم كلثوم [2] بنت

---

(١) التدمت المرأة ضربت صدرها حزنا ونوحاً

(٢) أم كلثوم : هي خطيبة قريش وفصيحتها أم كلثوم بنت على بن أبي طالب عليه السلام. وأمها سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولدت في أخريات العهد النبوى وتزوجها عمر في خلافته وهي حدثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يصل نسبه وسببه برسول الله وكان رضي الله عنه قد كلم علياً عليه السلام في أمرها فقال على انما حبست بناتى على بني جعفر فقال عمر زوجنيها يا على فوالله ما على ظهر الارض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد فقال على قد فعلت ثم غدا على بيته وأمر ببرد فطواه وقال لام كلثوم انطلقي بهذا إلى أمير المؤمنين فقولى له أرسلني أبي يقرئك السلام ويقول إن رضيت البرد فأمسكه وان سخطته فرده فلما أتت عمر قال بارك الله فيك وفي أبيك قد رضينا قالوا فرجعت إلى أبيها فقالت ما نشر البرد ولا نظر إلا إلىّ فزوجها إياه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيداً ورقية ثم خلفته على ابن عمها عوف بن جعفر بن أبي طالب فمات عنها ثم اعقبته على أخيه محمد بن جعفر فمات عنها فخلفت على أخيه عبد الله بن جعفر — بعد أن ماتت عنه أختها زينب — فماتت عنده . وكان موتها هي وابنها زيد في يوم واحد . رضي الله عنهما

على عليها السلام وهى تقول — فلم أر خَفِرَةً والله أنطق منها، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علىّ عليه السلام، وأشارت إلى الناس أن أمسكوا، فسكنت الأنفاس وهدأت، فقالت: الحمد لله رب العالمين، والصلاة على جدى سيد المرسلين. أما بعد: يا أهل الكوفة! يا أهل الختر [1] والخذل، لا، فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الرنة. انما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم. ألا وهل فيكم إلا الصلف والشنف [2] وملق الإماء، وغمز الأعداء. وهل أنتم إلا كمرعى على دمنة؟ [3] وكفضة على ملحودة؟ [4] ألا ساء ما قدمت أنفسكم أن سخط الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون. أتبكون!! إى والله فابكوا! وانكم والله أحرياء بالبكاء، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلا، فلقد فزتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً [5] وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة، ومنار محجتكم، ومدرة حجتكم [6]، ومفزع نازلتكم فتعساً ونكساً! لقد خاب السعى، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة لقد جئتم شيئاً إدّا، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا. أتدرون أى كبد لرسول الله فريتم؟ وأى كريمة له أبرزتم؟ وأى دم له سفكتم؟ لقد جئتم بها شوهاء خرقاء، شرعها طلاع الارض والسماء. أفعجبتم أن قطرت السماء دماً! ولعذاب الآخرة أخزى

(١) الختر الغدر والخديعة (٢) الصلف الكبر والخيلا والشنف التنكر عمن تعرفه
(٣) الدمنة أثر الديار أو فضلاتها ينبت عليها مرعى أنيق الشكل مر المذاق وقد شبهوا بها كل شيء مموه لاخير فيه (٤) الملحودة القبر ومثل الفضة على الملحودة كمثل مرعى الدمن وهما جميعاً مثل الرجل المنافق (٥) رحض الثوب غسله (٦) المدره المقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال

وهم لا ينصرون فلا يستخفنكم المهل فانه لا تحفزه المبادرة [1] ولا يخاف عليه فوت الثار. كلاّ إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد، ثم ولت عنهم. قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم إلى أفواههم. ورأيت شيخاً كبيراً من بنى جُعْفِىّ، وقد اخضلت لحيته من دموع عينيه، وهو يقول:

كهولهم خير الكهول ونسلهم ... إذا عد نسل لا يبور ولا يخزى [2]

٢ — بين الوفاء للرأى والمضاء فيه

صواحب على فى مجلس معاوية [3]

سودة بنت عمارة

استأذنت سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية على معاوية بن أبى سفيان فأذن لها. فلما دخلت عليه قال هيه يابنت الأسك: ألست القائلة يوم صفين؟

شمّر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر عليا والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخو النبى محمد ... علم الهدى ومنارة الايمان
فقه الخنوف وسر أمام لوائه ... قدُماً بأبيض صارم وسنان

(١) حفزه أعجله وأزعجه (٢) بلاغات النساء ج٢٧—٢٩(٣) فصلت وقادة أولئك النساء في طائفة من كتب الأدب منها بلاغات النساء والعقد الفريد وأشباهها

قالت إى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها فما حملك على ذلك ؟ قالت حب على عليه السلام ، واتباع الحق قال فوالله ما أرى عليك من أثر على شيئاً ، قالت أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة مامضى ، وتذكار ما قد نسى ، قال هيهات ! مامثل مقام أخيك يُنسى وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وقوم أخيك . قالت صدق فوك ! لم يكن أخى ذميم المقام ، ولاخفى المكان ، كان والله كقول الخنساء

وان صخرا لتأتم الهداة به كانه علم فى رأسه نار

قال صدقت. لقد كان ذلك . فقالت مات الرأس ، وبُتر الذنب . وبالله أسأل أمير المؤمنين أعفانى مما استعفيت منه . قال قد فعلت . فما حاجتك ؟ قالت انك اصبحت للناس سيداً ، ولامرهم متقلداً ، والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا يزال يقدم علينا من يبوء بعزك ، ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصد السنبل ، ويدوسنا دوس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة هذا بُسر بن أَرْطاة قدم علينا من قبلك ، فقتل رجالى ، وأخذ مالى يقول لى فوهى بما أستعصم الله منه وألجأاليه فيه[1] ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فأما عزلته عنا فشكرناك ، وأما لا فعرّفناك . فقال معاوية أتهددينى بقومك ؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس فأردك اليه ينفذ فيك حكمه . فأطرقت تبكى ثم أنشأت تقول

صلى الله على جسم تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لايبغى به بدلا فصار بالحق والايمان مقرونا

(١) تريد بذلك أنه يأمرها بسب على للزراية بأبنائه وشيعته

قال لها ومن ذلك؟ قالت على بن أبى طالب عليه السلام. قال وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟ قالت قدمت عليه فى رجل ولاه صدقتنا، قدم علينا من قِبَله، فكان بينى وبينه ما بين الغث والسمين، فأتيت علياً عليه السلام لأشكو اليه ما صنع بنا، فوجدته قائماً يصلى، فلما نظر الى انفتل من صلاته ثم قال لى برأفة وتعطف: ألك حاجة ؟ فأخبرته الخبر، فبكى، ثم قال: اللهم انك أنت الشاهد على وعليهم، انى لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقك. ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجواب فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ

اذا قرأت كتابى فاحتفظ بما فى يديك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام. فأخذته منه والله ما ختمه بطين، ولا خزمه بخزام، فقرأته . فقال لها معاوية : لقد لمظكم ابن أبى طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ماتُعَظِّمون ثم قال : اكتبوا لها برد مالها والعدل عليها قالت : أَلِىَ خاصة أم لقومى عامة ؟ قال : ما أنت وقومك ؟ قالت هى والله اذن الفحشاء واللوم ! ان لم يكن عدلا شاملا والله فأنا كسائر قومى . قال : اكتبوا لها ولقومها

﴿ أم الخير بنت الحريش البارقيّة ﴾

كتب معاوية الى واليه بالكوفة : ان أوفد عليّ أم الخير بنت الحرَيش بن سُرَاقة البارقية ، رحلة محمودة الصحبة ، غير مذمومة العاقبة ، واعلم اني مجازيك بقولها فيك ، بالخير خيراً ، وبالشر شراً . فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها فأقرأها اياه ، فقالت أما أنا فغير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب . ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لامور تختلج فى صدرى ، تجرى مجرى النَّفَس يغلى بها غلى المرجل بحب البُلْسُنِ [١] يوقد بجذْل السَّمُر [٢] . فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، ان معاوية قد ضمن لى عليه أن يقبل بقولك فىّ ، بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فانظرى كيف تكونين ؟ قالت : يا هذا لا يُطمِعْك والله برك بي فى تزويق الباطل ، ولا تؤيسك معرفتك اياي أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير مسير . فلما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثا ، ثم أذن فى اليوم الرابع وجمع لها الناس ، فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتنى بهذا الاسم ! فقالت مه ياهذا ! فان بديهة السلطان مُدْحِضَةٌ لما يجب علمه [٣] . فقال صدقت يا خالة . وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزلْ فى عافية وسلامة حتى أُوفِدْت الى مُلك جَزْل وعطاء بَذْل . فأنا فى عيش أنيق ، عند ملك رفيق . فقال معاوية بحسن نيتى ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه ياهذا ! لك والله من دحض المقال ما تُرْدى عاقبته

(١) البلسن العدس (٢) الجذل أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع والسمر شجر من أشجار البادية
(٣) البديهة المفاجأة ومدحضة مبطلة

قال ليس لهذا أردناك . قالت : انما أُجرى فى ميدانك ، اذا أجريت شيئاً أجريته فاسأل عما بدا لك . قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمّارُ بنُ يَاسِر قالت : لم أكن والله رَوَّيته قبل ، ولا زَوَّرته بعد [١] وانما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة . فان شئت ان أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت . قال لا أشاء ذلك . ثم التفت الى أصحابه فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم أنا أحفظه يا أمير المؤمنين لحفظى سورة الحمد ، قال هاتِه ! قال نعم ، كأنى بها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها بُرْد زَبِيدِىّ كثيف الحاشية ، وهى على جمل أرمك [٢] وقد أحيط حولها حوَاء [٣] وبيدها سوْط مُنتشِرُ الضَّفْر ، وهى كالفحل يَهْدِرُ فى شِقْشِقَتِهِ [٤] تقول : يا أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ انَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عظيم ، ان الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العَلم ، فلم يَدَعكم فى عمياء مُبهمة ، ولا سوداء مُدْلَهِمَّة ، فالى أين تريدن رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ؟ أم فراراً من المؤمنين ؟ أم فرار من الزحف أم رغبة عن الاسلام أم ارتداد عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعلَمَ الْمُجَاهِدِين مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عيلَ الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب أزِمَّةُ القلوب فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق الى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الامام العادل ، والوصى [٥] الوفى ، والصِّدِّيق

(١) رويت في الامر فكرت فيه وزورت الكلام زينته (٢) الارمك الرمادي (٣) الحواء مايتخذ كالوسادة على الرحل (٤) الشقشقة شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه اذا هاج (٥) انما سمى عليّ عليه السلام بالوصي لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له « أنت مني بمنزلة هرون من موسي إلا انه لانبي بعدي » فهو بذلك كقول الشيعة — قد أوصاه بالمسلمين واستخلفه عليهم

الاكبر . أنها إحَنٌ بَدْرية[1] وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحُدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس . ثم قالت : قَاتِلوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ أَنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صبراً معشر الانصار والمهاجرين. قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . وكأنى بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى ، عما قليل لَيُصْبِحُنَّ نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الاقالة . انه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار . أيها الناس ! ان الاكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان ، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه . فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته، خلق من طينته، وتفرع من نبعته ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وعَلَم المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين[2] فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعونته ، ويمضى على سَنَنِ استقامته لا يعرج لراحته الدَّأَب . هاهو مفلق الهام ، ومكسر الاصنام ، إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون ، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أُحُد، وفرق جمع هوازن[3] فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً ، ورِدّة

(١) الاحن جمع أحنه — الاحقاد — وبدرية نسبة إلى بدر وهى أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بإثارته الحرب على علىّ انما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر (٢) تشير بذلك إلى قول رسول الله فيه « لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق » (٣) تريد بذلك يوم حنين

وشقاقا . قد اجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ! والله لو قتلتك ما حرجتُ فى ذلك . قالت والله ما يسوءنى يا ابن هند أن يجرى الله ذلك على يَدَىْ من يسعدنى الله بشقائه . قال هيهات يا كثيرة الفضول ! ما تقولين فى عثمان ابن عفان ؟ قالت وما عسيت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون، وقتلوه وهم له كارهون . فقال معاوية إيها يا أم الخير ! هذا والله أصلك الذى تبنين عليه[1] قالت لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزَلَهُ بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسباقاً إلى الخيرات ، وانه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله[2] قالت وما عسى أن أقول فى طلحة ؟ اغتيل فى مأمنه ، وأتى من حيث لم يحذر وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال فما تقولين فى الزبير[3] قالت ياهذا لا تدعنى كرجيع الصبيغ يُعْرَكُ فى المِرْكن[4] قال حقاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك. قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله

(١) يريد أن سوء رأيها في عثمان هو الذى دفعها إلى مناصرة على (٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والابطال المعلمين وعاشر عشرة بشرهم رسول الله بالجنة وسادس ستة اختارهم عمر رضي الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده وأول صحابى بايع علياً عليه السلام ثم استحال رأيه فخرج عليه وانضم إلى جند عائشة رضي الله عنه يوم الجمل وهنالك أصيب بسهم أودي به رضي الله عنه (٣) كان أمر الزبير خيال على شبيها بأمر طلحة وكان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة فارسل اليه على يذكره بقول رسول الله له « لتقاتلنه — يريد تقاتل علياً — وأنت ظالم له » فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعودا إلى الحق فلما انتهى إلى واد يقال له وادي السباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز (٤) الصبيغ الثوب المصبوغ والعرك الدلك والحك والمركن الآنية أي لا تتركني كالثوب المصبوغ يدلك فيغير الماء

صلى الله عليه وسلم وحوارِيُّه ، [1] وقد شهد له رسول الله الجنة. ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمه فى الاسلام ، وأنى أسألك بحق الله يامعاوية فان قريشاً تحدث انك أحلمها ، وأسألك بان تسعنى بفضل حلمك ، وأن تعفينى من هذه المسائل وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم : وكرامة . قد أعفيتك ، وردها مكرمة إلى بلدها

الزرقاء بنت عدى

سهر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس ، امرأة كانت من أهل الكوفة، وكانت ممن يعين علياً عليه السلام يوم صفين ، فقال لاصحابه ايكم يحفظ كلام الزرقاء ؟فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين : قال فما تشيرون علىَّ فيها ؟ قالوا نشير عليك بقتلها ، قال بئس ما أشرتم علىَّ به! أيحسن بمثلى أن يتحدث الناس أنى قتلت أمرأة بعد ما ماملكت وصار الامر لى ؟ ثم دعا كاتبه فى الليل فكتب إلى عامله فى الكوفه أن أوفد إلىَّ الزرقاء ابنة عدى فى ثقة من محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدها وطاء لينا ، واسترها بستر حصيف [2] فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طائعة . وان كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إلى لم أرِمْ [3]

(١) حواري الرجل صفوته من الناس (٢) الوطاء الفراش اللين والحصيف المحكم النسج
(٣) لم أرم اي لم أتحرك

من بلدى هذا ، وإن كان حكم الامر فالطاعة له أولى بى . فحملها فى هودج وجعل غشاءه حبراً مبطناً بعصب اليمن ، ثم أحسن صحبتها . فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلا خير مقدم قدم وافد . كيف حالك ياخالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت خير مسير ، كأنى كنت ربيبة بيت أو طفلا ممهداً . قال بذلك أمرتهم فهل تعلمين لم بعثت اليك ؟ قالت سبحان الله أنَّى لِى بعلم مالم أعلم ؟ وهل يعلم ما فى القلوب إلا الله ؟ قال بعثت اليك أن أسألك الست راكبة الجمل الأحمر يوم صفِّين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين أنه قد مات الرأس وبُتِرَ الذنب ، والدهر ذو غِيَرَ ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر . قال لها صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت . ما أحفظه . قال ولكنى والله أحفظه ! لله أبوك . لقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! أنكم فى فتنة غشتكم جلابيبَ الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة . فيالها من فتنة عمياء صماء ، يسمع لقائلها ولا ينظر لسائقها أيها الناس ! أن المصباح لا يضىء فى الشمس ، وان الكوكب لا ينفذ فى الفجر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وان الزَّفَّ [1] لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألاَ من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا اخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبراً يا معشر المهاجرين والانصار فكأنْ قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنَّى ؟ لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً . ألاَ إنَّ خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير فى الأمور عواقباً . إيها الى الحرب قُدُماً غير

(١) الزف صغير الجمل

ناكصين . فهذا يوم له ما بعده . ثم قال معاوية والله يا زرقاء لقد شركت علياً عليه السلام فى كل دم سفكه . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك . مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه . قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت نعم لقد سرنى قولك فأنى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إلىَّ من حبكم له فى حياته . اذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين انى قد آليت على نفسى ألا أسأل أميراً أعنتُ عليه شيئاً أبداً . ومثلك اعطى عن غير مسألة . وجاد عن غير طلب . قال صدقت . فاقطعها ضيعة أغلتها فى أول ستة عشرة آلاف درهم . وأحسن صفدها ، وردها والذين معها مكرمين .

بكارة الهلالية

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية فأذن لها ، فدخلت ، وكانت امرأة قد أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها . فهي ترعش بين خادمين لها ، فسلمت ثم جلست فقال معاوية كيف أنت ياخالة ! قالت بخير يا أمير المؤمنين . قال غيَّرك الدهر . قالت كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . وكان هنالك مروان بن الحكم وعمرو بن العاص فابتدأ مروان فقال ألا تعرف هذه يا أمير المؤمنين . قال ومن هى ؟ قال هى التى كانت تعين علينا يوم صفين وهى القائلة

يا زيد دونك فاستثر من دارنا ... سيفاً حساماً فى التراب دفينا

قد كان مذخوراً لكل عظيمة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص وهى القائلة يا أمير المؤمنين

أترى ابن هند للخلافة مالكا ... هيهات ذاك وما أراد بعيد

منَّتك نفسك فى الخلاء ضلالة ... اغراك عمرو للشقا وسعيد

فارجع بأنكد طائر بنحوسها ... لاقت علياً أسعد وسعود

فقال سعيد يا أمير المؤمنين وهى القائلة

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أمية خاطبا

فالله أخر مدتى فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا

فى كل يوم لا يزال خطيبهم ... وسط الجموع لآل أحمد عائبا

ثم سكت القوم فقالت بكارة نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى ، فقصر مِحْجَنِي [1] وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله قائلة ماقالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين ، فقال معاوية أنه لا يضعك شىء . فاذكرى حاجتك تقضى . فقضى حوائجها وردها الى بلدها

﴿ عِكْرِشَةُ بنت الأُطْرُوش ﴾

حدث ابن أبى طاهر عن الشافعى قال :

دخلت عكرشة بنت الأطروش على معاوية وبيدها عكاز فى أسفله زج [2]

(١) اعتورتني أي تناوبتني من كل جانب والمحجن العصا (٢) الزج الحديدة في أسفل الرمح أو نحوه ويطعن به

مسق، فسلمت عليه بالخلافة وجلست ، فقال لها معاوية ياعكرشة الآن صرت أمير المؤمنين : قالت نعم إذ لاعليٌّ حي . قال ألست صاحبة الكور[1] المسدول والوسط المشدود، والمتقلدة بحمائل السيف، وأنت واقفة بين الصفّين يوم صفّين تقولين « يأيها الناس عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم . ان الجنة دار لايرحل عنها من قطنها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لايدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . كونوا قوما مستبصرين . ان معاوية دَلَفَ اليكم بعُجم العرب، غُلْفِ القلوب[2] لايفقهون الايمان، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم الى الباطل فلبّوْه . فالله الله عباد الله فى دين الله ! واياكم والتواكل فان فى ذلك نقض عروة الاسلام ، وأطفاء نور الايمان ، وذهاب السُّنَّة ، واظهار الباطل . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . قاتلوا يامعشر الانصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كالحمر النهاقة والبغال الشحّاجة ، تَضْفَعُ[3] ضَفْع البقر ، وتَرُوث روث العناق » ثم قال معاوية فوالله لولا قدر الله وما أحب ان يجعل لنا هذا الأمر لقد انكفأ على العسكران . فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ان اللبيب اذا كره أمراً لم يحب اعادته . قال صدقت ، اذكري حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين ان الله قد رد صدقاتنا علينا ، ورد أموالنا فينا الا بحقها . وانا قد فقدنا ذلك فما يُنْعَش لنا فقير ، ولا يجبر لنا كسير فان كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين . قال معاوية: يا هذه انه تنوبنا أمور هى أولى بنا منكم ، من بحور تنبثق وثغور تنفتق . قالت:

(١) الكور الرحل (٢) غلف جمع اغلف والقلب الأغلف الذي كأنما غشي غلافا فهو لايعي
(٣) تضفع أي تضرط

ياسبحان الله : ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ماجعله لنا وهو علام الغيوب . قال معاوية هيهات يا أهل العراق فقهكم ابن أبى طالب فلن تطاقوا . ثم أمر لها برد صدقتها وانصافها وردها مكرمة .

﴿ جروة بنت غالب ﴾

احتجم معاوية بمكة ، فلما أمسى أرق أرقاً شديداً ، فأرسل الى جروة بنت غالب التميمية، وكانت مجاورة لمكة، وهى من بنى أسيد بن عمرو بن تميم ، فلما دخلت قال لها مرحباً يا جروة، أرعناك ! قالت إى والله يا أمير المؤمنين، لقد طرقت فى ساعة لا يطرق فيها الطير فى وكره ، فأرعت قلبى ، وريع صبياني ، وأفزعت عشيرتى ، وتركت بعضهم يموج فى بعض، يراجعون القول ويديرون الكلام خشية منك وشفقة علي. فقال لها ليسكن روعك، ولتطب نفسك ، فان الأمر على خلاف ما ظنت . انى احتجمت فاعقبنى ذلك أرقاً ، فارسلت اليك تخبرينى عن قومك .

قالت : عن أى قومى تسألنى ؟ قال عن بنى تميم . قالت يا أمير المؤمنين هم أكثر الناس عدداً ، وأوسعه بلداً ، وأبعده أمداً . هم الذهب الاحمر ، والحسب الافخر. قال فَنَزِّليهم لى[1] قالت: يا أمير المؤمنين أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة، لايتخاذلون عن اللقاء، ولا يطمع فيهم الاعداء ، سلمهم فيهم، وسيفهم على عدوهم . قال صدقت ، ونعم القوم لانفسهم . قالت : وأما بنو سعد ابن زيد مناة ففى العدد الاكثرون، وفى النسب الاطيبون ، يضرون ان غضبوا

(١) يريد وضعى كل عشيرة في موضعها

ويدركون ان طلبوا ، أصحاب سيوف وحَجَف [1] ونزال وزَلَف ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم . وأما حنظلة فالبيت الرفيع ، والحسب البديع ، والعز المنيع ، المكرمون للجار ، والطالبون بالثار ، والناقضون للاوتار . قال ان حنظلة شجرة تفرع ، قالت صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتمعة ، وكف ممتنعة . وأما طُهَيَّة فقوم هُوج وقِرْنٌ لَجوج . وأما بنو ربيعة فصخرة صماء ، وحية رقشاء [2] يغزون لغيرهم ، ويفخرون بقومهم . وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ، وأسود الصباح ، يعتنقون الاقران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع غير مفلول ، وعز غير مجهول ، ليوث هَرّارة [4] ، وخيول كرارة ، وأما بنو دارم ، فكرم لايدانى ، وشرف لايسامى ، وعز لايوازى . قال أنت أعلم الناس بتميم فكيف علمك بقيس ؟ قالت كعلمى بنفسى . قال فخبرينى عنهم قالت : أما عظفان ، فأكثر سادة ، امنع قادة . وأما فزارة فبيتها المشهور ، وحسبها المذكور . وأما ذبيان فخطباء شعراء ، أعزة أقوياء . وأما عبس فجمرة لا تطفا ، وعقبة لاتعلى ، وحية لاترقى [5] وأما هوازن ، فحلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما سُليم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم . وأما نمير فشوكة مسمومة ، وهامة مذمومة ، وراية ملمومة ، وأما هلال فاسم فخم ، وعز ضخم ، وأما بنو كلاب فعدد كثير ، وفخر أثير . قال لله أنت ! فما قولك فى قريش قالت يا أمير المؤمنين هم ذروة السنام ، وسادة الأنام ، والحسب القَمقام قال فما قولك فى على — عليه السلام — قالت حاز والله فى الشرف حدا لايوصف وغاية

(١) الحجف — جمع حجفة — الترس من جلد بلا خشب (٢) الزلف الاقدام (٣) الحية الرقشاء المنقطة بسواد وبياض (٤) هر الاسد زأر (٥) لاترقى أي لاتنفع فيها الرقيه

لاتعرف وبالله أسأل أمير المؤمنين اعفانى مما أتخوف . قال قد فعلت وأمر لها بضيعة غلتها عشرة آلاف درهم

الكلمات الخالدة

لما قُتل المفضل بن المهلب دخل ثابت قُطنةَ العَتَكى [1] على هند بنت المهلب ، والناس حولها جلوس يعزونها فأنشدها

ياهند كيف بنُصب بات يبكينى ... وعائر فى سواد الليل يؤذينى [3]
لما حنى الدهر من قوسى وعذرنى ... قاسيت منه أَمَرّ الغاظو اللين [4]
إذا ذكرت أبا غسان أرقنى ... هم إذا عرس السارون يشجينى [5]
كان المفضل عزاً فى ذرايمن ... وعصمة وثمالا فى المساكين
مازلت بعدك فى هم تجيش به ... نفسى وفى نَصَب قد كان يَسلينى
انى تذكرت قَتلَى لو شهدتهم ... فى حومة الموت لم يصلوا بها دونى
لاخير فى العيش إن لم أجن بعدهم ... حربا تنىء بهم قتلى فيشفونى

فقالت له هند : اجلس يا ثابت ، فقد قضيت الحق ، وما من المَرزِئَةِ [6] بدّ ، وكم من ميتة ميت أشرف من حياة حى ، وليست المصيبة فى قتل من استُشهد ذاباً عن دينه ، مطيعاً لربه ، وانما المصيبة فيمن قلت بصيرته ، وخمل ذكره بعد موته ، وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملا [7]

(١) ثابت قطنة : هو ثابت بن كعب العتكى الشاعر الكاتب البطل الكريم . وانما لقب بقطنة لان سهما أصابه فى إحدى عينيه فذهب بها فى بعض حروب الترك فكان يغشيها بقطنة . وكان فى صحابة يزيد ابن المهلب وكان يوليه بعض الثغور فيحمد فيها الكتابته وشجاعته
أما هند فابنة المهلب بن أبى صفرة أعظم نساء عصرها نفساً وأذكاهن قلباً وأشجعهن أبا . زوجت من الحجاج بن يوسف وكانت أكرم أزواجه عليه وأحبهن اليه
(٢) النصب الداء أو البلاء — والعائر كل ما أعل العين أو هو الرمد أو القذى يصيب العين (٣) يريد بهجود الاصداء سكون الاصوات والسليم اللديغ (٤) عذر الدار طمس آثارها ومنه استعار سوء حاله وأدبار الدهر به (٥) أبو غسان كنية المفضل والسارون السائرون ليلا وعرسوا نزلوا في آخر الليل (٦) المرزئة المصيبة (٧) الاغانى ج ١٣ طبع الساسي

﴿ قوة الحجة وحسن البيان ﴾

كانت أم جعفر بن يحيى — وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قَحْطَبَة — أرضعت الرشيد مع جعفر ، لانه كان رَبِى في حَجْرها ، وغَذِىَ بِرِسْلها ، لان أمه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهرا لاكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو فى كفالتها ان لايحجبها ، ولا استشفعته لأحد الا شَفَّعها ، وآلت أم جعفر أن لادخلت عليه الا مأذونا لها ، ولا شفعت لاحد مقترف ذنبا . قال سهل بن هرون فكم أسير فكت ، ومهم عنده فرجت ، ومستغلق فتحت .

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر ، وقذف بزوجها وبقية أسرتها فى غياهب السجن بعد ايقاعه بالبرامكة - طلبت الاذن عليه فى دار البانوقة ، ومتّت بوسائلها اليه ، فلم يأذن لها ، ولا أمر بشىء فيها . فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها ، محتفية [1] فى مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظِئْر [2] أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شمائة الحاسد الى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك ياعبد الملك ! أوَ ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية ! قال : أدخلها ياعبد الملك ، فرب كَبِدٍ غذتها ، وكُرْبة فرجتها ، وعورة سترتها ، قال سهل : فما شككت يومئذ فى النجاة بِطِلاَبها ، واسعافها بحاجتها ، فدخلت ؛ فلما نظر الرشيد اليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس ، وأكب على تقبيل رأسها ،

(١) محتفية أي حافية (٢) الظئر العاطفة على ولد غيرها المرضعة له

ومواضع ثدييها ، ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين ! أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفا لك الأعوان ، ويحردك بنا البهتان [1] وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الامان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فآيسنى من رأفته تركه لكنيتها آخراً ما أطمعنى من بره بها أولا [2] قالت : ظِئْرُك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته ، واشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف فى شأن موسى أخيه [3] قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق ، وقضاء حُمّ ، وغضب من الله نفذ . قالت : يا أمير المؤمنين يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَاب . قال : صدقت ! فهذا مما لم يمحه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد مليا ثم قال

واذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لاتنفع

فقالت بغير روية : ما انا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين . فأطرق هارون مليا ثم قال يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد ... اليه بوجه آخر الدهر تُقْبِل

فقالت يا أمير المؤمنين وأنا أقول

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينك فانظر أى كف تَبَدَّل

قال هرون : رضيت . قالت فهبه لى ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) الحرد الغضب والبهتان الزور (٢) يريد أن تركه ندامها بأم جعفر آيسه مما طمع فيه من العفو عن آلها

من ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقده فأكب هرون ملياً ثم رفع رأسه يقول لِلّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . قالت يا أمير المؤمنين ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، واذكر يا أمير المؤمنين أليتك ما استشفعت إلاّ شفعتني . قال : واذكري يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً . قال سهل : فلما رأته صرح بمنعها ، ولاذعن طلبها ، أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعته بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلا من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه فدعمست جميع ذلك في المسك . فقالت : يا أمير المؤمنين استشفع اليك ، واستعين بالله عليك ، وبما صار معي من كريم حسدك ، وطيب جوارحك ، ليحي عبدك ، فأخذ هارون ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير الى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها : لَحَسَنٌ ما حفظت الوديعة ، قالت وأهل للمكافأة أنت . فسكت وأقفل الحق ودفعه اليها . وقال إنَّ اللهَ يأمرُكم أنْ تؤدُّوا الامانات إلى أهْلِها . قالت : والله يقول وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ويقول : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ثم قال وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لي به أن لا تحجبني ولا تمهنني قال : يا أم الرشيد أتشريه مُحَكَّمَة فيه ؟ قالت : أنصفت ، وقد فعلت غير مستقيلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت برضاك عمن لا يُسْخِطك . قال يا أم الرشيد أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى ! أنت أعز عَلَيَّ ، وهم أحب الى . قال : فتحكمي في ثمنه بغيرهم . قالت : بلى قد وهبتكه وجعلتك في حل منه وقامت عنه ، وبقي مبهوتا ما يجير لفظة . قال سهل :

وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عَبرة ، ولا سمعت لها أنَّة [1]

﴿ بين القبور ﴾

١

لما توفي أبو بكر رضي الله عنه قامت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها على قبره فقالت :

نَضَّر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مُذلاً بأدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بأقبالك عليها ، وان كان لَأَجَلُّ الأرزاء بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رُزْؤُك ، وأكثر المصائب فقدك . وان كتاب الله ليعد بجميل العزاء فيك ، وحسن العوض منك . فأتَنَجَّز من الله موعده فيك ، بالصبر عنك ، واستخلصه بالاستغفار لك [2]

٢

توفي الاحنف في دار عبد الله بن أبي العُصَيْفِير بالكوفة ، وكان مُصْعَب بن الزُّبير إذ ذاك أميراً على الكوفة من قبل أخيه عبد الله بن الزبير ، فشيع مصعب جنازة الأحنف ، فخرج مُتَسَلِّباً [3] في قميص بغير رداء — وكانت الامراء تفعل ذلك بالسيد إذا مات — فلما دفن الاحنف أقبلت صَفِيَّة بنت هشام المِنْقَرِيَّة على نجيب [4] لها متخصرة [5] وكانت بنت عم الاحنف — حتى وقفت على قبره فقالت

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨ — ٢٩ (٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦٧ (٣) تسلب لبث ثياب الحداد (٤) النجيب البعير أو الفرس الكريم العتيق (٥) متخصرة واضعة يدها في خاصرتها

لله دَرُّك من مُجَنٍّ فى جَنّ[1] ومدرج فى كفن . إنا لله وإنا إليه راجعون جعل الله سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك . أما والذى أسأله أن يفسح لك فى مدخلك ، وأن يبارك لك فى محشرك ، ووالذى كنت من أجله فى عِدَّة ، ومن كتابه فى مدة ، ومن الأثرة الى نهاية ، ومن المضمار الى غاية لقد كنت صحيح الاديم ، منيع[2] الحريم ، عظيم السلم ، فاضل الحلم ، وارى الزِّناد ، رفيع العماد ، وان كنت لَمُسَوَّدا ، والى الملوك لموفدا ، وفى المحافل شريفاً ، وعلى الارامل عطوفا ، وكانت الملوك لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين ، ولقد عشت حميداً ودوداً ، ومت شهيداً فقيداً

ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت عباد الله : أن أولياء الله فى بلاده ، شُهُود على عباده ، وانا لقائلون حقاً ، ومثنون صدقا ، وهو أهل لطيب الثناء . فعليه رحمة الله وبركاته . وما مثلُهُ فى النامن الا كما قال الشاعر فى قيس بن عاصم

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما
سلام امرئ أودعته منك نعمة اذا زار عن شحط بلادك سَلَّما

قال فتعجب الناس من كلامها وقال فصحاؤهم تالله ما رأيا كاليوم قط ، ولا سمعنا أفصح ولا أبلغ من هذه . قال فبعث اليها مصعب بن الزبير نخطبها على نفسه فأبت عليه . فما زال يتعهدها ببره حتى قتل .[3]

(١) مجن مدفون والجن القبر (٢) تريد بالاديم العرض (٣) بلاغات النساء ص٥٥—٥٦

٣

حدث الأصمعى قال :

دَفَعتُ يوما فى تَمْشِي بالبادية إلى وادٍ خَلاءٍ لا أنيس به إلا بَيتٌ مُعْتَنِزٌ[1] بفنائه أَعْنُزٌ ، وقد ظَمِئْتُ ، فيمَّمته ، فسلَّمت ، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخِمٍ[2] فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو لبَنٌ ؟ فقلت ما كانت بِغْيتى إلا الماء فاذا يسر اللهُ اللبن فانى إليه فقير .

فقامت إلى قعَب[3] فأفرغت فيه ماء ، ونظفت غسله ، ثم جاءت الى الأَعْنُز فتغبَّرهُنَّ[4] حتى احتلبت قُرَابَ مِلْءِ القَعْب ، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا[5] وطفت ثُمالته[6] كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تَحَبَّبْتُ[7] رِيًّا واطمأننت ، فقلت إنى أراك معتنزة فى هذا الوادى الموحش والحلَّة[8] منكِ قريب ! فلو انضممت إلى جَنابهم[9] ، فأنست بهم ؟

فقالت يا ابن أخى : انى لآنس بالوَحشة ، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمئن قلبى إلى هذا الوادى الموحِش فأتذكَّر مَنْ عهدت ، فكانى أخاطب أعيانهم ، وأترائى أشباحهم ، وتتخيَّل لى أندية رجالهم ، وملاعب وُلدانهم ، ومُندَّى[10] أموالهم ، والله يا ابنَ أخى لقد رأيت هذا الوادى بشَمِ اللَّدِيدين[11] باهل أدواح[12] وقباب ، ونَعَمٍ كالهضاب ، وخيل كالذِّئاب ، وفتيان كالرماح

(١) المعتنز المنفرد (٢) الراخم التى تحضن بيضها (٣) القعب قدح فوق الصعر ويشبه الحافر في هيئته (٤) تغبرتهن احتلبت الغبر — بضم الغين وسكون الباء — وهي بقية اللبن في الضرع (٥) رغا علت رغوته (٦) الثمالة الرغوة (٧) تحببت أي امتلأت (٨) الحلال جماعات لناس وواحدها حلة (٩) الجناب فناء الدار (١٠) المندي المكان الذي يندي فيه المال أي يجمع (١١) بشم ملان واللديدان الجانبان (١٢) الادواح جمع دوحة والدوحة الشجرة العظيمة

يبارون الرياح، ويحمون الصِّباح ، فأحال عليهم الجلاءُ قَمَّاً [١] بغرفة . فأصبحت الآثار دراسة ، والمحالُّ طامسة ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به . ثم قالت : ارم بعينك فى هذا الملا المتباطن [٢] فنظرت فاذا قبور نحو أربعين أو خمسين فقالت : ألا ترى تلك الاجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما انطوت إلا على أخ ، أو ابن أخ ، أو عم ، أو ابن عم ، فأصبحوا قد المَأَت [٣] عليهم الارض ، وأنا أترقب ماغالهم . انصرف راشداً رحمك الله [٤]

﴿ بين الرجاء والدعاء ﴾

١

وقفت امرأة من هوازن على عبد الرحمن بن أبى بكرة فقالت : أصلحك الله ، أقبلت من أرض شاسعة ، ترفعنى رافعة ، وتخفضنى خافضة [٥] بمُلِحَّاتٍ [٦] من البلاد ، ومِلَمَّات من الدهور ، برين عظمى ، واذهبن لحمى ، وتركننى والها ، وانزلنني إلى الحضيض ، وقد ضاق بى البلد العريض ، لا عشيرة تحمينى ، ولا حميم يكنفنى ، فسألت فى أحياء العرب مَنِ المرجو سيبه ، المأمون غيبه ، المكفى سائله ، الكريمة شمائله ، المأمول نائله ، فارشدت اليك . وأنا امرأة من هوازن ، مات الوافد ، وغاب الرَّافد [٧] ومثلك من سد الخَلة [٨] وفك

---

(١) قما أي كنسا (٢) الملا الفضاء والمتباطن المتطامن (٣) المأت عليهم احتوت عليهم (٤) أمالى القالى ج ٢ ص ٧ طبع بولاق (٥) تريد بالرافعة المرتفع من الارض وبالخافضة الوهاد منها (٦) يريد بالملحات الشديدة الضيق (٧) الرافد المعطى (٨) الخلة الحاجة والفقر

الغلَّة، فاصنع إحدى ثلاث . إما أن تقيم من أَوَدِى [١] أو تحسن صَفَدى [٢] أو تردنى إلى بلدي . قال : بل أجمهن لك وحُبًّا

٢

خرج المهدى يطوف بعد هدأة من الليل ، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهى تقول : قوم مبطلون ، نَبت عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وعَضَّتهم السِّنون . بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق [٣] وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم . فهل من امرىء يجبرهم ؟ كلأه الله فى سفره ، وخلفه فى أهله

فأمر نضيرا الخادم فدفع اليها خمسمائة درهم

٣

لما قدم ابراهيم بن محمد المدينة أتته عجوز من ولد الحارث بن عبد المطلب فشكت اليه ضنك المعيشة ، فقال : مايحضرنى الكثير ، ولا أرضى لك بالقليل وأنا على ظهر سفر ، فاقبلى ماحضر ، وتفضلى بالعذر . ثم دعا مولى له فقال ادفع اليها مابقى من نفقتنا ، وخذى هذا العبد والبعير . فقالت بأبى أنت

---

(١) أصل الاود العوج وتريد به هنا الحاجة (٢) الصفد العطاء (٣) النضو المهزول وجمعه أنضاء

وأمى : أجزل الله فى الآخرة أجرك ، وأعلى فى الدنيا كعبك ، وغفر لك يوم الحساب ذنبك ، فانت والله كما قالت أم جميل بنت أمية

زين العشيرة كلها ... فى البدو منها والحضر
ورئيسها فى النائبا ... ت وفى الرحال وفى السفر
ورث المكارم كلها ... وعلا على كل البشر
ضخم الدسيعة ماجد ... يعطى الجزيل بلا كدر

٤

خرجت اعرابية الى مِنًى فقطع بها الطريق فقالت : يارب أخذت وأعطيت ، وأنعمت وسلبت ، وكل ذلك منك عدل وفضل . والذى عَظَّمَ على الخلائق أمرك ، لابسطت لسانى بمسئلة أحد غيرك ، ولا بذلت رغبتى الا اليك ، ياقرة أعين السائلين ، اغننى بجود منك أتبحبح فى فراديس نعمته ، وأتقلب فى رواق نضرته ، واحملنى من الرّجلة ، وأغننى من العَيْلة واسدل علىّ سترك الذى لاتمزقه الرماح ، ولا تزيله الرياح ، انك سميع الدعاء

﴿ الكلم القصار ﴾

١ — دخلت امرأة من بنى أمية على عبد الله بن علىّ بالشام فبكت فقال لم تبكين ؟ أجزعا على أهلك على ما أصابهم ؟ قالت لا ، ولكنه ما كان يوم سرور ألا وهو رهن بيوم مكروه ، وما امتلأت دار حَبْرَة الا امتلأت عَبرة

٢ — قيل لِحُبَّى المدنية : ما الجرح الذى لايندمل ؟ قالت حاجة الكريم الى اللئيم ثم لايجدى عليه . قيل لها فما الشرف . قالت : اعتقاد المنة فى أعناق الرجال تبقى للاعقاب

٣ — قيل لأعرابيه مات ابنها ما أحسن عزاءك . قالت : إن فقدى اياه آمننى كل فقد سواه . وان مصيبتى به هونت على المصائب بعده . ثم أنشأت تقول

كنت السواد لناظرى ... فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر
ليت المنازل والديا ... ر حفائر ومقابر
انى وغيرى لا محا ... لة حيث صرت لصائر

٤ — حدث اسحاق الموصلى عن رجل من أهل المدينة . قال : كنت فى جنازة عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب واذا امرأة تقول واحرّاه عليك ! فسألت عنها ، فقالوا هذه أمه ، فدنوت منها ، فقلت يا أم عبدالله ، ان عبد الله كان بعض البشر . فقالت : ان عبد الله كان ظهرا فانكسر وأصبح أجراً ينتظر ، وإن فى ثواب الله لعزاء عن القليل ، وجزاء على الكثير

٥ — كانت هند بنت المهلب تقول إذا رأيتم النعم مستدرّة فبادروا بالشكر قبل الزوال

٦ — دعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة فقالت :

كان الله صاحبك فى أمرك ، وولى نجح طلبتك ، امْضِ مصاحباً مكلوأً ، لا أشمت الله بك عدواً ، ولا أرى محبيك فيك سوءاً

٧ — وقفت أعرابية فقالت : ياقوم سنة جردت ، وأيد جمدت ، وحال اجهدت ، فهل من فاعل لخير ، وآمر بمَيْر . رحم الله من رحم فأقرض من لم يظلم

٨ — رأت عائشة أم المؤمنين رجلا متماوتا فقالت : ما هذا ؟ فقالوا زاهد قالت : كان عمر بن الخطاب زاهداً وكان اذا قال اسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب فى ذات الله أوجع

٩ — قال رجل لولادة العبدية : وكانت كاعقل النساء ، إنى أريد الحج فأوصيني . قالت : أأوجز فأبلغ ، أم أطيل فأحكم . فقال : بما شئت . قال : جد تسد ، واصبر تفز قال أيضاً . قالت : لا يتعد غضبك حلمك ، ولا هواك علمك ، وفِرْ دينك بدنياك ، ووفر عرضك بعَرَضك ، وتفضّل تخدم ، واحلم تُقدّم . قلت : فمن استعين ؟ قالت : إن قلت من الناس . قلت : الجلد النشيط ، والناصح الأمين . قال : فمن استشير ؟ قالت : المجرب الكيس ، او الأديب ولو الصغير قال : فمن استصحب ؟ قالت : الصديق الملم ، أو المداجى المتكرم . ثم قالت : يا ابناه إنك تفد على ملك الملوك فانظر كيف يكون مقامك بين يديه

قالت أعرابية لابنها : أى بنى إن سؤالك الناس مافى أيديهم ، من أشد الافتقار اليهم ، ومن افتقرت اليه هُنْت عليه ، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل وترغب . فاذا الحت عليك الحاجة ولزمك سوء الحال فاجعل سؤالك إلى من إليه حاجه السائل والمسئول

١١ — مات لاعرابية ميت فغمضة وترحمت عليه ثم قالت : ما أحق من

ألبس العافية ، وأطيلت له النَّظِرَةُ ألا يعجز عن النظر لنفسه ، قبل الحلول بساحته والحيال بينه وبين نفسه

١٢ — قالت هند بنت عتبة : المرأة غُل ، ولا بد للعنق منه . فانظر من تضعه فى عنقك

١٣ — نظرت أعرابية إلى امرأة حولها عشرة من بنيها كأنهم الصقور فقالت : لقد ولدت أمكم حزنا طويلا

١٤ — بلغ عائشةَ بنت عاثم [1] ثلب معاوية وعمرو بن العاص لبنى هاشم . فقالت لاهل مكة :

أيها الناس : أن بنى هاشم سادت فجادت ، ومَلَكَتْ ومُلِّكَتْ ، وفَضَلت وفُضِّلت ، واصطفت واصطُفيت ، ليس فيها كدر عيب ، ولا أفك ريب ، ولا خسروا طاغين ، ولا خازين ، ولا نادمين ، ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين

لما ذهب صالح بن على إلى الشام من قبل السفّاح سيق اليه نساء بنى أمية وبناتهم ، فلما دخلن عليه تكلمت بنت لمروان فسلمت عليه بالخلافة . فقال : لست بالخليفة ، ولكنى عمه . فقالت ياعمّ أمير أمير المؤمنين : حفظ الله من أمرك ما تحب أن يحفظه ، وخصك فى الامور كلها بخواص كرامته ، وعمك بالعافية المُجَلِّلة فى الدنيا والآخرة ، نحن بناتك وبنات أخيك ، فليَسَعْنا عدلك ، قال : إذ لا يستبق منكم آلُ البيت أحداً ، رجلا ولا امرأة . ألم يقتل أبوك

(١) هي إحدى حكيمات العرب المعمرات روى الجاحظ أنها كانت تعد في العهد النبوي أربعمائة عام

بالامس أخى الامام فى محبس حران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على وصلبه وأمر بقتل امرأته فقتلها يوسف بن عمر صبراً ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد بخراسان وأحرق خشبته وجثته ؟ فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ قالت : قد ظفرتم فَلْيَسَعْنا عفوكم قال : أما هذا فنعم. قد عفونا عنكم

١٧ — دخلت ليلى الاخيلية على الحجاج بن يوسف فسألها عن نسبها فانتسبت اليه. فقال لها ياليلى ما أتى بك ؟ فقالت : إخلاف النجوم ، وقلة الغيوم وكَابَ البَرْد [١] وشدة الجهد [٢] وكنت لنا بعد الله الرِّفد [٣] فقال لها : صفي الفجاج . فقالت : الفجاج [٤] مُغبَرَّة ، والارض مُقْشعِرّة . [٥] والمنزل معتل ، وذو العيال مختل ، والهالك المقِل ، والناس مسنتون [٦] رحمةَ الله يرجون ، وأصابتنا سنة مجحفة مبطلة [٧] لم تدع لنا هيْعاً [٨] ولا ريْعاً [٩] ولا عافطة [١٠] ولانافطة [١١] أذهبت الاموال، وفرقت الرجال، وأهلكت العيال

١٨ — أُسِرت أم علقمة الخارجية واتى بها إلى الحجاج فقيل لها واقفيه فى المذهب فقد يظهر الشرك بالمكر . فقالت قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين فقال لها قد خبطت الناس بسيفك ياعدوة الله خبط العشواء . فقالت : لقد خفت الله خوفاً صيرك فى عينى أصغر من ذباب — وكانت منكسة — فقال : ارفعى رأسك وانظرى إلى . فقالت أكره أن أنظر إلى من لاينظر الله اليه، فقتلها

١٩ — كانت اسماء بنت أبى بكر تقول لبناتها ونساء آلها أنفقن وتصدقن

(١) الكلب الشدة (٢) الجهد المشقة (٣) الرفد العطاء (٤) الفجاج جمع فج — الطرق الواسعة بين الجبال (٥) مقشعرة مجدبة (٦) مسنتون مجدبون (٧) مبطلة مضيعة (٨) الهيع الصوت وتريد به صوت الماشية (٩) الريع فضل كل شيء (١٠) العافطة العنز (١١) النافطة القدر يقال نفطت القدر إذا غلت

ولا تنتظرن الفضل، فأنكن ان انتظرتن الفضل لم تفضلن شيئاً، وان تصدقتن لم تجدن فقده

٢٠ — وقدم اليها ولدها المنذر بن الزبير من العراق بثياب رقاق عتاق [١] بعدما كف بصرها فامستها بيدها ثم قالت : ردوا عليه كسوته فشق ذلك عليه وقالت ياأُمَّه انها لا تَشِفُّ [٢] فقالت إن لم تشف فانها تصف [٣]

(١) العتاق جمع عتيق وهو الحسن من كل شيء (٢) يريد لايتم عن الجسم (٣) تريد أنها تفصل الجسم تفصيلا

﴿عيون من الشعر﴾

الحنين الى الوطن

١ — قالت فتاة أعرابية احتملها زوجها الى مكان قصى

ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائكم هل سال نَعْمانُ[1] بعدنا وحُبّ الينا بطن نعمان واديا
فان به ظلا ظليلا ومشربا به نُقِع القلب الذى كان صاديا[2]

٢ — تزوج رجل من تِهامة امرأة من نجد ، فلما نقلها اليه قالت مافعلت ريح من نجد كانت تأتينا يقال لها الصَّبَا ؟ مارأيتها ههنا ؛ فقال يحجزها عنا هذان الجبلان ، فأنشأت تقول

أيا جَبَلَىْ نعمان بالله خليا نسيم الصَّبا يخلص الىّ نسيمها
فان الصبا ريح اذا ماتنفست على قلب محزون تجلت همومها
أجدبَرْدها أو يشف منى حرارة على كبد لم يبق الا صميمها[3]

٣ — وقال حفص بن الاروع الطائى كنت أسيراً فى بلاد طىء فاذا بجارية تسوق عنزاً ، فقلت ياجارية أى البلاد أحب اليك ؟ فقالت

أَحَبُّ بِلاَد الله مابين مَنْعِجٍ الىَّ وسلمى أن يصوب سحابها[4]
بلاد بها حل الشباب تمائمى وأول أرض مَسَّ جلدى ترابها[5]

(١) نعمان اسم لخمسة أودية أحدها وراء عرفة (٢) بلاغات النساء ص ١٩٩ (٣) أخبار النساء ص ٩ (٤) منعج وسلمى موطنان من مواطن نجد وصابا السحاب انصب تريد أن أحب المواطن اليها مابين هذين المكانين وهى ترجو أن تعشب أرضها مما يصوب سحابها (٥) محاضرات الادباء ج ٢ ص ٢٧٥

٤ — وتزوج رجل من حُجْر بامرأة من تميم ، فلما احتملها اليها قالت

لقد كنت عن حجر بعيدا فساقنى صروف النوى والسابقات الى حجر
يقولون فرش من حرير وانما أرى فرشهم عندى كحامية الجمر

٥ — وقالت اعرابية مرضت بعيداً عن بلدها

خليلىَّ ان حانت بحربة مِيتَتِي واز معتما ان تجعلا لى بها قبرا
الا فاقرآ منى السلام على قَنًا وحَرَّةِ ليلى لا قليلا ولا نزرا
سلام الذى قد ظن ان لس رائياً رَماصاولا من حَرَّتَيْهِ ذُرًى خُضْرا[1]

﴿عهد الطفولة﴾

قالت فتاة تتغنى بأيام طفولتها

ألا لا أبالى اليوم مادمتُ جاريا[2] وما دمت أسعى لا أبالى أزاريا
وما دمت أسعى بين أم عزيزة وبين أب بَرّ يحب جَماليا
اذا عصبوا بُرْدِى بشُقَّةِ بردهم وقيل اقعدِنْ فى البيت يُخْلَط ذاليا
ومر جوازى الحى من كل وجهة لأعب إن اللعب كان شفائيا[3]

(١) حربة وقنا وحرة ليلى مواطن من نجد ورماص واد من أوديتها والحرة الارض الصلبة السوداء بلاغات النساء ص ١٩٨ (٢) جاريا ترخيم جارية وهى الحدثة السن (٣) بلاغات النساء ص ١٩٨

﴿ فى البكاء ﴾

بكاء الأبناء

كان معاوية قد أرسل قائدَه الطاغية بُسْرَ بن أَرطاة مغيرا على اليمن . — وكانت فى حوزة علىّ عليه السلام — ففر من وجهه أميرها عبيد الله بن العباس فلم يجد السفاح غير طفلين له، فعمد اليهما فذبحهما، وترك أمهما ذاهلة اللب، مخطوفة القلب، تهيم فى كل واد، وتغشى كل مجتمع وناد، وتتغنى بما يثير الحسرات ويسيل العبرات . ومن قولها فيهما

ألا يامن سبى الأخوي ... ن امُّهما هى الثّكلَى
تسائل من رأى ابنيها ... وتستسقى فما تُسقَى
فاما استيأست رجعت ... بِعَبْرة وَالِهٍ حَرَّى
تتابع بين وَلْوَلةٍ ... وبين مدامع تَترى

وكذلك قالت

يامن أحسن بِابْنَىَّ اللّذَيْن هما ... كالدُّرَّتين تَشَظّى عنهما الصَّدَف [1]
يامن أحسن بابني اللذين هما ... سمعى وقلبى فقلبى اليومَ مُزْدَهَفُ
يامن أحسن بابنى اللذين هما ... مخّ العظام فمخى اليوم مُخْتَطَفُ
نُبِّئْت بُسرا وما صدّقت ما زعموا ... من قولهم ومن الأفكِ الذى اقترفوا
انحى على وَدَجَىْ [2] طفلىّ مُرْهَفَةً ... مشحوذةً وكذاك الأفكُ يفترف

(١) تشظى انكشف (٢) الودجان عرقا العنق

مَن دل والهـة حرى مُوَلَّهة ... على حبيبين صلا اذ غدا السلف [1]

ووقفت اعرابية على قبر ابن لها يدعى عامراً فقالت

أقمت أبكيه على قبره ... من لى من بعدك ياعامر
تركتنى فى الدار ذا وحشة ... قد ذل من ليس له ناصر [2]

وقالت زبيدة ابنة جعفر ترثى ولدها الأمين

أودى بالفين من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك اليأسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا
فبت مكتئباً أرعى النجوم له ... أخال سنته بالليل قرطاسا
رُزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر آساسا
فليس من مات مردوداً لنا أبداً ... حتى يرد علينا قبله ناسا

وقالت أعرابية تندب ابنا لها

أبُنىَّ غيبك المحل الملحد ... إمَّا بَعِدْتَ فأيْنَ من لا يَبْعَدُ
أنت الذى فى كل ممسى ليلة ... تَبلى وحزنك فى الحشا يتجدد

وقالت فيه

لئن كنت لهواً للعيون وقرة ... لقد صرت سقما للقلوب الصحائح
وهون حزني أن يومك مُدْرِكى ... وأنى غداً من أهل تلك الضرائح [3]

(١) الاغانى ج ١٥ ص٤٣ — ٤٥ (٢) العقد الفريد ج ٢ ص١٤ (٣) العقد الفريد ج ٢ ص١٤

﴿ بكاء الآباء ﴾

قالت امرأة من بنى شيبان قتل أبوها ورجال من أسرتها مع الضحاك الحَرُورِى

من لقلب شفه الحزن ولنفس مالها سَكَنُ
ظعن الابرار فانقلبوا خيرهم من معشر ظعنوا
معشر قضوا نحوبهم كل ما قد قدموا حسن
صبروا عند السيوف فلم يَنْكلوا عنها ولا جَبُنُوا
فتيـة باعوا نفوسهم لا ورب البيت ماغُبِنُوا
فأصاب القوم ما طلبوا مِنَّةٌ مابعدها منن

وقالت أروى بنت الحُبَاب ترثي أباها

قل للأرامل واليتامى قد ثوى فلتبك أعينها لفقد حُبَاب
أودى أبن كل مخاطر بتلاده وبنفسه بُقْيا على الاحساب
الراكبين من الأمور صدورها لا يركبون معاقد الأذناب[1]

وقالت فاطمة بنت رسول الله تبكى أباها صلى الله عليه وسلم

انا فقدناك فَقْدَ الأرض وابلَها وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعيت وحالت دونك الكُثُبُ

(١) حماسة البحتري

﴿ بكاء الاخوة ﴾

قالت ليلى بنت طريف التغلبية ترثى أخاها الوليد بن طريف

بتـل نُبَانَى[1] رسم قبر كأنه على جبـل فوق الجبال منيف
تضـمن جودا حاتميا ونائـلا وسَوْرَة مقـدام ورأى حصيف
الا قاتل الله الحَشَى كيف أضمرت فتى كان للمعروف غير عَيُوفِ[2]
فَإلاّ تجبنى دِمْنَـةٌ هى دونه فقد طال تسليمى وطال وقوفى
وقد علمَت ان لا ضعيفاً تضمنت اذا عظم المَرْزَى ولا ابنَ ضعيف[3]
فتى لايلوم السيف حين يهزه على ما اختلى من مِعصم وصَلِيفِ[4]
فتى لم يحب الزاد إلا من التقى ولا المـال الا من قنا وسـيوف
ولا الخيل ألا كل جَرْداءَ شَطْبَةٍ وأجود عالى المنسجَينِ غَروفِ[5]
فقدناه فِقدان الربيع وليتنا فـديناه من فتياتنا بألوف
وما زال حتى أرهق الموتُ نفسه شـجا لعـدو أو لجَأ لضَعيف
حليفُ النَّدى ان عاش يرضى به الندى وإن مات لايرضى الندى بحليف
فان يك أرداه يَزيدُ بن مِزْيَدٍ فرب زُحُوف فضَّها بزحوف
فياشـجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريف
ألا يالقومى للنوائب والردى ودهر مُلِحٍّ بالكرام عنيف

(١) نباتى موطن بالبصرة (٢) الحشي موضع بقرب المدينة وآخر بالعراق وعيوف من عاف الشيء كرهه (٣) المرزي المصاب (٤) الصليف عرض العنق (٥) الجرداء والاجرد من الخيل مالاشعر فيه و لشطبة الفرس الطويلة الحسنة ومنسجا الفرس جانباه والغروف السريع

وللبدر من بين الكواكب اذهوى ... وللشمس همت بعده بكسوف
وللّيث فوق النعش إذ يحملونه ... الى حفرة ملحودة وسقوف
بكت تَغلِبُ الغَلْبَاء يوم وفاته ... وأبرز منها كل ذات نصيف
يقلن وقد أبرزن بعدك للورى ... معاتدَ حَلْيٍ من بُرى وشُنُوفِ (١)
كأنك لم تشهد مصاعاً ولم تقم ... مقاما على الاعداء غَدْوَ خَفِيف (٢)
ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة ... ولم تبدُ فى خضراء ذات رفيف (٣)
عليك سلام الله وقفا فأننى ... أرى الموت وقاعا بكل شريف (٤)

وقالت كذلك تبكيه :

ذكرت الوليد وأيامه ... إذا الارض من شخصه يَلقعُ
فأقبلت أطلبه فى السماء ... كما يبتغى أنفَه الاجدعُ
أضاعك قومك فلينظروا ... إفادة مثل الذى ضيعوا
لو أن السيوف التى حدُّها ... أصابك تعلم ما تصنع
نبت عنك أو جَعَلتْ هيبة ... وخوفاً لِصولك لاتقطع

وقالت عَمْرَة بنت مرداس ـ وهى ابنة الخنساء ـ ترثى أخاها

أعينىَّ لم أختِلْكُما بخيانة ... أبَى الدهر والايام أن أتصبرا
وما كنت أخشى أن اكون كانى ... بعير إذا يُنعى أخىَّ تحسرا
ترى الخصم زُوراً عن أخىَّ مهابة ... وليس الجليس عن أخىَّ بأزورا (٥)

وقالت امرأة ترثى اخوتها

دُعوا المجد إلى أكنافاً إلى بلد ... حتى إذا أكملت أظماؤهم وردوا

(١) معاند الشيء أتقه (٢) المصاع الموقعة من المصع وهو الضرب بالسيف (٣) الخضراء الدرع والرفيف اللمعان (٤) حماسة البحتري ص ٢٧٦ (٥) زور جمع أزور أي منحرفين بلاغات النساء ص ١٩٦

مينت بمصر وميت بالعراق وميـــت بالحجاز منايا بينهم بَدَدُ
كانت لهم همم فرقن بينهـم ... إذا القعاد دعن أمثالها قعدوا (١)
بذل الجميل وتفريج الجليل واعـــطاء الجزيل اذا لم يعطه أحد (٢)

﴿ رثاء الازواج ﴾

قال الأصمعى

دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال، وعليها من الحلى والحال مالم أر مثله، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى فالتفتُّ الى صاحبى فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال لا والله لا أحسبنى أراه، ثم قلت لها ياهذه أنى أراك حزينة وما عليك زِىُّ الحزن ؟ فأنشأت تقول :

فإن تسألانى فيم حزنى فأننى ... رهينة هـذا القبر يافتيان
وأنى لأستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحييه حين يرانى
أهابك أجلالا وإن كنت فى الثرى ... مخافة يوماً أن يسوءك لسانى

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول .

ياصاحب القبر يامن كان ينعم بى ... بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حَلْيٍ وفى حلل ... كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه ... أن قد تسربه فى بعض هيئاتى

(١) القعاد جمع قعدد — بضم القاف والدال — الجبناء (٢) حماسة البحتري ص ٧٤

فمن رآنى رأى عَبرَى مُوَلَّهة عجيبة الزى تبكى بين أموات [1]

وقالت عاتكة بنت زيد ترثى زوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه

من لنفس عادها أحزانها ولعين شفّها طول السَّهَد
جَسدٌ لُفَّ فى أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد
فيه تفجيع لمولىً غارم لم يَدَعه اليوم يمشى بسَبَد [1]

وقالت فيه

وفَجَعَنى فيروز لا در دره بأبيض تال للكتاب نجيب
رؤوف على الدانى غليظ على العدى أخى ثقة فى النائبات مجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله يريع الى الخيرات غير قطوب

وقال الاصمعى: رأيت بصحراء جارية قد ألصقت خدها بقبر وهى تبكى وتقول

خدِّى يقيك خشونة اللحد وقليلة لك سيدى خدى
ياساكن القبر الذى بوفاته عميت علىَّ مسالك الرشد
اسمع أبثَّك غلتى ولعلنى أطفى بذلك حرقة الوجد [2]

وكان أمير المؤمنين الامين قد عقد على لُبانة بنت رَيْطة بن على فقتل عنها قبل البناء بها، فقالت تبكيه

أبكيك لا للنعيم والأُنُسِ بل للمعالى والرمح والفرس
أبكى على سيد فُجِعت به أرملنى قبل ليلة العرُس
يا فارسا بالعراء مطّرحاً خانته قواده مع الحرس
من للحروب التى تكون بها ان أُضرمت نارها بلا قبس

(١) مختار المرانى ص ١٦٥ طبع بيروت (٢) العقد الفريد ج ٢

من لليتامى أذاهم سغبوا وكل عان وكل محتبس
أمْ مَن لبر أم من لفائدة أم من لذكر الاله فى الغَلَسِ [1]

وقال الاصمعى

خرجت إلى مقابر البصرة فاذا أنا بامرأة على قبر من أجمل النساء وهى تندب صاحبه وتقول:

هل أخبر القبر سائليه أم قر عينا بزائريه
ياجبلا كان ذا امتناع وطود عز لآمليه
يانخلة طلعها نضيد يقرب من كف مُجتنيه
ياموت ماذا أردت منى حققت ما كنت أتقيه
دهر رماني بفقد إلفي أذم دهرى وأشتكيه
آمنك الله كل خوف وكل ما كنت تتقيه
أسكنك الله فى جنان تكون أمناً لساكنيه

قال: فقلت لها يا أمة الله ما هذا منك؟ قالت لو علمت مكانك ما انشدت حرفا! هذا زوجى وسرورى وأنسى. والله لازلت هكذا أبداً أو الحق به [2]

﴿ فى التذمم من الازواج ﴾

قالت امرأة تذكر ضيق صدرها وفرط عنائها من زوجها

يامن يلذ نفسه بعذابى ويرى مقارنتى أشد عذاب

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢ (٢) أخبار النساء ص ٦٩

مهما يلاق الصابرون فانهم ... يُوَفَّوْن أجرَهُمُ بغير حساب
لو كنت من أهل الوفاء وفيت لى ... إن الوفاء حلى أولى الألباب
مازلت فى استعطاف قلبك بالهوى ... كالمرتجى مطراً بغير سحاب
يارحمتى لى فى يديك ورحمتى ... لى منك ياشينا من الأصحاب
ياليتنى من قبل ملكك عصمتى ... أمسيت ملكا فى يد الأعراب
هل لى اليك اساءة جازيتها ... ألا لباسى حلة الآداب[1]

وحدث القالى قال :

كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يحضر طعامه فكتب الى امرأته يعلمها بذلك فكتبت اليه

أيُهدى لى القرطاس والخبز حاجتى ... وأنت على باب الأمير بطين
اذا غبت لم تذكر صديقاً ولم تُقِمْ ... فأنت على مافى يديك ضنين
فأنت ككلب السوء ضيّع أهله ... فيُهزل أهل البيت وهو سمين

﴿ فى الأنفة والاباء ﴾

دخل عبد الملك بن مروان على زوجته عاتكة بنت يزيد فرأى امرأة بدوية — أنكرها فقال لها من أنت؟ قالت أنا الوالهة الحري ليلى الاخيليّة . قال من القائل :

أريقت جفان ابن الخليع فأصبحت ... حياض الندى زالت بهن المراتب
فعُفّاؤها لهفى يطوفون حوله ... كما انقض عرش البئر والورد عاصب

قالت أنا الذى أقول ذلك . قال فما أبقيت لنا . قالت : ما أبقى الله لك: نسباً

(١) بلاغات النساء ص ١٥٤

قُرَشِيًّا، وعيشاً رخياً ، وإمْرَة مطاعة . قالت أفردته بالكرم ! قالت : أفردته بما انفرد به ، فقالت عاتكة لعبد الملك قد جاءت تستعين بنا عليك فى عين تسقيها وتحميها لها ، ولست لِيَزِيد ان شفّعتها فى شىء من حاجاتها لتقديمها اعرابياً حِلْفاً جافياً على أمير المؤمنين ، فوثبت ليلى فجلست على راحلتها وقالت :

ستحملنى ورحلى ذات لَوْثٍ[1] ... عليها بنت آباء كرام
اذا جعلت سواد الشام دونى ... وأغلق دونها باب اللثام
فليس بعائد أبداً اليهم ... ذوو الحاجات فى غلس الظلام
أعاتك لو رأيت غداة بنّا ... سلو النفس عنكم واعتزامى
اذاً لعلمت واستيقنت أنى ... مشيعة ولم ترعى ذمامى
أأجعل مثل توبة فى نداه ... أبا الذبّان فوه الدهر رامى[2]
معاذ الله ماوخدت برحلي ... تغذ السير فى البلد النهامى
أقلت خليفة فسواه أحجى ... بأمرته وأولى بالشآم
لثام الملك حين تُعد كَعْبٌ ... ذووالأخطار والخطَطِ الجسام[3]

---

(١) اللوث القوة (٢) توبة صاحب ليلى وابو الذبان تريد به عبد الملك لانه كان أبخر داي الفم فيسقط عليه الذباب أحياناً (٣) بلاغات النساء ص ١٤٧ والاغانى ج ١٠ ص ٨٢

آخر صفحة

من كتاب العظائم

زبيدة بنت جعفر

هى كوكب السَّحَر فى سماء العظائم ، وآخر السُّوَر من كتاب العزائم ، هى زبيدة بنت جعفر ، حفيدة المنصور ، وزوج الرشيد ، وأم الأمين

نشأت زبيدة فى مهد الدولة العباسية فكانت مهبط الحب وموطن الرعاية من قلوب بنى العباس ، وأخصُّهم فَخْذ أجنّهم وركن دولتهم أبو جعفر المنصور فقد كان يؤثرها بقلبه ويختصها بحبه ، وهو الذى دعاها زبيدة لما رأى من بَضاضتها ونعومتها ، وقد ظهر من إعزازها والمغالاة بها يوم زفها عمها المهدى الى ابنه الرشيد مالا يسع له مجال الخيال

فقد أُلقِيَ عليها من غوالى اللآلئ ما أثقلها وعاق سيرها . بل لقد نثر اللؤلؤ فى جنبات طريقها على البسط الموشية بأسلاك الذهب

وكان لها من قلب الرشيد حِمًى لا يرام . وبرغم من تصدين له من جوارى الفرس ، وما تأنق فيه من حسن مخضوب ، وجمال مجلوب ، وما ابتدعنه من ضروب اللهو ، وفنون الايقاع ، وما امتزن به من خلابة ودعابة — برغم ذلك كله لبثت زبيدة ربة القول والفصل في قلبه وقصره ودولته

أما وفور فضلها ، وسماح يدها ، وعظمة قلبها ، ونفاذ لبها ، ونبل خليقتها ، وصفاء

قريحتها فما سار مسار الأمثال ، وذلك ميراث أمهاتها من عقائل قريش ، وسلائل بنى هاشم

وحديث حجها ، وما ابتنت فيه من عظائم ، وقدمت من مكارم ، حديث لا يدع لقائل قولا ولا لمفتخر سبيلا . فقد بلغ ما بذلت فيما نَوَّلَتْ من بر وما ابتنت فى طريق مكة من مساجد ومنازل ومشارب ألف ألف وسبعمائة ألف دينار وما كان ذلك كله إذا قيس بعين زبيدة شيئاً مذكوراً

وقبل أن نأخذ في القول عن عين زبيدة نقول كلمتنا فى الأمين وماذهب من مقالات السوء عنه ، فرب قائل يقول وأى أثر تركته المرأة العظيمة فى ولدها الخليع ؟!

أستغفر الله : ما كان الأمير خليعاً ، ولا مائقاً ، ولا مارقا ، ولا سرفا فى دينه ودنياه . بل كان شأنه كشأن أبناء النابهات من العرب ، كف نَدِيّة ، وهمه قصية ، وفطنه هاشمية ، وظل فى الفضل ممدود ، وأمد فى النبل غير محدود ، ولكنْ هُمُ المرجفون ، من شيعة المأمون . وقالة السوء من شعوبية الفرس ، ألحقوا به ما ألحقوا ظلماً وزورا لانه اعتصم بالعرب ، وجعلهم حزبه وشيعته ، وترك ماسنه آباؤه من استدناء الفرس ، وابتناء الوسيلة عندهم ، وتفويض الأمر كله اليهم ، فنزعوا الى المأمون ونزع اليهم لما بينه وبينهم من وشيج الرحم وفرط الهوى ، فأثاروها على الخليفة العربى حملة فارسية ، وأجلب بهم المأمون على أخيه فساروا اليه محدّدى الاظافر ، مرهفى الأنياب ، حتى هتكوا عليه داره فذبحوه ، وحملوا

رأسه الى صاحبهم ! فهل رأيت أشد وأشنع من ذلك؟ ! أخ يقتل أخاه ،ويروى نفسه بدمه ،ويحمل رأسه من بغداد الى أعماق بلاد الفرس،ليجعله مسلاة الأعاجم وملهاة الموالى : !

يقولون ان الأمين أسرف فى الشراب ! فاللهم أنهم كذبوا . لقد علموا ان الرشيد حد ابنه المأمون فى الخمر أو ماهو شر منها،[1] فأما الامين فلم يكد يلى أمر المسلمين حتى ارتهن أبا نواس فى سجنه وأطال فيه بلاءه وعناءه ، لأنه لج فى الخمر وأكثر من ذكرها[2]

لعمرى لقد ذل العرب بموت الأمين ذلة تصدع لها ركن الاسلام صدعا لم يجبره المأمون بما اجتلب من علم وأدب ، حتى لقد قال قائلهم

سألونا عن حالنا كيف أنتم ... مَنْ هَوَى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أذلنا حادث الدهـ ... ـر فَطَلْنَا لريبه نستكين
تتمنى من الأمين أيابا ... ليت شعرى وأينَ منا الأمين

وان أعوزتك صفات الأمين ، فاستمع لما قالته فيه لبانه ابنة ريطة « ونحن نعيد شيئاً منه لحاجتنا اليه ونعلم ان الشعراء وان أغرقوا فى الصفات فهم لا يخلقونها :

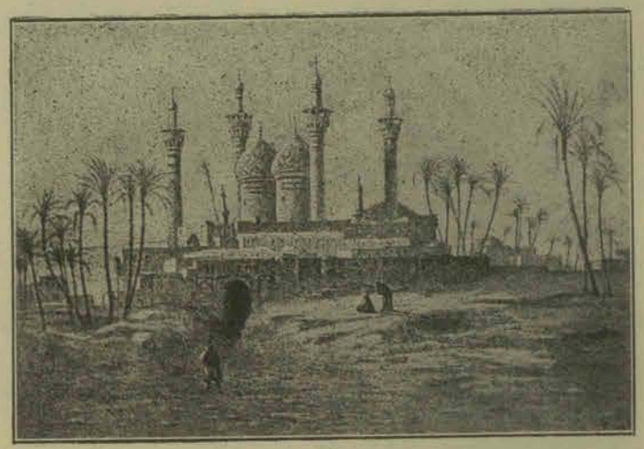
قالت لبانة

أبكيك لا للنعيم والأنُس ... بل للمعالى والرمح والفرس

حتى قالت

من للحروب التى تكون بها ... ان اضرمت نارها بلا قَبَس
من لليتامى اذا هم سغبوا ... وكل عانٍ وكل محتبس

(١) الفخري طبع (شالون) ص ٢٩٢ (٢) ديوان أبى نواس ص ٣٦١



بغداد (ص ٢٣٠)

أم من لِبرّ ام من لفائدة أم من لذكر الاله فى الغلس

وقال أبو نواس في رثائه

أيا أمين الله من للندى وعصمة الضعفى وفك الاسير
خلفتنا بعدك نبكى على دنياك والدين بدمع غزير
ياوليتا بعدك ماذا بنا من ضك صروف الدهور
لاخير للاحياء في عيشهم بعدك والزلفى لأهل القبور

وعلى ذكر الامين وأمه زبيدة نذكر لها وصية أوصت بها على بن عيسى حين خرج للقاء جيش المأمون « ياعلى! أن أمير المؤمنين وإن كان ولدي فانى على عبد الله « المأمون » متعطّفه مشفقة، لما يحدث عليه من مكروه وأذى وانما ولدى ملك نافس أخاه فى سلطانه، فاعرف لعبد الله الاحق ولادته وأُخوّته ولا تَجْبَهْهُ بالكلام فانك لست نظيراً له، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد أو غل، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً، ولا تُعْنِفْ عليه فى السير، ولا تساوه فى المسير، ولا تركب قبله، وخذ بركابه إذا ركب، وان شتمك فاحتمل منه »[1]

فهل عرف المأمون أو بطانته أن يوصوا طاهر بن الحسين بمثل هذا :

ونعود إلى ما نوهنا بالقول عنه فى عين زبيدة فنقول :

إذا قيست الآثار بما تنال على الدهر من خلود، وما ينال الناس منها من دفع غائلة، وتنفيس ضائقة، فكل عمل دون ذلك العمل الجليل، مهين ضئيل

وليس جلال الاثر أن تذهب به فى أقطار السماء، وتريق على جنباته دماء الضعفاء، ثم لا يكون للناس منه إلا أنه جبل يسامى الجبل الأشم، والغراب الأعصم فان ذلك سمة من سمات الظلم، ونزعة من نزعات الاستبداد، ولعمرى ان كوخا

(١) الفخري ص ٢٩٥

من هشيم الكلأ لامرأة ضعيفة معوزة ،أفضل وأعظم فى شرعة الانصاف منه لذلك كانت عين زبيده أثراً صالحاً تفنى دونه الآثار وتتحطم المعالم

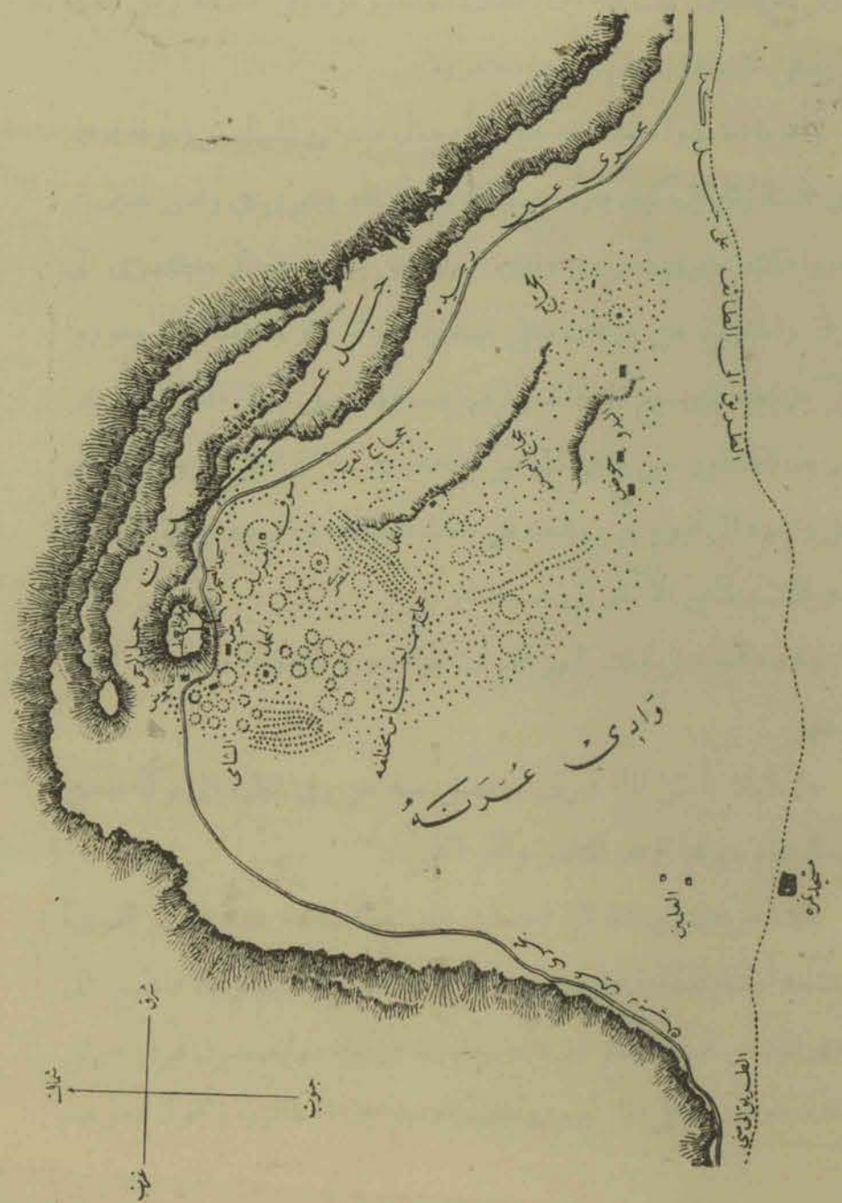
لم يكن لاهل مكة من المناهل الا المَسَايل التى يجودها المطر أحياناً، وبعض البئار التى تفيض آناً وتجف آناً. فان جفاهم الغيث عاما فالويل لهم ولكل راغية وثاغية عندهم

أما الحجاج فكانوا يحتملون من قرب الماء مايؤودهم ويوقر ظهورهم. ولقد أخذ بقلب زبيدة العظيم ماعلمت فى حجها أن راوية الماء تباع بدينار[1] وأن الفقير انما يَتَبلغ بما يتساقط من قطرات الغَنِيّ فاعتزمت روّى الله بدنها أن تحفر لآل مكة ولقصاد البيت الحرام نهراً جاريا يتصل بمنابع الماء ومساقط المطر بالغة من بعد الشقة ووعورة الطريق ما بلغت

ولم يَسنح بخاطر أحد منذ عهد اسماعيل صلوات الله عليه حتى عهد زبيدة مثل ذلك الخاطر الوثاب - خاطر اجراء نهر بين شعاب مكة، بل ولم يتمنّه تمنياً لأنه أبعد من حد التمنى . أما زبيدة التى تحتكم على خراج الدولة الاسلامية والتى لها من مالها وجواهرها مالا تفى به الارقام ، ولا تحيط به الاوهام ، والتى فاض حنانها ، وثارت عاطفتها ، الى حد لايُدفع ولا يرد — فقد اعتزمت أن تجرى ذلك النهر ولو كان سبيله دجلة والفرات

هنالك دَعَت خازن أموالها وأمرته أن يدعو العُرَفاء والمهندسين والعمال من أطراف الأرض وأقاصى البلاد ! فعَظَّم خازنها الأمر وما يُستَنفَدُ من المال فيه فقالت زبيدة تلك الكلمة الخالدة « اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا » فلم يكن بعد ذلك الا أن يراض العمل على اعتسافه، فسيق الى مكة أهل

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٧ والراوية القربة الصغيرة



الكفاية من كل مهندس ناقد وعامل عتيد ،فأخذوا يصلون بين منابع الماء فى شعفات الجبال، ويظاهرون ذلك بما يحتفرون من الآبار ، وما يُعْمِقُون من المسايل ،ثم يغلغلون ذلك كله بين أعطاف الصخور تارة وفى اعماق الأرض طوراً حتى ينتهى ذلك كله الى النهر الذى احتفروه

وأهم ما اعتمدوا عليه عين حنين فى جبال طاد الى الشمال من (عَرَفَة) وعلى مدى خمسة وثلاثين كيلو متراً من مكة أعزها الله وتجرى فى وادى حنين ثم ظاهروا ذلك بمجرى آخر من وادى النعمان من مسايل جبال كسرى الى الشرق والجنوب من عرفات وعلى مدى عشرة كيلو مترات منها وعززوا المَجْرَيَيْن بعد ذلك بسبع أقنية تتبعوا فيها مساقط السيل فسار ذلك كله فى ممر عظيم بين الصخور حتى ينتهى الى منى فينحدر فى خزان عميق نقروه لذلك فى الجبل وسموه الى اليوم بئر زبيدة. ومن هناك يسير الماء فى فرعين يذهب أحدهما الى عرفات وينتهى الآخر الى مسجد نمرة

ولهذه العين بل لذلك النهر الفرات مَوَادِع فى اعماق أرض مكة يخزن الماء فيها

ولكيلا يأسَنَ الماء صرف ما فضل منه عن رى الظماء الى بركة ماجِن بالمسفلة فقام حولها الزهر الناضر والثمر الجَنِيّ

تلك هى عين زبيدة التى احتملت ماء الحياة سائغة هنية الى أم القرى، الى مُتَّجه أبصار المسلمين، ومعتصم أقطارهم، ومناط وحدتهم، وقبلة جماعتهم، الى الوادى المقدس الذى يجتمع فيه ضيوف الله فى بيته ، ويصعدون فوق مرتقى رحمته ،تهفو مآزرهم على مناكبهم، وتَجِفُ قلوبهم بين أعطافهم، وتجول دموعهم

فى مآقيهم ، وهم يهتفون بصوت واحد ينبعث من قلب واحد «لبيك اللهم لبيك » فان أظمأتهم مواقفهم فمن ذلك المنهل الطاهر المطهر نُهلَةُ ريقهم، ونقيع زفراتهم وَبِلاَل أكبادهم

ذلك أثر المرأة التى تركت هُجَنَاء الرجال فى أودية الضلال يجدبهم الدهر وهم عنه لاهون ، ويشتد بهم الأمر وهم فى غيهم يعمهون

تلك هى النفوس التى صاغها الله من روحه ، وروَّاها من رحمته واصطنعها لاذاعة خُلقه ، وهيأها لتزكية خَلْقِهِ ، وابتعثها غُرَّةً فى جبين الزمان وَأَمنَةً من كيد الحدثان

سلام على تلك الخلائق أنها مسلمة من كل عار ومأثم

فهرست

الجزء الثانى

من كتاب

المرأة العربية

فى جاهليتها وأسلامها

٣ تقديم الكتاب
الى حضرة صاحبة الجلالة
ملكة مصر

المرأة العربية
فى زهو الاسلام

٥ — ١٢ تمهيد — المرأة والدين
أسباب ونتائج : — أثر الدين فى المرأة والرجل — أثر الدين فى تربية البنات — حديث مربية فرنسية

الفصل الأول

١٥ — ٣٩ المرأة العربية
بين العهدين

١٣ الوليدة المسلمة : — عود الى حديث الوأد — قيس بن عاصم بين يدي رسول الله — حب النبى لبناته وبنات صحابته — رعايته لهن — رفع الجهاد والزكاة عن ذوى البنات — احتفاظ الله بذرية نبيه فى فاطمة بنت رسول الله — تقديم الأناث على الذكور فى قوله جل شأنه (يهب لمن يشاء أناثا ويهب لمن يشاء الذكور)

٢١ فوارق النساء : — تمزيق الفوارق بين النساء — شريفة من قريش تسرق فتقطع يدها — كيف غضب رسول الله لجارية لطمها سيدها — رسول الله ومربيته أم أيمن — شرف المرأة أدبها ودينها — عمر بن الخطاب يزوج ابنته من ابنة احدي البائعات

٢٦ بوائق الغيرة : — جنون العرب بالغيرة — الرتم — القذف — الاحتكام الى الكهان والكواهن — الغيرة المشروعة — أقوال رسول الله فى الغيرة حقها وباطلها — قول معاوية بن أبى سفيان وشعر مسكين الدزمى فى الغيرة

٣٢ — السبّاء : — السباء فى الجاهلية — تحريمه فى الاسلام — حديث خالد بن الوليد ومالك بن نويرة — الرق فى الاسلام — تحرير الرقاب — حياطة الاسلام للخدم والارقاء

٣٣ — توريث البنات : — العرب لا يدعون المرأة ترث — رأيهم فى ذلك — توريث النساء في الاسلام — رسول الله وسعد بن أبى وقاص

الفصل الثانى

٤٠ — ٨٥ حقوق المرأة فى الاسلام

٤٠ - هى والرجل : — المرأة والرجل بين يدى الاسلام — تكافؤهما فى الدنيا والآخرة — خطيبة النساء بين يدى رسول الله — النساء فى حضرة النبى — ترفقه صلى الله عليه وسلم بهن فى القول والتشريع — النبى فى بيته — على فى بيته — المرأة تحت ظلال السيوف — الآسيات من صواحب رسول الله — صدور الرجال عن رأى النساء — الحجاج وأم البنين بنت عبد العزيز — فضل المرأة على الرجل

٥٠ — كرامة المرأة المسلمة : — كرامتها فى ذاتها كرامتها فى سيرتها — شفاعة المرأة فيمن كتب عليهم القتل — أم هانئ وعلى بن أبي طالب — زينب بنت رسول الله وزوجها قذف المرأة المسلمة — القذف أكبر الجرائم — حديث الافك — جناية القاذفين على الامم — متمنية المدينة وعمر بن الخطاب — رجال قريش ونساؤهم قبل الاسلام وبعده — رجال المدينة ونساؤهم — فتيان الحبشة يلعبون ويرقصون بمرأى من رسول الله وزوجه — الغناء فى الاسلام

٥٩ — حريتها وحرمة رأيها : — المرأة وكتاب الفرنج (حرية الزواج) - أم هانيء ورسول الله — أم سلمة ورسول الله — النبى يفصم زواجا أكرهت المرأة عليه — الحجاج وأم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر - سنن العرب فى الزواج وماغيره الاسلام

منها – رأى ابن شبرمة فى زواج القاصر – أمر الله ورسوله بمحاسنة النساء – ضرب النساء – (تعدد الزوجات) – رأى المؤلف فى تعدد الزوجات – رأى جوستاف لوبون فى تعدد الزوجات – (الطلاق فى الاسلام) - قيود الطلاق – التحكيم العدة – حد المطلقه على زوجها – الطلاق فى الكتاب والسنة - دقة النظام الاسلامى فى الزواج والطلاق – (حريتها العامة) – المرأة المسلمة بين الرجال – الحجاب - نساء النبى - أسماء بنت النعمان – المرأة المسلمة فى المحافل والمشاهد – النقاب – توجل المرأة

الفصل الثالث

٨٥ – ١٨٥

أثر الاسلام فى المرأة العربية

٨٥ – تأثرها بالاسلام : – أسباب و نتائج - خديجة بنت خويلد – المستضعفات احتمالهن الأذى - النساء يحتملن مالم يحتمل الرجال – ثبات المرأة المسلمة فى أدوار عظمتها – صواحب على بين يدى معاوية - نساء الخوارج وبنو أمية – تأثر المرأة بأدب الاسلام – الصبر – عود الى بيعة النساء – الخنساء فى الجاهلية والاسلام – جزعها على أخويها فى الجاهلية – صبرها على أبنائها فى الاسلام – أم سليم بنت ملحان وزوجها – أجر الصابرات – حداد المرأة العربية فى الجاهلية والاسلام – استلال الأحقاد من قلب المرأة – دعوة الجاهلية – هند بنت عتبة ورسول الله – الاسلام يمحق عادات الجاهلية – المرأة المسلمة والصدقة – ما فعله المسلمات بعد نزول آية الصدقة – عائشة – زينب – سكينة – صدقات الرجال والنساء فى الاسلام – المرأة المسلمة والوفاء – نائلة وعثمان – هدبة بن الخشرم وامرأته – مصابرة النساء للرجال – فاطمة وعلى بين يدى رسول الله – المرأة المسلمة بعد زوجها – أسماء بنت عميس وجعفر وأبو بكر وعلى – المرأة المسلمة لم تترك للرجل فضيلة يفخربها - شجاعة المرأة المسلمة – الابطال من النساء – نسيبة بنت كعب – صفية بنت عبد المطلب – خولة بنت الازور – غزالة الحرورية – ليلى بنت طريف

الفصل الرابع

١٢٣ –

تأثير المرأة العربية فى نهضة الاسلام

تأثيرها فى الحوادث : - حديث النبوة – خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت أسد – الهجرة – رقيقة بنت صيفى وأسماء بنت أبي بكر – المهاجرات الى الحبشة عمر بن الخطاب وأسماء بنت عميس – امرأتان تعاهدان رسول الله وتبايعانه – الخلافة الاسلامية أو (المرأة المسلمة بين الحرب والسياسة) – فاطمة وأبو بكر – عائشة وعثمان – عائشة وعلى – نائلة وعلى – النساء فى أزر على – الشيعة من النساء الجماعات السرية فى العراق – هند بنت زيد وحجر بن عدى – المتآمرات على الخلافة الأموية – بيت هند بنت المتكلفة – بيت ليلى بنت قمامة - ثارات الحسين – النساء فى أزر المختار – عمرة امرأة المختار ومصعب بن الزبير – أم سلمة والسفاح – قيام الخلافة العباسية - النساء فى جيش الخوارج – من هم الخوارج – أم حكيم وقطرى بين الفجاءة – شبيب بن يزيد وزوجه وأمه – ليلى بنت طريف

١٥٠ – أثرها فى تكوين الرجال أو (الأم العربية المسلمة) : – سر نهضة العرب – لنكولن رئيس الجمهورية الامريكية والمرأة الحديثة – اعتراف العرب بأنهم أثر النساء – الهجناء ورأى العرب فيهم عقيل بن علفة وعبد الملك – هشام بن عبد الملك وزيد بن على – سليمان ومسلمة ابنا عبد الملك – منزلة الام من ابنها – الام العربية امرأة مقدسة – صفية والزبير – مقارنة بين الأمهات والآباء – عبد الله بن الزبير وأمه – عبد الله بن الزبير وأبوه – أبناء النابهات من النساء – أبناء النابهين من الرجال – مقارنة بين الفريقين

١٦٥ – أثرها فى العلم والادب : – المرأة المسلمة آمن على العلم من الرجل – صدق الرواية – رأى الحافظ بن حجر فى العلماء والعالمات – الحافظ بن عساكر يتلقى الحديث على بضع وثمانين امرأة – المرأة والحديث – عائشة – نيف وسبعمائة محدثة يروين عن رسول الله – عائشة وأبو هريرة – المرأة فى اللغة والادب والتاريخ

خانه
ای علی
۱۳۱

وعلم الكوكب — عائشة بنت أبى بكر وتاريخ الحبشة — عائشة بنت طلحة والادب وعلم النجوم — المرأة فى رواية الشعر — اتساع مداها وحسن بديهتها — الفتاة العامرية والشعر — مثوبة النساء للشعراء — بيوت النساء — أندية الشعر والأدب سكينة بنت الحسين — عائشة بنت طلحة — عمرة الجحيه — عاتكة بنت يزيد — مقارنة بين معونة النساء ومعونة الرجال للشعراء — شريفة عربيه تهب نفسها لشاعر أسود — الشعراء والشواعر — النساء فى النهضة العلمية الاسلامية — المرأة المسلمة والطب — أخت الحفيد وابنتها — زينب طبيبة بنى أود — جوستاف لوبون والعالمات المسلمات

١٨٥ — اثارة من قولها : — نثار من النثر — حفيدة رسول الله تفحم أهل العراق — بين الوفاء للرأى والمضاء فيه — صواحب على بين يدى معاوية — سودة بنت عمارة — أم الخير بنت الحريش — الزرقاء بنت عدى — بكارة الهلالية — عكرشة بنت الأطروش — جروة بنت غالب — الكلمات الخالدة — قوة الحجة وحسن البيان — فاطمة أم جعفر والرشيد — بين القبور — بين الرجاء والدعاء — الكلم القصار

٢١٦ — عيون من الشعر : — الحنين الى الوطن — عهد الطفولة — فى البكاء — بكاء الابناء — بكاء الآباء — بكاء الاخوة — بكاء الازواج — التذمم من الازواج فى الاتقة والأباء

٢٢٨ — آخر صفحة من كتاب العظائم : — زبيدة بنت جعفر — الأمين والمأمون — رأي المؤلف فيهما — عين زبيدة — وصفها — أثرها

ملاحظة

أرجأنا الى الجزء الثالث من الكتاب وصف المرأة العربية المسلمة فى عامة حياتها ايثاراً لضم أطراف هذا الموضوع فى جزء واحد